النورسي
في رحاب القران

أ.د. عشراتي سليمان

جامعة وهران–الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

إســــــتـــهلالـــــة

رسائل النور كينونة فكرية وروحية متكاملة، استطاع النورسي العبقري أن يضمنها ماهيته على صعيد تجربة العمر في مختلف امتداداتها..

لقد استوعبت تلك الرسائل قطاعات حياته في أطوارها المتلاحقة، بحيـــث جـــاءت النصوص تحمل فكرا مقتطعا من ذاته .. فكر يرسو على عقلنة متميزة لم تفصله عـــن مغرسه الروحي والنفسي والإنساني الذي نشأ فيه..

لقد جاءت الرسائل تترجم حضورا حميما وملموسا للنورسي، بحيـــث عكســـت مضامينها الروحية والوجدانية خلجاته وانفعالاته واستبصاراته وحميته ومزاجه ورجاحته وتصميمه وبسالته..بصورة جلية ومن زاوايا رصد كثيرة..

لقد جمعت هذه الرسائل إلى رجاحتها الروحانية الوطيدة، الطابع الشفاف الـــذي يسم السيرة الذاتية ..

من هنا انتصبت رسائل النور، لا لتنوب عن واضعها في تأدية خطابه إلى العـــالمين، ولكنها جاءت لتثبت له الحضور الحيوي، ولتجعل صوته يرتفع، ليس من خلف تفاصيل مكتوبة، ولكنه صوت حي بنبرته المتحركة، وحرارته المنبجسة، من خلال ماهية معنوية، بل وحسية، متشخصة، لا نكاد نفتقد منها قطميرا..

حقا لقد أدرك النورسي الحكمة التي تجعل من غيبته وارتحالـــه إلى الرفيـــق الأعلـــى حضورا واقعيا يسترسل في الزمن..

كلا، إنها ليست فكرا محضا، ولا هي سيرة بحتة، ولكنها حياة وتأثير وديمومة واحتراق باهر لحدود العمر المقيدة بكتاب..

فالرسائل هي النورسي نفسه وهو يعيش نعمة الخلود..

وبما أن الرسائل هي جنود مجندة من الطلبة والتلاميذ الذين لا تفتأ تتسع بُقَعُهُمْ وتنتشر عبر آفاق الجغرافيا وأصقاعها المتباعدة، فلا جرم يكون النورسي قد استطاع – فعلا – أن ينفذ من خلال تفاريج الزمن، وأن يجايل الدفعات المتلاحقة من الشباب المسلم، وأن يعيش البقاء من موقع المسؤولية الريادية، والتحريض الشهم، والمقاتلة المعززة باليقين..

وربما قلنا إن شأن الرسائل هذا، هو شأن كل أثر إنساني قام على حد من الأصالة والمصداقية .. إذ لا تعدم الأجيال – في كل أمة – ذلك الوجه السحري الذي تنفثه العطاءات عندما ينتسجها أصحابها من خلايا أجسامهم.

والحقيقة أن الرسائل تجاوزت النطاق الشخصي أو الإيديولوجي الذي يؤسس وجاهته – في العادة – على قاعدة إبراز المناحي الذاتية التي تتثمن بها التجربة..

ومعلوم أن الظواهر والتجارب، هي في الأصل أفكار وعقائد تحولت من نطاق الحلم إلى إطار الواقع المعيش..

فالفكرة أو العقيدة قد تتحول من طابعها المعنوي، لتغدو ظاهرة أو حركة أو ثورة تعمل على تغيير الأوضاع الرميم واجتثاث الجذور الموات..

وهي من جهة أخرى قد تكون واقعا مضطرما، متحركا، ما يفتأ يفرز قواعده ومبادئه، بحيث تتحول –في المحصلة النهائية – تلك القواعد والمبادئ إلى أيديولوجية تتوهج إلى حين، لكن جمارها لا تلبث أن تخبو بفتور الحماسة ومُضِيِّ العقود ..

ولقد بدأت الرسائل واقعا مراسيا سياسيا واصلاحيا، ثم تحولت إلى فكرة، حين انسحب صاحبها ليرابط في صومعة القرآن، وليعيش عزلة إرادية كانت سبيله المفضل لمفاعلة ذلك الواقع المناهض لحركة التاريخ..

وكان مهيأ للرسائل في خضم ذلك التحول، أن تحدث الأثر المباشر والاستجابة الفورية – لو أنها انبرت لتحقيق برنامج اجتماعي أو سياسي على نحو ميداني نفعي –

لكن الرسائل شقت طريقها بعيدا عن المنفعة الشخصية والحسابات الذاتية .. إذ اختارت طريق المصالحة مع التاريخ..

لقد شاءت أن ترسي أسس مشروع حضاري لا يناط بهمة فرد أو جيل أو حقبة، ولكنه مشروع يسترسل في الزمن، ويمضي على هدي السماء، لا يتصادم مع طبيعة الارتقاء الذي جعله الله سنة الوجود، وخاصية انسانية يتأهل بها الكائن البشري لمهمة الاستخلاف..

وإن شاء الناس أن يجعلوا للنورسي مشهدا ومزارا، أو لنقل روضة يرتادونها لإحياء ذكراه – هو الذي غيب البغاة قبره، مخافة أن يضحى مثابة للانبعاث والحياة – فلا أزيد من أن يجلسوا إلى رسائله ليتمثل لهم حيا، راعدا، حليما، مستميتا في تأدية نضاله الروحي واعتكافه القلبي ومنازلته الحضارية، حمية للمسلمين وانتصارا للاسلام..

ولو أن النورسي شكل حزبا – بدل الرسائل – لعرت الحزب، حتما، أسباب الهرم والتفكك، ولظل مصيره مناطا بالتابعين ومن سيتداولون المقادة، ولبهتت وجاهته مهما كانت حظوظ نجاحه الأولى أو البعدية.. ولشاهت أو حالت صورة الزعيم وتقلصت مساحة اشعاعه برحيله .

فالأجيال لا تصمد على الثوابت إلا إذا كان لتلك الثوابت الخاصية الروحية المتعالية والمتسامية عن النظرة المرحلية الضيقة وعن رهانات النشأة الأولى..

لكن النورسي أصّل منزلة بقائية، لا ينوب فيها عنه ممثل.. منزلة أقامت دعائمها على الإيمان والإئتمار بأحكام الله، ومحاورة القرآن بخلوص، وتشكيل صورة الراهن والمستقبل بمنظار القرآن، فظفر بالأبدية وبالاستمرار في الحياة، وبالأجر والثواب في الآخرة..

لقد أعطى النورسي ترجمة مثلى لمفهوم المثقف العضوي.. إذ جعل مسافة بينه وبين الكم البشري الذين كان أمرهم يهمه.. ليكون بعيدا عن السير بمنطق المناورة والتودد والطمع في إقامة برجية الجاه الكاذبة..

لقد أعاد الترتيب إلى حظيرة العقل المسلم، وعمل بهمة ومصداقية على تجديد مرافقها الرثة، وأرسى من الأسباب الروحية ما يهيئها حقا لمعمار مدني مستقبلي قائم على التحدي ومجاوزة الذات المتهالكة..

لقد أيقظ الضمائر، وقطع خط الرجعة على البيئة الاسلامية لئلا تعاود سكونيتها الكهفية التي رانت عليها طيلة الآماد.. إذ هيأ الظروف لشبوب روحي، نوراني، متدرج، ولكنه وثيق، وعارم العواقب..

وفي هذا السياق بالذات تدخل قراءته لذلك المستوى الغيبي الوارد في المأثور الخبري الشرعي، إذ هو تثوير عقلي وإعادة استزراع مرَشَّدة للأرض بمغارس جديدة، متخلصة من ثقافة الزور..

فعنايته بذلك القطاع من التراث الديني، إنما تعكس رؤية كان مطمحها تقليب الأوضاع الرميمية، وتحريك السواكن، وغرس الآمال..

ومما لا شك فيه أن أخصب مرحلة إرهاصية لما بنى النورسي وشاد، كانت المرحلة السياسية التي طابقت في بعض تعييناتها هوية سعيد القديم، فخروجه عن المضمار السياسي لم يفض به إلى ارتياد ساحة العزاء والغبن، بل جعله يخرج عن دائرة المحايث التاريخي، ليعاين صفحة القابل والآتي.

لقد حشد الجهد العميم نحو بناء ورسم خريطة المستقبل. وتساوق ذلك المسعى الجبار عنده مع تباشير انبثقت في روحه ،حتى تهيأ له معها أن الإشراقة على الأبواب .

لقد استقرأ تباشير عدة، كانت حرارة الإيمان تجعله منها قاب قوسين أو أدنى..

ومن غير شك أن حديثه التنبئ عن قرب وحدة العرب، إنما كان صدى لتلك التهليلة التي كانت تفعمه وهو يكابد عناء واقع عبوس قمطرير.. أم أن ذلك كان منه ضربا من إملاء الرغبة والوحي للناس بما ينبغي أن يكونوا عليه؟.

إن ذلك الأمل – شأنه شأن آمال أخرى، طمح النورسي أن يلمسها وينحني شكرا لله على تحققها – لم يتحقق في التوقيت الذي قدره لها النورسي، ولكن حصولها أمر لا مناص منه ..

وكل ذلك لا يعني أن ما حلم به النورسي لم يكن إلا فورة احتدام شعوري لوحت أمامه بسراب كاذب ولا شيء غير ذلك..

ذلك لأن النورسي كان في تنبؤاته وتقديراته المستقبلية يستلهم النتائج والصيرورات من منطق كوني وقدري سطره الخالق القدير، وكفل له من الأسباب ما يجعل التكذيب به هو عين السفاهة ..

لقد جعل من منهج الاستضاءة وقراءة الواقع تحت ذبالة الأخبار والوقـــائع الغيبيـــة المأثورة ،سبيلا إلى الإعتراض على مجريات الردة التي عاشها المجتمع في عصره وهـــب النورسي يطفئ بوائقها ..

فإسقاط الفحوى الخبري على وقائع عصره كان وسيلة مثلى في وصم الارتكاسات بشنيع الإدانة .. فضلا عن أن ذلك كان أسلوبا مفيدا على صعيد إستحداث تعليميـــة فاعلة ومكونة..

لقد كان يدشن صرح معرفة حيوية سلخت عنها – وإلى الأبد– ثـــوب الخرافـــة، واسترجعت حلتها العقلية البهية المنسجمة مع بهاء الاسلام..

إن ذلك اللون من التثمير المعرفي كان يشكل بحق آلية تعليمية وتثويرية وتحسيســـية فعالة في يده.. قربت الأجيال إلى الواقع وإلى تثمين العلم، بعد أن كانت ثقافة الانحدار تغيبهم وتركنهم خارج التاريخ..

فضلا عن أن مسعاه في ما تأول به كثيرا من المسائل النصية، إنما كان تَحْيـــــِينياً. فعمله لم يكن برجيا تهويميا، ولكنه كان من الجسامة بما لا يتصور..

لقد كان الرهان معقودا على مطمح صياغة الانسان المسلم الجديد.. وإخراجه من الحضيض..

فحتى المرفق الصوفي حلحلته تعاليم النورسي حين أنصفته فجعلته مثابة وشاهدا على قدرة الروح المسلمة في التنظيم والترابط وإدارة الواقع بالوسائل البسيطة والمتوفرة..

إنه ضرب من العقلنة العملية التي كان النورسي – من خلال مواقف التقويم – يوعز للأمة أن تأخذ بها منهجا في حياتها.. وفي مقابل هذا التنويه، راح يجرد المنحى التصوفي من القدرة على إحداث الانبعاث العصري، وإن نوّه بمردوديته في مضـــمار المحافظـــة وضمان البقاء..

وكانت قراءته لفكرة المهدي على حصافة لا تمارى، إذ ربطها بالتجدد الحاصل للأمة على يد الأفراد من جهة، وأناط هذا التجدد بالجماعات من جهة ثانية، مستبقيا الصون للخبر، مصدقا به على أكمل ما يكون التصديق..

وإنه لرشاد أن تتجدد المفاهيم والقناعات التي ظلت تقعد بالأمة وتشدها إلى واقــع الاستكانة والترقب، فتأخذ هذا الوجه الإدراكي الذي يدخل الأمة في غمار عملية الوعي بالذات ومواجهة التبعات..

لقد اكتسب المهدي في فكر النورسي هذه الفاعلية البناءة التي ينهض بهـا الأفــراد، وتنهض بها – على وجه الخصوص – الجماعات، في اصلاح ما بها، انسياقا مع القانون القرآني الحازم في وعده :

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم).

وبعد فما عسانا نقول ونحن بصدد الدلوف إلى رحــاب مــن التقــوى والحميــة والإخلاص، جسدتها هذه الشخصية المسلمة التي كتب الله لها أن تعيش عمرا مديدا من العزلة والتمحيص والامتحان، ليكون لها بعد التحاقها بباريها، ربيع أخضل من الــذيوع والشهرة والإكبار.. إنه الإمام بديع الزمان سعيد النورسي .

(ربنا لا تواخذنا إن نسينا أو اخطأنا. ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين)

صدق الله العظيم.

وهران، في سحر الأربعاء ٥ ماي ١٩٩٩

أ. د. عشراتي سليمان أبوحفص.

الفصل الأول

سبْرٌ لثنايا رحلة العمر والجهاد

قراءة أولى في هوامش من حياة النورسي

لا جرم أن هناك آصرة عميقة تربط بين حياة النورسي وسيرته وهويته، وبين مـــادة القرآن العظيم ومضامينه وروحيته.. فالتساوق قائم بين الكينونتين على أكثر من صعيد، وما ذلك إلا لأن روح النورسي قد تقولبت منذ الميعة – بل منذ لحظة التخلق الرحمـــي الأولى، بالنظر إلى جو الروحانية العائلي الذي شهد ميلاده – في مصهر القرآن وعلـــى وهج تعاليمه البينات..

فإذا كان من دَأَبِ القرآن العظيم أن يُجَنِّحَ بخطابه بعيدا، ويمسح الآفاق القصـــوى، ويفلت منها كانفلاتِ البرق في صفحة السماء المطيرة، ليرتد مؤديا أعمق التجســـيدات الكشفية والأدائية بأرشق لفتة، وأرقِّ دفقة، يودعها من الحقائق المكتنـــزة ما يجعل العقل الإنساني يذهل من شمولية البسطة القرآنية الواحدة، فضلا عن استرسالاته التي تحوز بين أشرعتها عوالم من النظر والتلقينات ما لا تفي به — في الموقف الواحـــد– الصـــحائف المستفيضة.

فكذلك كانت حال تجربة النورسي الحياتية، لقد شقت طريقها منذ البدء شقا برقيا، إذ أنها صعَّدَتْ تطوي الأفق في حركة جارفة، ملؤُها تَحَـــدٍّ روحي ســـافر..لا تكـــاد تمضي على ماثل من الأفكار يتهاوى إلا دحرجته من طريقها، ولا شـــارفت وضـــعا روحيا متهالكا إلا قوَّمته، ولا وقع نظرها على مشهد سلوكي نشاز إلا عدَّلته.. وتلك

هي طبيعة الفذاذات الأصيلة، إذ حالها كحال الثـورات تخلخـل السـواكن، وتهـز الهشاشات، وتجتث الجذوع النواخر..

لقد أرسى القرآن العظيم ثورته التوصيلية على دعائم من الإفضاء غير معهـودة، إذ راوح في ملحمة الأداء التبليغي بين المواقف، فأسلس الدعوة وهمـس بالسـر، وأومـأ بالحجة، وفاه بالدليل، وإلى ذلك ناجى وتودد يقرب إليه القلوب، وناشد للانصياع إلى مقاصده بالحسنى، وأسَّى وتأسى، و جاهر بالحق، ونادى بالحقيقة، وصاح بالبينة، وقرع بالذكرى، وصاول وطاول، وجادل وأفحم، ثم أجهز وأنجز..

وذات السبيل سلكه النورسي تقريبا في حياته وفي صلته بالناس، فقد تعاقبت عليـه أطوار شتى اقتضت منه أن يتحلى لكل طور منها بألوان من البيان المعرفي والمسـلكي ، خلوصا إلى نتيجة مبدئية تنسجم مع ما يسكن بواطنه من حوافز إيمانية ودوافع إصلاحية كان القدر منذ المنطلق يوقفه عليها .. لقد كانت سيرة النورسي مزيجا من مواقف الشدة واللين ،الدماثة والانقباض، الشد والإرخاء، التماسك والاندفاع، العقل والعاطفة– وهذه الأحوال– وإن كانت من طبيعة الإنسان كلية ومن جبلته إلا أنها أخذت عند النورسـي طابعا روحيا ومسلكيا نضيجا، خرج بها عـن إطـار الاسـتجابات وردود الفعـل الانعكاسية، ليضحى منهج حياة وفلسفة وجود تواجه المواقـف والطـوارئ بـوعي موصول – على أعمق ما تكون الصلة – بالدستور الروحي الذي تفتحت عليه جـوانح النورسي وملكاته : القرآن العظيم الذي شكل آليات الاستجابة والكـف عنـد هـذا الإنسان الصالح، وبلور أفعاله، وصبغها بصبغة روحانية عميقة لا تستدرجها التفريعات الجانبية أو الانشغالات الهامشية التي لا تمس صـلب الحيـاة، ولا تـرتبط بهيكلهـا في الصميم..

لقد راوحت حياة النورسي بين السرية والسفور، بين السياسة والتعليم، بين المحفلية والانعزال، بين السجن والتحرر، بين المدنية والعسكرية، بين التحضر والفطرية، بـين الروحي والعقلي.. و لم يكن في هذا كله في وضع الفصامية ،ولا استهواه حال تمثيـل الأدوار واختطاف الأضواء شأن المتهافتين ومن لا تحدوهم عقيدة وجودية يراهنون مـن أجل اِرساء دعائمها بأرواحهم. بل لقد تكاملت لديه طبيعة تُمازِجُ بصرامة ووعـي – في صنع رؤاها وقناعاتها – بين المقومات الأخلاقية والوجدانية، فكان من ثمة ظهور ذلك

النموذج الفكري والروحي المستميت الذي كانت له قدرة خارقة على الصمود وتسديد الضربات..

لقد تميزت هذه الشخصية بتصاعد حميتها القتالية على الدوام، وقد انتهى بها ذلك التصعيد إلى حد اشهار الحرب على أشرس الجحافل وأكثرها ضراوة، من معسكر الردة، وأعداء الملة..

لقد دفعت بهذا الرجل الفذ ظروف التاريخ والجغرافيا – بحكم انتمائه إلى بلد كان يعقد على رأسه راية الأمة الإسلامية – إلى أن يبارز كتائب الغرب المحتل، وأن يخرج فردا إلى الساحة، يحمل سيف البسالة الدينية والتحميس، في وقت كانت سنابك خيل العدو تقدح شررا، وتدنس شوارع الحاضرة الاسلامية اسطنبول، على إثر انهزام الدولة العثماية في الحرب الكونية الأولى..

لقد ارتفع يومها صوت النورسي متمزقا بالحسرة والحمية يخترق الأسماع، يعيد إليها الوعي والأنفة، بعد أن أذهلتها النكبة، وكبلها الخذلان..

واضطرته الأقدار إلى أن يتصدى للسفياني وجها لوجه، وأن يرفع عقيرته بالاعتراض والإدانة لأعمال الحيدة والارتكاس عن الدين التي باشرتها طغمة المرتدين، وأن يبادل المرتدين اللكمة لكمتين عن كل خطوة يخطونها على طريق الانحراف الملي..

لقد ولد النورسي في تربة تهيئه مؤهلاتها الثقافية والمعنوية لأن يكون معلِّمَ كتاتيب، أو لأن يضحى ربما – وبشيء من الحظ – مريد طريقة يردد في الحلقة راتب الأوراد والأذكار، أو هو خُلِقَ ليعيش– في أقصى حالات التوفيق – ليضحى وجها ضمن نخبة مجتثة عن ريفيتها، يتقلب في الحاضرة التركية، تتداوله أهواء الساسة والأحزاب، متأرجحا بين فترات الزهو والانتصار حينا، وفترات المرارة والاندحار أحيانا، لينتهي به المسار جفافةً عَرَكَتْهَا الأرجل و ألْحَسَتْها كل أقذار العتبات..

لكن النورسي لم يسلك هذا السبيل، أو أنَّ قَدَرَهُ – على الأصح – اختار له غير ذلك السبيل، ليجعله– ليس فقط – مَعْلَما شامخا في تاريخ الفكر الحديث، ولكن لِيُسَخِّرَ منه محطة توليد روحية، دائمة التفعيل، ذاتية التعبئة، لأنها تعمل بإشعاع رباني لا يخبو، اشعاع القرآن العظيم..

لقد رادفت العبادة عنده معنى القتال. فقد أيقن منذ البدء أن النفس بركان يعتلج بكل ألوان النسف المُرْدِية، لذلك تعهدها برعاية لا تغفل، ولقد كان له في اختياره

للنماذج الصالحة من السلف التي شاء أن يتخذ منهم قدوته ومثاله ما يؤكد الإرادة الجذرية التي امتلكها وقرر أن يضبط بها سيرته، لقد كان الشيخان الكيلاني والرباني من أقرب المعالم الصالحة إلى نفسه، ولا بدع أن نجده يعترف أن مطالعاته لتراثيهما كان من أهم الأسباب التي حددت الوجهة الروحية لمساره..

وإذا ما شئنا أن نلتمس بعض المؤثرات التي كانت للمنشإ الأسروي على سيرته، فلا شك سنجد أن جو التصوف – الذي كانت الأسرة تعيشه – يعد واحدا من أهم أسباب ذلك التوجه الذي أخذته روحيته.. إن جو الانصياع والصمت والإشتغال القلبي الذي كان يستغرق الأبوين، لا سيما الأم، فضلا عن الملابسة الوجدانية التي كان يستشعرها الصبي من خلال ملازمته لحفظ القرآن وتكراره، وقابلية تَمَثُّلِ خلُقية ذلك النص الرباني القدسي في حركاته وسكناته – على عادة الأطفال في نزوعهم إلى تقمص صفات التسامي والطهر بكامل البراءة والانخراط .. إن من شأن ذلك جميعا أن يصقل في النفس صفة الاستقامة والصلابة التي تميز الإنسان الذي يتلقى العقيدة عن تنشئة وعن ارتضاع باكر للقيم الروحية.. وهو ما كانت تجسده سيرة النورسي ليس فقط في مراحل نضجها واكتهالها، ولكن، وبصورة أصرح، في مراحل الفتوة والشباب أيضا، الأمر الذي أعطى لحياته في كافة أطوارها، تلك الشمائل التي ظلت قاسما مشتركا بين مراحل بناء شخصيته جميعا، شمائل قامت على قاعدة التمسك بالإيمان وجعله معيارا تتقرر به علاقة النفس مع الدوائر والمحيط ، بل ومع الوجود ذاته..

اليقظة أس قتاليته

ولقد كانت يقظته الوطيدة مظهرا قتاليا تجنيديا لا غبار عليه. ذلك لأنه شب صافي النظرة، بيده كشاف قرآني يعاين الحقائق من خلال نوره البهيج، ويرصدها واضحة الأوصاف والنعوت، ويسمى الأشياء بأسمائها فلا يقول للأسود أبيض ولا للأبيض أسود، ويُقَوِّمُ المعطيات بكفايتها، دونما بخس أو تهويل.. وتلك خصيصة تحيل على براءة المغرس وبقاء الروح محتفظة بلحائها الفطري، مما كان له أبلغ الآثر على عقلية النورسي وروحيته، إذ برئت بواطنه من الخدوش والندوب، فخلت نفسيته من العقد، وعاش التلقائية بحكمة تتلقى استنارتها من استعداد الفطرة المصونة، ومن توقد روح مهيأة للتفتح على الكمال والشمولية، ومن قابلية حبلى بمقدرات قريحية خام، تؤهله لأن يدشن الفذاذة على أكثر من صعيد ..

ولا بدع أن يكون النورسي على هذا الحظ من اليقظة، ذلك لأنه ثـــوري بـــالطبع وبالمشيئة، أو كان ثوريا بالقوة والفعل كما يقول المناطقة، الأمر الذي كفل له أن يكون على ذلك المستوى من الرهافة الوجدانية والحصافة العقلية والقوامة النفسية والذهنية مـــا جعل مواقفه وأفعاله تتسم – منذ الطفولة – بسمة المسؤولية والتحدي، وتلـــك حـــال تلازم أهل الشأن لا سيما إذا كانت نزوعاتهم متعلقة بمُثُل الخير والفضيلة والصلاح كما هي حال النورسي رحمه الله..

وإذا ما أردنا استكناه مقومات منـــزع اليقظة بوصفها سلوكا يميز – لـــيس فقـــط الثوار وأهل البلاء السياسي والاجتماعي والفكري – ولكن يشمل أيضا عباقرة الفـــن وأصحاب الأرواح الحبلى بالإبداع .. فسنرى أن طاقة الروح حين تستفيض على النفس وتغمر الملكات والقابليات بأنوارها فإن بصيرة الانسان سرعان ما تترامي وتحتد وتلقي بوهجها عبر أقطار الدائرة جملة ..ولذلك فإن النابغة يجد تلـــك القـــدرة الحدســـية والاستشرافية الفائضة من أعماقه تشع وتنتشر على الفضاء مِنْ حواليه، وتهيئ له نطاقا من الوعي والحضور بحيث يغدو الفرد على صلة حيوية ليس فقط مع المحـــيط الضـــيق الذي يتحرك فيه، ولكن أيضا مع أبعاد تخترق الزمان والمكان ليعيش مخاضات عصـــره، وليرهص لتحولات آجلة يكون له فيها إسهام فعلي على نحو أو آخر..

لقد تجسدت يقظة النورسي في العراكات الفكرية والمعرفية التي خاضها منذ نعومته، وظهرت في مجانبته للاختلاط الحميم بالغير حتى حين كان طفـــلا، وتجلـــت أيضـــا في حربيته، وفي رهافة توقعاته وسرعة تجاوزه للإشكالات والانسدادات سواء السياســـية منها أو الفكرية أو حتى العقائدية، وذلك بما أوتي من قدرة على لقط الحقيقة ومبادهتها، وتحصيلها على الفور الحدسي الذي أوتيه أهل الأرواح والجلوات..

ومما لا شك فيه أن النورسي لو اقتحم بقريحته مجال الفن المحـــض والإبـــداع الأدبي لكان له شأن، وهو ما تنم عنه عروض سردية قصصية المنحى زخرت بها رسائله.. بـــل إن حفوله الخيالي المشبوب ليتبدى في هذا الجنوح الثابت إلى الإعراب التصويري القـــائم على التمثيل وضرب الشواهد، وعلى المحاورة وبناء المواقف.. وفي ذلك إعـــراب عـــن أدبية كامنة، صُرِفَتْ عن نطاقها العرفي المحض، لتستثمر أروع ما يكون الاســـتثمار في حقل الدعوة إلى الله وإرساء دعائم التوحيد..الأمر الذي جعل رسائل النور تتصف بكل الخصائص الفنية التي تجعل منها – على صعيد الأدبية – لوحات ابداعية، فائقة الشعرية..

ومما لا ريب فيه أن اليقظة .. يقظة الروح والمواجد، تأخذ مظاهر عدة في سلوك الانسان، وتتجسد على صورة سجايا كثيرة، من حيث تحولها في النفس – بالاستحكام والتوطن – إلى مهارة تلقائية، بل إلى حكم نزوعي يفاعل به الانسان الوقائع، ويقدر نتائجها بذات البداهة التي يتلقاها بها، وهو ما يجعل من اليقظة الروحية رديفا للحس السليم وللتمييز الحدسي السديد.. وما ذلك إلا لأن اليقظة الروحية تضحى عند أهل التقوى بصيرة ترى بنور الله ..

وفي ما يخص حياة النورسي، فلقد تجلت تلك السجايا وبصورة عملية ميدانية، وعلى مدى أطوار من سيرته، لا سيما في الجانب العراكي العنيف من تلك المسيرة، إذ استحال النورسي بها – زمن الحرب – فدائيا يقود سراياه وينزل الضربات القاتلة على الأعداء مباغتة ومن حيث لا يشعرون.. إن اختيار أسلوب الكمين والتكتم ليعكس روح الإقتصاد والتسديد، والضرب في الصميم التي ميزته – ليس في حياته الحربية وحدها– ولكن في حياته الاجتماعية أو المدنية كذلك..

وإنه ليسوغ لنا أن نسجل هذا الأفق الذي تتسع له دائرة البحث في حياة النورسي، وفي سيكولوجيته ،والذي يجسده منهجه العملي وأسلوبه الميداني .. لقد امتلك النورسي روح النفاذ، من حيث امتلاكه لنفسية تتحلى باليقظة التي لا تترك للطوارئ إلا ذلك الهامش القدري الذي لا دافع له كما يؤمن النورسي، وهو ما يسوغ تجنده المستمر، وأهبته الدائمة، واستنفاره غير المنقطع.. وكل ذلك عاشه ليس فقط على صعيد الروح التي ظلت آخذة بمبدأ الإيمان المقرون بالعمل الصالح والدائب، ولكن على صعيد الفعل والأمر الواقع الذي انخرطت فيه حياته كلية، ومنذ عهد الصبا.

إننا نجد حوادث كثيرة – تعد من صميم المغامرة – قد عاشها النورسي وتمرس بها وخرج منها على أكمل ما يكون قوة وصلابة، غير أنه لم يتخذ منها شواهد لعز شخصي أو مجد ذاتي، ولا جعلها خلفية إخبارية يومئ إليها كلما شاء أن يُذَكِّرَ بمَرصود عطائه لأمته وملته.. وكل ذلك يكشف طبيعة الانخراط التجندي الخالص الذي طفق يقتحم به المعارك الحاسمة، بدءا من واقعة تخندقه على خطوط اللهب الأولى حين دعاه الواجب الملي والوطني إلى الجهاد..

لقد ظلت ذكرياته الحربية، وما وقع له في الجبهة من أحوال الابتلاء، وما لحقه في الالتحامات من شدائد وإصابات، وما استتبع ذلك من وقوعه في قبضة العدو، وما عاشه

في الزنزانة من تجارب المنافحة الإيمانية وإظهار الأنفة وتحدي المخاطر، وما أسفرت عنه محنة الاعتقال من انعتاق أمكنه أن يفلت من الأسر وأن يشق آماد سيبيريا الثلجية مطاردا، مستترا، عائدا إلى جبهة القتال، ليستأنف دوره في المعركة التي لم تكن متكافئة، والتي كان يعرف أنها مصيرية، وأن مستقبل الأمة معلق بها وبما ستفرزه من نتائج على الصعيدين القومي والعالمي..

لقد ظل ذلك كله حبيس المواجد لا يكاد النورسي يومئ إليه إلا في معرض الترشيد والموعظة .. بل لقد أضحت تلك الذكريات مناط عاطفة مفعمة بالحمد والشكر والامتنان لربها بما هيأ وما أتاح لها من أسباب التوفيق والحماية .. ولم نلمس قط فيها أي وازع اعتدادي أو غروري يخرج الحدث عن نطاقه القدري المكين ..

بل إننا لم نعرف بعض تفاصيل تلك المرحلة إلا من خلال ما رواه بعض طلبة الإمام، مما يدل على أن النورسي لم يكن من الصنف الذي يعيش على مراجعة دفتره التجاري استنفادا لوطأة البطالة أو الإفلاس أو لدغدغة مشاعر الغرور التي تتضخم بها تفاهة النفس المنحطة..

وحين سيخلع بزة القتال- وإن كنت أجزم بأنه لم يرتدها يوما، لا لأنه كان يخل، طبيعة، بالأصول، ولكن لأنه كان أزهد في كل ما يمت إلى الشكل والشعار العرفي بصلة – سنجده يثب من خندقه مباشرة ليلتحق بصعيد متفجر آخر سيواصل منه قدره الكفاحي.. قدر كان أكثر مرارة وأكثر استماتة، لأنه سيجمعه بعدو من بني الملة، وبأحلاف تُبَيِّتُ الغدر والكيد للدين والحضارة في كنف وعي ملِّيٍّ عام، منعدم، أو لا يكاد يبين ..

لقد تحول النورسي من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، وكان عليه أن يستنفد أقصى الجهد في البلاء المصيري، وذلك بمواجهة مستويات عتيدة من الكفر والنكوص، وبمنازلة أبطال وطوام من العتو والجحود كان من جملتهم السفياني ..

وهكذا انخرط النورسي في المعركة السياسية – بلا تحفظ وبكل سفور – منذ تلك اللحظة التي بادر فيها إلى التصدي بحمية المقاتل الأصيل إلى ثورة الفرق المجندة والفصائل العسكرية المستوفزة.. لقد هيأت يومئذ الدوائر المتربصة بالأمة، المرجل المتفجر، وأشعلت فتيله في صفوف الجيش، وورطت القادة وفاقمت الوضع، وطمرت مفتاح الأزمة بحيث خلقت جوا خانقا من البلبلة كانت فيه كل الجهات تشعر بأنها عرضة للخطب

المجهول، دون أن يكون هناك طرف منها قادرا على أن يتصدى لإزالة الغموض وتبديد السدف السوداء المنذرة بالشر ..

لقد هيأت الدوائر المعادية للأمة، والمتربصة بالعثمانية، المناخ الملائم للإجهاز على الخلافة وتنضيد الأرضية التي ستنشأ عليها الدولة الجديدة .

ومعلوم أن الخلافة ظلت دائما – لا سيما زمن السلطان عبد الحميد الثاني – تعترض بقوة وقطع على تمرير البرنامج الصهيوني، سواء في خلخلة التماسك الاسلامي الذي كانت الخلافة تنهض به على كل حال، أو فيما يتعلق بمرامي تهجير يهود العالم إلى فلسطين..

في هذا الجو، وضمن هذه الترتيبات المُحْكَمَة والرهيبة، كان على النورسي أن يقتحم خطوط النار مرة أخرى، وأن يهُبَّ بذات التلقائية الرشيدة التي يكفلها الإيمان حين يتغلغل إلى أعماق النفس ويجعل من الحركة والسكون بوادر إلهية مناطة بإحداث ما ينبغي إحداثُه.. وهكذا نزل النورسي إلى الساحة، وواجه التمرد، وتصدى لثورة العسكر المتداعي من كل صوب، وتمكن بمصداقية الفعل والقول التي تأصلت له، وباندفاعة الأسد الهصور المؤمن بأنه إنما يحتسب لله ثواب تلك الفزعة المتخوفة على مستقبل أمة القرآن ..

لقد تمكن بكل ذلك البلاء من أن يوقف الفتنة، ويطفئ نار حرب أهلية كان الأعداء قد أعدوا وقودها.. لقد نجح النورسي حيث فشل آخرون أرادوا أن يلجموا القمقم المتهيج دون جدوى، لأنهم لم يكونوا يتوفرون على ما كان النورسي يتوفر عليه من بأس ودينامية وقطع تأتّى له من روح التجند واليقظة التي لازمته منذ كان..

لقد كان النورسي يجزم بأنه إنما ينقاد في مسعاه ذاك لحمية روحية تفعم أعماقه وتهون عليه التضحية خدمة لأمة الإسلام، لقد كان يثور كفًّا لثورة يُقَدِّرُ أنها قامت لتكدير السكينة الضرورية واللازمة لكي تتحرك عبرها مسيرة انبعاث كانت بوادره تلوح في أكثر من أفق ..

لقد كانت الطوائف والتنظيمات تتحدث عن الإصلاح، وعن التطور، وعن النهضة والإنبعاث، وعن حق الإنسان والمرأة، وعن كرامة الفرد، وكانت شعاراتها تناهض العبودية والظلم والاستبداد، وتنادي بالحرية، والمساواة، والإخاء، وبحرية الرأي، والديمقراطية .. وكانت مقالات الصحف والمنشورات السرية والعلانية تهيج مشاعر الانتفاض على الوضع، وتصعد من بلاغة الاستنكار والإزراء بالواقع، وتنعي عهود

الانحطاط.. لقد كانت أجواء من التوتر الرومانسي التي صاحبت الثورة الفرنسية ذاتها، تسود واقع الأمة العثمانية، وكانت التصريحات التي تدوي في تلك الأجواء تُجْمِعُ على حطة وبشاعة ذلك الواقع، وتجاهر بحتمية وأده، والفراغ منه.

وكانت روح الثورة تتناغم مع ما يسكن أعماق النورسي وروحه المتطلعة إلى تجديد المجد التليد، وبعث المآثر العتيقة.. وكان منطق الأحداث يقنع كل فرد من أبناء الأمة بأن الإندفاعة – بعد كل الذي ذاقته الأمة ومرت به – لا تكون إلا في وجهة بنائية، من شأنها أن تتدارك الضعف المزمن الذي تردى بالأمة إلى الحضيض وأطمع فيها الأعداء

.. ضمن هذا السياق سار النورسي يدعم الدعوة إلى التجديد وتجاوز أوضاع القصور والهوان، وهكذا وجد النورسي نفسه يتناغم مع شعارات ونداءات كانت تُجمِع عليها التنظيمات ومختلف القوى الحية في البلاد، وربما كانت هناك قلة فقط من الوجاهات القومية التي كانت تعي ما يراد بالعثمانية من خلال تلك الشعارات والدعوات..

ومن غير شك فإن تحليلات المنتقدين ودعاة الإصلاح كانت متفقة على ضرورة أن يبدأ الإصلاح من القصر، وأن تتغير السياسة العامة للبلاد انطلاقا من تغيير سياسة الخليفة والعرش ..

وطبيعي أن يتضمن هذا التوجه في الرأي الانتقاد لشخص الخليفة نفسه، وطبيعي أن يتحول الانتقاد إلى إدانة، وإلى مخطط يستهدف الإطاحة به والإطاحة من خلاله بالخلافة نفسها، وكل ذلك كان مرتبا في حسابات القوى المعادية للدين الاسلامي من اليهود والماسونية والأحلاس.. لقد تعهدت الصهيونية الحاقدة بأن تنتقم من عبد الحميد الثاني على عناده ووقوفه في وجه مشروع توطين اليهود في فلسطين .. ذلك المشروع الذي حاولت الصهيونية أن تشتري ذمة الخليفة بباهظ الأثمان جراء تمضيته وتحقيقه ..

ومن المفارقة أن تَسْتَنفِرَ القوى الخفية الفصائل والفرق العسكرية إلى الثورة وإلى التمرد دونما تحديد لمطلب بعينه، حتى إذا تداعت الجحافل المتمردة، لم يكن أمامهم من كلمة اجماع إلا المناداة بالشريعة، والدعوة إلى التمسك بالمبادئ الاسلامية ..

بل لا شك أن الأصوات المناهضة للملة، والتي دسها الأعداء في تلك الهَيْجَة من أجل أن تكون نواة تنطلق منها الدعوة إلى مناهضة الاسلام والشريعة، قد وجدت نفسها معزولة بالنظر إلى التلقائية الروحية التي عمت الثائرين، إذ أن ذلك الموقف المتفجر لم

يكن ليتيح لمناور أن يفوه بشعار خياني يلتفُّ به حول الروحية الاسلامية الـتي كانـت تجمع العسكر وتوحد بين عواطفهم.. لقد كان العصيان رهانيا ولا يعقـل أن يـراهن الجندي المسلم في ذلك الموقف وإن غمضت أهدافه، وبلا مسوغ، على التحلل من الدين والتنكر لمقومات الأمة..

وكان على النورسي الذي لم تكن تلك المرامي تغيب عنه، أن يتصرف في أثناء ذلك، ضمن اجتهادات كانت تكفلها له بصيرة واثقة من سداد ما تجري به تدابير الله .. لقـد سار فترة في الموكب، وأدان الجهات التي كان الاتفاق يجمع على إدانتها، وفي مقدمتها السلطان ..

وانخرط النورسي في غمار السياسة من باها الواسع، خاصة وأنه كان يرى تباشـير الاصلاح تلوح في الأفق، لا سيما بعد ظهور الدسـتور وتنصـيب البرلمـان وتحريـر الصحافة.. لقد أيقن النورسي أن هذا هو الجو الذي يخدم الاسلام، ويحيي الأمة، وينعش الآمال في الانبعاث وفي استعادة الاسلام لأمجاده وسؤدده، كرسالة عالمية تعضد الإنسان وتبارك خطواته على طريق الصلاح..

لقد كانت هناك تململات، بل واعتراضات على التحول الجديـد، وعلـى تلـك الارهاصات التي تعرب عنها الثقافة الجديدة، وهو ما كان يحمـل المخلصـين أمثـال النورسي على أن يتصدوا للدعايات المضادة وينهمكوا في القيام بعمليات شرح وإقنـاع تشمل فئات الأمة حتى لا يعرقل ترددها الانطلاقة في المهد، وكي لا يجهضها الاعتراض الوليد..

لقد تتابعت رسائل النورسي إلى الجهات القصية، وإلى القبائل الكرديـة في شـرقي البلاد، والتي كان ينتمي إليها، تحمل إليها رأيه المؤيد للتجديد .. لقـد كانـت تلـك الرسائل تؤكد أن المشروطية هي الشورى، وأن الحرية والعدل من مقتضياتها، وأنهما من مبادئ الاسلام، وأن لا تعارض بتاتا بين مبادئ الدستور وبين الاسلام..

التوبة والقطيعة

هل كان النورسي على علم بأن الموكب الذي كان يسير فيـه موكـب مـدخول الصفوف، وأنه كان يماشي ركبا مليئا بأصحاب القلوب التي تنبض حقدا على الاسلام؟ أم أنه كان ينساق مراهنا على احتواء المسيرة واحتياز نتائجها لفائدة الاسلام، خاصـة

وأن المستقبل سيكشف أن النورسي كان يملك – فعلا – طبيعة سياسية ترجح المسالمة على المصادمة لقاء الكسب الأشمل والأكمل؟..

مما لا شك فيه أن النورسي الذي انخرط — بعد الحرب — في العمل السياسي بنفس الاندفاع الذي انخرط به في الحرب من قبل، قد أخلص للمهمة السياسية والمدنية التي نهض بها أو بالأصح التي شاء أن ينهض بها على الحلبة السياسية.. فمن المعلوم أنه رسم لنفسه أهدافا استراتيجية منوطة بمستقبل الأمة، فلذلك نجده قد اختار الاشتغال بالحقل التعليمي ..

لقد حمل في جعبته – حين قصد أنقرة – مشروع بناء مدرسة الزهراء، تلك المؤسسة العالية التي أرادها أن تكون على غرار الأزهر، تخرج الأجيال المتنورة، وتوحد مشربها، وتهيئها للمستقبل..

لقد كان بالفعل شخصية على قدر كبير من الوجاهة والتأثير، فعلمه الثر ونضاله الميداني ومعاناته الحربية، وديناميته التدبيرية التي أظهرتها الأحداث والمناسبات الطارئة، جعلت منه معْلَما سياسيا ودينيا تسعى إلى تقريبه والتقرب منه مختلف الدوائر المدنية والسياسية في العاصمة العثمانية ..

كما أن تلك الوجاهة التي اكتسبها في زمن قياسي، فضلا عما كانت تتركه مواقفه من أصداء، وما تحدثه بياناته من ردود أفعال، كانت جميعها تربك الساسة من أعداء الدين أيما ارباك، فكان من ثمة تخوفهم من تصاعد دوره المميز، ومن نشاطه المتنامي، لذا كان لابد من ترتيب القيود التي تحد من نفاذه، وتهيئ المجال لتدجينه، وتلك خطة كانت على الدوام جاهزة في يد النظُم والسلط المنحرفة، تتبعها لتكبيل وإخفات كل صوت ترى فيه خطرا يشوش على ايقاعها المنسوج بخيوط التآمر والخيانة والجهل والإضرار بالمصلحة العليا للوطن والأمة..

لقد حدثنا النورسي عن إغراءات كان النظام يضعها في طريقه من أجل أن يلحقه بالصف .. ولكن النورسي لم يكن يبحث عما يملأ الحِجْر كي يرضى ويسكت، لقد كانت مواجده متعلقة بسقف من العزة والسؤدد الروحي تسترجع به الأمة توازنها العالمي وتباشر به من جديد مسيرتها كرائد للإنسانية على طريق الخير..

لقد كان النورسي يرى في انبعاث أمة كأمة اليابان المثل الذي ينبغي أن يستنفر الأمة الإسلامية ويفجر فيها الكوامن من أجل الانتفاض والانطلاق.. وكانت الحلبة السياسية

من حوله تظهر من التوثب والتطلع ما كان يبث فيه شيئا مـــن الأمـــل والوثـــوق في المستقبل، لكن الأحداث التي أعقبت ظهور الدستور بدأت ترسل إليه مـــن الإشـــارات الحمراء، ما كان يصدم براءته، ويهز من سكينة إخلاصه..لقد رأى نفســـه يُقَـــدَّمُ في المحافل وتعطى له صدارة، وتعرض عليه تشريفات شكلية ويشرك في كثير من الترتيبات البروتوكولية، ولكن من غير أن يرى لآرائه أثرا أو صدى في ما كان يُتَّخَذُ من أجراءات أو يَتِمُّ من تدابير تهم مستقبل الأمة وتمس حياتها الدينية والاجتماعية والروحيـــة..الأمر الذي استفزه وجعله يشتحن بالغيظ لأنه بدأ يستبين المهانة والاستخفاف بالمثل وبالعزائم من خلال مساعي الاستغفال والإسكات التي رآها تتبع من قبل النطام، والـــتي كانـــت ذات طبيعة صبيانية لأنها كانت تتوهم أن اتباع أساليب الإسكات والترضية الشخصية تصلح لأن تخرس كل صوت وتعقل كل لسان.. لقد وجد نفسه يســـير في طريـــق لا تفضي منعطفاتها إلا إلى مزيد من الغربة والانقطاع عن الأصل، والانسلاخ عن الذات..

لقد تأكد أن النظام الانقلابي الحاكم إنما يمشي بالبلاد، ليس في إطار تكريس مبادئ الدين، كما كان النورسي يرجو، ولا كان يركز على الأسس التي تعمق من ارتباط الأمة بأصالتها وتلحم بين طوائفها وأقوامها وتجعلها قادرة على النهوض وبناء المستقبل القوي بنحو ما كانت الأمم – ومنها اليابان – تبني نفسها وتهيئ مستقبلها..

لقد شاهد نظاما مخترقا، شغوفا باستيراد شكليات ومراسيم تُلَمِّعُ الواجهة، وتعمق من فصامية الدولة وانفصال الحكم المتغرب عن الفئات والمجتمع المسلم، الأمر الذي أمَضَّـــهُ وأهاجه، وجعله يشرع في الصدع بما كان يعمر أعماقه من أفكار وقناعـــات تـــرفض النفاق والتلهية والمكر بالشعوب والتفريط في مثلها..

لقد عبر بيانه الى مجلس المبعوثان عما كان يسكن ضميره من أحكام رأى أن يواجه بها ممثلي الأمة، في مسعى منه توجيهي، آملا الإصلاح.. لقد كبر عليه أن يرى الزمر التي ائتمنتها الأمة على مصيرها لا تؤدي أمانة الله، وهي الحفاظ على الصلاة ..

لقد كان أقل ما يقتضيه منه إيمانه في ذلك الموقف الذي جمعه بالخاصة، أن يســـدي النصح وأن ينبه على ما كان يظنه غفلة من ممثلي الأمة أو من غالبيتهم الساحقة ..

ولنا أن نتصور المفارقة الكبيرة التي جسدها البيان من ذلك النوع الى مجمع من ذلك المستوى.. ففيما توقَّع الساسة ومن رتب لذلك اللقاء، أن تكون السانحة على قدر من الأهمية وأن يكون للتصدير الذي حظي به صاحب البيان أثر على كلمته، فتـــأتي تلـــك

الكلمة مُرَطَّبَة بما ألف الساسة أن يسمعوه في مثل تلك المواقف التي يرتبون لها، إذا بهـم يذهلهم أن يسمعوا بياناً سافراً، صريحاً، من النقد ومن المواعظ ومن التـذكير بتلـك الواجبات الإلهية التي كان الحضور يغفلون عنها..

ومن غير شك أن هناك من الحضور من يكون قد عزا هذا التعـاكس الجـذري في الموقفين والذي عبرت عنه خطبة النورسي، إلى روح فقهية متحجرة، لا تسـتطيع أن تتحول بصاحبها عن دائرة الوعظية .. روح تقعد بالخطيب عن أن يقف الموقف المحترم والقادر على مخاطبة النواب بما يحتمله المنبر السياسي، وبما يهز الأريحيات ويـدفعها إلى إهالة التصفيق وإسداء الدغدغة بدغدغة من شاكلتها.. لكن الواقع لم يكن – قطعـا – هو ذاك، إذ أن النورسي حين وزع بيانه، بعد متابعته لشطر من أعمال النواب، عز عليه أن يتجاوز عن أرسخ فرضٍ سنته الشريعة وألزمت به المسلم في اليوم خمسا.. لقد راعه أن يرى المبادئ والشعائر الدينية مغيبة أو شبه مغيبة عن جو يجتمع فيه ممثلو الأمة لصنع مصير الأمة، من غير ما ضرورة تدعو لتأخير أو تعطيل الشعيرة ..

وبغض النظر عن النتائج التي ترتبت عن ذلك الموقف التقويمي الصريح، والذي كان له أثره الإيجابي الفوري كما يعترف النورسي، إذ سرعان ما رأى أن عشرات من النواب باشروا الصلاة لوقتها في الحين..

إلا أن الثابت أن حوادث من ذلك القبيل قد تواترت للنورسي، وعمقت الهوة بينه وبين الساسة الذين كانت لا تفتأ طبيعة توجهاتهم الدنيوية، التغريبية، المتمادية في تحللها من الشرع تتكشف له وتسفر عن وجهها، وهو ما آل به إلى أن يختار الطريق الذي رأى أنه سيخدم منه أمته وعقيدته على أنجع ما تكون الخدمة.. لقد سجل النورسي أن رأس السلطة الدنيوية نفسه قد لامه يومئذ على فحوى كلمته التوجيهية تلك، لكن النورسي لم يبد له أدنى اعتذار أو أسف عما فعل ..

وفي خضم تلك التحولات، كان طبيعيا أن يرى النورسي تنظيمات الفتوة والنساء والتطوريين وغيرها من التشكيلات المصنوعة، وأن يشاهد تظاهراتها ودعواتها وشعاراتها تجنح باطراد إلى ما يومئ بأن المسيرة تسير في إطار مخالف تماما للمثل التي ناضـل مـن أجلها النورسي، والتي طمح أن يراها تتجسد، ويرى ثمارها الدانية تجنى بيـد الأمـة في كنف من التلاحم الروحي والوجداني تتوطد به وحدة الأمة وتتجدد همتها ..

لقد كان على النورسي أن يصدع بالقطيعة مع نظام سايره، وباركه، وتحمل في سبيله أعباءا ما كان أثمنها وأجسمها.. لقد أيقن أن المسيرة مدخولة، وأن النظام مخترق، وأن البلاد قد أقلعت في وجهة مجهولة المصير..

ولابد من الإشارة في هذا الصدد إلى أن قوى الشر قد سلكت مع النورسي مسلكها المعتاد مع العناصر المعارضة، إذ تجعل من غاياتها الوطيدة تدجين العنصر الشارد عن الخط.. فقد رأينا كيف أن الجبهة التي كانت تنادي بشعارات الوطنية والتحرير باركت نضاله وقدرت جهوده الوطنية، وقربته إليها، وأفسحت له مكانا في السدة السياسية، لكننا رأينا في نفس الوقت الحساسية التي ما لبثت تلك القوى أن راحت تتعامل بها معه، ومنذ الوهلة الأولى..

حقا لقد استجاب النظام له في تحقيق مشروعه المتمثل في بناء الجامعة، لكن هذا النظام لم يستطع أن ينساق له حين أسمعهم رأيه فيهم من حيث تقصيرهم في الدين وما تضمنه ذلك التقريع من اعتراض مبدئي على النهج السياسي الذي كانوا يسلكونه.. وعندها كان حتما أن تصدر أولى إشارات الضيق به، وهو ما بادر إليه يومها رأس النظام مصطفى كمال نفسه – كما يحكي النورسي – قد واجهه يومئذ يلومه عما صدر عنه في ذلك البيان التوجيهي .. الأمر الذي يبين أن سياسة تقريبه لم يكن القصد منها الاستفادة من آرائه وتثميرها في بناء مشروع المجتمع على أسس من الشورى ومن تبادل الرأي والتجربة بين كافة الفيئات والفصائل، ولكن الحقيقة أنهم – من خلال خطة تقريبه – إنما كانوا يريدونه أن يبارك المخطط الانحرافي، أو بالأقل أن يساير الموكب دون أن يُظهر ما يزري بالمشروع الاجتماعي والسياسي الذي كان مفصلا ومخيطا على مقاسات خارجية، لا رأي للأمة فيها..

بل إن من أساليب الاستدراج وزرع الثقة المغرضة التي تطمح بها النظم إلى تطويق العناصر التي تتخوف من شرودها ومن معارضتها للخط الذي تبيت تلك النظم على اتباعه، حرصُها على إظهار تقديرها لما يصدر عن العناصر محل الحيطة، ولا يستبعد أن تكون علاقة مصطفى كمال بالنورسي قد شُرِطَتْ بهذا التبييت الاستقطابي حتى قبل أن يتقابلا، فلذلك – ونتيجة لتلك الغاية الاستحواذية – لم يتردد مصطفى كمال في التنويه بالمكتوب السياسي : الخطوات الست .. الذي كان النورسي قد أذاعه في مرحلة من حياته استنهاضا للأمة.. فلقد اطردت – في المضمار السياسي – مساعي سلب الإرادة

والتنويم بغية جرف الفاعليات الحية عن أرضيتها الروحية، إخلاء للميدان منها، وتسهيلا لتنفيذ مشاريع لا تتوافق وروحية الأمة .. إذ أن ضمير الأمة ووعيها وبصـــيرتها الـــتي تستشرف بها المستقبل إنما تمثله تلك العناصر الطليعية بإيمانها وبانحيازها للخير والعقيدة..

هذا إذا لم نقل إن مصطفى كمال نفسه، ونظرا لروحه المدخولة، قد تعرض لما يمكن أن يسمى برمجة روحية على يد أعداء الملة، بحيث لم يعتم أن وجد نفسه صـــنيعة بـــين الأيادي الآثمة المناهضة للإسلام تجرفه وتصده عن سواء السبيل..

و لم يتردد النورسي وقد فتح عينيه على الخطة الجهنمية التي كانت ترمي إلى تكفـــير الأمة تحت تلفيقات خلابة واهية، أن يشرد من الصف، وأن يلوذ بالإستغفار، وأن يمسك عما كان فيه من تجنُّد واندفاع..

وهكذا سنجده في بعض اعترافاته يقرر أنه أخطأ النهج حين ســـار – حينـــا – في موكب الطغاة، وخدم سياستهم، وانخدع لشعارات الخير التي أضلوا بها الخيرين.. لقـــد طفق النورسي يعلن عن توبته، ويستغفر لتورطه، وانهمك في العمل على التكفير عما أتاه نتيجة التضليل.. بل لم ينته به الموقف عند ذلك الحد، إذ رأيناه يُشَرِّعُ لكل الطيبـــين، ويشيع بينهم فتواه التي تحظر تعاطي السياسة، وتُشهِّرُ بالسياسة والساسة .. بل لقد قطع الطريق في وجه أتباعه عن أن يخوضوا في السياسة .. مجنبا إياهم أن يهدروا شـــبابهم في حظيرة لا يلجها إلا ذئاب تتقوت على لحوم البشر..

لقد كان حضه لطلابه على عدم الاشتغال بالسياسة دليل توبة واعراب عن خطـــة محكمة بعيدة الأمد.. فالسياسة الفاعلة والطاهرة عنده هي رهان يضع مصلحة الأمة فوق كل اعتبار، وإن باب السياسة القدسية هو الإلتفاف على مخططات السفيانيين بســـلاح القرآن، ذلك السلاح الذي سيفعل بهم و بمكائدهم ما فعلت عصا موسى بإفك السحرة الماكرين..

وواضح أن النورسي عند احتجابه الإرادي والصارم عن الأضواء السياسية، قد جنح إلى السبيل الذي كان يُقَدِّرُ أنه سيتيح له الإشعاع الحق الذي لا تعترضه حجب.. ولابد أن نفرق هنا بين هذا التطليق الأصيل لـــدُنْـــيا الأنوار الاصـــطناعية الـــذي اختـــاره النورسي وبين أحوال العزلة التي ألف الساسة ورجال ما يسمى المجتمـــع المـــدني أن يضربوها على أنفسهم بعد الصدمات والارتكاسات التي تعترضهم في الحياة العامة، فهم يختارون الغيبة عن الأحداث مؤقتا، تربصا بأفضل السوانح السياسية التي تمكـــنهم مـــن

العودة إلى الركح، ودخول المسرح ثانية بروح المنتصر والآخذ بثأره.. إنها استراحة استجمامية، أو بالأصح تبييض للإعتبار تتجدد به القيمة وتتهيأ النفس لمعاودة المراس السياسي بكل ما ينطوي عليه من دواعي المناورة وترصد الخصم ومجابهته بالمكائد والحيل والأكاذيب..

التعالي الروحي والخلقي أحد سجاياه الأصيلة

لقد كان التعالي أحد السجايا المتأصلة لديه، فهو لم يكن يتوفر على قابلية التحاور مع من لا يشترك معهم في نفس المنزع الروحي الإيماني.. من هنا كان يتأبى عن أن يراعي ما تسميه لغة الكواليس السياسية : اللياقة، حيال من كان لا يجد أرواحهم متفتحة على الدين الحنيف، لا سيما من بني الأمة المنتسبين بالقوة إلى الملة .. من هنا رأينا تصريحاته وردوده عليهم تشتد وتأخذ مستوى من الإحتداد يصفع..

والواقع إن اعتزاله للسياسة لم يكن – كما أسلفنا في غير هذا المكان – مناورة تبيت الهجوم المباغت متى اكتملت العدة، من أجل استعادة الصدارة ودفع الهزيمة .. بل لقد كان هجراً لواقع موبوء بكل ما يبخس الهمة، ويُمرِّغُ النفس، ويَهُون به الشأن..

من هنا فإن ميله إلى التعالي عن صغار السياسة وعن دجل محترفيها وأفاقيها المكرة، كان ضربا من التجرد الروحي، ومن النزوع إلى المعنوية، أو الى الكينونة الأدبية التي يضحى فيها حضوره وغيابه صِنْوَيْنِ، من حيث نفاذ الأثر الروحي في قيادة الأجيال ..

إنها حال في الواقع تلابس كل القيادات والزعامات السياسية والروحية، إذ أن حلم الدوام يدخل ضمن مطمح محبة الذات والبقاء، إلا أن الأمر – في ذلك – يختلف مع النورسي، إذ أن مطمحه لم يكن بقائيا بالمعنى والتصور المعتادين، فهو يوقن –إيمانا – بألا فناء ولا غياب في هذا الوجود، وإنما هو انتقال من الدار الدنيا إلى الدار الأخرى، وأن الله كتب على عباده أن يمرقوا من إحداها إلى الثانية بميقات وأجل مسطورين، من دون أن يحدث ذلك المروق انقطاعا فعليا في سيرورة المرء ووجوده إلا من حيث الظاهر ..

فالمطلب الخلودي بمعناه الشخصي، المجدي، الإعتيادي، كما ينشده الساسة والدنيويون، لم يك قط من اهتمامات النورسي، ولا كان هاجسا يجعله دائم التقلب والتبدل من أجل تحبيب نفسه إلى الأتباع وتقمص الأدوار واللبوسات كي يستديم بقاءه على رأس التنظيم أو الزمر أولا .. وكي يؤرقه التفكير– بعد ذلك – في العمل

لضمان واسترسال الوجاهة والاعتبار عقب الاختفاء عن المسرح على نحو ما يخطط لــه الساسة ويتوقون إليه ..

لقد كان هَمُّ النورسي الأوكد أن يرسي قناعة جماعية روحية تكتسب ماهيتها مــن القرآن، وتؤسس دوامها على دوام القرآن، وأن تُحقق ذلك المستوى من التجرد الــذي اكتنف الطلائع المؤمنة من أتباع محمدﷺ وأَدْمَجَها في شخصية القائد ﷺ الذي مضى بها على الدرب، لا ليطفئ أو يطمس هالة النور التي ظل كل عنصر من تلــك العناصــر يستمدها من المصباح الرباني المحمدي، ولكنه مضى بالقافلة المبرورة وجعل من أفرادها نجوما مشعة، وهاجة الضياء، من حول قمر مكتمل، وضاء..

لقد ظلت وحدة السلف من الصحابة، ولحمتهم، وجماعيتهم المتراصة مــن حــول الرسول ﷺ، سواء في حياته أو بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى، ماثلة في وجدان النورسي، يستلهمها في سيرته مع طلابه، ويريد لتلك السيرة أن تقبس مــن ســيرة الرســول ﷺ وصحابته الأكرمين مسلكها، وأن تسترسل على وفق مسارهم الذي سدَّدَ فهَدَى..

و لم ينفك النورسي في هذا الصدد يُهيب بالأتبــاع أن يتحلــوا بــروح الوحــدة والجماعية، وقد لبث يرص هذه القابلية في نفوسهم على نحو رأيناه يستنفر لــه شــتى الشواهد والبيانات التي يتوفر عليها التراث وسيرة الأسلاف.. لقد كانت سيرة الرسول ﷺ، نبعا ثرّا ظل النورسي يتمثله في سلوكه ،و يستلهم منه دروسه من أجــل ترســيخ وازع الوحدة في ضمير الأتباع..

لقد كانت المراهنة كبرى ورهيبة بينه وبين الدجاجلة الماكرين، وكان المعــول – في تلك المراهنة – على الناشئة من حيث تمرسها بالمكابرة وتسلحها بالمصابرة، بلوغــا إلى مستوى الكِفاء والندية.

وقد لا نتجاوز الحقيقة إذا ما قلنا أن النورسي، في بعض مراحل النــزال المتصــاعد بينه وبين الملحدين، يكون قد ساوره الأمل في أن يرى المعركة قد تنحسم لصالح الحــق وهو بعد على قيد الحياة.. من هنا لمسنا الاستماتة القتالية تتضاعف لديه، وتأخذ مناحي استقطابية وتحسيسية مختلفة.. وربما تَظْهَرُ بعض آثار ذلك في الحدب الأبوي والروحــي والتجنيدي الذي ألفيناه يوليه للطلاب وللأتباع، وتَظْهَرُ كذلك في السياسة الانضــباطية التي حرص على أن يصقل بها أرواحهم، وخاصة منهم اولئك الذين كانوا يلازمونه في السجن، أو الذين كانت تتوالى عليهم الابتلاءات في سبيل الدعوة..

لقد تجاوزت تلك العواطف والرعاية الصادرة عنه حـد التعزيـة وشـحذ الهمـم والمعنويات التي تسوغها الظروف في مثل تلك المواقف التمحيصية التي كـان الشـيخ وأتباعه يمرون بها في كل حين، إذ طفقنا نحس من قِبَله حَمِيَّةً تأهيبية جلية لا تفتأ تحفـز الشبيبة على التهيؤ لكل أنواع البلاء التي قد تنجم في طريق اتباع الحق..

ومن ناحية ثانية كانت تلك الحمية تحرص على توطين الأتباع على التمرس بالعناء واحتمال العذاب، وكانت تشد أزرهم بأنواع التحديات المرشدة التي لا يكف النورسي عن تلقينهم إياها ومواجهة الأعداء بها، والتمادي في مقارعتهم، سواء في ما كان يلقـي ويحرر من دروس سرية، أو من خلال المرافعات النارية التي كان يتولى الدفاع فيها عـن نفسه وعن دعوته بنفسه، تلك المرافعات التي بلغت المئات من الجلسات القضائية، أو في الوصايا والتعليمات المباشرة أو التي كانت تحملها إلى الآفاق رسائل النور..

التنظيم والوحدة مناط كسب الرهان

لقد أيقن النورسي – وبوعي مستقبلي – أن المهمة الانبعاثية لن تكون سهلة، ولن يكون في مقدور الأفراد والفرق المتشتتة النهوض بها، لذا تواصـلت دعوتـه الطـلاب والأتباع إلى الاتحاد والتماهي في هوية معنوية تضمن لهم القوة ووحدة المشرب والتطلع، وتعضد من تماسكهم، وتجعل منهم لحمة ذات تأثير ..

لقد كان النورسي يتوق إلى تحقيق الإطار التوحيدي الذي يحفظ بقاء وقوة الأمـة، وكانت التنظيمات الروحية، لا سيما التنظيم التصوفي ينال امتداحه، لأنه كان يرى لـه من المزايا الإجتماعية التي كانت الأمة في مسيس الحاجة إليها.. بل لقد كان يرغـب في أن يتسع ذلك التواشج الروحي الذي يربط مشاعر المسلمين قاطبة بشخص الرسول ﷺ، فيتجسد على صعيد ملي ومدني يعيد للأمة كينونتها الفاعلة ..

لقد كان النورسي يريد للعمل المدني والحضاري، و بالأحرى للنشاط السياسـي أن ينطلق من هذا التلاحم العاطفي المركوز في نفس كل مسلم، والذي كانـت تنقصـه فقط الشروط التي تجعل منه واقعا مجسدا في ماهية مادية ومعنوية تفرض احترامها علـى العالم، وتسير بالركب الانساني على هَدْيٍ أزكى رسالة أنيطت مبادئها القدسية بتكريم الإنسان وبصون شرفه.. أينما كان، وعلى أي معتقد كان..[1]

---

١ أنظر الملاحق ص ١٩٤.

من هذا المنظور توخى النورسي لرسائل النور ولطلاب هذه الرسائل أن ينخرطوا في وحدة معنوية، يكون لها تأثيرها النافذ في تمهيد الطريق نحو غد الاسلام المشـــرق، وفي التصدي لأمراض العصر بمختلف أنواعها الروحية والنفسية والفكرية بتعاليم ومقـــررات القرآن العظيم .. ذلك لأن النورسي كان على وعي حاد بـــأن مواجهـــة العـــدوان، وكسب الرهانات، وتخطي العوائق، إنما هي جهاد مرير لا بد وأن ينطلق مـــن وعـــي النيرين بوضع الأمة، وبحال الكساد العام والمُفْني الذي يكبلها، وبقابليتهـــا الثابتـــة في الانبعاث متى ما انطلقت من قاعدة صلبة، هي إيمانها بكتابها، وبحتمية ظهور نور الله على العالمين، هذا الظهور الذي أوكله الله لها، بكونها حاملة الدين الذي أختاره الله دينا أبديا للعالمين..

لقد آمن النورسي أن تثمير القرآن، وتجييش الجند الذي يؤمن بالقرآن هـــو أفضـــل سبيل للمحاماة على الأمة والتسوير من حولها ضد الفتن والمؤامرات التي تحاك ضـــدها علنا..

لقد كان متأكدا بأن شحذ السلاح المعنوي، حين لا تتكافأ الوسائل والأسلحة، هو أنجع وسيلة تلوذ بها الأمم المستضعفة من أجل دفع العدوان والتصدي لجلاديها..لـــذلك طفق النورسي يؤكد للأمة قوة وأصالة الإعتداد بالسلاح المعنوي..فهو السلاح الذي لا يفل وهو الذي يكسب المعركة.. وتتجاوز به الأمم العتيدة مراحل ضعفها، وتبلغ المكانة التي تستأنف بها طريقها في ظل الإحترام والسؤدد..

بل لقد رأيناه يكرر القول، إبرازا لأهمية الجانب الروحي، والنجاعة التي لا حدود لها في بناء الكيان، وامتلاك الشروط التي تمكن الامة من أن تقف وجهـــا لوجـــه حيـــال المعتدين.. ولذلك رأيناه يسوق الأمثلة ويثني بالشواهد على الدور الإقتداري الذي يوفره سلاح الروح .. وفي هذا السياق رأيناه يستدعي سيرة الرسول ﷺ والصحابة في ضعفهم وقلتهم، وانعزالهم بين أقوام تترصدهم بالعدوان، لكن تسلح الرسول ﷺ وصحبه بالإيمان مكنهم من أن يخوضوا أشرس المعارك، وأن يكسبوها، وأن يظهروا في نهاية المطاف على الأعداء أجمعين ..

بل لقد كان من حرص النورسي على تبيان فاعلية السلاح الروحي للأمة، أن رأيناه يقارن بين حمية اليهود وظهورهم السهل على العرب في فلسطين، وبين استسلام العرب المسلمين وانعدام الحمية الروحية لديهم، الأمر الذي ترتب عنه غلبة المعتـــدين وانهـــزام

أصحاب الحق، وما ذلك إلا لأن أولئك أخذوا بعدة الروح، وتسلحوا بإيمان توهموا بــه الباطل حقا، على عكس هؤلاء الذين ارتكنوا للضعف، وفرطوا في حق يؤمنــون أنــه حق، لكنهم خاروا وهانوا، وحسبوا أن سلاح افتكاكه يكون ضــرورة قــوة ماديــة وجيوشا جرارة، وأحلافا متآزرين ..

والحقيقة أن كل ذلك يقوم على حمية تجمح بها أفئدة المستضعفين، ليتأتى لهم صــنع القوة من الضعف، والنصر بعد الهزيمة..

لقد لاحظ النورسي أن الارتكاز على الروحيات صان اليهود من الضربة العربيــة.. في اعتراكهم على فلسطين.[٢]

القرآن يستوعب حجته في ذاته، وليس هو في حاجة إلى داعم برهاني خارجي

لقد لبث النورسي يسفه مساعي التلفيق الفكري وافتعال البراهين التوحيدية بمادة غير مادة القرآن، وإنه لموقف نابع من صميمية إيمانه، ذلك لأن اعتداده بحجيــة القــرآن لم يكن اعتدادا مشوبا أو سطحيا أو دعائيا يرمي إلى تحقيق مكاسب مرحليــة ثم يتحــول بالمصارعة إلى طور احتجاجي آخر..

لقد كان تشبثه بالبيِّنات القرآنية في التدليل على الوحدانية تشبثا قويــا وراســخا، وكانت قناعته في ذلك التدليل ووثوقه به تتساوقان بصورة مبهرة مع التوجه العقلــي الحصيف الذي تتكرس به العقلانية القرآنية المتوازنة بين الروحي والفكري ..

بل لقد كانت تلك القناعة الروحية تنعكس على الكيفيات العقلية التي طفق يستقرئ بها أسس الإيمان من خلال متون الآيات والسياقات القرآنية..

لقد كان يستجلي في كل موطن قرآني شواهد مترادفة دالة على الوحدانية .. وهو ما جعله يبدي كثيرا من الدهش لتلك البصائر التي تَــقْــصُرُ عن استبانة ما كان هــو يستبينه بيسر متناهٍ من أوجه الحق واليقين فيما يقع عليه بصره من آي القرآن الكريم..

بل لقد ظل يحيل إلى تلك الجلاوة الاستبصارية الثابتة التي اكتسبها والــتي باتــت لا تخطئها معاني القرآن وحججه الحصيفة الدالة على التوحيد في سائر آي الله البينات..

على أنه ظل يسوغ ذلك التفاوت بين العقول من حيث سهولة اهتدائها إلى الحقيقة القرآنية أو صعوبة ذلك عليها، بالاختلاف الذي يقع لرجلين يستقيان، فأما أحدهما فقد كان من قدره أن يستجلب الماء من آماد وأبعاد لا يتأتى له تذليلها إلا بتشمير كثير من

---

٢ الشعاعات ص.٥٥٦

العتاد والتقنية ومن باهظ الإمكانات .. وأما الآخر فإنه، يتوفر على آلة نقب، لا يجس بها بقعة من الأرض إلا انبثقت مياهها وفارت ثرة، غزيرة، وهادرة بالعذوبة والسلسبيلية ..بهذا التصور ظل النورسي ينأى بالحجة القرآنية عن أن تستند في إقرار قيمها الإيمانية على المساند الوضعية :الفكرية أو الفلسفية، لما يميز الحجة القرآنية من وضوح وصلابة ووجاهة تكفل لها الإفحام، وتؤكد من منزلتها المعنوية التي لا تمارى، من هنا كان النورسي يرفض أن يدعم القرآن بقيم الحكمة حتى على صعيد المطارحات الفكرية، لغناء القرآن عن أن يقف على غير دعاماته العقلية الصميمة....

بسالته..وحربيته الاستراتيجية بعيدة المدى

لم يكن النورسي صاحب مزاج جدالي أو روح خطابية، تجعل منه هوية تنتج الكلام، وتطحن الأفكار التي تتناهي إليه، ليتبناها لبعض الوقت، ثم يلفظها ويعاود الطحن والعجن، شأن رواد الصالونات، من الساسة ومثقفي دوائر البطالة، ومحترفي استعراض التقليعات، ممن تزدحم بهم العواصم، ويَتَسَمَّوْنَ النخب..

و لم يكن ذا لسان مشاغب، يصطنع الخصومات على صدور الصحف، ويبيع مهارته الإنشائية لمن يعرض أكثر، خدمة للمستقبل الشخصي والأسروي، وتمضية لِمَرْكَبِ الأيام على نحو ما يمضي بأهل الدنيا ..

لقد كان عقله جدليا حقا، ولكن جدل التبيان والتحصيف وإبراز الحقيقة من الزيف، وليس جدل المهاترة وتلبيس الحق بالكذب، والمشاغبة بكل لسان، كسبا لرجاحة آفلة في لحظتها ..

لقد امتلك الطاقة الإبداعية، والذرابة اللسانية، والمنطق المناظر، الغلاب، لكنه صرف كل ذلك إلى تثقيف الأمة ودعوتها إلى الله، وإجلاء حقائق كانت قدراته العبقرية تستظهرها في المنزول وفي المتون الشريفة، و لم يخرج في ذلك عن شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، و لم تزعزعه النوائب والإستثارات المهينة التي ظلت قوى الشر تنزلها به، خنقا لصوته ..

بل ظل يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وكانت حقا قوة حجته تأتي في الغالب، لا سيما حين يتوجه بها إلى أعداء الدين المكابرين، من القوة والحسم، بحيث كانت تقزمهم، وتشوههم، وتجعلهم على حال من الهوان منكرة..

وكل ذلك لأنه كان يعرف كيف يسدد السهم، وكيف يصيب المقتل .. لقد كـــان حديث السفياني أروع بيان شاهت به صورة من يقود النظام، حتى من غير أن يـــذكر النورسي اسمه، أو يشير إليه بـــســـمَة من سيماه الخُلْقية التي يعرفه بها الناس.. وكـــان طبيعيا أن تتفتح عيون الأعداء، بعد رحيله، على تلك اللوحات الرمادية التي رسمها لـــه النورسي، يوم أن شرح للناس حديث السفياني .. وأن تثور ثائرتهم، لأنهم رأوها معـــالم سوء تكرست لشخص شاؤوا أن يرفعوا له التماثيل..

من هنا يمكننا القول إن النورسي لم يكن رجل اشتباكات تنجلي بمنهزم ومنتصـــر، وبحساب ربح وخسارة وبمجد أو معرة للذات، ولكنه كان حربيا، استراتيجيا..ودعوته الصريحة والراسخة للسلم إنما تستمد صدقها من استشراف مستقبلي يـــدرك خطـــورة وأهمية وفاعلية التجنيد الهادئ والصلب الذي كان يدأب في إرساء قواعده .

وتتجلى لديه آيات من القوة من خلال الهيمنة الكبرى التي كان يفرضها على نفسه.. و من خلال علاقة القوة والضعف المستمدة من سيرة أشياخه الروحيين، وخاصة مـــنهم الغزالي. ولقد كانت دعوته إلى الصبر والمصابرة وهو في السجن تنسجم مـــع الـــروح النـــزالية التي تحب الاشتباك والالتحام عن بُعْد، ليس تجنبا للمواجهة، ولكن إنضـــاجا لشروط النصر، فالالتحام الذي جسدته سيرة النورسي هو من النوع البالغ الخطورة لأنه لا ينفك ولا ينفض إلا بهزيمة الخصم وإردائه.. ".. إنني بقوة القرآن الكريم أتحدى أوروبا كلها بما في ذلك ملاحدتكم، لقد اقتحمت قلاعكم الحصينة التي يسمونها العلوم الطبيعية أو الحديثة.."[٣]

الرضى بما يكتب القدر، والتكيف الإيجابي مع الأطوار الحياتية بما فيها الثواء في السجن

ومن مظاهر قابلية الاحتمال والصلابة الراسخة لديه أن يجد للسجن نعَمًـــا كـــان يستطعمها وكان يبينها لطلابه ومن كانوا يساكنونه الزنزانة، وتلك خاصية تعـــود إلى طبيعة التحدي المركبة في نفسيته، وتعود أيضا إلى عقيدته وروحيته الدينية التي كانت لا ترى في الشر – ما تسبب في إيجاد الخير – شرا .. إذ أن تســـليمه بالقضـــاء والقـــدر، وإيكاله الأمر كله لله، كان يجعله يتقبل ما يجري له وما يقع من تصاريف..بتسليم .

---

٣ المكتوبات ص. ٩٠.

ويمكننا أن نرصد منظومة كاملة من التعليمات بناها النورسي – في ذات الوقت – على قاعدة التحدي والتحذير، فهو بحكم رأسيته للنظام الروحي، التلقائي، الذي تنامى من حول رسائل النور، كان ينهض بوظيفة المجابهة .. ولما كانت الشراسة من جبلة النظام المخترق ، فلقد كان على النورسي أن يصدع بالحق كلما حوصر بالتضييقات والتدابير الإحباطية والتلفيقية التي كانت تشاء أن تكمم فاه وتعقد لسانه ..

ولقد كان اعتزازه بقوة القرآن لا تمارى، وكان تحديه للأعداء يتجلى – أحيانا كثيرة – في صورة مخططات استراتيجية تفتح المجال أمام الأتباع وتبصرهم بالوجه الذي عليهم أن يتبعوه إذا ما أطبق عليهم الوحش بفكيه : "لا تبارزوا مع رسائل النور المستندة إلى القرآن الكريم فإنها لا تغلب، وإلا سيكون أمر هذه البلاد مؤسفا إذا ما حاول أحد طمس نورها، وسوف تذهب إلى مكان آخر وتنور أيضا (وهذا هو سر خطورتها الذي يشير إليه النورسي بهذا التحذير): " ألا فلتعلموا جيدا أنه لو كان لي من الرؤوس بعدد ما في رأسي من الشعر، وفصل كل يوم واحد منها عن جسدي فلم أحْنِ هذا الرأس الذي نذرته للحقائق القرآنية أمام الزندقة والكفر المطلق، ولن أتخلى بحال من الأحوال عن هذه الخدمة الإيمانية النورانية، ولا يسعني التخلي عنها". [٤]

وواضح أن النورسي هنا يوعز بالسيرة التي يجب على كل منتسب للرسائل أن يلتزمها، فحديث القائد هنا، هو من بعض الوجوه حديث باسم الأتباع أجمعين، إذ أن النورسي بمثل هذا الحديث يضع أسس النهج الحركي، ويرسي الخطة التدبيرية، ويرسم الروحية التي ستجعل المستقبل يكون للقرآن.. ألا وهي اتباع روحية التضحية وإسلام النفس على مذبح القربى، كلما دعا واجب الإيمان لذلك..

حين يكون الضعف رديف القوة

ولكن الرجل القوي هو الذي تلم به لحظات الضعف، لأن في مشهد الضعف الذي يرتسم على طلعة الأفذاذ الأشاوس، ذروة الحال التي تهز النفس .. إنها حال وجودية طارئة، وغير عادية، تمْثُلُ حيالنا، مزاجها الضعف المشرب بالقوة المنافحة عن أصالتها حتى وهي تتزحزح – مؤقتا – تحت وطأة الظرف، عن عرش شموخها .. لقد رأينا النورسي يعترف أن حال المضايقة يبكيه ويحزنه.[٥]

---

٤ الشعاعات ص٤١٠..
٥ انظر الشعاعات ص ٤٠٨

بل لقد كان يشارف أحيانا عتبة اللااحتمال، وذلك حين تسحقه وطأة العناء وترهقه المكابدة المستديمة، عندئذ لا يملك إلا أن يَصيح بالأعداء طالبا منهم أن يجهزوا عليـــه، إذ لم يعد في الوسع المضي على ذلك الدرب التعذيبي، الجهنمي إلا بدعم من الله تعالى.

لقد سار – في هذا الصدد– على درب السنة، بل تقمصها، ليس فقط من خـــلال فقهها والتزام تعاليمها، ولكن من خلال تمثل أحوالها، فقد كان يتأثر بالملمات، وكانت تترك على نفسه شيئا من الأثر لا تزيله عنه إلا نفحات الإيمان، وكان من جهة أخـــرى ينفعل بالآي كما كان النبي ﷺ والسلف الصالح ينفعلون بها، وكان يجد فيهـــا أريحيـــة روحية كما كان النبيﷺ والخيرون من بعده يجدونه للآي الكريمة، فلا بــدع أن نـــراه يواتر في الكشف عن أحوال السعادة وأجواء التذوق القلبي التي كانت تراوحـــه كلمـــا نفحه الخاطر القرآني المبهج بإلهام أو نسمة اشراق تزيل ما بنفسه من انسحاق.

الشخصية التجاوزية

لقد كان النورسي شخصية تجاوزية في مواقفها، جذرية في رؤيتها، فلم يكـــن مـــن طبعه أن يبقى على حال من الثبات عند كثير من المسلمات واليقينيات الـــتي تـــواترت ذهنية الأمة على لوكها عبثا وبطالة، إلا ما كان يتعلق من تلك المســـلمات واليقينـــات المرتبطة بالإيمان وبمنصوصات القرآن والسنة التي تواضع عليها السلف واســـتقروا عنـــد فحواها ..

ولقد كان اعتماده القرآن والسنة مصدرا لتوجهاته، يستجيب لوازع الصرامة الذي يحركه.. على أن معنى التجاوز الذي نقصد إليه ونحن نتحدث عن النورسي هو التجديد.

لقد كان يتأذى بواقع رميمي يرى الأمة تحياه، وكان يدرك أن بعث الحياة يقتضـــي الشروع الحتمي في الترميم، من هنا عول النورسي على اســـتيعاب عميـــق للأركـــان الإيمانية، ثم راح يشق طريقه يقرأ ويستقرئ النصوص المقدسة، بروح اجتهادية، تجاوزية .. لقد أوتي النورسي طاقة معنوية عتيدة جعلته يدلي برأيه في كثير مما ظل الإتبـــاعيون، أنصاف العلماء أو ذوو الأمية الدينية المقنعة يحجمون عنه، أو يتحاشونه..

لقد انبرى النورسي يتحسس كل شيء من الدين، وجنح – بصورة واضـــحة– إلى إثارة القول في ما تكاثر الخلاف حوله وشيبَ بالأسطورى، وراح يُحَصِّـــفُه، ، بـــل وحرص على أن يجد الروابط بين كل ذلك وبين واقع أمة كان يدرك أنه لا مناص لذوي الجهد المخلصين من أن لا يهدروا كلمة واحدة تخرج من أفواههم دون أن يكون فيهـــا

للأمة حظ من تحسيس وتوعية وتبصير.. وهو ما قام به، وأداه، وأحسن تأديتـــه علـــى الوجه الأكمل..

ولا غرابة بعد هذا إذا ما وجدناه يربط – كما أسلفنا القول – بين أسماء الله الحسنى وبين الثورة التقنية والتكنولوجية التي بثقها العقل الغربي وتحكم بها في الرقاب .. لقـــد كان يرى أن المسلمين، أتباع الدين الإسلامي، أولى بالاستهداء إلى تلك الطاقات الـــتي يتقوى بها العبد المؤمن، ويستوي .. من هنا كانت تجاوزيته، وكان تسديده، ومن هنـــا كانت شخصيته تمثل التجسيد الحي للتجديد الذي يهيئه الله للأمة على رأس كل قرن..

بل لقد أرسى النورسي الرؤية التي تجعل الأمة تتحول بالجهد الاجتهادي إلى الجبهـــة المادية التي تضمن لها الفاعلية وتكفل لها قدرة التأثير على الغير لصالح دين الله، فالأمم لا تَـــتَّبِع ولا تَعْبَأُ إلا بالأمة القوية المتحكمة في المادة ،وفي مصيرها، وبما أننا أمـــة تبليـــغ، فالتبليغ بات اليوم العلم، ولابد لنا من تكنولوجية رائدة، وبات أيضا احتذاء، ولابد لنـــا من المكانة المكينة التي تغدو فيها سيرتنا محل أسوة واقتداء.

من هنا سار النورسي بالتأويل في مسار التفتيق المادي النافع والمفيد.. على أنه ظـــل يؤمن أن القوة المادية لا تقوم، ولا تترسخ، إلا على قاعدة الإيمـــان الروحـــي المطلـــق، فبالروح يتواصل العبد مع الله، وبتواصل العبد مع الله، تتـــيـــسر له سبل البناء، شريطة أن يكون على وعي بأن تعمير الأرض هو من شرائط الكون التي اقتضـــاها الله علـــى عباده..

لقد خرج النورسي بالاجتهاد من دائرة الاستكانة والإستخارة البليدة، واللاتَّيرة، إلى دائرة الوعي بالدور والرهان على المستقبل الدنيوي والأخروي.. وبذلك وصل حاضـــر الأمة بماضيها، يوم أن كانت أمة تفتح الآفاق، وتنير البسيطة بالقرآن، وتشيد المدنية التي ازدهرت بها الانسانية ردحا من الزمن..

لقد أناط النورسي سنة التجديد – بعد أن أقرها منهاجا لحياة المسلم لا تقـــف بهـــا مرحلة عن ثابت ولا تعيقها ضائقة عن المضي قدما، ما ظلت مستنيرة بمشـــكاة الله – أناطها بطلاب النور، إذ رأى فيهم العقل المتكامل المتظافر الذي من شأنه أن يجـــدد في الفكر وفي السيرة التي على الأمة أن تسيرها إزاء مستجدات الحياة، وفي التحول الشمولي الذي سيحدثونه بجهودهم ومثابرتهم في أوساط الأمة، ذلك لأن قابلية الاستقطاب كانت تتوفر لتلك الزمر القرآنية، من حيث أن قابلية التجمع هي خصيصة من خصائص روحية

الأمة، إذ لا عقيدة ولا قوامة ولا هدى بالقياس للمسلم إلا ضمن الجماعة، وطلاب النور كانوا واجهة مثالية للاستقطاب، إذ أن التجرد والركون إلى القرآن هما خير فاحص تمحيصي يمد الجماعة النورانية بالأطهار والأطياب..

ولما كان التآزر والتواشج الروحي والعقلي من سمات الجماعة الإسلامية وجوبا، فلا ريب أن ما يوفره التجمع في مضمار الفكر والتخطيط والاستراتيجية سيكون وافيا، ومتكاملا، وعلى مستوى من الواقعية والنضج كبير، لأنه سيكون عطاء انتجته عقلية الجماعة، فهو – من ثمة –مراس الأمة من خلال مفكريها ونيريها، الأمر الذي يجعل الدينامية والتطور حالة مسترسلة في حياة الأمة، ولن يعود الركود هو حظها، انتظارا لمطلع القرن، حتى يتاح لها أن ترى المجدد الذي يملي عليها ما يعدل شيئا من ميلها ..

لقد قدر النورسي أن الجماعة القرآنية هي التجسيد الفعلي للإصلاح المطرد، وأنها برجاحتها وبامتلائها وبنضوجها ستفيد الأمة أضعاف ما ظلت الأمة تَتَجَمَّمُهُ من أراء المفتيين والمصلحين ممن كانوا يظهرون عبر المراحل، وعلى حال من الانقطاع تجعل من أفكارهم أصداء يتيمة، وغير متمرسة بالواقع العيني، كما ستكون عليه الأوضاع مع طلاب النور، المنبثين في كل مكان، والمرتبطين بالمصدر، وباجتهادات الأقطاب، والمتحلين بسيرة متناهية من التجرد والخلوص لله الواحد الأحد.. والغيرة على أمة القرآن، والتفاني في خدمتها، الخدمة التي لا تنقطع أجريتها ماكَرَّ الليل والنهار..

من هنا كان طلاب رسائل النور هم مجددو العصر كما قدَّر النورسي.. ولابد أن نعي البعد التنظيمي، الانضباطي الذي ينم عنه هذا الإقرار، ذلك لأن النورسي تحلى بهذا الخصلة العالية التي جعلته يتشبث بالتنظيم وبالنظام، وينزع إليهما، وينفر من الفوضى والتشتت، لذا فلا غرابة أن نجده يسند هذه المهمة لا إلى لأفراد، ولكن إلى الجماعة، بعد أن اطمأن إلى أن النظام كان قد استحكم بين طوائف تلك الزمر القرآنية، وأنها قد اكتسبت القدرة التسييرية والتنظيمية التي تجعل من عملها يشع ويشمل الآفاق..

لقد كان دائم المقابلة بين الجهد المنظم الذي تنجزه جهة منضبطة متلازمة، متناغمة، وبين الجهد الذي تتكاثر عليه القوى من غير تنظيم ولا تنيسق، وكان يخرج بنتيجة ترجح القلة المنظمة ومردوديتها المعتبرة على الكثرة اللامنظمة واللامنتجة..

لقد ظلت تجاوزيته تظهر في مواقف عديدة فكرية وسياسية وروحية .. ولعل الموقف الملي الثابت الذي وقفه من مسألة القومية ونفوره الواعي منها كان من الشواهد على

تلك التجاوزية البناءة، فالنعرة الشعوبية كانت عنده من مظاهر الجاهلية .. لذا تـأبى أن ينساق معها رغم ما لوح دعاتها أمامه من إغراءات ومشهيات..

لقد ظل متسلحا بمبادئه إزاء القومية، متباهيا بالتعداد العام للمسلمين، لا يفضي بشأن يخص مسألة القومية إلا قرنه بالاسلام.[٦]

روحه السلمية..المسالمة

لقد كان منهجه يقوم – أصالة – على مجانبة الفوضى والتطرف، وذلك شأن البواسل ..إذ أن أنفته الرجولية الكاملة تأبى عليه أن يزايد أو يشتط أو يتجاوز الحد إزاء أي مطلب من مطالب التعامل والحياة .. ومن جهة أخرى فإن النورسي يعتقد أن التطرف وضع استنزافي فاضح، ومهلك، ومنهك، ومن غير طائل .. فحياة الفوضى تتغذى على المكاسب العارضة، وتتصيد الأهداف الشاردة وغير المحسوبة ..فالفرد المتطرف مخلوق عنيد، يتصرف بلا اتزان ولا وعي نافع يجني منه غاية.. إنه حركة يائسة لا خطة لها ولا وجهة، إذ أن موقف التطرف إذا لم يترشد ويكتمل في صورة ثورة روحية أصيلة، فهو مجرد تمويه عن حالة الضعف التي تسكن المشاعر وتثوي في اللاوعي ..إن التطرف يأخذ أبعاده النفاذية متى كان عقيدة فاعلة، وبناءة، و متى كان على إدراك بموقعه وبقوته وبعلاقته مع الهدف الذي يتوخاه .. وتلك شروط كان سعيد الجديد قد استوفاها على أتمها، وانخرط يتنجزها في شكل برنامج ثوري حضاري.. بعد أن اختار لها القرآن العظيم دستورا .. لقد كان شخصية ترميمية لا هدمية..

أجل إن السلم لم يكن استراتيجية لديه فقط، وإنما كان إلى ذلك عقيدة، لأنه كان يدرك أن غالبة المثل السماوية لا تستدعي البأس المادي والصراع الحسي، لا سيما إذا كانت الأمة منهكة تعيش وضع النقاهة بل الاحتضار، ولكنها تقتضي الأخذ بأسباب التأثير النافذ، وذلك بتقوية الأمة وظهورها بالمظهر النموذجي ،الذي يشد إليه العالمين .. وتلك هي روح استمرارية التبليغ والدعوة التي أوجبها الاسلام على أبناء الملة حيال العالمين.

لقد كان النورسي على وعي بأحوال العصر وبتطورات الأحداث. وكانت قوته تظهر في متابعة عن كثب للمستجدات، سواء في مضمار السياسة أو الصناعة أو الاستراتيجيات، ومعرفته الواعية بالقوى المتصارعة.. لقد كان يتابع ما يجري في روسيا

---

٦ انظر الشعاعات ص.٤٤٤

حياله، وكان على دراية واثقة مما قامت وتقوم به اليهودية الصهيونية في العالم، لا سيما دورها في تفجير الثورات العالمية، مثل الثورة الفرنسية، والثورة البلشفية .[٧]. وما كانت تخطط له حيال بلاد الاسلام ..

من هنا كان النورسي أحرص ما يكون على ديمومة الخلافة وتقويتها، لأنه كان يدرك أن التفريق والشرذمة هو ما كانت تهدف إليه القوى العالمية الحاقدة، من أجل أن تضع يدها على العالم الشرقي .

لقد كان النورسي يشعر أن القوة الوحيدة التي تلجم شيطان الأعداء في هذا العالم هي قوة الإسلام، وأن قلعة الإسلام هي الخلافة التي تعصم الأمة من التمزق، وتكفل لها قوة الاستمرار والانبعاث، من هنا كانت دعوته إلى وجوب التمسك بالخلافة دعوة استراتيجية لا تهادن، ولا تقبل عن ذلك المرفق الجماعي، بديلا..

حاربوه بأسلحة القمع المادي والنكال المعنوي

ويظل سلاح الوصم وتشويه السمعة ومساعي تنفير المحيط وتأليبه ضد جهات التأثير والإستقطاب، هو وسيلة الخصم الغاشم، والفاشل، إذ يلجأ إلى وسائل التركيع الهمجية ويسلطها على الرجال والفذاذات إعلانا عن كلاله في مواجهتم .. لقد استخدم النظام بجبن وسقوط ضده كل أساليب التخنيع من أجل إطفاء نور الله وإحداث القطيعة والفصل بينه وبين الجماهير العطشى إلى من يسمعها كلمة رشاد ..وفي هذا النطاق فإن اتهام السفيانيين له بالجنون تارة، وبالانخطاف العقلي أخرى، بل وإن رميهم له بالمهدوية.. لهي جميعا مساع يائسة، ورعديدة، هدفت إلى التغطية عن وهج التنوير الذي كانت جهود النورسي تبعثه، وتعيد به النور إلى مقلة الأمة وبصيرتها .[٨]

شواهد على التواضع والتجرد بلسان الحال والمقال

لم ينفك النورسي يتحدث عن ذاته بتجرد وبتواضع تعبدي لا مراء فيه، لقد كان يقول بما قال به الغزالي من جواز اظهار المتعبد لعبادته، والتحدث بها إذا كانت النية تأثيرية، خالصة من الرياء ومن القصد الإدعائي..

---

٧ انظر الشعاعات ص١١٦

٨ الشعاعات ص٤٧١-٤٧٨

من هذا السبيل كان النورسي يتحدث عن ذاته ولكن بيقظة تشذيبية لا تمارى، فقد كان كثير التشدد في قهر النفس كي تظل في محرابها الرباني، بعيدة عما يدغدغ ويورث الغرور.

ولقد تناثرت اللقطات التي كان يشير فيها إلى بعض جوانب حياته في مختلف رسائله ..من ذلك حديثه عن شخصيته[9]. وحديثه الآخر في ذات المرجع ينفي عن نفسه صفة المهدوية [10]. ونجده في حديث له عن فضيلة الاقتصاد والنفقة. يكشف عن مستوى من مستويات سيرته ويظهر ما كان يلمس من بركات وإكرامات إلهية يخص بها قططا كانت تلازمه. . وجاء أيضا في كتاب "المكتوبات " شيئا مما يتعلق بسيرته على شكل إشارات[11]. كما اختزلت وقائع الجهاد والأسر وما بعدها في نفس الكتاب.[12]

ومما يشار إليه في هذا الصدد أن سيرة النورسي كما تناثرت في رسائله، أضحت اليوم مجموعة، وهذا بفضل الجهد المأجور الذي بذله خادم الرسائل الأبر الأستاذ إحسان قاسم أجزل الله له الثواب .. حيث جمعها في كتاب ووضعها بين يدي القراء مترجمة إلى العربية..

لقد عمر النورسي برعاية من الله ثابتة، بيد أن صحته كانت في تدهور دائم، وكان ينفر من المشفى والاستطباب، وكان الاعتقال والعزلة يثقلان عليه، وكان ذلك يزيد من اعتلاله، لولا أن إيمانه كان من العمق بحيث لا يترك لليأس منفذا..

لقد عاش حياة من التجند والاستنفار الدائمين، ثم إن تلاحق الأحداث شغله ومنعه حتى من الزواج، بل لقد اتخذ من تجربته الشخصية والاجتماعية، ومن عزلته، معيارا تجنيديا شاء أن ينهجه الأخيار في معركة المسير ..

ونجده على صعيد الوجدانيات يتحدث عن الأطفال والزوج بلا أدنى إحساس بالحرمان، بل كمن يكون له أبناء صلب، وما ذلك إلا أنه نظر إلى الذرية، وإلى الحياة بنظرة فوقية سرمدية ..

---

٩ الشعاعات ص٤٨٥
١٠ م.ن. ص ٤٩٧
١١ أنظر صفحة.٧٩
١٢ المكتوبات ص. ص.٩٤.

لمحة عن حياته بقلمه

"ولدت في قرية نُوْرْس .. وطوال فترة حياة التلمذة وتحصـيل العلـوم دخلـت في مناقشات علمية حادة مع كل من قابلته من العلماء، كنت أتغلب عليهم بفضل العنايـة الربانية، حتى بلغت استانبول، وهناك في جوها المشوب بآفة الشهرة والصيت لم أنقطع عن مناظراتي العلمية، إلا أن وشاية الحاسـدين والخصـماء أدت بي إلى أن أسـاق إلى مستشفى المجاذيب بأمر السلطان عبد الحميد – رحمه الله رحمة واسعة – ثم اسـتقطبت نظر حكومة الاتحاد والترقي، بناء على خدماتي أثناء إعلان الدستور وحادثة ٣١مارس . طرحت عليهم مشروع بناء جامعة في مدينة (وان) باسم مدرسة الزهراء، علـى غـرار الأزهر الشريف .. حتى أنني وضعت حجرها الأساس بنفسي، ولكن مـا أن انـدلعت الحرب العالمية الأولى حتى شكلت من طلابي والمتطوعين (فرق الأنصـار) وتوليـت قيادتهم، فخضنا معـارك ضـارية في جبهـة القفقـاس مـع الـروس المعتـدين في (بتليس)..ووقعت أسيرا بيدهم، إلا أن العناية الربانية انجتني من الأسر، وأتيت استانبول، وعينت فيها عضوا في دار الحكمة الاسلامية، وبادرت إلى مجاهـدة الغـزاة المحتلـين لاستانبول في تلك الظروف الحرجة، وبكل ما وهبني الله من طاقة، إلى أن انتهت حروب الاستقلال وتشكلت الحكومة الوطنية في أنقرة، فَنَظَرَتْ من جديد –تثمينا لخدماتي تلك – إلى مشروع تأسيس الجامعة في (وان)".[١٣]

"أرسل مصطفى كمال رسالتين بالشفرة إلى صديقي تحسين بك الذي كان آنـذاك واليا على مدينة (وان) يستدعيني إلى أنقرة، لكي يكافئني على قيـامي بنشـر رسـالة الخطوات الست، فذهبنا إليها، فعرض علي تعييني في وظيفة الواعظ العام في الولايـات الشرقية براتب قدره ثلاثمائة ليرة في محل الشيخ السنوسي وذلك لعدم معرفة الشيخ اللغة الكردية، وكذلك تعييني نائبا في مجلس المبعوثان، وفي رئاسة الشؤون الدينية مع عضوية في دار الحكمة الإسلامية، وكان يريد بذلك إرضائي وتعويضي عن وظيفتي السـابقة، وكان السلطان رشاد قد خصص تسعة آلاف ليرة ذهبية لانشاء مدرسة الزهراء – الـتي كنت وضعت أسسها – ودار الفنون(الجامعة) في مدينة "وان"، فقرر مجلس المبعوثـان زيادة هذا المبلغ إلى مائة وخمسين ألف ليرة ورقية، حيث وقع ثلاث وستون ومائة نائب من بين أعضاء المجلس البالغ عددهم مائتي نائب بالموافقة على ذلك..

---

١٣ الشعاعات ص٥٤٢

ولكنني عندما لاحظت أن قسما مما جاء من الأخبار في المتن الأصلي لرسالة (الشعاع الخامس)[14] ينطبق على شخص شاهدته هناك، فقد اضطررت إلى ترك تلك الوظـائف المهمة، إذ اقتنعت بأن من المستحيل التفاهم مع هذا الشخص أو التعامل معه ،أو الوقوف أمامه، فنبذت أمور الدنيا وأمور السياسة والحياة الاجتماعية، وحصرت وقتي في سـبيل انقاذ الايمان فقط ".[15]

"إلى هنا كانت حياتي طافحة بخدمة البلاد وفق ما كنت أحمله من فكرة خدمة الدين عن طريق السياسة، ولكن بعد هذه الفترة وليت وجهي كليا عن الدنيا، وقبرت سـعيدا القديم – حسب اصطلاحي– وأصبحت سعيدا جديدا يعيش كليا للآخرة، فانسللت من حياة المجتمع ونفضت يدي عن كل ما يخصهم، فاعتزلت الناس تماما واعتكفت في (تل يوشع) في استانبول، ومن ثم في مغارات في جبال (وان، وبتليس). بـت في مجاهـدة مستديمة مع روحي ووجداني، انفردت إلى عالمي الروحي رافعا شعار : أعوذ بالله مـن الشيطان والسياسة .. صرفت كل همي ووقتي إلى تدبر معاني القرآن الكريم .. وبـدأت أعيش حياة (سعيد الجديد) ..

أخذتني الأقدار نفيا من مدينة إلى أخرى .. وفي هذه الأثناء تولدت من صميم قلـبي معاني جليلة، نابعة من فيوضات القرآن الكريم.. أمليتها على من حولي من الأشخاص، تلك الرسائل التي أطلقت عليها (رسائل النور)، إنها انبعثت حقا من نور القرآن الكريم . لذا نبع هذا الاسم من صميم وجداني، فأنا على قناعة تامة ويقين جازم بأن هذه الرسائل ليست مما مضغته أفكاري، وإنما إلهام إلهي أفاضه الله سبحانه على قلبي من نور القـرآن الكريم، فباركت كل من استنسخها..".[16]

"إنني في هذا الوقت الذي أقترب فيه إلى القبر، وفي هذا الوطن الذي هو بلاد اسلامية تسمع نعيق أبوام البلاشفة .. هذا النعيق هدد أسس الإيمان في العالم الاسلامي، ويشـد الشعب ولا سيما الشباب إليه، بعد سلب الإيمان منهم. إنني بكل ما أملك من وجـود أجاهد هؤلاء وأدعو المسلمين وبخاصة الشباب إلى الإيمان، فأنا في جهاد دائم مع هـذه المجموعة الملحدة، وسأمثل إن شاء الله في ديوان حضوره سبحانه وأنا أرفع راية الجهاد،

---

١٤ وهو شعاع يتأول فيه النورسي حديث السفياني ويطابق من خلاله بين هذه الشخصية التي يتنبأ بها الخبر وبين شخصية مصطفى كمال.أنظر الشعاعات ص.١٠٩

١٥ الشعاعات ص٤٢٠

١٦ الشعاعات ص٥٤٢

وكل عملي ينحصر في هذا، وأخشى ما أخشاه أن يكون الذين يحولون بيني وبين غايتي هذه هم بلاشفة أيضا.

فغايتي المقدسة هي التكاتف والتساند والترابط مع كل من يجاهد أعداء الإيمان هؤلاء.

أعطوني حريتي وأطلقوا يدي كي أعمل بالتكاتف مع القوى المجاهدة في سبيل إعلان التوحيد وترسيخ الإيمان في هذه البلاد، وإصلاح الشباب المتسمم بالشيوعية ".[١٧]

وكان طبيعيا أن تظل العواصف تتقاذف تجربة الإصلاح والصمود التي أبحر فيها ومن خلالها النورسي يتحدى مخططا جهنميا رآه يتحول إلى واقع يردم وجه حضارة الإسلام في بلاده .. وهكذا غدا النورسي نزيلا لإقامات جبرية متواصلة ولمعتقلات ومحاكمات لا تنتهي .. كل ذلك لم يفت في عضده .. لقد باشر العزلة بفتح أبواب معنوية أعرض وأوسع في وجه المستقبل من خلال رسائل النور التي تحولت إلى برنامج تكويني استراتيجي.. لقد كان عدد تلك الرسائل يربو عن المائة والثلاثين رسالة "لا تبحث بحثا مقصودا عن أمور الدنيا والسياسة، وإنما تخص كليا أمور الآخرة والإيمان". [١٨]

بل لقد ربطت في رؤيتها بين الدنيا والآخرة، وألغت الهوة بين الدارين، وجعلت سعادة المؤمن في هذه الدار الدنيا رهنا بسعادته هناك ..من هنا لبثت تُجَيِّشُ النفوس على الحزم والعزم والأخذ بالأسباب..

لقد خرجت هذه الرسائل بفذلكات الكلام والتوحيد والفلسفة من نطاق الافتراضية الأسطورية والماورائية، إلى واقع عيني مشهود، وما ذلك إلا لأنها اختارت نهج سبيل القرآن العظيم الواقعي، والعقلي، والذي لا يرجم بالغيب ..

لقد خططوا لإعدامه بالقانون، وحيث احتواهم بسياسته الاتقائية الرشيدة، عمدوا إلى تسميمه .. وهكذا تعرض لإحدى عشرة محاولة لتصفيته.. وكان للشدائد والضغوط أثر كبير في إهدار صحته واستنزافه وجعله يعيش عرضة للأمراض والنقاهات ..

لقد سعوا إلى قتل التجربة الاصلاحية بكل السبل، لكن حكمة التحصن وقَتْهَا شرورهم، فمضت الرسائل تبني أجيال النور، بعد أن أقبلت عليها الفيئات تستكتبها خلسة، وتتواصل مع صاحبها وهو يخترق الآفاق سجينا ومنفيا ومحاكما..

---

١٧ الشعاعات ص٥٤٤

١٨ الشعاعات ص٥٤٣

ومضت عقود والنورسي يغذي نفوساً هيأها الله لأن تتماسك وتصمد في وجه التغريب والانسلاخ عن العقيدة..

وعاش النورسي من جهته يكيف آراءه واجتهاداته، وانتهى به المآل إلى أن يجدد صلته وتأثيره في عالم السياسة، ليس من موقع المصالحة والتداخل، ولكن من موقع الحكمة ومراعاة مكاسب الاسلام.. وتجسد ذلك في إبدائه رأيه في بعض المراحل وإعرابه عن تعاطفه مع بعض الأحزاب التي كانت تسالم الاسلام خلال عهد الديمقراطية قصيرة العمر التي عاشتها تركيا في خمسينات هذا القرن..

لقد عاش النورسي فلتة، ومات فلتة، وكانت واقعة ارتحاله إلى الرفيق الأعلى محفوفة بمأساوية قدرية فيها كثير من الإشارات الربانية النامة عن صلاح النورسي وطهره..

وقد كتب الله له أن يعيش ضربا آخر من النفي بعد رحيله، إذ أخفى النظام العسكري قبره، وغيبه عن الأنظار.. وذلك هو شأن الربانيين، يعيشون الانقطاع الكلي عن الدنيا، فلا تظهر لرياضهم — غالبا — آثار.

* * *

الفصل الثاني

النورسي.. الإنسان

"..ياطلاب رسائل النور ويا خدام القرآن نحن جميعا أجزاء وأعضاء في شخصية معنوية جديرة بأن يطلق عليها : الإنسان الكامل.." [١٩]

كان له نظر جدلي دياليكتيكي كما يقولون، ولكنه ديالكتيك مؤمن، فالله مصدر الفعل وكل شيء مزمم مشدود على المخلوق، وخيرُنا من إرادة الله ولكن الشر مصدره العدم الذي قدر الله أن نكتسب منه أفعالنا حين تشذ عن سواء السبيل ..

إنما النورسي كان يرى تقابل الحركة والسكون أساسا للحياة، وناموسا رتب الله في ضوئه النظام الحياتي.. فهارمونية الحياة تقوم على تفاعل الإيقاعين معا ..إذ من المعلوم أن السكون والهدوء والرتابة والعطالة نوع من العدم والضرر، وبعكسها الحركة والتبدل.. فالحياة تتكامل بالحركة وتترقى بالبلايا، وتنال حركات مختلفة بتجليات الأسماء وتتصفى وتتقوى وتنمو وتتسع، حتى تكون قلما متحركا لكتابة مقدراتها، وتفي بوظائفها، وتستحق الأجر الأخروي". [٢٠]

شخصه، أحواله، ومنهجه في حياته الخاصة

في المكتوب السادس عشر يتحدث النورسي عن الأسباب التي دفعته إلى هجر السياسة، فهو يرى أن سعيدا القديم بعد أن جرب طريق السياسة قرر أن يهجرها لأنه رأى فيها عائقا حقيقيا يعوقه عن أداء أهم واجباته.. فضلا عن خطورتها في الإضرار

---

١٩ اللمعات ص.٢٤٣.

٢٠ المكتوبات ص ٥٤

بمروءة الفرد الملتزم بمبادئ الاسلام ..إذ أن أغلب مواقفها "خداع وأكاذيب" زيادة على احتمال أن يكون الشخص عميلا للأجنبي وآلة في يده، شاعرا أو غير شاعر.

ومن الثابت أن تحرك المرء خارج صعيد السياسة، يضمن له حدا من الحرية، إذ هو بتلك الحال لا يحسب على الغير، ولا يضطر لأن يحسب – هو– للغير حسابا، إلا ما تقتضيه إنسانية الانسان من تكيف في النطاق الاجتماعي العام، لا يضر بمبدأ الحرية الشخصية ..

فانتماء الانسان إلى حزب سياسي أو تنظيم مدني ما، من دواعيه أن يلزم الفرد بالتحرك وفق مقتضيات سياسة الحزب وتعليمات التنظيم، وكل مخالفة لها تتسجل على المعني ويدفع ثمنها.. وإذا علمنا أن الأحزاب تقيم برامجها على خطط منفعية بحتة، تراعي منظور القادة والكتل المتنفذة، وهو منظور –أساسا – براغماتي دنيوي، لا تهمه مسائل الأخلاق أو الشرع إلا ظاهرا ولمقاصد تكتيكية استهلاكية ، الأمر الذي يتعارض تماما مع الاستقامة وصحة العقيدة.. أدركنا سر نفور النورسي من احتراف السياسة، بعد أن جرب السير في طريقها تلك الفترة التي تخللت الحرب وأعقبتها..

لقد كانت تجربته السياسية تلك بحق رافدا تعليميا مكّنه من الاطلاع على ما يعتمل خلف الستارة .. لقد فَقِهَ لعبة الكواليس رغم كونه ظل يعاين الوقائع عن بعد، ممسكا عن الانغماس في الوحل..

إن الأخذ بمبدإ عدم الانتماء الحزبي الذي اتبعه النورسي كان موقفا راسخا ومنسجما مع الاتجاه الروحي والفكري الذي كان ينخرط فيه وينزع إليه منذ الصغر ..

ولقد تزكى ذلك الانتساب الحر إلى عالم السياسة لأن صاحبه لم يكن تابعا للدولة بأي شكل من الأشكال التبعية، فهو ليس موظفا عندها ولا يرتبط بمرافقها العمومية.. وهو إلى ذلك غير منتسب للمعارضة، لأن المعارضة الحق – كما يعتقد النورسي – تجسدها القوة، وتلك وسيلة لا سبيل إليها، باعتبارها من شأن الدولة نفسها، لأن الدولة هي منظومة مؤسسات عمومية تقوم على فرض إرادتها وإقامة آلياتها عن طريق السلطة البكماء، سلطة العسكر ..

من هنا يتعذر على أي معارض – كما ظل النورسي يؤمن – أن يتطلع إلى تحقيق مطمح اعتراضي، سافر، ومباشر، لا توافق عليه الجهة الحاكمة التي احتازت القوة والنفوذ واستأثرت بالقرار في كل الميادين..

كما أن النورسي لم يكن معارضا عن طريق الفكر وحرية التعبـير، لأن المجتمـع المحكوم بالقوة – مثل المجتمع الذي عاش فيه- لم يكن يسعه أن يلتفت إلى الفكر، فهو مجتمع غير مهيأ لسماع المحاورة أو تقبل التنوير السلمي، لأنه يسير بمنطق الإلزام الـذي لا مجال فيه للإرادة والاختيار الحر..

لقد كان النورسي على وعي بإمكاناته الشخصية في إقامة معارضة جماهيرية تواجـه الحكم وتسمعه صوتها عاليا.. بيد أنه كان يضرب كلية عن السير في ذلك السبيل لمـا كان يقدر من جسيم المسؤوليات حيال ما يلحق الناس من الأذى.." إن كان التـدخل بالقوة، أي بأن أظهر المعارضة بإحداث المشاكل لأجل الوصول إلى هدف مشكوك فيه، فهناك احتمال الولوج في آلاف من الآثام والأوزار وإلقاء الأبرياء فيها بناء على احتمال أو احتمالين من بين عشرة احتمالات، لأجل هذا فقد ترك سـعيد القـديم السياسـة ومجالسها الدنيوية وقراءة الجرائد مع تركه السيجارة" [٢١]

لقد كان وازع الاندماج في السرمدية يلح عليه، فلذلك ما فتئ يصرح بأنه يتجافى عن ملابسة السياسة التي هي مغنم زائف ووقتي، لقاء تطلعه إلى أن يعـيش الأبديـة .. فالسياسة ظلت بالقياس إليه تمثل التجربة الحياتية التي تنتهك فيها إنسانية الانسان الخيرة

.. لذلك كان النورسي يحرص على أن يظل وفيا لذاته، مصون الشرف والعقيدة، لا يدنس إيمانه طمع ولا طموح تافه.. [٢٢]

ذلك لإنه يعي دوره الاجتماعي، بوصفه عالما دينيا ملزما شـرعا بتنـوير النـاس وخدمتهم في ما يعود عليهم بالفائدة الدائمة .. من هنا قَـرَّ اختياره علـى أن يشـرك الفئات من حوله، وبطريقة التوجيه الخالص، في ما كانت تتفتح له أبوابه في حقل الروح واليقين والاجتهاد..

لقد كان يقيس سلوكه بمنظار الطهر والعفاف الكريمين.. لذلك استشنع أن يحتـرف السياسة التي ظلت دواعيها تلاحقه على مدى مراحل العمر .. واستفظع أن ينبري لأداء أدوار ليس وازعها الإيمان الروحي الخالص، بل الآليـة الحزبيـة والنظـرة المصـلحية والحساب الدنيوي المغلوط.

---

٢١ المكتوبات ص.٧٧ .

٢٢ م.ن. ص ٧٧ .

وإذا كان النورسي قد نزه نفسه بهذا الاختيار الإرادي عـــن التـــردي في حضـــيض السياسة، فإن تنـــزيهه لعدة الترقي الروحي التي لاذ بها وأناط بها وجوده ،(أي القرآن العظيم)، والتأبي عن أن يقحم قدسيتها في غمار المواجهات والمهاترات السياسية، ينبغي أن يكون أقوى وآكد ..

وفضلا عن ذلك فإنه كان على وعي بما سيكون لموقفه – إن هو قارف السياسة – من انعكاس سلبي على الجمهور، إذ لا أقل من أنه كان سيجرهم وراءه إلى الخـــوض في السياسة والانتماء إلى جهة حزبية ما..

لقد كان تَصَوُّنُهُ عن ملابسة السياسة يحقق له غايتين اثنتين :

الغاية التعبدية التي تمرح بها روحه في أفياء الملكوت.

والغاية الكفية الترشيدية التي من شأنها أن تضمن إمساك كثير من الناس والأتبـــاع خاصة ،عن مقارفة آثام الحزبية، وعدم تهافت أو تورط الجمهور في اللعبـــة السياســـية اقتداءا بشيخهم.. ذلك أن انشغال الجماهير بالسياسة، والانخراط في آلياتها النظامية، لا سيما حين تغدو دفة الحكم في يد الاخسرين دينا، سيعطي الفسحة لهؤلاء مـــن أجـــل المضي في المناورة والتدليس..

وعندما يمسك النورسي عن غمارها، فإنه يرغب في تعطيل طوائف مـــن النـــاس لا يشاؤها أن تدخل الحلبة الشيطانية، إذ من شأن ذلك أن يكفل جوا من التنشيط يوســـع على السماسرة ويروج لسلعتهم الزائفة..

لقد كان موقفه دعوة بلسان الحال إلى المقاطعة.. وإن الحكمة لتظهر الآن بالتأكيد، إذ أن تهزيل الجماهير لصفوف الأحزاب، سيدخلها — لا محالة – في دوامـــة الإقـــالات وبناء التحالفات، وما أقصره من حبل..

خلق التجمل والاحتساب

لقد كان النورسي يلزم نفسه اتباع خُلُقية تَجَمُّلِيَة سمحاء إزاء ما كان ينالـــه مـــن طعنات الأعداء.. على أن تصبّره إزاء ما ظَلَّ يصيبه منهم لم يكـــن يتلـــبس المســـحة الانصياعية التي تجعل المرء يعطي خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن .. بل لقد كان تصبّرا قائما على منطق تجردي إيماني خالص من جهة، وعلى تقدير ســـديد للظـــروف السياسية التي تتحكم في الواقع من حوله من جهة ثانية..

ثم إنه كان على يقين من أن الإلتفات إلى مثل تلك الإعتبارات المتعلقة بالكرامة الشخصية، من شأنه أن يشغله عما هو فيه من توجه إيماني جارف نحو الخالق، رب العالمين..

فلذلك كان يقدر أن الإهانة حين تصيبه من الغير، وتستهدفه، فإنها في الحقيقة لا تعنيه ولا تحمله تبعتها أو الرد عليها، إذ هي موكولة بالوضع القائم من حوله، وبالجهات المسؤولة عن تثبيت ذلك الوضع الذي لم يكن يتيح له أن يدافع عن نفسه، فهو من هذا الجانب معذور إن تجاهل الضربات وتغافل عن النهشات ..

والحقيقة أنه لم يكن يتقبل الظلم عن طبيعة أو جبن أو ما إلى ذلك، فقد جبل على الردود الساخنة والتحدي الصريح، ولكنه – بالرغم من ذلك الطبع المتأهب دائما للتحدي – كان يتمالك متى ما أحس أن في السكوت عن الضيم ييسر ولو خطوة على طريق إعلاء الراية، وإحياء قيم الشريعة ..

إنه بمعنى آخر لم يكن يخاف في الله لومة لائم، لذلك كان لا يسكت عن الاستفزاز والأذى، وإن هو سكت فإنما يسكته الاحتساب المبرأ من الوصمة، ومراعاة مصلحة الدعوة، وليس مخافة النكال أو القهر..

" فلابد أن أسعد انسان هو من لا ينسى الآخرة لأجل الدنيا، ولا يضحي بآخرته للدنيا، ولا يفسد حياته الأبدية لأجل حياة دنيوية، ولا يهدر عمره بما لا يعنيه، ينقاد للأوامر انقياد الضيف للمضيف، ليفتح باب القبر بأمان، ويدخل دار السعادة بسلام.. بناء على هذه الأسباب لا أبالي بالمظالم التي نزلت بي شخصيا، ولا أعير للمضايقات التي تحيط بي، وأقول إنها لا تستحق الاهتمام، فلا أتدخل بأمور الدنيا.". [٢٣]

لقد ظل يتلقى الطعنات بسبب اشتغاله بالقرآن العظيم، وظل يوكل أمره في ما يناله من ضر إلى الله، وظل يحتسب الضربات ثوابا وأجرا عند ربه..

" إن العنت الذي يذيقني إياه أهل الدنيا، والأذى والتضييق علي منهم، إن كان تجاه نفسي القاصرة الملطخة بالعيوب، فإني أعفو عنهم، لعل نفسي تصلح من شأنها بهذا التعذيب، فيكون كفارة لذنوبها، فلئن قاسيت من أذى في هذه الدنيا المضيفة، فأنا شاكر ربي، إذ قد رأيت بهجتها.." [٢٤]

---

٢٣ المكتوبات ص.٨٩.

٢٤ المكتوبات ص.٨١.

لقد كان على إدراك بأن ما يناله من أذى وعسف هو الثمن الذي على من يشتغل بالقرآن أن يدفعه، لذا رأيناه يؤكد بصورة دائمة أن مقاصد النيل منه لا تحقق غايتها، إذ أن المستهدف المقصود كان هو القرآن، والقرآن شمس لا تواريها ستائر ولا حجب لأنه من نور الله ..

لقد لبث يصرح متحديا مكائد أعداء القرآن قائلا : إن كان قصدهم من التهوين من شأني وإسقاطي في أعين الناس يخص الحقائق الإيمانية والقرآنية التي أقوم بتبليغها، فعبثا يحاولون لأن نجوم القرآن لا تسدل بشيء، فمن يغمض عينه يجعل نهاره ليلا لا نهار غيره.." [٢٥]

لقد تنوعت أوجه الصبر والاحتساب لديه.. فقد رأيناه يتجاوز عما كان يناله من طعنات بعض المتقربين إليه . لقد كان يكشف أحيانا عن مواقف تحولت بأصحابها من موقع مصادقته والتقرب منه، إلى موقع مجافاته والابتعاد عنه، وكانت تتكشف له الأسباب التي وراء ذلك التحول، إذ كانت دوافعها إما الضعف وبيع الذمة إلى الشيطان، وإما الحسد وتحقيق البواعث النفسية الخسيسة ..

وطبيعي أن تجد السلطة في ذوي النفوس الضعيفة ضالتها لتسخيرهم في ذلك السبيل التضييقي، إذ يكفي التخويف أو الإغراء حتى تراهم ينساقون في طريق اللؤم والتنكر لمواقفهم، وكان النورسي بروحه الكبيرة وبإيمانه العميق وتجاربه الصميمة يتفطن إلى ذلك، فلا يسعه إلا أن يعرب عن اشفاقه على أولئك المنقلبين، لأنه كان يدرك ضعفهم، وقابليتهم الإمتحانية الهشة، فكان من ثمة يرثي لهم إذ يراهم يخسرون امتحانا كان يتطلع من أعماقه إلى أن يرى الناس أجمعين يكسبونه، امتحان الانتصار على الذات..

كما أن ما كان ينال الدعوة من ضربات ونكسات، تتمثل في الإيقاف المتواصل له ولأتباعه وطلابه، وفي اختلاق المزيد من العوائق والأسباب الضاغطة التي تزهق الحركة القرآنية وتعترض طريق اشعاعها الذي كان ينفذ ببطء — وبلا هوادة – إلى الآفاق من حوله.. كل ذلك كان يسحقه، ولا يفتأ يلقي به في دوامة الأسى والحسرة، لولا جذوة حية، متأججة من الإيمان كانت تزداد توهجا كلما اجتاحته العواصف ..

ولقد فتئ صموده الخارق، واجتيازه العجيب للمحن والملمات يهيِّج الأعداء ويفاقم من حقد المتغربين المتحالفين ضد الملة والأمة، فكانت جحافلهم لا تتردد في انزال النقمة

---

٢٥ المكتوبات ص.٨٢.

على النورسي وأتباعه، فهي لا تكف عن ضرب الحركة والتنكيل بالأتباع في كل حين، لا سيما عندما استيقنت من توسع الرقعة النورانية المنبعثة من مشكاة القرآن التي كـــان تبثها – متألقة – رسائل النور ..

المصائب والملمات تزكي احتسابه الروحي

ولقد كان النورسي في كل ضربة تطاله، وفي كل ملمة تحل به، ينحني –وبكل ثبات إيماني وإصرار إحتسابي – على الجروح يضمدها، وعلى التمزقات يرتقها، والتكسرات يجبرها، والهزات يسكن من دمدمتها، شأنه في ذلك شأن الربان المحنك، تتلاطمه هوج العواصف فلا يسعه إلا الكفاح من أجل الصمود والاستماتة في سبيل البقاء..

وطفق احتسابه يتزكى من خلال تلك الإصابات الربانية التي كان يُبتلَى فيها بفقدان الأعزاء وذوي القربى، حيث كان يعرب عن تأثر دامغ، وإحساس فاجع بالوحشة والعزلة والانبتات..

لقد كان وعيه بالموت وعي المؤمن المدرك أن الطريق يستوعبنا جميعـــا نحـــو ذلـــك الصعيد الذي أعدته القدرة الإلهية من خلال إضفاء نعمة الخلود لذوي الحظ ،المُنَعَّمِين.. لكن النورسي وعلى الرغم من ذلك، كان يعرب في تلك الأحوال عن حسرة مشبوبة ولواعج لاهبة.. وكانت تند عنه عواطف الكمد والإحتساب ..

لقد كانت – مثلا – فاجعته كبيرة ومحسوسة وعلى وقع بالغ حين فقد ابن أخيـــه عبد الرحمان الذي كان بمثابة ولده الصلب.. لقد طفق يذكره بالحنين وبمشاعر الثكـــل على الدوام، وكان استدعاؤه لذكراه يجسد ذلك التزاوج من الحسرة والإلتياع الـــذي كان النورسي يعرف كيف يرتقي به ويحوله إلى إيمان واحتساب..

وكذلك كان حاله مع مقربين آخرين فقدهم في ظروف كانت شدتها تزيد من وطأة المحنة عليه، فكان خلو المكان منهم في تلك الظروف يجعله يعيش تحت كلكل الوحـــدة وانعدام السند والمواسي..

لكنها حال كانت لا تبرح أن تزايله .. إذ كانت بواطنه موصوله على الداوم بـــالله، وكانت الملمات والعوارض النفسية الابتئاسية غالبا ما تتحول إلى مواقف للخشوع الذي ينتفض فيه القلب دفعة من مشاعر الضعف، ليعاود الاستظلال بالإيمان..

فالإحساس بالوحدة لابد وأنه كان يطرق جوانحه أحيانـــا، وإن ظلـــت الخـــواطر الحميمية عنده مناطة بجو الإيمان الذي يعمر قلبه، لكن الضعف البشري كان حتما يستثير

بواطنه – على نحو أو آخر، ومن حين لآخر – وكانت – حتما – لحظات الضعف تأخذ لديه صورا وأحوالا تنازعه فيها روحه بكيفية أو أخرى، وتشده إلى هذا المنزع أو ذاك.. إذ لم تَخْلُ نفس من خلجات تساورها..

بل إن وطأة الاستغراق في سيولة الزمن الذي تعيشه نفس المنقطع، المتبتل، كانت تستنزفه وتنهكه، إذ لم تكن الفجاج التي كان يخوض غمارها كلها إشراقات ومباهج، بل إن في نفس الإنسان نوازع إلى الكمون والوهن ما تنفك تعاودها وتكدر جلاوتها، فلا تخرجه منها إلا نسائم التأمل والإيمان حين تهب على القلب من جديد، وتعمل على إنعاش روضته وتخضيلها بقطرات الندى الروحي..

لقد كان الرسول ﷺ يجد حيويته وراحته في الصلاة، وظل أهل الكشف يتخففون من وعثاء السفر النفسي، باصطناع المنشطات القلبية كي تنجلي بها عنهم الغمرة .. فلا غرو أن يكون ذلك أيضا هو حال النورسي إذ أنه – بما انطوت عليه نفسه من نوازع بشرية، وبما احتازته تلك النفس من روحانية وحب استشراف، كان يعبر لحظات مجاهة الذات ومواجهة النفس الأمارة بكثير من الاقتدار والتوفيق ..

وربما كانت نوبات العزلة تحمله على التفكر في ماضيه، وعلى الاسترسال الساعات، أو الأيام، في استدعاء الذكريات .. وربما كان ذلك جزءا من تلك الحال التي تسعى فيها القناعة الإيمانية إلى أن تتطهر من شوائب تلك الأحاسيس الحميمة التي كانت تضاعف من آثارها الشيخوخة المتمادية وكرور الأيام على وتيرة رتيبة لا تفتأ تعمق من كدر الأسى في النفس، لولا اعتصام روحي كان يستجيب به النورسي –وبصورة مدهشة – لتلك الأحوال المتوترة، وذلك بعروجه القلبي إلى شجرة الإيمان كلما نشبت فيه السآمة أظافرها وألحت عليه الخواطر بالابتئاس جراء الإحساس بالخيبة أو بالإفلاس، أو ما إلى ذلك..

الإقتصاد والتعفف في النفقة وترشيد القوت

لقد فتح النورسي كتاب حياته على الأشهاد .. فهو كتاب لم يكن يحوي من ألوان المباهج ومظاهر العز الدنيوي ما يعطي لبياناته طابعا افتخاريا ويجعلها مجرد صيغة للتباهي الأخرق ..

لقد طفق يتلو علينا وقائع تلك الحياة، ليجعل منها معيارا صالحا تنبني على وفقه أو قريبا منه، المصائر ..

لقد سلك تجربة معاشية متعالية، وكان لها ضريبتها الباهظة، ولكونه أيقن أنها تجربة جديرة بأن تعاش، فلم يتردد في الكشف عن أسسها وعن حميمياتها، وعيا منه أنه مربي أجيال، ومن حق الأجيال عليه أن تتطرق إلى معرفة الجوانب التي لا يُكْشَفُ عنها عادة..

لقد كان يدرك أن سيرته تقوم على الاستثناء في التصرف وفي التدبير وفي التقدير، من هنا دأب على عرض تفاصيل تلك السيرة على القراء، دفعا لهم على خوض السبيل الذي سار هو فيه، وذاق حلاوته التي قد لا يقتنع بها إلا من ذاقها بنفسه..

ومما وجدنا النورسي يكشف عنه من جوانب حياته الشخصية مجال النفقة والاقتصاد كما جربهما ..

لقد كان تدبيره المحكم لحياته، وسداده المتقن في تسيير شؤون معاشه، مظهرا من مظاهر توفيقه وحصافته.. لقد اعتمد أسلوب التقشف في النفقة، ولم يكن ذلك الأسلوب الكفافي الذي اتبعه، ينم عن خسة في الطبع كما يقول، ولا كان خوفا من الحاجة، أو كان يتضمن شعورا رجائيا سلبيا.. ولكنه كان منهجا حياتيا يتساوق مع نظرة إيمانية كلية تتفاعل مع مسطرة القناعة والعفة على كافة الأصعدة، وخاصة منها الصعيد المعاشي، لما يتميز به جانب النفقة وتلبية مطالب النفس من حساسية ..

إذ أن تلك المطالب إذا لم تكن مكفولة بالجهد الذاتي ،فإنها ستزري لا محالة بالإنسان، بل وتهون من شأنه، وتجعله كَلاًّ بين الناس وعالة على الغير، الأمر الذي يجرده من حريته، ويعدمه عزته، وذاك ما يفقده حتى أهلية الأنخراط في سلك المعبودية الصحيحة التي هي قمة الإعتداد، لأنه يجد نفسه غير مستعصم بالله حق الاستعصام ..

لقد أيقن النورسي الذي تربى في أجواء التصوف والصوم وتربية الروح، أن ضبط نظام معيشته هو ركن تقوم عليه سياسته الروحية والحياتية كلها..

لقد كان يدرك أنه انخرط في مضمار المنازلة الروحية، من هنا كان وعيه بما للاقتصاد من أهمية ومردودية نفسية واجتماعية زيادة على الفائدة الروحية الحاسمة في كسب معركة الإيمان..

لقد أيقن أن النفس التي لا تلجمها قناعة راسخة، ولا ترتضي بنظام الكفاف، ولا تحتمل حمْيَةً قُوتيَةً تتهذب بها من نوازع همها وتوقها الذي لا يحد، هي نفس ستودي بصاحبها لا محالة، وتقعد به عن ربح الرهانات ..

لذلك حرص النورسي على أن يسلك سياسة معاشية تقوم على تلبية أدنى الحاجيات، تحريرا للنفس من قيود المطالب ..

لقد عاش النورسي على البركة، إذ سرعان ما تبدت له عطاءات الله تتزايد وهو على سيرته المعاشية تلك، إذ أن كل لقمة كان يصيبها مما كان يتوفر عليه من رزق بسيط كان يجد لها أثرها النفسي ويقدرها بجماع عواطفه على أنها فضل من الله وارف، لا يقابل لديه إلا بالشكر القلبي العميق..

لقد حدثنا عن أسلوب عيشه وكيف كان طعامه يقوم على لون محدد لا يعدوه، وكيف أن ذاته كانت لا تحمل إلا ما ارتضاه لها من طعام، بغية الإرتقاء بها إلى منزلة أسمى وأصفى من الروحانية..

لقد أخبر – في معرض توضيحي، دفعا لما تكون النفوس تتوهمه حياله من تقاضيه المال أو تسلمه المعونات من جهة ما – أنه كَفَتْه خلال شهور ستة، ستٌّ وثلاثون رغيفا، لم يستطع إكمالها، وبقي منها عدد لا يعرف متى ينفد..

لقد كان يتبع نهج الاعتماد على النفس في تحصيل الرزق، فقد ظل طيلة خمس سنوات يتقوت مما توفر لديه من راتب – أرغمه أصدقاؤه على قبوله – عن سنتي خدمة قضاهما في دار الحكمة ..

لقد ظل يصرح أنه يعيش بـ"الاقتصاد والبركة "، وأنه لا يقبل من غير الله مِنَّةَ، وأنه قرر أن لا يقبل عطاء أحد طول حياته..[٢٦]

بل لقد أكد – بهذا الخصوص – أنه كان يتأذى بطعام الآخرين، وأن ذلك أقنعه بأن طعام الآخرين ممنوع عليه..[٢٧]

ولا يعني هذا أن النورسي لم يعش الحاجة، بل لقد رأيناه يذكر أن الخصاصة قد ألحت عليه في بعض الظروف، ما دفعه إلى أن يتخذ من التدابير الاسترزاقية ما قدَّر أنه يكفيه المؤونة.. لقد صرح أنه اضطر مرة إلى تكليف بعض المقربين إليه أن يطبع رسالته التي كتبها عن الحشر، وذلك بقصد كسب القوت وتأمين المعيشة..[٢٨]

---

٢٦ المكتوبات ص ٨٢.

٢٧ م.ن. ص٨٣ .

٢٨ المكتوبات ص.٨٨.

ولا بد من التنبيه إلى أنها كانت محاولة ربما فريدة، إذ أن النورسي لم يستثمر فكره ورسائله في الاسترزاق قط، بل لقد ظل يهب فكره احتسابا .. لقد كان ديدنه أن يشرك الأمة في ما كانت السوانح الربانية تنفحه به من وضّاء القبسات والفوائد..

كان يلمس آثار البركة في حياته المعاشية بجلاء لا مراء فيه

وفي هذا الصدد نسجل نعمة البركة التي ظلت مظاهرها تتجلى له على مدى انقطاعه وعلى أكثر من وجه..لقد كان يلمسها في الغذاء المتوفر، وفي الرزق المسوق له من وراء مَن كان يؤمه من ضيوف، وفي استمرار إنفاقه من مدخر بسيط كان غيره قد استهلك مثله أضعافا مضاعفة..

كما تظهر نعمة البركة في ما كانت يده تجود به على الغير، وفي الحاجة التي يراها تصيب غيره ولا تدنو منه، ويراها أيضا في داوم تلك الفرخة التي امتلكها على التبييض له مدار الشتاء .. وتظهر في ثوب الجاكيت الذي اشتراه مستخدما ولكن مرت عليه سبع سنوات وهو هو..

لقد كان يجنبه التطلع إلى دنيا الناس ما كان يملأ قلبه من فيوض إيمانية لم تستبق موضعا لغيرها يستحق أن يستحوذ على تفكيره.[٢٩]

ولقد ظل دائم الحديث بنعمة البركة، وبأفضال الله عليه .. بل لقد صرح مرارا أن فضل الاشتغال بالقرآن كان أساس ومصدر ذلك الفضل الذي شمله الله به، فلم يتركه عالة أو عبئا على أحد.. ولا غرو أن نجده يعلن في أكثر من موطن أن خدمة رسائل النور، والمواظبة على المدارسة الروحية قد كفته – ببركة القرآن العظيم – مؤونة التفكير في الرزق، وجعلت القليل الذي يملكه، يزكو ويستوفي الحاجة وزيادة..

وواضح أن النورسي قد سلك سبيل السلف الصالح في هذا المجال، فقد بنوا سلوكهم وتدبيرهم على التقشف وتربية النفس، ومراعاة المهيئات الروحية التي ترتفع بالذات وتعطيها الثقل المعنوي الذي يجعلها أجدر بالتكريمية..

ولقد كان الرسول ﷺ يتبع سياسة التقشف والاقتصاد..

---

٢٩ م.ن. ص ٨٦

وواضح أن النورسي من خلال الكشف عن جوانب من حياته، إنما كان يوعز للأمة قاطبة، لا سيما وهو يراها غائصة في الفاقة والخصاصة، أن تتبنى سبيل الاقتصاد والقناعة وحسن التصرف، تخفيفا لمعاناتها المعيشية المزمنة..

كما أن سلوك النورسي في هذا المجال الانفاقي، إنما كان ينهج السبيل الأوفق والأكثر انسجاما مع روح المدنية الروحية التي كان يوقن أن الاسلام يرتضيها للعباد، إذ ستطهرهم وتزكيهم وتنأى بهم عن واقع الانغماس المادي والاستهلاك الترفي الذي كانت التحفيزات المدنية الغربية تنميها في النفوس وتغرسها في القلوب..

فسياسية القصد والاقتصاد كانت تربي في النفس القدرة على صد إلحاح الشهوة، وتروض الملكات على حسن الأخذ بالضروري، وتلك مقاصد تربوية لم تكن تستهدف المجال المعاشي فحسب، بل لقد كانت رؤية تؤسس لحضارة القسط والاعتدال وحسن استخدام الموارد الطبيعية والكونية وتثميرها على حد لا ابتزاز فيه.. وهو ما يريد النورسي أن يبصم به مدنية الانبعاث الاسلامي، لتتميز عن مدنية الغرب القائمة على الاستهلاك الفاحش والابتلاع الأهوج لخيرات وثروات الشعوب المستضعفة..

لقد أدرج النورسي حديثه عن تجربة الاقتصاد في المعاش الشخصي ضمن مرامي اجتماعية كان يراها تمس فيئات الأمة ممن كان الحرمان يضيق الخناق عليها.. لذا كان يشركها في وضع الخطة التدبيرية المعاشية التي تخفف عنها من شدة الضنك والفاقة..ولم يكن في وسعه أن ينجدها بغير الإيعاز لها بالنهج الأكثر ملاءمة لحاله.. لقد أكدت الحكمة الصينية أنه بدل أن تعطي الفقير سمكة، تكرم عليه بتعليمه فن الصيد..

رفض الإنصياع إلى التخلق بأخلاق الاستيلاب والاستغراب

وحين يدعونه إلى التأدب بآداب مدنيتهم وتطبيق أصولها على نفسه ليتسنى له أن يجد حريته وأن يخرج من الشدة التي كان عليها إلى الانفراج والحرية .. يجيبهم بأنهم هم الذين ضيقوا عليه الدنيا على سعتها وأحالوها له سجنا، وأنه لقاء ذلك أقبل على الآخرة يستمد الرحمة من ربه..

ولا شك أن ردا من هذا المستوى إن هو إلا مساجلة كان يستحوذ بها على حججهم واتهاماتهم.. ولقد داوم على اتباع هذا التسفيه لهم على مدى تماديهم في تكبيله..

من هنا رأيناه في كثير من تصريحاته يسفه منطقهم الذي يطالبه بأن يأخذ بمنهج حياتي كانوا يرتضونه هم لا هو .. إذ كان يستغرب منهم أن يطالبوه بالانصياع إلى مشيئتهم تحت القوة ووطأة الأثقال التي يقيدون بها حركته، من خلال الإقامة والاعتقال الدائمين ..

لقد كان يرى أن من الصواب – لو أن النظام كان على حظ من الشرف – أن يراعوا في ما يطالبونه به شرط الحرية، ذلك أنه أولى لدولة تدعي الحرية، أن تسوس الناس في ما تراه مصلحة، في كنف الحرية، أما أن تحملهم بالقوة والإكراه على اعتقاد آرائها، لا سيما إذا كانت محل ريبة وافتئات، فإن ذلك لا يعد إلا من صميم القهر والاستبداد الذي لا ترضاه نفس حرة، تستمد قوتها من مبادئ عقيدتها..

لقد كان يشترط عليهم إطلاق سراحه من الاعتقال أولا، ثم عليهم بعد ذلك أن يطالبوه بتطبيق آدابهم في اللباس والسلوك الاجتماعي ..[٣٠]

والحقيقة أن منهجه قد تعارض مع منهجهم منذ المنطلق، إذ أن مكونات روحه ووجدانه كانت تحدوه للسير من حيث سار، وهو ما كان يستحيل معه أن يتوافق أو يتلاقى المنهجان..

لقد كان يتمرس بالحقائق الايمانية التي يهديه إليها تأمله وانقطاعه عن الحياة العامة، وقد ألغى من حسابه أن يطرق باب أحد بغاية إشراكه في إصابة شيء مما كان يصيب هو من ثمار التأمل والتعمق القرآنيين.. لكنه مع ذلك كان على ثقة وطيدة من أن مائدة الله – حيث جلس – والتي لا يحجبها عن الخلق بواب، لن تلبث أن تستهوي وتشد إليها الفيئات التي كانت أرواحهم في مسيس الحاجة إلى الدواء القرآني ..

ومن جهة أخرى نجده يكشف عن صلة التقلب والتلون التي كانت تجسدها مواقف طائفة ممن كانوا ينتحلون صداقته، والذين كانت تدفعهم المصلحة الطارئة أحيانا إلى اظهار التبرؤ منه، بل والذين كانوا لا يتورعون عن انتقاده، استجابة لدواعي تحريضية أو تهافتية، لم يكن تفيدهم بشيء في النهاية، إذ أن موقفهم المتقلب لم يكن ليخدع حتى أعداءه، إذ سرعان ما كانت تعاودهم الريبة إزاء أولئك المتحولين، فيشددون النقمة عليهم ..من هنا كان النورسي يعاتب أولئك النماذج المنافقين، ويواخذهم على تهربهم

---

٣٠ انظر المكتوبات ص ٨٧

السافر منه ومن خدمته القرآن، وكان عنده اليقين أن لا أذى يلحقهم جراء صداقتهم لخادم القرآن لو أن إيمانهم كان على مستوى من الصدق والصفاء.

استنكاره مواقف السلك الديني الذي كان يناصبه العداء ،لما يتوهمون فيه من منافس، ولما يلمسونه في نفوسهم من ضعف حياله

لا يني النورسي يكرر على الأسماع بأنه لا ينافس أحدا بعمله القرآني وانقطاعه التعبدي، وأن كل مضايقة تصدر عن تلك الجهات الدينية التي كانت ترى في نشاطه مناهضة لمركزها ومنافسة لمنصبها، هي " في حكم المتعرض للإيمان في سبيل الزندقة والإلحاد" [31]

لقد ظل الدين واجهة تصطنعها النظم والسياسات من أجل إرساء سلطانها، وقد سعى النظام التركي المتغرب من جهته إلى تجنيد فقهاء صنائع، مناوأةً لكل صوت يدعو إلى الحق ويثور ضد الباطل.. وكان يسيرا على نظام صمم منذ المنطلق على التحول بالأمة إلى طريق التغريب والردة ومناددة الدين، أن يصطنع من الوجاهات المسوسة، والمدخولة الباطن، والتي لا تعدم منها النظم – في كل عصر ومصر– أرتالا وجحافل تقف على القارعة مترقبة أدنى إشارة من عابر، لتهرع إليه وتهز له أكتافها وأردافها غواية وصغارا وحقارة نفس..

بل إن تلك الأصناف في احترافها للغواية والسقوط، تجد نفسها تعادي تلقائيا كل صوت للحق أصيل، وكل توجه للحقيقة بريء ..

في مثل هذا الجو كان النورسي يجد نفسه محاصرا، ليس بسلاح القمع المادي والنكال الحسي وحده، ولكن إلى ذلك كان يرى كتائب الخيانة والنفاق تتصدى له محرفة الكتاب، مضللة الأمة، مسوغة لإجراءات الخيانة والردة، ناطقة بما كان السلطان الدنيوي المخترق يمليه عليهم ويفتيه..

وكان طبيعيا أن تتنوع أساليبهم في مناهضة الدعوة ومحاربة مبادئها..

كما أن مناوأة دعاة الحق، ولو حول شأن شرعي، خلافي، في وقت اشتداد الخناق عليهم من قبل جهة الكفر والطغيان، إنما هو تخذيل لهم، وفَتٌّ في عضدهم، في ظرف كان الواجب يحتم مؤازرتهم والأخذ بأيديهم..

---

٣١ المكتوبات ص.٨٩.

لقد كان النورسي جبهة تصدت لها في الآن نفسه، جيوش الردة وجحافل الخيانة، وفرق النفاق .. وكان لسان حالهم ورأس حربتهم في ذلك التكتل الخياني، طائفة العلماء المحسوبين على الدين..

لقد كانوا هم في طليعة من يسددون السهام في وجهه بأمل أن يسكتوه، لكن نوع العبارات التي كان يستخدمونها في الهجوم عليه لم تكن إلا فرقعات اصطناعية بالقياس إلى ذخيرة القرآن الحية، والتي كان النورسي يدك بها حصونهم كلما التفت إليهم ..

من هنا كان حتما أن تتهاوى صروحهم الكرتونية التي ظلوا يشيدونها من الإفك والهوى، وأن تشمخ قلاع الحق وحصونه، الممثلة في ما أرسى النورسي من مادة القرآن وحجارته السجيل، وما خطت يمينه من رسائل منورة بوهج القرآن، وكان حتما أن يذهب الزبد جفاء وأن يمكث ما ينفع الناس في الأرض، سنة الله في أرضه، ورحم الله عبده المستضعف النورسي على ما بذل وما أعطى..

من شعاراته

"إن كان لأهل الدنيا حكم وسطوة وقوة، ففي خادمه بفيض القرآن علم لا يلتبس، وكلام لا يسكت، وقلب لا ينخدع، ونور لا ينطفئ".[٣٢]

ومن تعاليمه المبينة على استراتيجية تجاهل الدنيويين

"إن طلب الحق من مدعي الحق زورا ومراجعتهم، ظلم وبخس للحق وقلة توقير له...أما سعيد الجديد فيرى أنه لا معنى حتى في التكلم مع أهل الدنيا".[٣٣]

من الواضح أن النورسي لم يكن يرى في النكسات والتضييقات والإبتلاءات التي يتعرض لها، مؤشرا لطاعة مبرورة أوعلامة على صواب وقبول إلهي مؤكد، كما ألف الناس أن يفسروا وقوع المصائب لأهل الصلاح: المؤمن مصاب..

كلا، ولكنه كان يرى في ذلك برهانا على أن الاستقامة والخلوص في إيمانه لم تبلغ بعد غايتها.. من هنا كان يستأنف تحريه عن الحق ويواصل المسار بلا كلال .. لقد كان تلاحق الإبتلاءات عليه من أبرز الدوافع التي تعزز فيه الاصرار على نشدان المنزلة الحق .. لقد كان يعتبر نزول المحن بساحه بمثابة العقوبات التي لا يفتأ المولى – عز وجل – يستهدفه بها ليحمله على تصعيد الجهد أكثر وتكريس مزيد من الإخلاص ، في محبة لله،

٣٢ المكتوبات ص .٩١.

٣٣ انظر الكلمات ص. ص.٩٤.

تقويما للنفس مما يكون وقع لها من إحساس بالكمال، أو ما داخلها من الشعور بالرضى أو بالإغترار.. فالابتلاء كان يتلقاه النورسي على أنه تنبيه رباني يخرج النفس من غفلتها..

وهي نظرة كما نرى تتجاوز حدود الرضى التي تواترت في أخبار وتجارب أهل الصلاح.. فقد ظلت العقول ترى في وقوع المصيبة بأهل الله، عربون حظوة وقبول.. لكن النورسي، لا يقبل بهذا الاعتقاد ترجمة لما كان يلم به، بل لقد كانت النوازل القدرية تروعه لا لتخاذله في تحمل البلاء، كلا، ولكن لأنه يقرأ فيه رسالة إلهية تستنقص ما كان يتجشم من عناء في سبيل تعميق إيمانه، من هنا كان يتملكه ذلك الشعور المرير، وذاك الارتياب من مصداقيته التعبدية..

وإنه لموقف ضَرَبَ بعيدا في مجال نكران الذات والإيغال في ترويضها على السمو..

وشتان بين ما دأب عليه السالكون ممن كانت مشاعر الرضى عن النفس تخرجهم عن الطور..وبين هذه الروح الوجلة التي لا تهادن النفس، ولا تتيح لها أدنى نَأْمَةٍ من طمأنينة، مخافة أن يتملكها الغرور في مضمار لا مجال فيه للغفلة..

بلاغة التعزية

إن النورسي الذي كان يعتزل الناس بإرادة تعبدية شخصية من جهة، وبتقييدات حكومية من جهة ثانية، لم يكن يتسنى له أن يعقد الأواصر مع الناس على نحو عادي، لذا رأينا دائرة خلصائه محدودة .. وكانت دواعي المحبة تقتضي منه أن يبدي مشاركته العاطفية إزاءهم في ما يسري عليهم من أحوال السراء والضراء.. فكان لا يتردد..

لقد رأيناه مثلا يعزي بعضهم، فكان مكتوب التعزية يخرج كلية عن الطابع العرفي الذي اعتدناه في رسائل التعزية..

فبلاغة التعزية – كما يكشفها سياق الأعراف – كان ديدنها إظهار إرادة المشاركة في الحزن والتسرية .. إن شيئا من تلك البلاغة البروتوكولية لا يبدو له أثر في ما خط النورسي من رسائل تعزية ..

بل لقد رأيناه – وهو يخوض في صياغة الموقف العزائي – يسير على ذات المنحى الخطابي، التوجيهي، الذي اعتاد السير عليه في سائر ما كتب .. فهو يتخذ من الحادث مقاما يتحدث فيه عن رؤيته للحق المتجسد في كل حدث، وعن إيمانه الذي لا يتزعزع، وعن صلة المخلوق بالخالق كما ينبغي أن تكون على هذا الصعيد الأرضي وعلى الصعيد

الأخروي.. فالمناسبة العزائية تتحول بين يديه إلى درس مفصل يسوق فيه من الدلائل ما يتحول حقا بالمشاعر إلى جو من السكينة والتأسي وتجديد اليقين، والتفاؤل بالقابل وبالمصير الأخروي الثابت..

ومن الطبيعي أن تستند الموعظة على دعامة القرآن من جهة، وعلى الارتكاز القصصي الذي اعتاد النورسي أن يُلَوِّنَ به أفكاره ويعرض من خلاله رؤاه.. ليخلص من ذلك إلى إرساء قناعته الموصولة بإيمان بالله عتيد .. قناعة تعكسها تلك المشاعر الدالة على خلوص روحي واعتمال قلبي ووجداني ينهض بحجتها ويكرس من يقينها.. لقد رأيناه يطرح رؤيته في موقف تعزية صاغ نصها بمناسبة وفاة طفل لأحد خلصائه ، نقتطف منه هذا المقطع الرؤيوي :

"إن الطفل المتوفى .. ما كان إلا مخلوقا لخالق رحيم وعبدا له، وبكل كيانه مصنوعا من مصنوعاته سبحانه، وصديقا مودعا من لدنه عند الوالدين ليبقى مؤقتا تحت رعايتهما، وقد جعل سبحانه أمه وأباه خادمين أمينين له، ومنح كلا منهما شفقة ملذة، أُجرةً عاجلة ازاء ما يقومان به من خدمة. والآن إن ذلك الخالق الرحيم الذي هو المالك الحقيقي للطفل – من الألف تسعمائة وتسعين حصة– إذا ما أخذ بمقتضى رحمته وحكمته ذلك الطفل منك، منهيا خدماتك، فلا يليق بأهل الإيمان أن يحزنوا يائسين ويبكوا صارخين بما يومئ إلى الشكوى أمام مولاه الحق صاحب الحصص الألف، مقابل حصة صورية، وإنما هذا شأن أهل الغفلة والضلالة". [٣٤]

ومما لا ريب فيه أن النظر إلى الموت بهذا المنظور قد أعطى له – بوصفه شرطا وجوديا قدريا — دورا وظيفيا تحددت فيه مسؤولية الأحياء ، بوصفهم مجرد مُوَكَّلِينَ من قبل الله – عز وجل – بمهمة تعهد الوديعة المنتزعة، دون أن يكون لهم فيها ملكية، إلا ملكية صورية ثَـبَّتَ الله أسبابها بما زرع في القلوب من حنان ومحبة للمتوفى ..

ومما لا شك فيه أن المنطق التمثُّلي الذي فكك به النورسي العلاقة الوظيفية بين الوالدين والمولود — في التعزية السالفة — قد ساهم في إضفاء سمة موضوعية خرجت بتلك العلاقة من إطار الحميمية والرَّحِمِيَة وما يستتبع ذلك من مشاعرالقرابة والتعلق،

---

٣٤ المكتوبات ص.٩٨ .

إلى مجال الإثابة إلى الباري وتأدية الدور الذي قُدِّرَ للأبوين أن يؤدياه بكـــل موضـــوعية وتسليم..

ترى هل يمكننا القول إن النورسي يريد للتربية الانسانية أن تدرج في وعيهـــا هـــذه الحقيقة الربانية التكليفية، بحيث تضحى العلاقة الرحمية علاقة موضوعية، قائمـــة علـــى انصياع روحي، لأن مبدإ الملكية والنسب قد خرج عن نطـــاق الوشـــيجيه الدمويـــة والعاطفية.. إذ أضحى للنسب مالكا أعلى، الخالق عز وجل..

إنها حال لو تتحقق لأزاحت عن الانسانية أثقالا من اللواعج التي لا يـــبرح الفـــرد يتكبدها كلما فجع في قريب..

الحدب على الانسانية قاطبة

تظهر فلسفة النورسي السلمية في حدبه على الانسانية قاطبة، فالانسانية – بحسبه – هي الرابطة الأم التي لا ينبغي للإنسان أن يتنكر لها أو يحيد عنها بحيدته عن سنن التآخي والالتزام بمبادئ المحبة التي ينبغي أن تربط الإنسان بأخيه الانسان، لاسيما بين المـــؤمنين الموحدين ..

بل لقد رأى أن الاسلام هو الإطار الروحي الذي يعكس التلاحم بين بـــني البشـــر قاطبة ..

"إن ما يسببه التحايز والعناد والحسد من نفاق وشقاق في أوساط المـــؤمنين، ومـــا يوغر صدورهم من حقد وغل وعداء، مرفوض أصلا، ترفضه الحقيقة والحكمة ويرفضه الاسلام الذي يمثل روح الانسانية الكبرى، فضلا عن أن العداء ظلم شنيع يفسد حيـــاة البشر الشخصية والاجتماعية والمعنوية، بل هو سم زعاف لحياة البشرية قاطبة". [٣٥]

وتظهر فلسفته السلمية أيضا في الدعوة إلى التزام موقف التنـــزه المســـتديم وتبرئـــة الذات من الأمراض النفسية والعدائية التي تسبب الفرقة والشقاق بين الناس ..

فأمراض النفس هي عنوان على صغار يأبى النورسي أن يرى الإنسان واقعا تحـــت نيره.. ذلك لأن النورسي يقدر أن تلك الأبعاد الهدمية الناتجة عن اخـــتلالات الـــنفس والمشاعر، لا تطال الأفراد المتباغضة فحسب، ولكنها تطال المبدأ الإنساني بكليته، مـــن حيث كون الانسان الواقع تحت طائلة الظلم والحقد والبغض، هو مخلوق إلهي ومـــادة

---

٣٥ المكتوبات ص٣٣٩.

تتجسد فيها قدرة الله ..من هنا كان الاعتداء على الانسان اعتداء على تلك القـــدرة ومساً بالقدسية.. ومن هنا أيضا كان تباغض المسلمين نوعا من الظلم الذي تحركه نظرة قصور لا تستطيع أن تقدر ما يميز المؤمن من حسنات، كيفما كانت نواقصه أو عيوبـــه الجزئية ..

فالمخلوق الانساني، لا سيما المؤمن، لا يعدم الفضائل، وإن حملت نفســه نــواقص وسلبيات ".. فكما أن هذا الظلم شنيع وغدر فاضح، كذلك انطواؤك على عداء وحقد مع المؤمن الذي هو بناء رباني وسفينة الهية، لمجرد صفة مجرمة فيه تستاء منها وتتضرر، مع أنه يتحلى بتسع صفات بريئة بل بعشرين منها : كالإيمان والاسلام والجـــوار..إلخ. فهذا العداء والحقد يسوقك حتما إلى الرغبة ضمنا في إغراق سفينة وجوده أو حرق بناء كيانه، وما هذا إلا ظلم شنيع وغدر فاضح ".[٣٦]

إن هذه النظرة الإكبارية، والتي تبجل الإنسان وتقر له بالفضيلة، مهما خفيت هـــذه الفضيلة أو جارت عليها رذائل ليست من جوهر النفس البشرية، قد ارتفعت إلى مستوى باين المواقف الوعظية المعهودة التي ألفناها في تراث كثير من أدعياء الوعظ والوصـــاية على الانسان ..

لقد استندت هذه النظرة إلى فهم رفيع وموضوعي لحقيقة الإنسان، لا سيما المؤمن، وقدرت النتائج الوخيمة المترتبة عن عاطفة التنافر الذي تولده الصلات الـــتي لا تقـــدر أهمية الترابط والغض عن هنات الانسان حيال الانسان..

إذ من شأن المحبة أن تكفل للدائرة الانسانية إطارها الأخوي المثمر الذي تسمو بـــه القيم وتسود الأخلاق..

فمن طبيعة الإغضاء عن نواقص الغير، أن تنتهي بالفرد إلى مستوى من المسؤولية السمحاء تصان بها حقوق..

إنه مستوى من النظر – يبديه النورسي – ارتفع بالإنسان إلى صعيد الإكبار والغيرة على حصانته القدسية التي قررتها كتب السماء وحرض عليها القـــرآن في أولى ســـورة دشن بها خطابه للعالمين..

لقد أكبر النورسي الإنسانية ونافح عن كرامتها التي أهدرتها معتقـــدات الوضـــاعين وفلسفاتهم حين جعلت الانسان مجرد آنا غريزة شبقية يثار ويسكن على إيقاع الشهوة

٣٦ المكتوبات ص ٣٤٠.

والباعث الجنسي الحيواني، وجعلته آنا آخر مستوفزا، يقطع الرقاب ويزهــق الأنفــس استئثارا باللقمة وحده، مغالبةً وصراعا طبقيا لا مرحمة فيه .. وجعلته آنا ثالثا كائنــا لا عقل له ولا عقال، انبثق من الصدفة وستبتلعه الصدفة، وبين هذا وذاك عليه أن يــراوح بين الأشواط عابثا، مستهترا بالمثل وبكل ما يسوس الإنسان ويعلو به عــن حضــيض النــزوات..

لقد صدر النورسي في هذه الرؤية عن تعاليم القرآن العظيم التي جعلــت الإنســان خليفة في الأرض، وجعلت البشرية أمة واحدة مساسة بشريعة واحدة لا مجــال فيهــا للإصطفاء المجاني أو الإرثي أو الإعتباطي ..

لقد أودع الله رسالته بين الناس، وهيأ لها من البشر كل قبيل يتعالى عــن مفاســد التعصب والعرقية والإستبداد، ليدعو إلى الله بالحجة وبالكتاب المبين، ولــيرص صــف الإنسانية ضد الهزات التي تتسبب فيها ضلالات الجاحدين ومن انحرفت فطرهم وسلكوا سبلا أبعدهم عن الجادة..

ولقد سار النورسي في هذا النهج المعلي لشأن الإنسان .. وهو درب سار فيه مــن قبله أسلافه وقدواته في حب الانسانية من علماء المسلمين : وفي مقدمتهم الإمام العزالي الذي كانت تعاليمه – وإن خاطبت المؤمن في الدرجة الأولى – إلا أنها جاءت متشحة بتسديدها الانساني الذي لا يقصي بشرا ..

لقد كان الغزالي يخاطب من خلال الفرد المسلم، الإنسان عامة، ذلك لأن الصــورة التي يتمثلها الغزالي لمستقبل الإنسانية هي صورة الإسلام..

فالقرآن بمنطلقاته العالمية لم ينغلق ولن ينغلق عن أي جهة من البشر مهمــا كانــت عرقيتهم أو فصيلتهم .. من هنا كانت رأفة الغزالي كبيرة، وكانت مرحمته عارمة تشمل الخلق قاطبة في كل توجيهاته وترشيداته للمسلمين .. وبذات الرؤية ظــل النورســي يستشرف مستقبل البشرية، وظلت عيناه تخايلان الغد الإسلامي الذي ســوف يشــمل الإنسانية قاطبة..

فقد ظل النورسي يرى الغرب على الدوام، ومن كثير من الزوايا، يحبل بالإسلام..

بل لقد كانت نزعة النورسي الإنسانية تحتدم توقا وأملا في أن ترى البشرية قاطبــة تنضوي تحت لواء الإسلام، لا لأنه كان مسلما فحسب، ولكن لأنه كان عامر القلب بحب الإنسانية، وكان يود لها أن تختار الطريق المؤدية إلى الله..

فهو لم يكن ينكر على سائر الأمم ما عندها من ديانات وعقائد تبجلها وتتسامى بها، ولكنه كان يعلم أن الدين الأكمل والأوفق للإنسانية هو الدين الإسلامي.. فمن ثمة كان يحب لها ما يحب لنفسه ..

ولقد كان يرجح محبته تلك ويبرئها من الأغراض والإدعاءات، فما كان التعصب للدين هو وحده الذي يدفعه لأن يعز عقيدته ويرفعها فوق الديانات .. بل لقد كان اطلاعه على تلك الديانات في مصادرها، ومقاربته العقلية لأسسها ولروحيتها، يقنعه بأنه من الخير للبشرية ومن سعادتها أن تتفتح على الدين الإسلامي الذي لا شك أنه سيكون أنسب حاد لها على طريق الإعمار والتلاحم الأخوي السوي..

لقد كانت دعوة النورسي الأممية إلى الدين الإسلامي موقفَ مبرّة، موقفا منزها من شوائب الإستدراج التي لبثت الإرساليات والجمعيات التعصبية تمارسها بين فئات البشر، مستغلة فقرهم وعوزهم وانغلاقهم الفكري والمعرفي..

فالبشر خلقوا أحرارا والدعوة إلى الله لا ينبعي أن تأخذ صورة الإلزام المقَنَّعِ، لأن غرس العقيدة الكتابية ظل مقرونا بأحوال من التخنيع والإغراء والاحتيال .. وذاك ما يبرأ منه الإسلام الذي ظل شعاره على مدى الأطوار: (**لا إكراه في الدين**). وذاك ما كانت تجسده دعوة النورسي وحدبه على البشرية ..

لقد كان يريد لها أن تنخرط في حظيرة دين مطهر، عاصمه الأوحد هو الله، دين يرفض كل دواعي الإستعباد والتوسع والأثرة، والدجل المسفه بمكانة الله القدسية..

لقد شاء النورسي للإنسانية أن تنضوي تحت لواء الإسلام الذي يسع الجميع في كنف من الوحدة وعدم التمييز إلا بالعمل الصالح.

على أن النورسي يقرر أن العداوة وإن لم تظهر في صورة فعل ، فهي ظلم في نظر الحكمة الالهية، ذلك لإن النورسي ينطلق من المسلمة الدينية التي تجعل من الانسان خليفة الله في الأرض .. فهذه المكانة لم تتطرد للإنسان إلا بفضل ما أودع الله النفس البشرية من قابليات الخير والسمو .. من هنا فإن إضمار العداوة هو وجه من وجوه خيانة الموثق.

ومن جهة أخرى فإن النورسي ينعى خلق العداوة على المتصف بها، بما هي خلق طارئ على النفس، وناشئ عن اختلال أصاب ميزانها، فهي حيدة عن الصواب والاستقامة التي شرطها الله في الانسان وركزها في فطرته .. ووقوع الانسان تحت نائرة

البغضاء ومعاداة أخيه الانسان هو مظهر شاذ، ولا ينسجم مع الفطرة السوية، تلك الفطرة التي تجسدها الطفولة وما تتسم به من براءة وطهر ورحمة..

من هنا استنكر النورسي علاقة العداوة التي تربط المؤمن بالمؤمن، إذ رآها محكومة بنظرة غير رشيدة، نظرة تُقَوِّمُ الفرد ببعض جوانب النقص فيه، متناسية ما له من جوانب الكمال الأخرى.." إن إضمار العداء للمؤمن والحقد عليه ظلم عظيم، لأنه إدانة لجميع الصفات البريئة التي يتصف بها المؤمن بجريرة صفة جانية فيه ". [٣٧]

فدواعي الشر التي يتقمصها الانسان ليست فطرية فيه، بل هي اكتسابية تلحقه جراء اختلاطه بالآخر.. على عكس أخلاق الخير، فهي لطيفة من لطائف القلب الإنساني النزّاع إلى الخير ما تهيأت له الدوافع والمحرضات الترشيدية .. فأخلاق الخير والفضيلة بهذا الاعتبار هي قابلة للشيوع..

من هنا نرى الفضائل تنعكس على سلوك الناس وتفشو فيهم لتناغمها مع ما تنطوي عليه نفوسهم من جوهر الخير والكمال..[٣٨]

إن هذا الموقف المنتصر لخيرية الإنسان يفضي بالنورسي إلى القول بوجوب احترام وجهة النظر الخاصة، إذ التدافع بين الناس ينجر في العادة عن اختلافهم في الرأي والنظرة، وعن تباين اجتهادهم الذي ينعكس بدوره على تباين جهودهم، الأمر الذي يجعل الغلبة من حظ الأقوى والأكثر استبدادا وطغيانا .. من هنا يعترض النورسي على الإنسان المعتد بأحقيته ورجاحته سلوكا ورأيا قائلا :

عندما تعلم أنك على حق في سلوكك وأفكارك يجوز لك أن تقول : إن مسلكي حق أو هو أفضل ولكن لا يجوز لك أن تقول إن الحق هو مسلكي أنا فحسب."[٣٩].
"وعليك أن تصدق في كل ما تتكلم به ولكن ليس صوابا أن تقول كل الصدق"[٤٠]

وطبيعي أن يحذر النورسي من مضمرات النفس ونقائصها، ويجعل تطهير الضمير هدفا تتوجه إليه عهدة الإنسان الصالح على الدوام .وأن تكون الحسنى هي الرد الذي يطفئ نائرة العداوة والشحناء بين المتنازعين .

---

٣٧ م.ن. ص٣٤٢.
٣٨ م.ن. ص٣٤٢ .
٣٩ المكتوبات ص٣٤٢
٤٠ م.ن. ص ٣٤٣

وسنجده يحلل آفة الحسد استكمالا لنظرته المقومة للنفس البشرية، فيراها في طبيعتها اعتراضا على مشيئة الله .. فالحاسد يصدر عن روح لا تهنأ بما يرى عليه المحسود من حال .. من هنا كانت حقيقة الحسد تتمثل في سخط النفس على ما قدر الله وأعطى ..[٤١]

الإختلاف الإيجابي بين أفراد الأمة والمجموعات، رحمة

لقد رأى النورسي في الحديث الشريف " اختلاف أمتي رحمة " أن المقصود به الاختلاف الإيجابي البناء، وهو الذي تجسده المواقف السمحاء التي، وإن اعتدت بما لها من رأي أو نظر، فإنها لا تتجاوز في ذلك حد الاعتدال لتناهض الطرف المخالف، وتدفع آراءه بالعنف وتتحامل عليها بالباطل..

فذلك مظهر استبدادي يرفضه المنطق وتأباه الأخلاق وحقوق الانسان المكرم ..

ومما يسجله النورسي في هذا المجال تلك الفرقة الحزبية والسياسية التي تميز العصب .. أنها باتت مراسا ينشد الحمِيَّة والظهور التعصبي من أي جهة كانت، حتى ولو من الشيطان، الأمر الذي يبرز روح الافتئات التي تحكم متعاطيها وقابلية الشر والبهتان التي تشرطهم، اقتناصا لفرص الغلبة، إذ أن الحمية الحزبية تدفع أصحابها – ضرورة– إلى التنقيص من قيمة وحقيقة الآخر، وتجعله خصما بالقوة وبالفعل، وتتهيأ إلى معارضته بشتى الوسائل، ولو كان ذلك الخصم على حق وصواب..

من هنا كانت التواثقات الجماعية مفضلة عند النورسي.. فالإختلاف إذا كان إطاره واحدا وغاياته مشتركة، فمن شأنه أن يخدم الحقيقة، وأن يظهرها في كل زاوية من زواياها بأجلى صور الوضوح، على العكس من تعدد الغايات وتباين العصبيات واختلاف الاهواء والحسابات الذاتية الناتج عن اصطراع الشيع والفيئات، فإن الحقيقة في خضم الفرقة لا تلوح إلا على سيول من الدم والجراح، وهو ما يهدر الجهود ويفاقم من الخسائر ومن أسباب الإفتتان والتناحر .[٤٢]

لقد مضى النورسي يعالج أدواء النفس على نحو ما ظل يصنعه رجال السلف من أشياخه لا سيما الغزالي. فتحدث عن أمراض الحرص والعداوة والنميمة.. تلك النقائص

---

٤١ م.ن. ص٣٤٦.

٤٢ م.ن. ص٣٤٨

التي تفسد الروابط بين الناس وتسيء إلى خلقية الفرد ويتحول بها عن الاستقامة والاستواء..

وكانت رؤيته في ذلك تتسامى وتأخذ بعدا شموليا في مستوى روحية الامة، فحديثه عن أمراض الروح وترديات النفس مثلا، ما برح يتحول – وعبر مواقف التسديد التي ظل يتعهد بها المسلمين – من إطاره الفردي إلى إطار جمعي حيث طفق يجنح بخطابه التوجيهي إلى الأقوام، وبالتالي إلى الأمة، لأنه كان على إدراك بأن حال المجتمعات أو الأمم من أحوال الأفراد.

من هنا ظل النورسي في إحالاته وتحليلاته لتلك الآفات التي تصيب نفوس الأفراد، يلفت الأمة إلى واقعها المتفكك ،الموبوء، والمنهك بأمراض جعلتها تفقد العزة وتنبخس بين الأمم.

انسانيته قرآنية الروح والغاية

يؤمن النورسي بإنسانية المؤمن، وبقابلية قلبه لإغداق المحبة على بني الجنس كافة، فالإنسان المؤمن، القرآني، إنسان محب للجنس البشري بأسره، بل هو محب لسائر الموجودات، يسعد بسعادتها، ويشقى بشقائها، لما يشعشع في قلبه من نور يشرع أبواب الروح في وجه الإنسانية قاطبة، ويقرب إليها كل مخلوق، بل كل موجود مما يعمر البسيطة، بما تستنبته الرحمة الإلهية من روابط الأخوة والقربى في قلب الإنسان القرآني:

".. فكل مؤمن يستطيع أن يكون بنور القرآن والإيمان سعيدا بسعادة جميع الموجودات ،وبقائها، ونجاتها من العدم، وصيرورتها مكاتيب ربانية، ويغنم نورا عظيما بعظم الدنيا، فكل يستفيد من هذا النور حسب درجته". [٤٣]

فلا جرم "..أن الانسان ذو علاقة – من حيث الانسانية – مع أكثر الموجودات، فيتلذذ بسعادتها ويتألم بمصائبها، ولا سيما مع ذوي الحياة، وبخاصة مع الانسان، وبالأخص مع من يحبهم ويعجب بهم ويحترمهم من أهل الكمال، فهو أشد تألما بآلامهم وأكثر سعادة بسعادتهم حتى يضحي بسعادته في سبيل إسعادهم كتضحية الوالدة الشفيقة بسعادتها وراحتها من أجل ولدها، أما إن كان من أهل الضلال، فإنه يتألم علاوة على آلامه بهلاك الموجودات وبفنائها وبإعدامها الظاهري بآلام ذوي الأرواح، أي إن كفره

٤٣ م.ن. ص٣٧٢

يملأ دنياه بالعدم ويفرغها على رأسه فيمضي إلى جهنم معنوية قبل أن يساق إلى جهنم (في الآخرة)" .[44]

إن " القانون الإلهي الذي يدير الظراهر - بسيطها وعظيمها -والذي تشير إليه الآية الكريمة : (**ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة**) (لقمان ٢٨)، هو الـذي تـدرك بعض آثاره الحواس في ما يعرو الأرض والمواسم من تغير، وفي ما تطَّـرِدُ بـه أحـوال الإنبات والإثمار من سيرورة، فبذلك القانون يبدل الصانع الحكيم لباس طائر وريشـه ويجدده، وبالقانون نفسه يبدل لباس الكرة الأرضية كل ربيع ويبدل بالقانون نفسـه صورة الكون قاطبة عند قيام الساعة".[45]

حقا " إن الزهرة ترحل من الوجود، إلا أنها تترك آلافا من أنواع الوجود ثم ترحل، وبهذا المثال يبين قانون عظيم للربوبية حيث يجري هذا القانون في الربيع كله كما يجري في جميع موجودات الدنيا".[46]

لقد وجدنا مفهوم " الإنسانية " يقترن في فكر النورسي بمبدإ الخلود، ومعنى ذلك أن التجربة الحياتية للفرد — كما يرى - تجربة متوقفة على ما يعقبها بعد رحيله مـن دار الغرور إلى دار القرار .. فحياة الإنسان في دنياه حياة موصولة بامتدادها الغيبي، الأخروي ،انطلاقا من معايشته للجماعة التي يحيا بينها، والمحيط الذي يتفاعل معه، فضـلا عـن علاقته مع ربه والتي تتحدد في ضوئها روابطه ونوعية ومستوى صلاته بـالآخرين، أي بالانسانية قاطبة، من خلال ما يحمله في أعماقه من محبة وتعاطف معها..

لقد كان تأكيد النورسي لمبدإ خلود الانسان، يتضمن مبدأ إثباته للمسـؤولية الـتي يتحملها الانسان إزاء نفسه وإزاء المجتمع الإنساني في كليته..بما في ذلـك الكائنـات العجماوات والجمادات.. وتلك رؤية قرآنية تحترم أنعم الله وترى للكون روحا لا بـد وأن لها على البشرية حق المراعاة..

فتأكيد خلود الإنسان وسرمديته، يعطي كل القوة والقيمة لمعنى المسؤولية الجماعيـة والبشرية، إذ أن الضوابط التي تتقَوَّمُ في ضوئها أعمال الفرد وسلوكه، هي التي يتحـدد بها مصيره في الدارين الدنيا والأخرى، إذ أنها ضوابط لا تطوي السـجل ولا توقـف

---

٤٤ م.ن. ص٣٧٢.

٤٥ م.ن. ص٣٧٦

٤٦ المكتوبات ص٣٧٦.

الحساب بمجرد أن يفارق الإنسان هذه الحيـــاة، ولكنهـــا ضـــوابط تحكـــم مصـــيره الأبدي..لترابط تجربة الحياة مع تجربة الانتقال إلى الآخرة..

ومن الواضح أن هذا التمثل للوجود الانساني المسترســـل في الزمـــانين، الـــدنيوي والأخروي، يجعل الإنسانية على يقظة تتسامى على منازع الاستعفال والاستعلاء الـــتي تبذرها بين البشر المطامع الانتهازية..

ومما لا شك فيه أن النظم العدمية والإيديولوجيات المادية هي التي لا تفتأ تنمق الواقع الأرضي عن طريق ما تتفتق به قابلية الطيش والتحلل الخلقي مـــن منجـــزات الإمتـــاع المهلك، وتفسح أمام الإنسان مساحات من السعادات الغريزية (الاستهلاكية)، إيمانـــا منها بأن لا حياة وراء هذه الحياة..

وإنها لحال زائفة وكئيبة، مقارنة بالحال التي تأخذها الحياة في ظل العفاف والاستقامة ورسوخ مثل السماء بين البشر .. فبتلك المثل تترقى الإنسانية ويغدو الواقـــع الحيـــاتي بالفعل، وجها من وجوه الديمومة التي تتهيأ للنفس البشرية المؤمنة، تلك الديمومة التي على الانسان أن يباشر وضع أسسها، بامتثاله الخالص لتعاليم العلي القدير الذي صاغ الخطة، وهيأ مواد البناء..

إن الانسانية تكتسب قيمتها وحقيقتها المطلقة حين يغدو الفرد مشـــروطا بـــدور لا ينتهي منه بمجرد الموت ..

ولا غرو أن نجد الانسان يرتكب ما يرتكب، ويدلس ما يدلس ويتصرف متحللا من الضوابط في هذه الحياة، لأنه يعيش بإحساس الوقتية، وبذهنية الزوال، وبعدم اليقين ممـــا سيكون عليه حاله بعد الزوال المادي.. الأمر الذي يوقعه في الإثم ويفلت منه زمام الرقابة الذاتية، عنوان إنسانية الانسان..

لقد حدد النورسي للإنسان خمس منطلقات تتحول بها حقيقته إلى شجرة باســـقة، ودائمة الإثمار، وهي :

١- اليقين من أن التعيينات والاعتبارات هي المتبدلة، وأن المعاني الجميلة والهويـــات المثالية دائمة.[٤٧]

٢- وبأن كل شيء في هذا الوجود -سواء أكان جزئيا أو كليا - بعد ذهابه مـــن الوجود - لا سيما إذا كان ذا حياة - ينتج حقائق غيبية كثيرة، فضلا عن أنـــه يـــدع

٤٧ م.ن. ص٣٧٩.

صورا بعدد أطوار حياته في الألواح المثالية التي هي سجلات عالم المثال، فيكتب تـــاريخ حياته ذا المغزى ويكون في الوقت نفسه موضع مطالعة الروحانيات بعـــد ذهابـــه مـــن الوجود.[48]

٣-وبأن هذه الموجودات الربيعية والدنيوية عامة، بعد قضاء حياة قصيرة، كما يدون صانعها الحكيم غاياتها التي تخص عالم البقاء في ذلك العالم، كذلك يســجل الوظـــائف الحياتية والمعجزات السبحانية التي أدَّوْها في أطوار حياتها، في منـــاظر ســـرمدية[49]. أي الإيمان بخلود النفس وبأن حياتها الدائمة توجد أمامها وليس خلفها..

٤-وبأن رحيل النفس وانتقالها عن دنياها، لا يقطع صلتها بالحياة، ولكـــن تظـــل الأسماء الحسنى التي أنيطت بها في حياتها تؤدي تسبيحاتها بدلا عنها ..فــــ"عندما تختفي الموجودات وراء ستار الزوال تظل بدلا عنها تسبيحات باقية كثيرة جدا، لكل موجـــود من الموجودات، وتودع نقوش كثيرة من الأسماء الإلهية ومقتضياتها في يد تلك الأسمـــاء، أي تودعها إلى وجود باق..".[50]

٥-وبأن الكائن يترك وراءه – عند رحيله إلى عالم الآخرة – بقايا وآثـــارا تتفاعـــل وتتجدد في معان وكيفيات وحالات تغدو " مدارا لظهور شؤون باقية لواجب الوجود سبحانه " [51]. "فكل فان إذاً يترك وجودا ويكسب لنفسه ولغيره ألوفـــا مـــن أنـــواع الوجود".[52]. فـــ"الخالقُ الحكيم والرحيم والودود يشغل مصنع الكائنات، جاعلا مـــن كل وجود فانٍ نواةً لأنواع من الوجود الباقي".[53].

ومهما بدت للذهن المادي من ميتافيزيقية هذه النظرة، وتعلقها بالْمُغَيَّب، فالـــذي لا شك فيه أنها لا تخرج عن أهم ركائز تقوم عليها روحانية الكائن البشري في هذا الكون، ونقصد بها : الدين والأمل..

إذ الدين كما نرى هو المقوم الثابت والأرسخ الذي لم تستطع المخلوقات أن تتجاوز نطاق حرمته، مهما تراوحها من ثقافات وفلسفات مادية جهدت على أن تقمع القابلية الروحية في الإنسان ..

---

٤٨ م.ن. ص٣٧٩.
٤٩ م.ن. ص ٣٨١
٥٠ م.ن. ص٣٨١
٥١ م.ن. ص٣٨٢
٥٢ م.ن. ص٣٨٢
٥٣ م.ن. ص٣٨٣

فحتى الأنفس الجاحدة تنتابها خطرات تهش فيها النفس لمعانقة نوع من الإيمان الذي لا تفسير له إلا ما يكمن في النفس البشرية من جذوة نورانية تحن إلى الخالق الذي فطرها وفي أحسن صورة ركبها..

بل إن سائر استجابات الانسان التلقائية الموصولة بوجدانه تكشف عن وازع إيماني يحيل على الخالق..

أما الأمل فمما لا شك فيه أنه يتلبس وجودنا من ساعة الميلاد، ويأخذ صورا تمتد من التوق لنيل الحاجة الحسية، الإطعامية، إلى الأمل بتعمير المستقبل وامتلاكه، وتأمين المصير الدنيوي والتحوط للنهاية، وبالتالي للآخرة بالقياس إلى المؤمنين ..

فالأمل عند المادي فاعلية حيوية تلازم الحياة وإن سحقته رتابتها لكونها حياة لا تستشرف أفقا، حياة طريقها مسدود ..

أما عند المؤمن فالأمل قوة باطنية تلابسه في ما يأتي وما ينجز وتجعله على مستوى من التوق والرجاء يوكل أعماله ومساعيه إلى بُعْدٍ يقيني، استمراري، غير مقطوع الصلة بالآخرة، ذلك أن الحياة كما يحياها المؤمن هي رديف لمعادلة يلتقي على طرفيها المصيران الدنيوي والأخروي، ولا ينبتّان .

فنظرة النورسي في مجال الديمومة والاستمرار، تستند على الشرطين الروحي والنفسي.. إذ الأديان تقر بقاء الإنسان وديمومته واستمرار حضوره الدائم على هذا الوجود الأرضي من خلال ما يترك من أعمال أو من تَبَعَة وخِلْفة ..

كما أن وازع الأمل المركوز في النفس البشرية يزكي قابلية الدوام التي تحرك الإنسان ولا يخلو من حنين إليها.. فالفناء لا يلابس النفس إلا في حالات انكسارها الروحي والمعنوي، بل إنها حتى في غمرة ذلك الانكسار لا تقر بالفناء، وإلا توقفت بها عجلة الحياة ..

من هنا دأبت الفلسفات الإنسانية التجنيدية على استثمار البعد النفسي، وطفقت تلوح بمعسول الآمال والمآلات أمام الجماهير، تروضها على البذل والانخراط في سلك سياساتها..لأنها واثقة من أن قوة تأصل الأمل في الانسان، ونجاعته في استدرار العواطف الحالمة والْمتطلعة إلى اعتناق المثل، كبيرة، وفاعلة، ومهيأة لمن يعرف كيف يحركها..

ومن الواضح أن رؤية هذه الفلسفات لا تخرج عن نطاق الدين، بل هي تتلاقى معه، من حيث أن الدين يجعل من التفاؤل والأمل مناط السعي الانساني.. إذ لا مدنية، ولا

نُظُم أخلاق، ولا ترابط بين الأقوام يتحقق في غياب الأمل والتوق إلى ما يوطد ســعادة البشر..

فالنورسي من هذا المنطلق لم يتورط في بناء حلم طوباوي ميتافيزيقي، مادته افتراضية، على نحو ما فعل المثاليون، ومن سعوا — عبثا –إلى هندسة المدن الفاضلة للبشرية، بــدءا من أفلاطون.. بل لقد صدر في تقريراته عن رؤية اسلامية تضع أمام الانسانية هذا التمثل الإلهي لتجربة الوجود، إذ هي تجربة ليست مبتورة عما بعدها ولا هي منتهية عند عتبة زمانية يعقبها العدم .. بل هي استرسال مقدر له أن يمضي بالانسان من مستوى حياتي حسي، دنيوي، إلى مستوى حياتي سرمدي..

لقد عمل النورسي بجهد على تكريس عاطفة الأمل في النفوس من خــلال تمثلاتــه وشواهده الفكرية، الإيضاحية التي مضى يشرِّعُ بها باب الغيــب والآخــرة في وجــه العالمين، تناغما مع مقررات السماء، ومن جهة أخرى كان يرى في زرع ثقافة الأمــل التي هي من صلب الدين والأخلاق الإنسانية السامية، واجبا استنهاضيا لا مندوحة عنه.

ولقد رأيناه في غير هذا المقام كيف عد اليأس من أهم أسباب انحطاط الأمة ..وكيف دعا الأمة إلى استبدال اكفهرارها تفاؤلا واستبشارا وثقة في ذاتها ومرجوحيتها في ميزان الأمم والأقوام ..

و لا معنى ولا جدوى قط من أن نقرر للناس أن حياتهم هي بلا هــدف، أو أن عليهم أن يكونوا سعداء رغم محدودية دنياهم الزمنية، أو أن على هذه الحياة أن تغدو موئلا حافلا بكل ما يشبع النهم ويروي الظمأ، لأنها حياة ظرفية، ولا تعدو أن تكــون واقعة وجودية اعتباطية ناتجة عن مجرد الصدفة والتوالد العضوي للمادة ..

إن الانسانية محتاجة إلى من يرسخ فيها عقيدة القابل البعدي، القابل الأبدي، القابل الذي ستتحاسب فيه عن أعمالها ومقترفاتها في هذه الحياة التي هي – بالفعــل – مجــرد مقدمة لسرمد لا يحول..

وهَبْ أن الديانات قامت على عواطف تفاؤلية، أو هي سعت إلى أن تفك الحصــار النفسي والوجودي الذي خنق الانسان وحجب عنه الأفق، أليس لها – بهذا وحــده – الاستحقاق والشأن..

لكن حقيقة هذه الديانات حقيقة سماوية لا مراء فيها، وإلا ما بال الانسانية لم تفلح قط، في إحلال ما جربت وما ضبطت من فلسفات وإيديولوجيات وعقائد محل الـــدين الحق؟.

من هنا نتبين أن ما طرحه النورسي من تمثل مصيري للوجود والانسان، بل وللكائن الحي، هو بعيد عن الميتافيزيقا وعن التهيؤات المثالية الفلسفية، لأنه لم يخرج في خطوطـــه العامة عن مقررات الدين الحنيف .. بل إنه خير ما ينبغي أن يطرح أمام الإنسانية، إذ أنه ترياق حقيقي ضد ابتلاءات اليأس والاندحار التي لا تني تقلبات الحياة وتكدراتها الضالة تطوق بها الإنسان وتذبح الأمل واليقين في أعماقه، الأمر الذي يزيـــد مـــن مأســـاوية الإنسان.

من هنا لا غرو أن نرى النورسي يؤكد عقب استعراضه لهذه الأركان الخمسة، أن الأمل والتفاؤل اللذين تتحرك بهما عجلة الحياة يجدان في روح القـــرآن العظـــيم النبـــع الفياض، فهما لا يفتآن يتجددان به على مدى الأعصر . يقول النورسي: "اِعلم علمـــا قطعا أن الحقيقة السامية التي بنيت في هذه الرموز الخمسة والإشارات الخمس، إنما تشهد بنور القرآن ولا تمتلك إلا بقوة الإيمان، وإلا ستعم ظلمات مرعبة بدلا من تلك الحقيقة الباقية، وتمتلئ الدنيا لأهل الضلالة بألوان الفراق وأصناف الزوال وتطفح بأنواع العـــدم ويصبح الكون بالنسبة لها جحيما معنويا لا يطاق، إذ يحيط كل شيء بوجود آني ما لا يحد من العدم، فالماضي والمستقبل مملوءان بظلمات العدم، فلا يجد الضال إلا نورا كئيبا حزينا في حاله الحاضرة، وهي زمان قصير جدا".[٥٤]

الإنسان المعاصر والتجربة الشيوعية

لقد عرفت المرحلة التي عاشها النورسي – لا سيما مطلعها – مخاضـــات انقلابيـــة سعت لاخراج الإنسان من حصونه العتيقة، سواء في مجال السياســـة أو الاقتصـــاد أو الاجتماع أو في الميدان الروحي والعقدي..

وربما كانت الثورة الروسية من أهم الأحداث التي فجرها الانسان في تلك المرحلـــة، إذ جاءت تلك الثورة بفلسفة مناهضة لجـــل القيم والمقومات العتيقة ..

لقد شاءت أن تكون فلسفة بديلة لسائر ما جرب الانسان من تجارب ونظم المعاش والاجتماع قبلها.. من هنا قررت معايير لأخلاقية جديدة أرادت أن تطبع بهـــا الـــروح

٥٤ م.ن. ص٣٨٤.

الانسانية، إيجادا للفرد الشيوعي الذي قدَّرت أن العالم سيتجدد به، وأن الفكر والمعتقدات القديمة ستزايل كوكبنا بفضل انخراط الانسانية الجديدة في العقيدة الطبقية الجديدة، وسيمكنها الوعي الطليعي، من أن ترسي دعائم الفردوس الأرضي الذي تمحي معه المظالم والطبقات..

ولقد كان على الفلسفات الروحية أن تتصدى لهذا الانقلاب، وأن تسعى إلى تحصين دفاعياتها ضده، كما كان على الديانات – والدين الاسلامي منها بالخصوص – أن يقف في مواجهة الدعوة التي جاءت بها الشيوعية، والتي جعلت من غاياتها تنميط المخلوقات في منهاج معاشي وروحي واحد، والإسفاف بالمقدسات، وتجاوز القيم والأعراف الوطيدة بين الناس، والمستمدة في أكثرها من الطبيعة الإنسانية ومن فطرة التعايش والتمازج البشري..

لقد شاءت تلك الثورة أن تُحوِّرَ جذريا من حال الفرد ومن نواميس الله التي فطر العباد عليها.. وكان على النورسي – في هذا الاعتراك الروحي والسياسي – أن يرد على الفرضيات الجديدة بحكمة القرآن وبهدايته..

فلقد كانت أفكار الثورة الشيوعية قد نفذت إلى المجتمع التركي، وأوجدت لها مروجين ودعاة، من يهود ومستلبين، وكان حتما أن يشتجر الجدال بين أولئك الدعاة الأدعياء وبين النيرين من أبناء الأمة ممن لم تكن تغويهم خلابة التقليعات وإن تحلت بالبهرج، أو ادعت الكمال والقسطاسية..

لقد كان النورسي ببصيرته الثاقبة وبروحه القرآنية الحية يقف على الخط الأمامي في مواجهة المستغربين ..

لقد عاب عليه دعاة الاشتراكية من أبناء قومه، دعوته الإصلاحية التي كانت ترفع شعار الدين، إذ حسبوا أنهم وجدوا ضالتهم في مبادئ الاشتراكية، وظفروا بالمغنم الذي طالما تاقت إليه الجماهير، والمتمثل في شعارات العدالة والمساواة التي حملتها الدعاية الإشتراكة.. من هنا راح النورسي يوضح موقفه في ضوء الدين الاسلامي من تلك الشعارات المترفعة زهوا وخيلاء، اعتقادا منها أنها أوجدت الحل السحري لبني البشر..

لقد رأى النورسي في الجنوح الإطلاقي الذي تميزت به مبادئ الاشتراكية، لا سيما ما تعلق منها بمقاصدها التغييرية، والمستهدفة جوهر البنية النزوعية في النفس الإنسانية، إنما هو جنوح مناهض للفطرة المغروسة في الروح البشرية، وهو – من ثمة – وجه من أوجه

معاكسة القوانين الحياتية نفسها، الأمر الذي يدفع مسبقا بالمرء إلى أن يتشاءم من مغبـــة تلك المخاطرة التي شاءت أن تسلك بالإنسان طريقا مخالفا للطريق الذي هيأه الله للبشر في معاشهم وتعاملهم..

لقد كان النورسي متيقنا من أن تلك الدعوة إنما تخرج عن تعاليم السماء، فهي لذلك دعوة محفوفة بالمزالق المردية، وأن البشرية لن تغل منها إلا أسوأ الآثار، لا على مستوى النتائج المؤملة من تلك التجربة التهديمية غير المتزنة فحسب، ولكن على صعيد الإضرار بنفسية الفرد وديناميته، وبالتالي بالمفاهيم التي يتأسس عليها الوجود الانساني كلية.." إن من يشق طريقا في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة، لا يستثمر مساعيه ولـــن يكـــون النجاح حليفة في أمور الخير والرقي، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جمـــيع أعماله في سبيل التخريب والشر .."[٥٥].

فإلغاء الفضيلة يتأتى من خلال العمل على تجاوزها والسعي إلى تبديل الماهية الروحية البشرية وإخماد العقل الفطري وقتل القلب موطن المشاعر والمواجد وإفناء الروح، أي من خلال فرض النظم التي تتحول بالإنسان إلى آلة واستجابات مبرمجة ..

من هنا رأى النورسي في شعار المساواة المطلقة تغييرا لقـــوانين الطبيعـــة الانســـانية والجبلة، وسباحة منكرة ضد التيار " فما دام الانسجام مع قانون الفطرة ضروريا، فإن تنفيذ قانون المساواة المطلقة لا يمكن إلا بتغيير فطرة البشر ورفع الحكمـــة الأساســـية في خلق النوع البشري". [٥٦]

وفي هذا الصدد سنجد النورسي يعترف أنه ينتمي إلى طبقة العوام وممن ينظرون إلى مبدإ المساواة بعين الحاجة، لا بعين التفضل فقط، ولكن مع ذلك فإنـــه رأى المجازفـــة بتطبيق هذا الشعار إخلالا سافرا بقوانين الفاطر سبحانه التي جعلت من ظاهرة تفـــاوت الحظوظ سنة للتعمير وتكافؤ الفرص في المهام الحياتية..

لقد كان يقدر أن التجربة البلشفية إنما تقوم على ضرب من التعصب الإيـــديولوجي الطبقي الذي لن يبرح أن تتكشف نتائجه عما يدمي فؤاد الإنسانية "..إنني من حيث النسب ونمط معيشة الحياة من طبقة العوام ومن الراضين بالمساواة في الحقـــوق فكـــرا ومشربا، ومن العاملين على رفض سيطرة طبقـــة الخـــواص المســـمين بـــالبرجوازيين

٥٥ اللمعات ص. ٢٥٧
٥٦ م.ن. ص ٢٥٧

واستبدادهم منذ السابق، وذلك بمقتضى الرحمة وبموجب العدالة الناشئة من الاسلام . لذا فأنا – بكل ما أوتيت من قوة– بجانب العدالة التامة، وضد الظلم والسيطرة والتحكم والاستبداد. بَيْدَ أن فطرة النوع البشري وحكمة خلقه تخالفان قانون المساواة المطلقة، إذ الفاطر الحكيم سبحانه كما يستحصل من شيء قليل محاصيل كثيرة، ويكتب في صحيفة واحدة كتبا كثيرة .. كذلك ينجز بنوع البشر وظائف ألوف الأنواع، وذلك إظهارا لقدرته الكاملة وحكمته التامة..". [٥٧]

لقد فطر الله الإنسان مطلق القوى والقابليات، فهو بمثابة ألوف الأنواع، وإن كان في حقيقته نوعا واحدا .. من هنا فإن كل حد لطاقاته أو تنميط لأوضاعه ومكاسبه فإنما هو تدخل آثم في قانون الفطرة، وخروج عن المقاصد الإلهية التي يريد الله بمقتضاها أن يجعل الانسان خليفة في الأرض..

من هنا توسعت دائرة نشاطات كل فرد امتلك حدا من الشروط المهيئة للتفتق.. ومن هنا أيضا كان كل كفٍّ لقابليات الانسان أو إعاقة لطاقاته أو تنميط لأوضاعه ومكاسبه، هو تدخل في قانون الفطرة وخروج عن المقاصد الإلهية التي هيأت الإنسان الفطري السائر على هدي تعاليم الخالق لأن يكون خليفة الله في أرضه "..[٥٨]

لقد أدرك النورسي أن قيمة الشعارات الطوباوية – مهما كان حظها من الإنسانية– لا يمكنها إلا أن تتصادم مع الفطرة، وأن يكون مآلها الخيبة والخسران ..

ومن الواضح أن مثل هذه الإعتراضات كانت تبدو وقتذاك رجعية وخضوعا أصم للدين، أفيون الشعوب.. فلقد كان على الإنسانية المأخوذة بسحر ما ترى وما تسمع من شعارات أن تجرب ممارسة الأحلام الوردية، وأن توغل بعيدا في طريق التيه عن الهدى، قبل أن تفتح عينيها على المأساة التي تسبب الإنسان ذاته في صنعها، ورضي أن يردي نفسه فيها .. وهو ما حدث للإيديولوجية الشيوعية الإشتراكية التي أفسدت أكثر مما أفادت، وانتهى بها المسار إلى الانخذال المبين..

ومما ينبغي أن يستخلص من تجربة الإنسان الشيوعي – أو بالأحرى– تجربة الأمم الاشتراكية أن أمر الله تحقق فيها على نحو ما توعد به كل جحود، إذ بإعراضها عن النواميس الكونية ابتلاها الله بما ظل يبتلي به الأمم الخاطئة من هلكة وسوء مصير..

---

٥٧ م.ن. ص٢٥٧

٥٨ أنظر اللمعات ص.٢٥٨.

إن مأساة الدول الشيوعية وسقوطها لا يمكن أن يفسر إلا بما شاء الله لها أن تعيشه من مآل يعيدها إلى الجادة وإلى الإرعواء الذي يستبقي لها نصيبا من فطرتها وبشريتها، كي تشملها الرعاية ولا يطالها مكر الله الذي لا يهادن الماكرين.. وهو ما تنبأ به النورسي، وعاينه أتباعه عن كثب بانهيار أركان الشيوعية على أسوإ ما يكون الانهيار..

تزكية المجال الغيبي الموصول بالشرع، والأخذ به، ترجيحا لروح الإيمان

لقد أعار النورسي الناحية الغيبية كثيرا من الاهتمام، فمساحة جهوده الفكرية ودعوته الترشيدية قامت كلها على دعامة الإيمان بالله وبما قررت تعاليمه من الإيمان بالغيب.. لقد شاء النورسي أن يعطي للواقع الاسلامي – الآيل باطراد إلى رجاحة مادية جحودية بتأثير من ثقافات الكيد وإشاعة روح الزندقة والانحلال، وانتشار أفكار الطوباويات المغررة بالإنسان، شيئا من التوازن يرعوي به ويتمالك عن الوقوع في هوة الكفر والعدمية .. من هنا كان ذلك الاهتمام الكبير الذي أعاره النورسي لمجال المعجزة والكرامة، وما راح يستلهمه من تلك الآفاق المطهرة، والمتمثلة في سيرة الرسول ﷺ و أنبياء الله الآخرين التي ظلت صعيدا حافلا بالخوارق، وكذلك من تجارب وسيرة أولياء الله الصالحين..

بل لقد حرص على أن يبرز من كنوز القرآن نفسه دلائل إعجازية لتعزيز الحس الغيبي عند المسلمين.. ذلك لأن النورسي كان يؤمن أن ثقافة الإفساد التي كان الغرب وأتباعه المستلبون ينشرونها بشتى الكيفيات، تحتاج إلى إرساء ثقافة إيمانية مناهضة للدجل الإلحادي، ومن شأنها أن تكفل للإنسان صيانة روحية تحفظ له توازنه وتستبقيه متجذرا في أرض واقعه الحياتي والروحي الذي لا يستطيع بحال من الأحوال أن ينفك عنها وعن أبعادها الغيبية الموصولة بمواجده وأعماقه..ذلك الغيب الذي يكتنف بآثاره النفسية والوجودية أطراف التجربة الانسانية من جميع جهاتها، ميلادا وأطوارا وحظوظا ووفاة..

النورسي يعيد تقويم الشاهد الخارق من منظور تحصيفي

على أنه لابد أن نلاحظ ذلك الحس التمحيصي الذي نظر به النورسي إلى الحوادث الغيبية، فهو قد سعى إلى أن يعيد تقويم الشاهد الغيبي وفق عقل إسلامي متخلص من القناعات الانحطاطية والأسطورية الكتابية التي كانت عبئا على مفهوم الكرامة والمعجزة

وتشويها لها في كثير من الأحيان، وهو ما روجت له ثقافة عصور الانحطاط الملوثة بإفك الإسرائيليات..

لقد امتاز النورسي بعقل تحصيفي جعله يضفي على الثقافة الاعجازية المتداولة بين الناس، طابعا إدراكيا جديدا أكسبها في جملتها وجاهة لا تمارى..

بل لقد أضحت مسائل تلك الثقافة الغيبية تشد القارئ وتقوده إلى وجهتها التمَثُّلِيَة التي تأَوَّلَها بها النورسي، ليجد هذا القارئ نفسه – في الغالب – يتقبل ذلك التمثل، ويعتنق تلك الرؤية، ويُؤَمِّنُ على سلامة ذلك الاستيعاب والتخريج الذي انبنى على نظر عقلي متمالك، ومتبصر، ومتأول، لكن من دون أن يشتط في العقلنة التي ألفناها – عند الكثير من المتأولين – تسف بالحقائق غير المدركة، وتتعدى بها حيز المعقولية إلى الافتعال والتمحك، من حيث أرادت الإقناع والتسديد..

النورسي ..أخلاقه أخلاق القرآن، والإمحاء الإعتباري مسلكه

لقد ظل النورسي يذب عن نفسه الأحوال والصفات التعظيمية التي كان الأتباع يخلعونها عليه تبجيلا ومحبة، وكانت سيرته الربانية الجليلة تحملهم على ألا يروا فيه شخصا عاديا .. بل لقد أحاطوه بقداسة جراء ما كانت عليه سيرته من سمو وتقوى..ونتيجة لذلك التقديس طفق النورسي يدفع عنه باستمرار نعوت التجلة والإعظام التي كان تلاميذه والمحتكون به والعارفون بسيرته يطلقونها عليه..

والمؤكد – كما تثبت مواقف المكاشفة السافرة التي دأب يتصدى بها إلى تجريد نفسه من الفضائل– أن إصراره على نفي صفة الوجاهة الروحية التي ترسخت له في نفوس الأتباع لم يكن مجرد تظاهر بالتواضع كالذي جرى عليه العرف بين الناس، حيث يغدو اصطناع التواضع حيال مقام الامتداح نوعا من الإستزادة والرضى والإخلاد إلى حال الدغدغة التي تجدها النفس في مواقف المدح والإكبار..

بل لقد كان حرصه على تجريد نفسه مما يُلبسه إياها الناس من حلل القداسة، وازعا دينيا أصيلا فيه، بحيث نلمس أن النورسي من خلال ذلك إنما كان يقوم بما يشبه الإستغفار الذي يجرد النفس ويستبقيها عزلاء مما يغري أو يغرر أو يغوي..

بل لقد نزع إلى أن يثلب نفسه كلما تصدى بالرد على تلك المواقف الإمتداحية والإكبارية التي ظل يُقابَل بها من قِبَلِ الناس ..

والثابت أنه حرص دائما وكلما تحدث عن نفسه، على أن ينسب الفضائل التي كان الناس يعاينونها فيه، إلى الله عز وجل، وإلى خدمته القرآن..

بل لقد انتهى به الأمر إلى الإقرار بأن ما كان يتراءى للناس من نبوغ فكري وروحي يميز دراساته وتعاليمه، إن هو إلا نبوغ القرآن العظيم ذاته، وأنه لا دور له في ما كان يقرر بشأن الآيات البينات، إلا ما كان من تسجيله لما تسنح به الأفكار والخواطر التي تتوارد على قلبه وهو يتمسح بعتبات القرآن العظيم، وأن دوره في كل ذلك هو دور المؤشر والدلال الذي يعرض على الناس ما تحتويه خزينة القرآن..

لقد طفق يهتف ملء الأسماع أنه مجرد دلال للقرآن..

لقد ظل ديدنه أن يطابق بين شخصيته الحق، وبين صفات السمو والإعلاء التي كانت تضفيها عليه خدمته القرآن العظيم ..

بل لقد مضى يبذل الجهود المضنية من أجل أن يصيب شيئا من صفات تلك الشخصية النموذجية التي كان يرسم ملامحها القرآن من خلال ما أرسى من مثل ومعايير قدسية تتزكى به نفس المؤمن، فلبث يكد ويجهد على أمل أن يحقق بسيرته وشخصه شيئا من تلك الصورة القرآنية، لكن ما أكثر ما كانت تناله الخيبة كلما وقف يُقَوِّمُ نفسه وما تحقق لها في سبيل بلوغ ذلك الهدف الأسمى..

لقد كان تحقيق ذلك المطمح يقتضي منه أن ينسلخ تماما عن ذاته، ليرقى إلى رحاب الكمال.. من هنا وجدناه يأخذ بوسيلة تقمص شخصية القرآن والفناء فيها بلوغا لهدفه الأزكى..وهو ما كان يجعله يقرر أن له شخصية خالصة لخدمة القرآن وحده.. وبما أن خدمة القرآن تقتضي أخلاقا سامية، فإن تقمصه لتلك الأخلاق والآداب والفضائل تعود إلى القرآن .. [٥٩]

لقد كان النورسي يبرر بمثل هذه الاعترافات تلك النعوت المكرَّمة التي كان الأتباع يلحقونها به..

وكان وقوفه في حضرة الله، في أوقات العبادة، يكشف له دائما عن قصوره وتقصيره وفقره وضعفه وعجزه حيال الله، فما يتلبسه من هوية روحانية يثوب إليها حال انهماكه في العبادة ، كان يجعله دائما يحس بحقيقته الهينة تلقاء الله، فيزداد ابتئاسه ويزداد ألمه، إذ

---

٥٩ المكتوبات ص٤١١.

يرى البون بينه وبين الصفاء ما يزال بعيدا.. وتلك كرامة أخرى تحسب له، إذ نأى بمثل هذه الرقابة الصارمة للذات، عن أن ينـــزلق في وحل الغرور والادعائية..

إن شيئا من هذه الثنائية المركبة التي تصدر عنها نفس الفرد، وما يتلاطمه من نوازع السلب والايجاب، وما يعروه من رجاحة لروح الخير أو روح الشر فيه، برجاحة هـــذا البعد من تلك الثنائية أو ذاك، هو ما طرحه النورسي على صورة فكرية تمثلية حين تحدث عن " أنا " الانسان- وذلك جانب فكري سنتحدث عنه في غير هذا المكان- حيث أن النورسي قد استوفى فيه النظر بتحليله لنفسية الكائن البشري، مستثمرا عُدَّة مصـــطلحية كان التعامل التحليلي الغربي، لا سيما عند العالم اليهودي "ساغموند فرويد" قد عـــين ببعضها أسسا معرفية تحيل دافعيات الإنسان جملة إلى الغريزة والدناسة..

لقد فتح النورسي منفذا آخر في مسيرته التأصيلية، إذ دشن مجال التحليل النفسي من منظور قرآني، معمقا بذلك الاتجاه إصراره المؤكد على السير في طريق أسلمة المعرفة..

لقد انتهى به التأمل لنفسه إلى أن يقر بثبوت شخصيتين يتنازعان ضميره التعبدي : شخصية كان الناس يشهدونها ويبرونها، وهي شخصية اكتسابية، محققة بخدمة القرآن..

وهنالك شخصيته الأصل، شخصية سعيد القديم التي لبثت تلازمه، رغـــم الجهـــاد المستمر والمرير الذي تعهدها بها، اقصاء لها عن ساحته، إذ هي شخصية لا تفتأ تنـــزع به إلى طبيعتها الأرضية الأولى، إذ تحرك فيه " رغبة الرياء وحب الجاه وتجـــنح بـــه إلى التلبس بأخلاق وضيعة مع خسة في الاقتصاد، حيث أنني لست سليل عائلة ذات جـــاه وحسب.."[٦٠]. الأمر الذي كان يحتم عليه أن يبقى في حال من اليقظة والوعي بحيث لا يخترقه الغرور جراء امتداح الناس له .. ذلك لأنه كان يدرك أن حقيقته التي لا يعلمهـــا إلا هو بعد الله، إنما هي حقيقة ترابية، لا تبرح مشـــدودة إلى الســـمعة والتـــرف، وإلى الإمتلاك، وإلى تسنم ذرى الرفعة..

لقد كان يحمله منطق تأنيب النفس، وكسر سورة غرورها، وإلجام جموحها إلى الرياء والنفاق، على المضي في فضح ما يعتور تلك النفس من مشـــاعر ســـافلة محتدمـــة في الأعماق، متسترة لئلا يكشفها الناس، فكان – من ثمة – لا يفتأ ينعت نفسه بالمعايـــب، مظهرا ما يمور في أعماقه من توق محموم ونوازع خسيسة لا يراها الناس.. وكل ذلـــك قمعا لجنوح النفس، وتقييدا لألاعيبها المردية ..

---

٦٠ م.ن. ص٤١١

ومن الواضح أن مجرد رمي النفس بما كان النورسي يرمي نفسه، وعلى تلك الصرامة التي لا تعهد، إنما كان وجها من وجوه التربص بالنفس وتحسيسها المستمر بالرقابة، واتهامها بالنقص، مهما كان مقدار القوامة الورعية المكتسب..

لقد كان النورسي في حرب مكشوفة مع النفس الأمارة، وتلك سجية ترويضية اكتسبها –دون شك– من ملابسته القرآن ..

فلقد كان القرآن ضميرا قدسيا ظل يتعهد سيد الأولين بالتوجيه والتأديب، فكانت نزغات النفس إذا ما اعتملت في وجهة غير سديدة، بادرتها الآيات المنزلات ترشِّدها وتعيدها سواء السبيل.. وذاك هو — دائما – شأن القرآن مع المتقين..

بل لقد كان ذلك الوازع الكفي الذي اتبعه النورسي مع نفسه، هو السياسة التي سلكها الأطهار من الصحابة والأتقياء الصالحين في كل عصر.. إذ جعلوا من مهمة تهوين النفس الأمارة، وإرجاعها إلى حال من الانقياد لأوامر الله ونواهيه، الباب الذي ينفذون منه إلى رحاب السعادة والإنعتاق من كابوس الشهوات والمفاتن والموبقات..

فعلاقة النورسي مع نفسه ومع ميولها وتفلتها من طوق الإيمان كانت علاقة قمعية لا هوادة فيها ..

وما أكثر ما كان يرفع صوته إعترافا بما كان لا يسع النفس إزاءه إلا أن تستخزي وتندحر، لقد كانت إعترافاته تأخذ أحيانا صورة الإعلان الإشهاري الذي ينفض — بالساحة، وعلى أعين الأشهاد – كل ما تحوي الجعبة..

لقد كان فضحه للنفس إشهادا معلنا بين الناس، من شأنه أن يلهمهم شيئا مما يجب أن يلزموا به النفس إذا شاؤا أن يسلكوا طريق الصلاح ..

لقد لبثنا نسمعه في العديد من المرات يهتف بأعلى صوته في الناس :

"..يا أيها الإخوة .. لن أبوح بكثير من مساوئ هذه الشخصية ومن أحوالها السيئة، لئلا أنفركم عني كليا.. فالنفس أدنى من الكل، والوظيفة أسمى من الكل .. "[٦١]
وتلك منقبة أخرى من مناقب هذا الطاهر الذي سحق النفس فظفر بالعظمة المستديمة..

---

٦١ م.ن. ص٤١٢

كيف قرأ النورسي مسألة الدعاء ؟

بل لقد قرأ النورسي حقائق روحية جملة ظل الذهن الاسلامي – وفي كثير من مستوياته – يتداولها كتلقينات يأخذها الخلف عن السلف من غير أن يكون لها في الذهن صورة تقرب من واقعيتها.. من ذلك مثلا فكرة الدعاء.. فأن يدعو الفرد لابد وأن يقر في ذهنه – ولو بدرجة توقع نسبية – أن دعاءه سيتقبل ويقابل بالإجابة.. هذه هي قناعة الفرد العادي، إذ أن إنسداد الأفق في وجهه يجعله يعنت النفس في إيهامها أو في حملها على أن تؤمن بأن الدعاء مفتاح الفرج.. الأمر الذي يجعل الإيمان عرضة للخيبة، إذا لم تتحقق الاستجابة المؤملة..

.. إذ لا ننس أن إيمان السذج بسيط، وأنه لا يخلو من روح تقوم على ما يشبه صلة المقايضة مع الغيب، وربما كانت فكرة النذر تندرج في هذا النطاق.. لكن النورسي، ومن خلال تجديد ثقافة الإعتقاد يعطي للدعاء بعدا غيبيا تنفتح به كوة منعشة وموثقة لروح الإيمان..

لقد قرر أن الدعاء هو نوع من العبادة ، وأنه بذلك يظل مناطا بالآخرة ..فإذا كانت مقاصد العبادة متوجهة إلى الآخرة، فكذلك ينبغي للداعي أن يتوقع — منطلقا — أن الإجابة لدعائه ستكون في الآخرة..

بل لقد نظر النورسي إلى مسألة الدعاء في إطار كلي، تجاوز به العاطفة الإنسانية الواقعة – عادة – تحت شرط الضرورة الإستنجادية ومجاوزة الضوائق والشدائد..

فمن التخريجات الموفقة التي قرأ بها النورسي حقيقة الدعاء، أن قسمه إلى ثلاثة أقسام:

– دعاء بلسان الاستعداد والقابلية المودعة في الشيء .. دعاء تجتمع له الأسباب ..

وواضح أن وقائع كثيرة مما نحياه حتى في حياتنا اليومية تندرج تحت هذا المستوى، ولعل لازمة المسلم التي يعقب بها على كل أمل يتطلع إليه بقوله " إن شاء الله " هو ترجمة لهذا الصنف الذي يقوم على قاعدة اجتماع الشروط والأسباب.. فالعطاء الوفير للموسم الممطر يتضمن دعاء..

– دعاء بلسان حاجة الفطرة ..وتنطق به ألسنة حاجة الفطرة لسائر الكائنات، فهي تسأل الخالق القدير مطالبها .. من ذلك أن ظمأ الشجرة يتضمن دعاء، يستجاب له حين يغدق الله عليها الغيث.

-الدعاء الذي يسأله ذوو الشعور لتلبية حاجاتهم (أو الدعاء المعنوي، الحـــالي).. فالمهتم بأمر ما، العاكف عليه، المنخرط في طلبه باستغراق وفناء، يستجاب دعـــاؤه في مرحلة ما ولو طالت.. ولا شك "أن ما أحرزه الإنسان من رقي ومن كشوفات، ما هو إلا نتيجة من نتائج هذا النوع من الدعاء، إذ ما يطلقون عليه من خـــوارق الحضـــارة والأمور التي يحسبونها مدار افتخار اكتشافاتهم، ما هو إلا ثمرة هذا الدعاء المعنوي الذي سألته البشرية بلسان استعداد خالص، فاستجيب لها ".[٦٢]

أما الدعاء المعروف لدينا – كما يقول النورسي – فهو فرعان :

١ – أحدهما فعلي من قبيل حرث الأرض، إذ أن الحرث هو بمثابة دعاء، ورجـــاء.. جوابه منوط بالغيب .. فالعاطي ليس التراب ولكن الله .. وليس التراب وما صاحبه من عمل إلا بعض أسباب اتي لا تكون لها نتيجتها إلا إذا أمّنَ الإله على دعاء المزارع..[٦٣]

٢- الدعاء القولي، وثمرته لا تخيب ما استدام واكتسب الكلية .. أي متى ما تجـــاوز نطاق المطلب الشخصي البحت..

ومما يقرره النورسي في هذا المجال هو أن الإجابة قد تأتي بأوفى مما رام الداعي، فقد تبدو الإجابة على غير ما كانت رغبة الداعي، لكن المستقبل يبين أن الخير في ما اختـــار الله ..

إذ قد تحصل الإجابة عن الدعاء بعينه أو بما هو أفضل منه وأولى.

فإذا ما دعا الانسان بالولد وجاءت الأنثى الصالحة، فلا ينبعي أن يقول الـــداعي أن دعاءه لم يستجب، ذلك لأن اختيار الله له علة، وهو اختيار الأصلح والذي يتناسب مع جوهر الدعاء، وإن كان الداعي غير مدرك له في الحال..

كما أن للدعاء أهميته النفسية المؤكدة، إذ أن الداعي – لحظة الدعاء – تتفتح نفســـه على يقين تواصلي مع الله، إذ يدرك لحظتها ولو غير شعوري أنه يتوجه إلى قاهر قـــادر، رحيم، لا فوقية له ..الأمر الذي يبين أن الدعاء طاقة وجدانية تتسع بها مساحة الواقـــع وتأخذ رحابة بما يقوم عليه من أبعاد غيبية تنضح بها مشاعر الـــداعي والمتضـــرع.. وفي ذلك ما فيه من أسباب خلوص الإيمان..

---

٦٢ المكتوبات ص.٣٨٧

٦٣ م.ن. ص ٣٨٧

هكذا يمضي النورسي في ابراز المناحي القلبية والروحية التي تتسع لها مَوْجِدة الدعاء، باسطا القول فيها بحيث جعلها تتجلى في ذهن المتلقي وتأخذ هذا البعد التمثلي الـــذي أبان مستوياتها ..

ولا شك أن من شأن ذلك أن يقوي من روح تمسك المسلم بإيمانه، إيمان يجعله يظل في رحاب الله أينما حل، من خلال موجدة الدعاء والاستعانة .

لقد تجاوز النورسي بمثل هذه القراءة المرشدة لمفهوم الـــدعاء، الإطـــار التقليـــدي السالب واللاعقلي الذي ما انفكت ظلال الاعتقادات الخرافية تحيطه به علـــى مـــدى عصور وعصور..

إرادة الانسان من إرادة الله .. وقانون العلة والنتيجة هو بمثابة الدعاء المشروط بالمشيئة الإلهية

إن ما يميز فكر النورسي في مجال الاعتقاد هو إقراره بدور الفرد في تحمل المســـؤولية الحياتية، إذ معنى التأهيل الذي حازه المخلوق الانساني، هو هذه الإرادة التي تواجه قدرها المقدور بإيجابية وعزم، وليس بإحجام وموات.. من هنا كان مفهوم التوحيـــد –الـــذي يقود إلى التسليم والتوكل – وبالتالي إلى سعادة الدارين – لا يعنى القعود أو مناهضـــة الأسباب التي لم تتهيأ بنفسها أو من تلقاء ذاتها، وإنما جسدت القانون الإلهي الذي تسير وفقه الحوادث وتحصل التطورات..

ولذلك لا يتسنى لأي جهة أن تغير أسس القانون الإلهي الذي تمثله تلـــك الحتميـــة الصارمة التي تجرى على سننها الظواهر..

إن ذلك الجريان المطرد، والذي لا عوج فيه ولا راد له، هو الناموس الذي قضى الله — عز وجل – أن تجري وفقه، وفي كنفه، نظُم العلل والنتائج، تلك النظم التي هـــي في حقيقتها الشرعية محض تسبيح تتمجد به الذات العلية على نحو فياض..

يقول النورسي :

"..الإيمان ..يقتضي التوحيد والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقـــق التوكـــل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين، ولا تظنن أن التوكل هو رفـــض الأســـباب وردها كليا، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حجب بيد القدرة الإلهية، ينبغي رعايتها ومداراتها، أما التشبث بها أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعلـــي، فطلـــب

المسببات إذن، وترقب النتائج لا يكون إلا من الحق سبحانه وتعالى، وأن المنة والحمــد والثناء لا ترجع إلا إليه وحده..". [٦٤]

لقد كان نظر النورسي في هذا المضمار التوحيدي، نابعا من الاعتقاد الذي يقيم هذا التوازن بين المظاهر الحسية والعقلية، وبين الاعتقاد الإيماني الذي تعود إليه علة وجود أو عدم كل شيء في هذا الوجود..

من هنا رأى النورسي أن حرية الانسان وكماله لا تتحققان إلا إذا ظفــر بالإيمــان الحقيقي، ذلك أن إرادة المخلوق لا تقوم إلا على إرادة الله، في تجسدها سلبا وإيجابا .. فالأسباب ستار لنفاذ المشيئة الإلهية..

قانون التراسل والتواصل والسببية المنوطة بأسماء الله الحسنى

يرى النورسي أن للأشياء ترابطا ينتظمها، وقانونا يشملها، وآلية قدرية تســيرها، إذ أن كل ما أوجد الله في عوالم غيبه وشهوده خاضع لسلك من التراسل والتواصل الحيوي يجعل من الكون حقيقة كلية، ملموسة، لا يكتنفها العدم ..

فالعدم لاغ في ملكوت الله، والفناء مجرد حالِ غيبةٍ وتحوُّلٍ تجعل الحواس تعجز عــن استبانة آثار العنصر المغيَّبِ والاتجاه الذي مضى إليه ..

فكل شيء مرتبط بأسماء الله، وأسماء الله لها تجلياتها، وهي هذه الموجودات التي نراها والتي تتنوع على قدر تنوع وثراء أسماء الله..

وحيث أن أسماء الله سرمدية لا تزول، فكذلك تجلياتها التي هي هذا الكون وما يعمره من عناصر ومكونات مشهودة وغير مشهودة.. باقية لا تزول:

" إن الأشياء لا تمضي إلى العدم ولا تصير إلى الفناء، بل تمضي من دائرة القدرة إلى دائرة العلم، وتدخل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب وتتحول من عالم التغير والفناء إلى عالم النور والبقاء، وإن الجمال والكمال في الأشياء يعــودان إلى الأسمــاء الإلهيــة وإلى نقوشها وجلواتها من زاوية نظر الحقيقة"[٦٥].. فالبقاء من سنن الله، إذ من سننه أن لاتنعدم إيجاداته، وهي وإن عراها التغير، فلا ريب أنها تتجدد بفضل تعهد أسماء الله الحسنى لهذا الكون...[٦٦]

---

٦٤ الكلمات ص. ص.٣٥٣.
٦٥ م.ن ص ٣٧١
٦٦ م.ن. ص ٣٧١

وحيث أن تلك الأسماء باقية وتجلياتها دائمة، فلا شك أن نقوشها تتجدد وتتجمـــل وتتبدل، فلا تذهب إلى العدم والفناء، بل تتبدل تعيناتها الاعتبارية، أما حقائقها وماهيتها وهوياتها المثالية التي هي مدار الحسن والجمال ومظهر الفيض والكمـــال فهـــي باقيـــة، فالحسن والجمال في الأشياء التي لا تملك روحا يعودان إلى الأسماء الإلهية مباشرة.. [٦٧]

ومن الواضح أن رؤية النورسي إلى العدم والوجود هذه لا تحمل أدنى مماثلة مع منطق التناسخ البوذي الذي يرى أن الأرواح تتناسخ وتتغاير من حيث خلقتهـــا ومصـــائرها الوجودية في ضوء أعمالها ومقترفاها..

فنظرة النورسي قرآنية تؤمن بالبعث والنشور، وبالجزاء والعقاب، وبالقبر وســـؤاله، وبالقدر وقضائه.. فهي نظرة لا تحيد عن تعاليم القرآن والسنة النبوية الشريفة .. من هنا كانت نظرية انعدام العدم في الوجود التي يقول بها، لا تأخذ هذا السياق الأنتروبولوجي ذا البعد الإفتراضي، والذي يعتبر الوجود دورات جزائية — ارتقائية –مشهودة لا تنقطع

.. بل إن النورسي يؤمن بأن الحياة الدنيا مشروطة بهلاك يفضي بالإنسان إلى الـــدار الآخرة، وهي دار الأبدية التي يخلد فيها الإنسان الصالح ويتسامى بوجـــوده إلى درجـــة الكمال، وينعم بالسرمدية..

بل لقد وجدنا النورسي يمد حبل التفكر إلى ما بعد الحياة الدنيا، وإلى ما بعد قيـــام الساعة، ويقدر حتى نوعا من الوجود الأخروي لـــذوات الأرواح مـــن غـــير جـــنس الإنسان.. " إن الأشياء لا تمضي إلى العدم ولا تصير إلى الفناء، بل تمضي مـــن دائـــرة القدرة إلى دائرة العلم، وتدخل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وتتوجه من عالم التغير والفناء إلى عالم النور والبقاء، وإن الجمال والكمال في الأشياء يعودان إلى الأسماء الإلهية، وإلى نقوشها وجلواتها من زاوية نظر الحقيقة". [٦٨]

كيف ربط النورسي بين أسماء الله الحسنى وبين التطور الحضاري

لا شك أن نظرة النورسي في مضمار الإيمان كانت تثويرية، وقد تبدى ذلك علـــى صورة جلية في تمثله للمعاني والإشارات القرآنية، وفي هذا النطاق وجدناه يستنبط وجها تمثليا لأسماء الله الحسنى يتجاوز ما ظل إعتقاد الأمة يراه لهذه الأسماء ويقومها به..

---

٦٧ م.ن. ص ٣٧٠

٦٨ م.ن. ص٣٧٠

لقد خصصت الأمة لأسماء الله مكانة مرموقة في ثقافتها الروحية، إذ جعلتها مناط التشفع والاستغاثة وجلب المنافع ودرء المضار..

لقد ظلت الأجيال تتضرع إلى الله بأسمائه الحسنى لاحتياز الغنى والبركة والاستشفاء..ولدفع المكاره، ومقارعة العدو .. وظلت الجماعات تداوم على ذلك، وتصادم المحن والابتلاءات بالتوكل، لكن بأيد خالية مما يمكن أن يكون بعض أسباب تحقيق القصد..

بل سنجد إشكالا أدخل هذا القطاع المعرفي القدسي الذي تمثله في منظومتنا الدينية أسماء الله، في ما يشبه الميثولوجيا حين تضاربت التكهنات حول معرفة الاسم الأعظم..

فقد فتح العجز الحضاري مجالا في وجه الركود والبطالة والمجانية الفكرية، حين تَوَّهمت الأمة أن ضالتها تكمن في عثورها على اسم الله الأعظم، إذ بامتلاك ومعرفة هذا الأسم الأفخم، تقضي الأمة على ما بها من ضعف..

لكن النورسي –الذي قدَّر أن الوجود موكول فعلا بأسماء الله الحسنى، وأن كل اسم منها مناط بحكمة وبجانب حياتي تديره القدرة على نحو أزلي– مضى بهذا الاعتقاد ناحية استشرافية أخرى غير الأولى ..

لقد رأى أن على المسلم أن يتيقن أن لأسماء الله حقا من القوامة الروحية ومن الأسرار والمقدرات القدسية ما لا يدركه العقل، لذا أهاب بالمسلم أن يستثمر الجهد الكافي في سبيل انتزاع جم المكاسب من هذه الأسماء .. من هنا شاء النورسي للمسلم أن يسير على طريق التدبر واستلهام بركة ومرموزية هذه الأسماء .. وذلك بأن يستقرئ من أسماء الله معانيها الإيحائية ،وإحالاتها الباهرة . فمن شأن ذلك أن يجعله يغتني بها الغناء الحق، إذ لا يكون اعتقاده فيها اعتقادا مجانفا للعقل وللوجه البياني الذي فتحه الله للأمة المتبصرة من خلال تلك الأسماء القدسية ..

من هنا رأينا النورسي يؤمن أن في أسماء الله من إشارات الحكمة ومن إيعازات التعليم والتثقيف والتفتيق ما من شأنه أن يمكن عقل المسلم من أن يستوي إذا ما استقرأ حقيقة الوحي الذي يشع من تلك الأسماء الحسنى..

فاسم الله : القادر يلهم القدرة، لكنها ليست قدرة الاستضعاف والاستكانة، إنما هي القدرة الفعالة التي يكتسبها المسلم، فردا وجماعة، من خلال تمثل قدرة الله في صنع هذا الكون وفي إدارته والسيطرة عليه، فإذا ما نشد الفرد مثل هذه القدرة وعمل على

اكتسابها، وتسبب في تهييئها، فقد أحسن تمثل اسم الله القدير، واستطاع أن ينفذ إلى كنه هذا الاسم المعظم .. ومثل ذلك اسمه : الحكيم، فالحكمة التي يستلهمها المسلم ويقبسها من اسم الله : الحكيم هي الحكمة التي تعطيه الاستطاعة وتزكي فيه قابلية الصدارة التي رشحه لها الاسلام، بسياسة العالمين والسؤدد عليهم عن طريق الترشيد والغلبة الحصيفة، والتسديد القويم ..

إذ الإسلام لا يتعصب لأمة مجردة من الحكمة، وعارية عنها، بل إن الأمة المتعصبة للجهالة والغي والعماية، هي أمة تعمل ضد مرامي الاسلام الذي جاء ليدمج في حظيرته الأمم قاطبة، من حيث هم عبيد للحق، وخلفاء لله في هذا الكون .. فتجرد الأمة المكلفة بالتبليغ من الحكمة، هو تحلل من المسؤولية الإلهية، بل هو عقوق وتخل على الواجب القدسي ..من هنا لا مندوحة للأمة التي تريد أن تكون وفية لدينها، من أن تثوب إلى الحكمة تقبسها من اسم الله الحكيم ومن سائر ما يتفتق به عليها التجريب والإلهام والتحصيل العقلي، فتتقوى، وتتسامح، وتجود، وتتجمل، وترحم، ، وتتنزه.. لتستوفي مقومات الحكمة الإلهية ..

فالحكمة المستلهمة من اسم الله الحكيم لا تقوم على أي معنى ملموس، ما لم تتسلح الأمة بالحكمة الإلهية الحق التي تضعها موضع الصدارة، والقبول، والاستقطاب، والرئاسة..

وقل هذا في اسمه المعظم : العليم، والبصير، والسميع، والقهار، والزكي، والمغني، والمجيد وما إلى ذلك.. إنها جميعا أسماء منزهة، وسم الله بها ذاته العلية، وجعلها معالم على شأنه السامي، وعلى ماهيته المطلقة، وأودع فيها من المعاني والدلالات ما يشع بالسداد على الإنسان المؤمن ويهبه الكمال، شريطة أن يحسن التدبر، وأن يتعمق في فقه الدلالة الكامنة في تلك المعالم القدسية، وأن يذهب بها المذاهب البناءة..وأن يتحول بها إلى صعيد معرفي تفتيقي تجهيزي فعال..

لقد جعل الله من الأسماء مادة علم ومعرفة، فقد علّم عبده آدم، الأشياء كلها من خلال تلقينه أسماء الكائنات، وقد هيأه الله .بمعرفتها أن يكون سيدا لها ومسيطرا عليها،، فلا غرو أن تكون أسماء الله مادة العلم والتعليم التي ينبغي أن يفيد منها المؤمن الاستنارة التي تثمر بها جهوده، ويستحصل ما يترقى به روحيا وماديا..

ولقد سارت الأمة في هذا السبيل ردحا من الزمن طويلا، ولكنها لم تحسن استثمار مقدرات هذه الواجهة المعرفية الربانية التي بذلها لعباده المؤمنين، لقد طفق المسلمون مثلا يستطبون باسم الله الشافي النافع المفيد، لكنهم لم يستظهروا وجـــه الاســـتطباب، و لم يستكنهوا الكيفية الاستشفائية التي يوحي بها لهم اسم الله الشافي، و لم يفتقوا العقل، مادة التمييز التي فارق الله بها الانسان عن بقية المخلوقات ليكون خليفة لـــه في الأرض، بـــل ركنوا إلى ما يتلابس مع ثقافة الدجل ،و لم يستبينوا الوجه الايجـــابي والعملـــي الـــذي يلهمهم به هذا الاسم المبارك، فأساؤوا للمعاني القدسية التي تحوزها أسماء الله الحســـنى، وبقوا حبيسي الجهل والخرافات الاسرائيلية ..

وحقا لقد كانت كثير من الاعتقادات التي راجت بين المسلمين في هذا المجال، جزءا من الموروث السيء الذي أصابنا جراء المعايشة والوثوق في معرفة وعلوم أهل الكتاب..

المعجزات والكرامات مصدر إلهام يحث المسلمين على تجريب الانجازات العلمية بإيمان

ومن الطبيعي أن يندرج ضمن هذه الرؤية التي شاءت للمسلم أن يقرأ قرآنـــه وفـــق مقتضيات مستقبلية، ما ظل النورسي يلح عليه من ضـــرورة فهـــم أبعـــاد المعجـــزات والكرامات الإلهية وإيعازاتها في المضمار الإجتماعي ..

فلقد وجد في مكتشفات العلم – لا سيما من حيث المنافع الحاجية التي طورتها تقنية وتطبيقات هذا العصر – ما يدعو إلى السعي إلى المطابقة بين مـــا تـــوحي بـــه تلـــك المعجزات، وما تتمكن العقول من استنباطه وابتكاره في مجال المكاسب المادية والمنجزات الاستخدامية تيسيرا لحياة الإنسان، وتخفيفا من أعبائها ..

لقد رأى النورسي أن المعجزات والكرامات الإلهية التي عرضها القرآن، إنما وضـــعت في جملة مقاصدها – أن تلهم الإنسان بما يساعده على تكييف وتجهيز واقعه بإمكانات، أثبتت العقلية الانسانية أنها أهل لبلوغها، وهذا من خلال التطويـــع المطـــرد للمـــادة، والارتقاء الوطيد والمتوالي للإمكانات المعرفية والسير بها نحو إيجاد الواقع الـــذي تغـــدو شروطه على مستوى من الانصياع والطواعية ما تهيأ للأنبياء وأهل الله بواســـطة تلـــك الكرامات والمعجزات التي كان الله ينفحهم بها، فيقلب من أوضاعهم إلى اليسر ويتـــيح لهم من الإمكانات ما يخرج عن المألوف، ويشذ عن التواضعات المعقولة..

ولا ريب أننا قد نجد من يربط هذه الدعوة بالوطأة المرحلية التي كان النورسي يعيشها ضمن الطوائف والفيئات المختلفة من أبناء الأمة في ذلك المنعطف التاريخي العاصف..

بل لقد يتهيأ للبعض أن دعوة النورسي لا تخرج عن روح الإسقاط التي وجدنا زمرا من الناس يلاحقون بها الكشوف العلمية والمعرفية ويسقطونها على آي القرآن العظيم، ليبرهنوا على كلية مضامينه وشمولية معارفه.. الأمر الذي جعل آخرين يرمونهم بالتمحل وافتعال التأويل من أجل الوصول إلى القصد الإستيعابي..

والحقيقة أننا إذا ما أردنا أن نقف قليلا عند هذه المسألة، فإننا لا نتردد في إرجاعها إلى ما يعتقد المسلمون من شمولية القرآن العظيم ..فلقد تواتر عند المسلمين أن القرآن كتاب شامل لم يغفل شيئا، ولا فرَّط في أمر، وهو ما كرس الإيمان بشموليته ورسخها في نفوس الأجيال .. من هنا لا يُستغرب أن نرى المجتهدين المسلمين يستنتجون – على مر العهود – للفحوى القرآني كل جديد وكل مبتدع يطرأ على الحياة، وخاصة في حقل المعارف والمبتكرات ..

غير أن العديد من الاستنتاجات التي يشاء أصحابها أن يستبينوا ملامحها في النص القرآني لا تحوز دائما القبول، لما يسمها من سطحية وتعجل وتمحك لا تخطئه العين في أحيان كثيرة، وهو ما أدى إلى ارتفاع الأصوات الرزينة تنفي عن القرآن ما لحقه جراء تلك التمحلات من استنتاجات مفتعلة..

وفي هذا المجال لقد رأينا كيف نفى النورسي أن يكون القرآن كتابا للجغرافيا والفلك أو لغيرها من العلوم ..

وإذا كان الاعتبار الشمولي للكتاب أمرا ثابتا ولا جدال فيه، فالذي لا ينبغي أن يفوت المؤمن هو أن يعي طبيعة التوجه الروحي التي يصدر عنها القرآن العظيم، من هنا فلا ينبغي لنا أن نرى في اعتراضات من لا يرى القرآن مصدرا تقنيا للذرة أو للفزياء العضوية مثلا، حطا بقدسية النص، أو تشكيكا في ربوبية مصدره، إذ أن هدرنا لمعنى الشمولية القرآنية – إذا ما ابتذلناها في وحل التأويل المتسرع والمرتجل والذي لا يصون نزاهتها ومراميها الترشيدية العامة – لا يعود علينا بطائل..

ثم لا ينبغي للمسلم أن يغفل الطابع الخطابي العام الذي يميز القرآن ويميز أدبيته البيانية الكلية، وهو ما يجعل من عملية ربط الفحوى الديني والتوجيهي بالمبتكر وبالمستحدث

أمرا مُعْنِـــتاً ، لا يستجيب دائما بالوجه الذي يرقي بسائر الاستنتاجات إلى حد التطابق مع ظاهرِ الدلالة..

ومع ذلك تظل الدلالة القرآنية المجال الإلهامي الفذ الذي يمكن للعقول أن تستمد منه الفوائد المتجددة .. من هنا تبدو مساعي تفتيق النص القرآني واستبانة استنهاضيته أمـــرا سائغا، وممكنا، ولا ضير فيه..

إذ لا ننسى أن السلف قد جزموا بشموليته واعتماره بكل ما يفيد الانسان ويطلق عنانه لبلوغ القوامة الاستخلافية .. لقد صرح ابن مسعود، أن من شـــاء علـــم الـــدنيا والآخرة فليثور القرآن .. ومما لا شك فيه أن تثوير القرآن لا يتأتى إلا بهذه الروح التي تستبطن النص القرآني وترى فيه ما لا ترى الأذهان السطحية..

ضمن هذا السياق يتبرر اجتهاد النورسي ويأخذ عمله الاستقرائي كامل مغزاه، فهو حين يستبين في ملامح النص القرآني، من خلال آيات بعينها، إيعازا إلهيا يفسح حيـــال عباده المؤمنين المجال الابتكاري والتجهيزي، لا يخرج بحال من الأحوال عـــن المرامـــي التسديدية التي قصد الله إليها من خلال تواتر آياته البينات..

وإذا كان ليس من حق المسلم أن يتمحل ويُقوِّلَ النص الشرعي ما لا يحتمله، فليس هناك ما يمنعه بتاتا من أن يستجلي في طلعة الآيات البينات كل ما من شأنه أن يعـــزز مشيئة الله التي اقتضت من الإنسان أن يعمل من الصالحات ما يكفل له الخلافة الســـامية على هذه الأرض..

من هنا لا ضير أن يرى المصلحون في الآيات ما تيسر لهم أن يـــروه مـــن معـــاني الإيقاظ، والإهابة، والإعلاء، والاستنهاض، والتثوير التي تهيئ للانسان– في كنف تعاليم الله– الرشاد والنفاذ والفاعلية التي تتعزز بها درجة تكريمـــه وتفضـــيله علـــى ســـائر المخلوقات..

إذ لا كرامة لإنسان ضعيف من حيث شاء له الله أن يقوى بما حفـــّـَه بـــه مـــن مقدرات، ولا قوامة لعبد مفتقر وعاجز عن استثمار خزائن الله التي وضع مفاتيحها بين يديه، كما لا اخلاص لمن لا يوكل أمره كله لله، إيكالا لا يقعد به عن واجبه التعميري الذي دأبت الآيات تحضه عليه وتحفزه من أجل الاضطلاع به..

وهو ما آمن به النورسي وبثه في رسائله، وحرض المسلمين على تحصيله..

الإجتهـــاد

يرى النورسي أن باب الاجتهاد الشرعي مفتوح في وجه المســـلمين، ولا يمكـــن أن يسد..

إلا أنه لاحظ من جهة أخرى، أن هناك من الموانع الموضوعية ما يحول دون ولـــوج هذا الباب السمح في العصر الحاضر..

لقد حدد النورسي ست موانع تحول دون طروق باب الإجتهاد في زمننا هذا، وتلك الموانع تتمثل في الآتي :

١-صون الإسلام من الانتهاك والحرص على تسويره ضد ما يترصده من علل الحيدة وتخطي الحدود التي تشرع الباب في وجه الممارسات التي يتأذى بها الاسلام..

٢-منطق الأولوية الذي يقتضي منا أن نرعى الضرورات التي لا مجال للاجتهـــاد في قطْعيتها وثبوتها، والتي أهملت في العصر الحاضر .. فالجهد ينبعي أن يُصْـــرَفَ في بعـــث الضرورات وإقامتها .. لا سيما وأن الجهد النظري المأثور عن السلف قد كان من السعة والشمول بحيث يغدو معه الحديث عن أي اجتهاد تجديدي بمثابة ابتداع لا مبرر له[٦٩].

٣- الحالة الاجتماعية العامة القائمة على روح تنـــزع بالأنظار إلى النواحي السياسية والمتع الحياتية، وحصر الفكر فيها، وتغييب الوجهة الروحية التي سار عليهـــا الســـلف والمتمثلة في مثاقفة كتاب الله والتنقيب في أكوانه عما يرضي الله ويوصل إلى الســـعادة الخالدة.. وهو ما رجح روح الاستسهال والتحلل من الفرائض، الأمر الذي انعـــدمت معه- أو كادت – القابليات المتوهِّجة بمخافة الله، والمنخرطة في منهاجه، والمستمدة من صميم أحكامه لتسديداتها الاجتهادية.. الأمر الذي يجعل من مهمة الإجتهاد مهمة على غاية من الخطورة والمخاطرة، إذ لا يقبل عليها إلا من لا يُقَـــدِّر ما يحف بالعصر مـــن مزالق متكاثرة بتكاثر أسباب التردي التي تفرزها قيم حضارة تشن حربا معلنـــة علـــى الدين.. تجعل انسان هذا العصر مخلوقا مستلبا بهموم واقع طفحت ماديته على مختلـــف أصعدة الحياة، ذلك لأن " تحكم الحضارة الأوروبية، وتسلط الفلسفة وأفكارها، وتعقد

٦٩ .. الكلمات ص. ص.٥٦٣

متطلبات الحياة اليومية.. كلها يؤدي إلى تشتت الأفكار وحيرة القلوب، وتبعثر الهمـــم، وتفتت الاهتمامات، حتى أضحت الأمور المعنوية غريبة عن الأذهان".. [٧٠]

٤- لابد أن تؤخذ بعين الاعتبار الجهة التي تدعو إلى الإجتهاد، فإذا كان الداعون إليه هم أهل الورع والتقوى، فلا جرم سيكون الاجتهاد مظهرَ بناءٍ وجدوى، أما إذا كـــان الداعي إليه المطمح التوسيعي الذي يتوق إليه المُخِلُّون بواجباتهمً والمقصـــرون في تأديـــة الشعائر، والممسوسون بلوثة الفلسفة المادية التحللية .. فلا شك أن الاجتهاد ســـيكون عنوان هدم وتحلل وخروج عن عصمة الدين .. فـــ"التطلع إلى الاجتهـــاد والرغبـــة في التوسع في الدين إن كان ناشئا لدى الذين تركوا الضرورات الدينية واســـتحبوا الحيـــاة الدنيا، وتلوثوا بالفلسفة المادية، فهو وسيلة إلى تخريب الوجود الاسلامي وحـــل ربقـــة الاسلام من الاعناق.[٧١]. فـــ"وجهة هذا العصر غريبة عن روح الشريعة ومقاصدها، فلا نستطيع أن نجتهد باسم الشريعة ..[٧٢]

٥-التنبيه إلى القاعدة الشرعية التي تقول : إن الضرورات تبيح المحظورات .. ليست قاعدة كلية، إذ هي لا تصلح إلا لتجاوز ضرورات طبيعية وليست ضرورات مصطنعة أو من اختيار شخصي .. فالمدمن لا يسوِّغ بقاءه على قيد الحياة بمواصلة شـــرب الخمـــر بدعوى أنه ضرورة له .. فما اعتاده الناس في حياتهم المعاصرة وغدا بمثابـــة البلـــوى لا يسمى بحال من الأحوال ضرورات، فهو – من ثمة – لا يكون حجة للمترخص .. ومتى ما أدار المجتهدون أحكامهم استجابة لهذا المستوى المفتعل من الضرورات، أصـــبحت اجتهاداتهم أرضية، وتابعة للهوى، ومشوبة بالفلسفة..[٧٣]

٦- تمازج أحوال الكذب مع الصدق يجعل المعطيات التي تجـــرى عليهـــا القاعـــدة الاجتهادية مشوبة هي أيضا بما يتلبس النفوس من أسباب النفاق والزيف والتـــدليس.. الأمر الذي تستعصى معه إصابة الهدف الشرعي وإيجاد الاجتهاد السديد المتجـــرد مـــن شوائب الهوى والحسابات..

من هذا كله يخلص النورسي إلى تأكيد مبدإ طواعية الأحكام الفرعية للتغير والتكيف مع المستجد، إذ هي تتبع الأحوال البشرية..

---

٧٠ الكلمات ص.٥٦٤.
٧١ الكلمات ص.٥٦٥
٧٢ الكلمات ص.٥٦٥ .
٧٣ الكلمات ص.٥٦٦.

كما يسجل – من جهة ثانية – أن اختلاف طبائع البشر وأوضاعهم الاجتماعية هي التي بررت تنوع المذاهب، وأن ما يلاحظ من تفاوت في المعيار الفقهي حـــول بعــض الأحكام، هو ناتج عن التفاوت الحاصل بين أتباع تلك المذاهب لتفـــاوقم في مســتوى الحضارة ..

فلا غرابة – والحال تلك كما يضيف —أن نجد أتباع الشافعي يجعلون من مس المرأة علةً لانتقاضِ الوضوء.. على خلاف الأحناف الأكثر تحضرا وتمصرا، إذ لا يرى هـــؤلاء في مس المرأَة مدعاة لانتقاض الطهر.. كما أهم يسمحون بقدر درهم من النجاسة، وما ذلك إلا لأهم أهل اجتماع ومدنية ومراس حضـــري، تقتضـــي ظـــروف عملهـــم أن يتكـــيفوا مع الأحكام على ذلك الوجه.. [٧٤]

ومن الجلي أن فهم النورسي للإجتهاد هو فهم موضوعي، إذ يربط الاجتهاد بجملـــة من المعطيات والعوامل، في مقدمتها الشرط المدني والحضاري .. وهو شرط كما نـــرى كلي تتدخل فيه عوامل النفس والثقافة والاجتماع والعمران والمكان والزمان.. عوامـــل منوطة بالتوسيع والترخيص، إذ أن المدنية تقتضي التجـــدد في الآليـــات والارتفاقـــات والمتطلبات، وذلك ما يجعل من الاجتهاد فاعلية تكييفية تضبط مسطرة التجدد بحيـــث تحفظ أصول الشرع وأركانه دونما إعاقة للمكاسب المدنية التي تتهيأ للأمة عبر أطـــوار تقدمها.. من هنا كانت نظرة النورسي متفتحة، رغم التشديد الذي أحاطه بهـــا إذ أن تفهمه للتفاوت والاختلاف الذي كانت عليه مسطرة الاجتهاد كما مارستها المذاهب، يؤكد ترجيحه لمبدإ الرخصة الاجتهادية..

و يعني هذا — بداهة – أنه لا يمكننا أن نستنتج مما اشـــترطه النورســـي للمـــراس الاجتهادي أنه سد بابه، بل علينا أن ندرك أنه عمل على الإعلاء من شـــأن الوظيفـــة الاجتهادية والسمو بها عما لحقها من حال ابتذالية آلت إليها خلال عصور الانحطاط..

لقد أعاد النورسي مشغل الإجتهاد إلى نطاقه المعرفي والروحي الذي ظلت الفيئـــات المسلمة تمارسه من خلالها عبر عصور الفاعلية والازدهار.. إذ رسم الحدود التي رأى أن الظروف المرحلية الراهنة تقتضيها، وهي أن يستثمر المسلمون النطاق الفقهي الفرعـــي، وأن يصونوا الخوض في شرع الأصول لما كان يحدق بالأمة من مخاطر تستهدف أســـس شريعتها..

---

٧٤ الكلمات ص.٥٧٠.

فالتحوط هنا ليس إلا إجراء تحصينيا، احتيازا للمرحلة، وحتى تتهيأ للأمـــة شـــروط أفضل وكفاءة أرقى تمارس بها الاجتهاد ..

بل لقد رأينا النورسي يوعز لنا بمنهاج اجتهادي، عملي، مثلته سيرته هو نفسه، إذ أن رسائله كانت في الحقيقة منظومة من الأحكام والتعاليم والتخريجات والفتاوى التي شملت سائر المجالات الحياتية .. فهو من خلال تلك السيرة قد أصـــل منهاجـــا في الســـلوك السياسي، وحظر على المسلم إذا ما عاش في ظروف تشبه ظروف تجربتـــه أن يمـــارس السياسة بصورتها الحزبية، وأفتى له مقابل ذلك، أن يتمرس بالسياسة من خـــلال بنـــاء استراتيجية ثابتة، مؤكدة النجاح، وذلك باتباع بناء المشاريع الجماعيـــة المـــبرأة مـــن الحسابات الفيئوية أو قصيرة المدى.. كما أنه حرم في الاقتصاد آفة التبذير، وبين اقتران الكرامة بالنفقة المرشدة، وجعل من حال الأفراد في هذا المجال حال الأمة، وبذلك حرم الاقتراض، وحرم الاسراف، وحرم العبث بأموال الشعب ..

وهو في الجهاد سن الاعتراك المادي، متى كانت المهاجمة تستهدف الحمـــى، وســـن سلوك الجنوح إلى السلم متى كان الوطن منيعا، ومتى كانت الكرامة غير كليمـــة.. أو حين تكون العدة والكفاءة غير متوازية، فعندئذ تترجح كفة المســـالمة تأهبـــا وتســـلحا واكتسابا لكل ما من شأنه أن يحقق المنعة، ويكفل الوجاهة ..

سيرة النورسي الحياتية مدونة اجتهاد نظري وتطبيقي مدهشة

حقا لقد كان سيرته في كليتها اجتهادا، وحتى ما قد لا يبدو لنا فيه وجـــه، مثـــل اعتزاله، أو عزوفه عن الزواج، فلا ريب أن التحليل الموضوعي لمرامي تلـــك الجوانـــب الخاصة سيكشف لنا عن سر وجيه يجعل من تلك السيرة مثابة حكمية ،على المســـلم أن يأخذ بها متى ما كانت له إرادة ألمعية كإرادة النورسي، وعرف ظروفا كظروفه..

على أن النورسي نفسه ظل يثبت أن راهننا لا يمكنه أن يطمح إلى بلوغ تلك المنـــزلة التي كانت فيها حياة الرجال من السلف مغمورة إلى أخمصها في منـــاخ مـــن الإيمـــان والتجند، والصميمية، وهو ما كان يعطي لأي فعل تأتيه التلقائية الأصيلة، بعدا اجتهاديا ظلت الأجيال من الخلف تجد فيه التوسعة والإفادة كلما راجعته، وأجـــرت حكمتـــه ومقاصده في حياتها..

دور المجتهد المجدد في العصر الراهن دور بناء الاستراتيجيات

لقد خلص النورسي إلى تقرير أن الإجتهاد مرتبتان :

١– مرتبة العبادة والالتزام بفقه الشعائر، وذلك أمر قد أَتَّلَتْ الأمة منه مـــا يفيـــدها وزيادة، ويكفي أن نحيي نصوص التراث وفتاواه، ونُحَكِّمَ فيها القياسَ، لنجـــد أنفســـنا حائزين على شمولية فقهية لا تخطئ جانبا من جوانب اجتماعنا..

٢–وهناك دائرة التطور والنهوض الحضاري، وهي التي ينيطها النورسي بالمجددين..

لقد كان النورسي يتمثل للمجدد صورة ومهمة على مواصفات صارمة ولا عـــدول عنها..

فدور المجدد الحق عند النورسي يناظر دور الاستراتيجي في عالم السياسية والتخطيط المعاصر..

من هنا ألزم النورسي المجددين بالقيام بهذه المهمة الاستراتيجية، وأن ينهضوا بهـــا ويستوفوها حقها من الإخلاص والتفاني لصالح الملة والأمة ..

الجماعـات تنـوب عـن الرجـل العبقـري، ويحـق لهـا أن تمـارس الاجتهاد..شرط أن تأخذ بالشريعة

وبما أن النورسي كان واقعي النظرة، يدرك أن المجتمعات لا تتوفر في كل حين على العبقريات الموفقة والمتصدية لإسناد أمتها في مضمار الاجتهاد والابداع الشرعي والمعرفي، فقد أوكل مهمة العمل التجديدي إلى الجماعة وإلى الخيرين من أبنائها..

فقد ظلت الجماعة تمثل له الإنسان الكامل.. لما تستوفيه الفرديات ضمن المجموعـــة من نقصها..وما يتهيأ لها من تكامل فيما بينها..

الانسان الكامل

وفي هذا الإطار، فلقد مضى النورسي يؤكد أن أتباعه ومن سلكوا نهجه كانوا بمثابة الإنسان الكامل، وقد فسر معنى الإنسان الكامل، بكونه مجموع القابليات التي يتعدى بها الشرط الإنساني المحدودية والقصور .. وهو ما يتهيأ للعبقريات المصلحة، أو لمجمـــوع الأمة والجماعات عندما تجتهد وتجِدُّ في تجاوز الواقع المتردي، مستعينة في ذلك بـــالله، ومتقيدة بتعاليم القرآن..

فالثورات المتحلله من الإيمان القرآني، وإن تظافرت جهودها على تغيير الواقع، فهـــي تظل جهودا منوطة بمقاصد نفعية زائلة وليست دائمة، ولا تتكفل بشؤون الإنســـان – وإن تظاهرت بذلك – إلا مؤقتا وحسب..

أما الإنجاز الدائم، والمثمر، والذي يجني الإنسان من ورائه النفع العميم والمردودية المؤكدة، فهو العمل المعصوم، المتمسك بتعاليم الله، والمباشر لوظيفته التشريعية بروح تخشى الله وتلتزم بتوجيهاته..

من هنا كان الاجتهاد يتناغم مع الحاجات الإستراتيجية التي تصون الأمة وتحقق المنعة لها..

ومن هنا كذلك ندرك كيف أن النورسي قد نص على أن باب الاجتهاد يفتح اليوم في الاتجاه الحضاري الذي يخدم الملة .. ولذاك أناطه بالعلماء المجددين، وبالأمة إذا ما تأتى لها نخب طليعية تقودها على هدي القرآن العظيم.

" لو كان الانسان مجرد قلب فقط لكان عليه أن يترك كل ما سواه تعالى، بل يترك حتى الأسماء والصفات ويرتبط قلبه بذاته سبحانه، ولكن للانسان لطائف كثيرة جدا كالقلب، منها العقل والروح والسر، كل لطيفة منها مكلفة بوظيفة ومأمورة للقيام بعمل خاص بها.

فالإنسان الكامل هو كالصحابة الكرام يسوق جميع تلك اللطائف إلى مقصوده الأساس وهو عبادة الله ". [٧٥]

رفضه استخدام اللسان العجمي في العبادات لا سيما في الصلاة

عارض النورسي – وباستبسال كبير– أن تلقى خطب الجمعة بألسنة الأقوام، وأن تخرج عن إطارها الذي جرت عليه، وهو أن تلقى بالعربية لغة القرآن.. متجاوزا بموقفه الرفضي ذلك، حجة من يزعمون أن إلقاء الخطب الشرعية بلسان الشعب يتيح لعوام المسلمين فهم الأحداث السياسية..

ومن الواضح أن هذه الحجة بذاتها تبرر قرار إلغاء الخطبة الشرعية بالعربية..

لكن النورسي الذي كان يعرف أن القصد من وراء ذلك الإلغاء إنما هو قصد خداعي، وأن المسألة تنطوي على مناورة مراميها التحول بالشعب التركي عن أرومته الحضارية الإسلامية..

لذلك بادر إلى رفض القرار، والاعتراض على تلك الاجراءات المغرضة التي كانت خطوة على طريق التضليل والتغريب..

---

٧٥ الكلمات ص.٥٨٢

لقد مضى النورسي يحتج لموقفه بأن السنة والشرع قد جريا دائما بأن تلقى الخطبة بالعربية، لغة القرآن ..

ذلك أن النورسي كان يرى في ما أضحى يلقى من كلام في المساجد باسم الخطبة الشرعية وبلسان الشعب، إنما كان بعيدا عن إطاره الشرعي، فهو كلام يندرج في المقاصد السياسية التي كان هدفها تنويم الشعب وتهيئته للانسياق في منحدر التغريب..

من هنا كان النورسي ينافح عن بقاء الخطبة الشرعية بلسانها العربي، لما في ذلك من إيجابيات كان يراها من جهة، واستبقاء لها على السنة التي ظلت تتبعها أبدا من جهة ثانية ..

فقد كان يؤمن بأنه حتى وإن كانت الجماهير لا تفهم الفحوى العربي، إلا أنها ستظل تجد في الموقف، وفي سياقه الأصيل، ما يربطها بماضيها، وفضلا عن ذلك سيجنبها الوقوع في شرك الأكاذيب التي أضحت الخطبة الشرعية تنشرها حين باتت تلقى بلسان الشعب..

" لأن ما يلقى قد دخله الكذب والدس والخداع ما جعلها في حكم وسوسة الشياطين، بينما المنبر مقام تبليغ الوحي الالهي، وهو أرفع وأجل من أن ترتقي إليه الوسوسة الشيطانية..

إن جهل الناس بالمسلّمات الشرعية والأحكام المعلومة من الدين بالضرورة تجعل من تخصيص المنبر للتبليغ الديني بألسنتهم ولغاتهم أمرا مطلوبا، لكن الذي لا ينبغي تجاهله، هو أن هناك تأثيرا روحيا ونفسيا يتأتى للمسلمين من خلال سماعهم الإلقاء الديني بالعربية ،سواء أكان ذلك في قراءة القرآن أو في الصلاة به أو الدعاء أو ما إلى ذلك من الأداءات الدينية التي ترجع إلى أصالة الدعوة الإسلامية وإلى صورتها الخطابية التي باشرها بها الرسول ﷺ..

فتدريس الجمهور العجمي الحديث لا ريب أنه سيكون على أكمل وجه تخشيعي وتنويري إذا ما تأدى في صورته العربية كما روي عن الرسول ﷺ، ولا ضير أن يتخلل ذلك الترجمة وتوصيل المعنى العام بلسان الجمهور ..

إما أن نقطع الصلة بين لغة الكتاب والسنة وبين المسلمين، بدعوى الإفهام والتوصيل، فإن ذلك من شأنه أن يكرس القطيعة التي ظلت الدوائر الحاقدة تسعى إليها، خنقا لروح هذا الدين العظيم..

فتوطين المسلمين على نسيان لغة القرآن، من خلال إلقاء الدروس بألسنة ولهجـــات محلية، بل وتقديم النص القرآني نفسه مترجما، وعاريا من حلته البيانية العربية، لمن شأنه أن يهيأ النفوس للفصال والانفصام الذي يمكن أن تنتهي إليه علاقة الأمة بـــدينها إن هـــي بادرته بالتفريط وبالتنازل عن مقتضياته الأساسية.. ومن مقتضيات القرآن، كتاب الله، أن يتلى في بيانه، ولسانه العربي المبين .. قبل أن يتولى المرء تبليغه وتقريب معناه بألسنة الجماعات..

بل لقد كان النورسي يحرص ويلح على وجوب عرض القرآن العظيم، وتقديم الخطبة الدينية، بلغة القرآن، ذلك لأنه كان يرى أن معاني القرآن، بحكم الطابع الروحي والديني الذي يعم البيئات الإسلامية، كانت معاني دارجة ومتداولة في المجتمعات الإسلامية وبين فئاتها، فالدين الإسلامي دين عضوي، وليس دينا بروتوكوليا لا ينتهي إلى الفرد إلا وفق شروط ورزنامة كهنوتية معلومة ..

من هنا كان الإسلام يلازم العبد ملازمة لصيقة لا تخطئه، وذلك من خلال المواظبة على أداء الشعائر أو الفرائض كما يسميها الشرع..وهو ما جعل معانيه ملموسة وقريبة من المداركة ولو على جهة عامة ..

وهو ما كان يجسده تفتح تلك البيئات العجمية – لا سيما الأمة التركيـــة –علـــى تعاليم الإسلام وعلى اللغة العربية، ولو في جوانبها الشرعية، الأمر الذي ظل يسهل مـــن عملية تلقين الأمة عباداتها وكتابها عن طريق لغة التنـــزيل، اللغة العربية.. ولا يبرر عدم تحكم الأقوام المسلمة في اللغة العربية أن تعطى تعاليم الإسلام العضوية بغير لسانها العربي، تعليما، وتفقيها، وتوجيها.. لا سيما في مرحلة كان يراد منها أن تتحول بوجهتها عـــن الحضارة، والتوجه بالمواجد إلى حضارة مناقضة..

فالدين في جوهره تعليم وارتقاء بالروح والعقل والملكات، فلا أقل من أن تســـلك الأمة هذا الطريق في تكريس دينها ولغة كتابها بين صفوفها وفي أوســـاطها..وهو مـــا يؤكده النورسي حيث يقول :

"فالمسلم العامي- مهما بلغ جهله يدرك هذا المعنى الاجمالي من القرآن الكريم ومـــن الخطبة العربية، ويعلم في قرارة نفسه بأن الخطيب أو المقرئ للقرآن الكريم يذكّره ويذكّر

الآخرين معه بأركان الإيمان وأسس الاسلام التي هي معلومة من الــدين بالضــرورة، وعندها يفعم قلبه بالأشواق إلى تطبيق تلك الأحكام..".[٧٦]

لقد كان النورسي يؤمن بأن الطاقة النورانية التي يتوفر عليها الإعجاز القرآني، لهــا وحدها من النفاذ الروحي والمعنوي ما يجعل الأرواح تتقبل التــذكير بلغتــه الأصــل : العربية، ولو بفهم إجمالي .. ذلك لأن المسألة الدينية تستند على الوازع الشعوري أيضا، ولغة القرآن العربية ترسخ لها على مدى العصور، هذا الوهج الرباني الذي يجعل من أفئدة المسلمين، لا سيما العجم، يتناغمون معها ويتناجون بنجواها الروحية الفذة، مما يكون له بالغ الأثر على تهذيب الأرواح والسلوك، وشد النفوس إلى الشعائر والعبادات..[٧٧]

فمسألة التواصل والتوصيل الديني، مسألة مبدئية عنده، ولا ينبغي أن تتم إلا بلغــة القرآن.. وواضح أن موقفه في هذا الأمر أيضا هو موقف يتعارض مع مساعي التغريب والتتريك التي كان تقوم بها السلطة..ثم إن النورسي – من جهة ثانية – كان على وثوق بمقدرات المسلمين وحرصهم التلقائي الراسخ على أن يبقوا متشبثين بلغة كتابهم، الأمــر الذي كان يجعل منه – في مطلبه ذاك – ناطقا باسم الأمــة ومعــبرا عمــا يخــتلج في ضميرها..

لذا يمكن أن يقال بأن الرؤية اللغوية هنا أخذت – بهذا الإصرار على إستبقائها عربية – بعداً مستقبليا (استراتيجيا)، لأن الوحدة اللغوية ظلت دائما عند النيرين، الركن الذي تشاد عليه كل مدنية ملية ناهضة.. ولقد تمت نهضة إيطاليا وألمانيا وفرنســا (الغوليــة) وغيرها من أمم الغرب على الإرتكاز اللغوي الذي جمع الطاقات، ولحم القابليات، وفتق القدرات في إطار جماعي متناغم.. وكان ذلك شأن المدنيات القديمة، ولم يكــن ذلــك يخفى على النورسي، لذا رأيناه يشن الحرب الضروس على مشاريع التتريك، ويصــدر الفتاوى التي تحظر التحول اللغوي في مجال العبادات وتلاوة القرآن، وكان قصده أن يعيق مشاريع المسخ والهدم التي كانت تستهدف الأمة الإسلامية..

والواقع أن نظرة النورسي تلك، لها ما يبررها حتى في واقعنا الراهن الذي تعززت فيه وسائل الارتباط، وتيسرت الصلات.. فتعليم أكثر من لغة بات سياسة منتهجة في كافة البلاد، لا سيما البلاد الواعية حضاريا، وعدم سكوت النورسي عــن التحــول الــذي

---

٧٦ الكلمات ص.٥٦٧.

٧٧ الكلمات ص.٥٦٧.

بادرت إليه القوى المتغربة، لم يكن رد فعل سياسي، معارض، وجد في المسألة اللغوية مشجبا يتعلق به، فمضى يشاغب من خلال التأكيد على أهميتها - كما هي عادة محترفي الساسية الذين نراهم يناورون بالمطالب من أجل أن يغالبوا على الكرسي، دون أن يكون لهم إيمان حقيقي بمطالبهم ..

بل لقد رأى النورسي في تلك القضية أمرا مبدئيا، لا محيص عنه، ولا سبيل إلى مجاوزته، وهذا لصلة العربية بالعقيدة أولا، وثانيا لأن التخلي عن استخدام اللغة العربية في البيئات الإسلامية كان من مراميه تحقيق الفرقة على صعيد واقعي، وهو ما كان الاستعمار والصهيونية يراهنان عليه .

فالأعداء الذين أيقنوا أنهم لن يقهروا الأمة وهي ملتحمة - ولو بحد أدنى من أسباب التلاحم والروابط الجامعة - سيلحقون بها الهزائم ما أن يفلحوا في تشتيتيها وشرذمتها .. ولقد كان الرباط اللغوي أهم الأهداف التي سدد الأعداء نحوها، إذ أدركوا أن من خلالها ستُضرَبُ الرابطةُ الروحية ويضرب القرآن نفسه، وتُضرَبُ الرابطةُ الشعوريةُ، من خلال التفريق اللساني، الذي سيعيد الأمة إلى حال القوميات والشعوبيات.. من هنا استهدفت قوى الشر اللغة العربية، لأن الإجهاز عليها كان سييسر على الماكرين مهمتهم التشتيتية..

ثم إن الدفاع عن العربية، لسانا جامعا، كان دفاعا عن اللحمة الحضارية، وعن مكسب مدني وثقافي وسم الحضارة الإسلامية وأرسى دعائمها العالمية، إذ جعل لسانها لسانا أمميا، ورابطة وجدانية بين الأصقاع والمجتمعات..

فالتفريط في العربية أو مهادنة الهدامين إنما كان انهزاما وتفريطا في جبهة حررتها الأمة، وكان تخليا لا مبرر له عن حرمة جانب قدسي من المنجزات التي بذلت فيها الأمة بالغ الجهود والتضحيات من أجل توطيدها بين شعوبها..

بل لقد كان انتشار العربية وإن تفاوتت حظوظ المجتمعات الاسلامية منها، بمثابة الوديعة التي من حق الأجيال أن تسألنا عنها وتطارحنا الحساب..

بل إن من شأن الضمير الحضاري للأمة أن يساجلنا بصددها إذا ما تخلينا عنها وتركنا الماكرين يغيبونها تيسيرا لمرور مشاريع الإستعمار، وتمكينا لأعداء الملة أن يخترقوا حواجز الحرمة التي لا تتخلى عن صونها إلا أمة رضيب بالمهانة والهوان..

وهو ما كان يستبصره النورسي ويضنيه، ولا يقبل السكوت عنه، إذ أنـــه بتصـــديه للدفاع عن العربية كان يراهن على مكسب، بل على أحد الثوابت المقدسة التي كـــان يريد من الثورة الإصلاحية التي ظل ينشدها، أن تعززه، وتقوي من جانبه، وأن تستبقيه سلاحا بيَد الأمة، ووسيطا فعالا في عملية ترميم التصدعات التي كانت بادية للعيـــان في الجدار الحَضاري الإسلامي..

* * *

الفصل الثالث

مسألة الزمن

تحسس لمفهوم السيرورة كما تمثلها النورسي

".. نعم فكما أن لكل شيء حقيقة، فحقيقة ما نسميه بالزمان الذي يجري جريان النهر العظيم في الكون هي في حكم صحيفة ومداد لكتابات القدرة الإلهية في لوح المحو والإثبات .. ولا يعلم الغيب إلا الله.." [٧٨]

مما لا شك فيه أن مسألة الزمن أو الزمنية، قد طرحت منذ القديم على الانسان بكونها إشكالا وجوديا ومعرفيا ظل العقل الإنساني يواجهه ويسعى لاستكناهه وإدراك ماهيته عبر الأطوار التاريخية المتلاحقة..

فالزمن ارتبط في كثير من الفرضيات الفكرية والفلسفية بقضية الخلق والوجود، فقد ظل الانسان يتساءل عن مبتدإ هذا الكون، وعن القبلية والبعدية، وعن العدم والحركة، وعن أولية الخلق وهل لها أولية ..

وظلت أفكار الإنسان مصدومة بهذه المفارقة العجيبة التي تتمثل في ظاهرة الزمن، تلك القوة اللامرئية، واللاملموسة، والفاعلة – مع ذلك – بلا هوادة في كل مظاهر الحياة والكون، والملابسة لأحوال الخفاء والعلن، والمحسوسة من خلال تعاقب هذه الآناءات التي تراوح على الكائن البشري وتحوله من طور إلى طور، وتتيح له امكانية تحويل المجال من حواليه .. تلك القوة الخارقة التي تتحداه بصَمَمها وبشمولية قبضتها، فهي تستوعب الكون في كليته، وتدور في وتيرة لا سبيل إلى تحويرها أو تكييفها، إذ هي الحاضرة الغائبة في إحساسنا، وهي رديف للموت والزوال، وللتجدد والنماء، على سواء..

---

٧٨ المكتوبات ص ٤٦.

لقد تواترت الإجتهادات التي سعى من خلالها المفكرون وأهل الحكمة إلى أن يفهموا حقيقة الزمن، وتنوعت الرؤية واختلفت باختلاف زاوية النظر التي سدد منها المفكرون والمنظرون مقارباتهم، وتراجحت المصادرات – التي قوّموا بها مفهوم الزمن– بين السلب الذي لا يعطي للحدث الزمني كبير ثقل في هذه الكينونة الوجودية التي تحياها المخلوقات على ظهر البسيطة، وبين الإيجاب الذي يحتفي بالزمن ويعطيه ثقلا محوريا بحيث يرادفه بالفاعلية الأولى، الخالق سبحانه عز وجل ..

ولقد جاء القرآن العظيم، فصدّر آياته البينات برؤية ربوبية ليس شرط الزمنية فيها إلا مظهرا من مظاهر الكلية التي خلق الله بها عوالم هذا الكون وأدارها، واستن لها نظم سيرورتها .. فالزمن في القرآن جاء عاملا حيويا وتنظيميا، تتقوم به منجزات الكائن البشري، وتسترسل – على رتابة جريانه– ظواهر الحياة والمعاش والعمران .. فهو مادة الحساب، وهو وسيلة التقييد ومَعْلَمَة المسيرة البشرية، وهو المنبه الوجودي الذي لا يفتأ يذكرنا عبر تبدلات المواسم والأطوار، بمآل الإرتحال الذي هو مآلنا.. إن الزمن قد تقمص في الرؤية الإسلامية هيئة الواعظ الذي لا تخطئنا تنبيهاته في الحل والترحال، وهو ما أكده تواتر آيات النظر و الإعتبار : (**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين**).

وجاءت السنة النبوية الشريفة فأعطت للزمن وظيفته التسخيرية، بكونه مظهرا ينطوي في دلالاته على رسوخ قدرة الله وعظمة ملكوته..

ضمن هذا المنظور الإلهي استوعب النورسي مفهوم الزمن.. لكنه –ولما كان الاحساس بالزمن أمرا نسبيا – فقد رأينا النورسي يعيش على علاقة قلقة مع الزمن، إذ كان شعوره بإفلات مقادة العمر منه يجعله يدرك أن وجود الكائن البشري في هذا الحياة إنما هو وجود قدري، ولن يسعه حيال هذه القدرية إلا أن يعيش المشيئة الإلهية بتسليم ورضى لا يكفلهما له إلا الإيمان .

النورسي يعيش الزمنية بإحساسين، إحساس النسبية وإحساس المطلقية

لقد كان النورسي يعي الزمن ويعايشه من خلال رؤيتين :

١– رؤية نسبية، قلقة، محدود بالأجل المحتم ،ما انفك يضغط عليه جراءها احساس فاجع، ناتج عن وعيه بتسارع الأيام وتصرم المراحل ..

إنها رؤية تُقَوِّمُ العمر من خلال كرور السنين، ولا ترى في تلاحق الأيـــام إلا دنـــوا رهيبا للأجل، واقترابا مريعا من ساعة الإرتحال ومساكنة القبر.. فعجلة الزمن الصـــماء تطوي ثوب العمر بلا هوادة، والأيام في تعاقبها المتسارع إن هي إلا مجرد لحظات تترى، تاركة وراءها الحسرة والاحساس بالإفلاس .. من هنا كانت استماتة النورسي في ضبط توقيتية تستجيب لبعض ما وقف نفسه عليه من مساع ومنجزات يريد أن يخطها في لوح حياته ..

٢- ورؤية أخرى عاينت الزمن من خلال منظور إطلاقي، بحيث كـــان الوجـــود بأبعاده المشهودة والمغيبة، يتراءى له على النحو الذي صور القرآن به الأبدية، فكـــان ذلك المشهد الكلي يملأ روحه طمأنينة واستبشارا، بما يبثه في نفسه من مشـــاعر البقـــاء والخلود ..

حقا لقد كانت وطأة الأجل المبهم تضغط عليه وتجعله يعيش حالا من التســـارع والسباق، مخافة أن يدركه الأجل ويرتحل من غير ما احساس بإنهاء المهمة التي أناط نفسه بها ..وفي هذا السياق فإن شكاة النورسي من أعراض الشيخوخة، وضيقه من الـــوهن الجسدي، بل وفَـــرَقُه أحيانا من الموت، إنما هي أصداء طبيعية لما كـــان يســـكنه مـــن هواجس مصدرها الوازع الانساني الذي ينفر من الفناء قدر ما يتشبث بالبقاء..

ومن جهة أخرى كان النورسي ينظر إلى الزمن كتاريخ يتجاوز في مـــداه حـــدود التقويم الشخصي، إذ هو ظرفية وجودية مترامية تتداولها الأمة بكاملها من خلال تلاحق أجيالها واسترسالهم في الزمن، بغض النظر عن أحوال هذا الاسترسال وما يعرو الأمـــة عبره من أطوار قوة وضعف .. لقد كان النورسي يعي أهمية هذا الانفســـاح الزمـــاني، وكان يُقَوِّمُ حلقاته المتصرمة بناءً لتوقعات مصيرية قابلة، مستحضرا العبر والـــدروس في مداركه ومساعيه من خلال استقراء دائم للتاريخ الاسلامي واستنطاق زواياه..

إن هذا الانفساح الزماني كان النورسي يراه في صفحاته الماضية أغر، أبلـــج، مـــن خلال ما أنجزت الأمة وما أدت من مكاسب على مختلف الأصعدة الحضارية والمعرفيـــة تجاوزت بنفعها النطاق الاسلامي لتشمل البشرية قاطبة، وكان يرى قابل ذلك التـــاريخ صعيدا مفعما بالآمال والتباشير، ومآلا كفيلا بتعديل اختلالات الأطوار التي أتت على أمة وهي رهينة بعهود الحطة واللادور..

لقد كان العمر بالقياس إلى الداعية برهة لا تَسَعُ كل ما تحفل به أعماقه من أحـــلام ومآثر يتطلع إلى تحقيقها.. لذا رأيناه لا يفتأ يشكو من تسارع انسياب الـــزمن، ومـــن ضيق فسحة العمر حيال ما كان يملأ القلب من آمال ومشاريع صالحة..

لقد كان نضال النورسي يقوم – في جانب كبير منه – على مطمح تثمير الـــزمن واستيفاء قيمته بحكمة، كي يستوعب ما يعتلج في النفس من بـــرامج كـــان مصـــدر إستلهامها وتخطيطها القرآن العظيم.. لقد كان النورسي منخرطا في معركـــة داخليـــة تستولي على كامل اهتمامه وتستأثر بتركيزه، لأنه شاءها أن تناط بمصير الأمة في ضـــوء مقررات القرآن العظيم..

لقد ساقته الأقدار لأن يقف موقف التبني لأوضاع أمته ومآلها، إذ كـــان في قلـــب الجبهة، وفي مواجهة الصراع .. فضلا عما كان له من إيمان روحي راسخ ومن حظوظ علمية تهيئه لأن ينهض بالدور الإحيائي الذي تفرضه عليه المرحلة، فكان لا مناص له من أن يتحمل المسؤولية وأن يؤدي واجبه في الإحياء وبعث المقومات.. من هنـــا تشـــبث بعامل الزمن يستثمره على أروع ما يكون الاستثمار، لقد كانت اللحظة بالقياس إليـــه سانحة لا يمكن أن تمر عليه من دون أن يقبس فيها قدحة تبدد بعض ما يرين على الأمـــة من داجي الظلمات..

لقد كان وعيه الحاد بقيمة الزمن تتبدى في سياسته الاجتماعية التي اختارت العزلـــة الفاعلة، وفي مسلكه المعيشي الذي قام على التكفف الصارم، وفي طبيعة التعاليم التي كان يدعو إليه، إذ هي تعاليم حصرت نظرها في القرآن ليقينها من نفـــاذ وجـــدوى تلـــك التعاليم، مقارنة بما راج ويروج من اجتهادات وضعية متهافتة..

لقد استطاع النورسي أن يضبط حياته في مختلف مستوياتها الروحيـــة والإجتماعيـــة والفكرية وفق نظام صارم قائم على الدقة والفاعلية..

لقد كان عنصرا بشريا فاعلا تجاوز نطاق فرديته بما انطوت عليه جوانحه مـــن روح انشغلت بواقع الإنسانية قاطبة، إذ راح يراهن على المصير وعلى قَلْبِ أوضـــاع مدنيـــة وحضارية لأمة اختلت زمنيتها، فارتكست عن المضي في طريق الرقي وترشيد العالمين لما في صالح الإنسان .. وذلك ما حتم عليه أن يندمج في المراهنة بكامل الاستعداد، وبوعي راسخ بأن للحظة معادلا موضوعيا من الفعل والتقويم والانجاز، لا سبيل لتفويته..

ولقد تجسدت لديه صرامة التقيد بذلك النهج القصدي الاقتصادي في ميادين الحيـــاة الفطرية، إذ أن اضراب النورسي عن التأهل والزواج مثلا ، لأسطعُ دليل علـــى مـــدى الانهماك الذي كان يُنفِّذُ به مشروعه الإحيائي الحضاري..

بل لقد كان التزامه الحدي بالفاعلية والنفاذ، أو بتسخير عامل الزمن على نحو صارم، يتبدَّى في علاقاته العامة المحدودة، بل حتى مع طلابه.. لقد كان جنوحه للوحدة جليا، إذ أنها كانت وحدة تفكير وانجاز واجتهاد، وهو ما كان يجعله يحرص عليها، وينشدها، ويتجنب كل ما من شأنه أن يقطعها.. لقد بلغ به الحرص على صون تلك الوحـــدة أن راح يعلن لطلابه عن ضرورة تركه يتفرغ لما كان يعالجه من تفكير وتـــدبر ومعالجـــة روحية وفكرية لأوضاع أمة أضاعت طريقها وغفلت عما تتوفر عليـــه مـــن أســـباب الفلاح..

بل لقد رأيناه يستثقل حتى مهمة التدخل لإسداء النصح والتوجيـــه لأتباعـــه مـــن التلاميذ، وما ذلك إلا لأنه كان يرى في ذلك التدخل لا سيما إذا أضحى متابعة دائمة– على أهميته – إشغالا له عن التفرغ للأهم والأنجع، وهو العبادة البناءة ..

ولقد وجدناه يذهب في الصدد الترشيدي بعيدا، بحيث ألفيناه يفـــتي الأمـــة بعـــدم تخصيص زمنيتها الحاضرة للإشتغال التصوفي، إذ أن الملة وراية المسلمين المنتكسة تحـــتم على كل ذي لطافة روحية أو عقلية أن يسخرها في سبيل تحقيق النهضة التي تصان بهـــا البيضة، ويتقوى بها دين الله للرد على انتهاكات الأعداء الذين تداعوا للإجهاز عليه بشتى الوسائل.. من هنا راح الإمام النورسي يكرر لمستفتييه قناعته وهي أن:" لـــيس زماننـــا زمان طريقة..". [٧٩]

لقد كان الإحساس بوجازة الزمن، وقصره، وسرعة تصرمه، من الهـــواجس الـــتي سكنت النورسي وحكمت مزاجه..

والواقع أنه إحساس نابع من الرؤية القرآنية للحياة، إذ أن من الصور التي رســـخها القرآن للدنيا في وجدان المسلم، وقتيتُها وسرابيتُها وسرعةُ ذوائها، فهي الغثـــاء ،وهـــي الهشيم الذي تذروه الرياح..وهي باختصار نضارة آنية لا تلبث أن يـــدركها الجفـــاف والفناء..

---

٧٩ المكتوبات ص.٧٩.

من هنا كان الصالحون يقدرون أن تجربة عبورهم للحياة تعاجلهم بقصرها وتَحَدُّ من طاقتهم ومما يريدون أن يستغرقهم فيها من عمل صالح يتقربون به إلى الله .. لذلك تراهم يلجأون إلى اتباع سبيل العزلة كحل اختياري يكفل لهم أن يمحضوا زمنيتهم على نحـــو أكثر خلوصا للعبادة والتقوى.. وكل ذلك سجلته سيرة النورسي ..

بل لقد رأيناه يُقرُّ أنه اكتفى حتى في تعاليمه بإعتماد الأصول دون إهدار الوقـــت في مراجعة الفروع، إذ قصر الحظ الأكبر من الجهد والتركيز على مدارسة الكتاب والسنة، وعلى استقراء روح القرآن العظيم وعلى هضم مصادر الأقطاب والمرجعيات الشـــهيرين .. وهي خطة منهجية يعتمدها كل عالم، مدرك لقيمة الزمن ولأهمية اســـتثماره علـــى النحو الفعال، وهو ما اتبعه النورسي، إذ أن علاقته بالوقت لم تكن تسمح لـــه بـــأن يتصفح كل المصادر التي تركها السلف والتي قد يكون فيها ما يغني الرؤية ويخصـــبها .. لقد كرر النورسي أن تعاليمه مستقاة من نبع القرآن، وأن ذلك كان نهجا إجلائيا على درجة من النورانية لا تنكر، إذ أن الاستقاء المباشر من نبع القرآن قد كفل لتلك التعاليم الصفاء من جهة، وكفل له – هو – تزكية الوقت من جهة ثانية:

"..الوقت ضيق، ونحن ضعفاء فلا نجد متسعا من الوقت كي نستفيد من تلك الآراء النيرة ".[٨٠]

لقد آمن النورسي بالتجديد فعاليةً تتعزز بها قوانين الله الشرعية والروحية، وتصان بها معالم الطريق التي على الإنسانية أن تسير عبرها في هذه الحياة.. وأدرك أن الرتابة الـــتي يخلقها كرور الإيام والسنين مجلبة للغفلة، وباعث على النسيان والانقطاع، وأن الخالق – عز وجل– قد هيأ لعقيدته السماوية العهدة التي تتولى تجديدها وتجلية جوهرها وشـــحذ حدها.. وهو الدور الذي أوكله الله للعلماء والصالحين الذين قرر أنهم في مرتبة ورثـــة الأنبياء .. وذلك ما يؤكده قول الله :(**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**)، ويثبته كذلك معنى قول الرسول ﷺ :(أن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد للأمـــة دينها)..

فالتجديد الإصلاحي الذي لا يفتأ أهل الاستنارة يقومون به عبر العهود والمراحل، هو – كما يرى النورسي – تشبيب للزمن وعصرنة للقيم وتوسيع للرؤية الإنسانية، لتطابق

---

٨٠ الملاحق ص.١٩٢.

الأبعاد التي تشملها تعاليم الله ومراميه التي لا تحد بأفق ، إذ إصـــلاح حـــال الإنســـان والتسامي بشأنه، وتهذيبه، هو مبتغاها. [81]

ولا يخفى ما للزمن من مقاصد تعليمية لا تنكر، فهو في جريانه الصامت، وفي انسيابه السامت، لا يبرح يخط بقلم العبرة آيات بينات لا تغيـــب عـــن إدراك ذوي الألبـــاب والبصيرة..

وإذا كان الدهريون والملاحدة قد وقفوا من الزمن موقف المتبلد الذي لا يعي مـــن الوقائع إلا ما يتصل بالحاجة الغريزية، الإستهلاكية، فهم في ذلك أشبه مـــا يكونـــون بالحيوان، فإن الحس الفطري والهداية السماوية وتعاليم الأنبياء والرسل عليهم السلام قد ألهمت الإنسان أن يستقرئ في خطى الزمن حقيقة هذا الوجود، ومآله، ومقاصـــده .. فكرور الساعات والأيام لا يعني أن الإنسانية تراوح في حلقة مفرغة، تستغرقها الإستنامة أو تَناسي مصيرها العدمي الفظيع كما يعتقد الملاحيد .. بل إن عجلة الـــزمن تتحـــرك مُسَيَّرَةً ومشروطَةً بأجل وكتاب، تتقلب على إيقاعها صفحات تاريخ الكائنات في هذا الوجود المشرئب برأسه إلى الأبدية التي قضى الله بها مصيرا سرمديا يتوج هذه الأطـــوار التي سلختها الخليقة منذ البدء، والتي تعلمت خلالها – أو زاغت – في ضوء الهدايـــة أو بانقياد للأهواء، ما شاء الله لها أن تتعلم..

فالفاعلية الزمنية شرط إيماني راسخ، لأنها الظاهرة الحسية التي تعكس على نحو معبر، القدرة الإلهية الخارقة التي لا تعترضها عوارض ولا تعيقها عن تنفيذ إرادتها عوائق..

فالثابت "أن هناك يدا خفية تعمل من وراء الظواهر جميعا، فما لا قوة له أصلا، بل ولا يقوى حتى على حمل نفسه، يرفع آلاف الأرطال من الحمل الثقيل .. وما لا إدراك له ولا شعور يقوم بأعمال في غاية الحكمة .. إنها أشياء إذن لا تعمل مستقلة بنفسها، بل لابد أن مولى عليما وصانعا قديرا يديرها من وراء الحجاب، إذ لو كانت مستقلة بذاتها، وكان أمرها بيدها، للزم أن يكون كل شيء هنا صاحب معجزة خارقة، وما هـــذه إلا سفسطة لا معنى لها..". [82]

من هنا كان المؤمن يقرأ في إيقاع الزمنية آيات من العبرة واليقين والإيمان راسخة، إذ أنه – وحيثما التفت – يجد حياله شواهد من الموعظة لا تُرَدُّ.. فأطوار السابقين وأوضاع من سلفوا هي مجال للإتعاظ والإعتبار، وكذلك وقائع الراهن وما يتقلب فيه الفرد مـــن

---

٨١ الملاحق ص.١٩٦.

٨٢ الكلمات ص.٣١٢.

أحوال ومن متغيرات يومية ومرحلية، هي مادة للتفكير واستخلاص العبر.. ومن شـأن ذلك كله أن يدفع بالكائن العاقل إلى التأمل في المصير الإنساني، فضلا عن مصيره هـو، ضمن روح من الإيمان والوعي بأن عتبة القبر ليست إلا الباب الذي ينفذ مـن خلالـه الإنسان - بما حاز من عمل صالح أو طالح - إلى الأبدية..

من هنا يختلف العبد المؤمن عن الجاحد ،وتتباين نظرة أحدهما للزمن مـع نظـرة الآخر .. فإذا كان المؤمن يعيش بوعي الاستمرار والتواصل، وبالوثوق من البعدية، فإن الملحد يعيش راهنه، إذ أن هناك رجاحةً غريزيةً تُغَلبُ في روحه جانب الحيوانية علـى جانب البشرية، فيحيى متهتكا، لا يهمه من الحياة إلا ما يصيب من ملاذ تشـبع نهمـه الخسيس.. من هنا كان الفرد المؤمن - كما يرى الإمام النورسي - إنسانا زمنيا، أي أنه على صلة بجذوره الماضية، بوصفه جبلَّة حية، دائمة، تدين بوجودها إلى إله خالق، مقيدة بروابط المعبودية له، وموعودة بحياة سَرْمَدُها منوطٌ بما يقدم الفرد من صالح الأعمـال.. علي عكس الفرد الجاحد الذي هو مخلوق لا زمني، ترهنه الساعة التي هو فيها، ويعيش مُنبتًّا مع الماضي، مبتور الصلة بالوجود في سيولته المنسابة بقدر.. ذلك لأنه " لا ماضي ولا مستقبل للضال" كما يقول النورسي .[٨٣]

وربما اشتط الكافر في كفره، فأسند إلى الزمن دورا ربوبيا، فيضحى دهريا يردد مـا حكاه الله عن فصيلته من الجاحدين :(**وما يهلكنا إلا الدهر**).

فدورة الزمن الصغرى (اليوم) والكبرى (السنة) لا تفتأ تهمس للإنسان وتصيح - من خلال تبدلاتها وتغيراتها - بحقيقة هذا الوجود.. فليس هناك في كل ما يحدث تحـت أبصارنا من وقائع هذا التبدل الذي يحكم الحياة وينتظمها، مؤشـرٌ واحـد يثبـت العدمية..

بل إن العدمية - كما يرى النورسي- عديمة في ملكوت الله، فما نراه من ابتهـاج المناظر الخضلة، ومن ازدهار الفصول النضرة، المتعاقبة، ومن انفعـام الآفـاق الفسـاح بالغضاضة والعذوبة، لا يشمله العدم والفناء بحال من الأحوال .. إذ حتى حين يداهمها موسم الجفاف واليبس فإنها وإن تحللت حقا وترمدت، وذرتها الرياح في الأفضـية، إلا أنها لا تبيد، إذ أنها ببلوغها أوج انسحاقها، تشرع في تحقيق دورة النشور من جديد ..

٨٣ الشعاعات ص.٢٤٨

" إن الأصل في الشيء البقاء، حتى أن الأمور السيالة السريعة الـزوال كالكلمـات والتصورات لها أيضا مواضع أخر يتحصنون فيها من الزوال، لكن يتطورون في الصور، حتى كأن الأشياء موظفون لحفظ الشيء إما بتمامه كالنوراني، أو وجه مـن الشـيء يسارعون بكمال الاهتمام لأخذه ووضعه في قلوبهم الشفافة. والحكمة الجديدة تفطنت لهذا السر، لكن بلا وضوح، فلهذا أخطأت بالإفراط، فقالت لاعدم مطلقا، بل تركـب وانحلال، كلا، بل تركيب بصنعه تعالى وتحليل بإذنه، وإيجاد وإعدام بأمره، يفعـل مـا يشاء، ويحكم ما يريد.." [٨٤]

فمع الإيمان تتكشف الحقيقة الإلهية الـتي تحكـم هـذا الوجـود وتجعلـه دائـم التجدد..وذلك ما طفق يعرب عنه النورسي من خلال تلك الوقفات التي ظل يناجي بها قلبه ويبين له حقيقة التجدد التي تشرط ظواهر هذا الوجود :" "اعلم يا قلبي أن ما يرى ملء الدنيا من آلام الإعدام إنما هي تجدد الأمثال، ففي الفراق مع وجود الإيمان، توجـد لذة التجدد دون ألم الزوال ..". [٨٥]

بل إن النورسي قد ساق رؤيته الوجودية في صورة قانون يثبت بقاء الكائنات وينفي العدمية، عندما قرر أن : " كل شيء فانٍ بمعناه الاسمي، وباق بمعناه الحرفي ..". [٨٦]

فليس هناك شيء مما خلقه الله يفنى، ولكن كل شيء يعاود الحيـاة وفـق قـانون التوارث والبقاء والخُلْد الذي قضى به الله مآلا للخليقة.. وفي ذلك أسطع البراهين على حتمية وقوع الحشر والنشور كما قرره الله عز وجل في كتابه الكريم ..

" هناك حفيظية حافظة مهيبة بادية للعيان، تحكم على كل شيء حي، وتهيمن علـى كل حادث، تحفظ صوره الكثيرة ، وتسجل عمل وظيفته الفطرية ". [٨٧]

فدورة الزمن الدائبة لا تعني إلا أن هناك مالكا لهذا الكون، حيا، دائمـا، باقيـا، لا تأخذه سنة ولا يتملكه نوم، خلق العباد ليكون لهم السرمد موعدا وميقاتا، بعد أن يعبروا جسر الحياة والامتحان ، إلى الدار الآخرة، دار البقاء.. ذلك لأن عقارب الساعة تشبه حركة الأيام وتدل في ذات الوقت على حركة الزمن . من هنا كـان حتمـا لـــــــ"

---

٨٤ المثنوي العربي النوري ص ٢٣٢.
٨٥ المثنوي العربي النوري ص ٢١٢
٨٦ المكتوبات ص ٧٥.
٨٧ الشعاعات ص٢٦٩

لإنسان بوصفه خاتمة شجرة الكون، وأجمع ما فيها من الصفات ..أن يكون له حشـــر ونشور." .[88]

بل إن حياة الانسان خاضعة لديمومة من التجدد، فهي تعيش نوعا من الحشر قبـــل الإبان. والإنسان في تجدده المتواصل هو بمثابة الكون الـــذي تتراوحـــه المواســـم بِلـــى وتجديدا.بل إنه في سيرورته المتجددة جماع لحيوات عاشها تباعا، عبر مراحـــل العمـــر المتصرمة، فطفولته، قد انقضت مع حلول كهولته، ولكنها في حقيقتها باقية في كينونته، ماضية معه، لا سبيل إلى الفكاك منها أبدا، وهو ما يثبت البقاء الذي قدره الله لعباده..

"..إن فرد الإنسان له ماض ومستقبل . إذ يجتمع في الشخص – معنويا – كل مـــن مات منه من أفراد نفسه، إذ في كل سنة يموت منه فردان صورةً، ويورثان فيه معنييهما من الآلام والآثام والآمال وغيرهما، فكأنه فرد كلي .. وإحاطة فكره وعقله وسعة قلبـــه وغيرها تعطيه نوع كلية .. وكون فرده كنوعه في الخلافة والمركزية لعالم خاص كالعالم العام .. والعلاقة الشعورية مع أجزاء العالم وتصرفه في كثير من أنواع النباتي والحيـــواني والمعدني تحويلا وتغييرا خلافا لسائر الحيوانات وغيرها، أيضا تعطي له نوع كلية، كأن كل فرد نوع منحصر في الشخص .. ودعاء المؤمن لعموم أهل السموات والأرض يشير إلى أن الشخص يصير بالإيمان كعالم أو مركزه .. فما تجري في نـــوع الحيـــوان مـــن القيامات المكررة النوعية المشهودة في كل سنة، فإن شئت فانظر إلى آثار رحمـــة الله في كل سنة في الثمرات المتجددة الأمثال كأنها أعيانها، وإلى حشر أنواع الهوام والحشـــرات بكمال سهولة من القيامة – تجري بالحدس القطعي في كل فرد من أفـــراد الانســـان – فيدل كتاب العالم في هذه الآيات التكوينية على قيام القيامة الكبرى لأبناء البشر، كمـــا يدل القرآن عليه بالآيات التنـــزيلية .". [89]

فالإيمان بالزمن البعدي أو باليوم الآخر – كما يرى النورسي – هو مـــن أركـــان الايمان بالله .. وكذلك الإيمان بالقدر، خيره وشره .. إذ بذلك الإيمان يقر الانسان بأن ما يقدره الإنسان ويسعى إليه وينفذه.. هي جميعا حيثيات مشروطة بارادة الله، فهي – من ثمة – رهن بالغيب، أي بالزمن القابل المجهول الذي لا إرادة لمخلوق عليه، لأنه من شأن الله وحده .. فلا غرابة بعد هذا "اذا ما وجدنا أن ثلث القرآن جاء يدور حـــول

---

٨٨ انظر الشعاعات.٢٧٣

٨٩ المثنوي العربي النوري ص ٢٤٦.

الحشر والآخرة" .[٩٠].. وذلك ما يؤكد حقيقة النشور التي لا يفتــأ النظــر الإنســاني المحصف يعاينها يوميا في ما تعج بها الطبيعة والأشياء حوله من حياة وتجدد..

هكذا فهم النورسي قيمة الزمن .. وهو فهم إيماني بلا مواربة ..فالزمن عنده فاعلية ربانية تؤطر الكون لتقرر في خَــلَــد الإنسان العاقل بداهةَ البــدءِ والإنتهــاءِ .. إذ لا أطلاقية نشوئية وحشية –كما يزعم الزَناديق – انبثق عنها هذا الكَون واستوى بَها صدفة ليمضي على وتيرة من الرتابة، وينخرط في سلك لولبي من التطور، تتمادى بــه نــزوة التلقائية أو يطفر به منطق العضوية، فتحوله من شوه إلى شوه كما زعمت الداروينيــة والنشوئية وغيرهما من فلسفات الماديين..

بل لقد ضبط النورسي تجربة وجوده ذاتها على إيقاع زمني تنظيمي دقيــق، بحيــث رأيناه يتبع ما يمكن أن يسمى بفلسفة الإكتفاء .. تلك الفلسفة التي شملت مناحي حياته الفكرية والعملية على حد سواء، انطلاقا من استيعابه الخاص للزمن .. وكان من نتائجها بروز تلك الصورة المرتبة التي أخذتها حياته، سواء في جانبها الاجتماعي– بعدم الــزواج وبالعيش المنقطع عن الناس– أو في جانبها الإقتصادي، بحيث ألزم نفسه بقناعة كفافيــة أغنته عن التطلع إلى غير باب الله، ودَرَّتْ عليه من الأفضال والكرامات ما عرفناه عنه.. أو في جوانبها الثقافية، بحيث حدد الوجهة التي سلكها في تحصيل معارفه واستمداد بيِّناته الروحية والعقلية، وحددها بالقرآن العظيم وصادر في ضوء تعاليمه الإلهية ما شاع وذاع من فكر وفلسفة وضعيين..

بل لقد سعى النورسي إلى أن يجسد واقعة النشور من خلال تكييف جذري لحياتــه وتحويل مجراها في الإتجاه الروحي المحض، وهو ما جعله يَقْبُرُ هويةً **سعيد القديم**، تلــك الهوية التاليةً التي تَلاَبَــسَتْ فيها منازع الروح والنفس فشوشت على المسيرة وأربكت الخطا، الأمر الذي حتم بعث هوية **سعيد الجديد**، تلك الهوية الجديدة الــتي أناطــت وجودها بالزمن البعدي، فأضحت الحياة وتفاعلاتها مجرد أصداء تتناهى إليه من خــلال انهماك روحي والتفات قلبي صوب الله..

لقد جسدت تلك التجربة ميلادا في الزمن تستسيغها حكمة التوبة أو الإثابــة الــتي تَتَــشَبَّــبُ بها نفوسُ المؤمنين عندما تطرق باب الرحمان متخففة من أحمالها وعنائها..

---

٩٠ الملاحق ص ٦٣٨

لقد جاهد النورسي بإخلاص متجدد وباسل، كي يحقق الانفكاك عن زمنية الواقع الأرضي، التحاما مع مدار الجاذبية العليا، لا لأنه غاص في وحل الإنغماس الدنيوي المقيت فشاء أن يكفّر ويتطهر، ولكن تداركا منه لاجتهاد رؤيوي قدَّرَ أنه سيخدم من خلاله الإسلام، فجدّ في الطريق صادقا، لكنه سرعان ما تبين الحقيقة الصادمة، فانتفض مروعا، ووثب موليا من حيث انطلق .. من هنا كان ذلك الانبتات الفعلي مع المجتمع، اللهم إلا على صعيد الروح، حيث كان النورسي يحرص على تصدير تعاليمه، باعتبارها كشوفات في حقل الروح، تفيد الأمة في رأب صدعها الروحي والحضاري البالغ..

ولقد دلت التفاصيل البسيطة في سجل حياته على عمق القطيعة التي اختار أن يحصن بها قلعته وهو يشتبك وجها لوجه في معركة المصير التي خاضها ضد النفس وضد قوى البغي والردة في المجتمع ..

لقد قضى عقودا لا يقرأ الجريدة إذ أضرب عليها بعد أن تبين حقيقة حال السياسة والسياسيين، وعاش لا يشارك الناس طعامهم، ولا يقبل منحة، ولا يرتبط بأهل، ولا يسلبه أمل دنيوي يبعده عن أوامر الله ونواهيه، ولبث متيقظا، ناقما على أبسط المشاعر التي تخامر النفس وتزين لها شهوات الدنيا، لاتمتد يده من سماط هذه الحياة – رغم الإغراءات والضغوط – إلا إلى ما كانت فيه حاجة تقيم أود الجسد..حاجة كانت – حقا – على حد من التقتير الارتياضي الذي أعطى كل تلك النتائج الروحية والكراماتية المرموقة..

لقد كانت حياة سعيد الجديد تُجَسِّدُ – فعلا– تجربة التجدد الإرادي الذي يباشره الإنسان إذا ما أخلص نية الانخراط في سبيل الله، تصفيةً للذات والسمو بها إلى درجة الشفوف، ارتكازا على برنامج من اليقظة والتشدد في محاسبة النفس وحملها على الإلتزام بأمر الله .. إن واقع التحول الذي عرفه سعيد النورسي يُعَدُّ عنوانا للبعث والنشور المعنوي..[91]. كما أنه دلالة على قابلية الانبعاث الروحي والحضاري التي تتأتى للأمة، إن هي أخذت بطريق الله والتزمت بتعاليمه في صناعة واقعها وبناء مصيرها..

لقد كان موقف الانقطاع عن الحياة العامة النهج العملي والروحي المفضي إلى تزكية الذات، وتثمير زمنيتها على وجه نافع ومفيد وذي مردودية.. لقد كان انقطاعه عن أخبار العالم وعزوفه عن قراءة الجريدة، سياسة سلوكية سد بها الباب بينه وبين زمنية الابتذال والإرتذال..

---

٩١ الشعاعات.٥٤٢

لقد كان للنورسي في مشاهداته، وفي وقائع الحياة اليومية التي يحياها وسط أناس تعركهم الأيام بكرورها الدائب، وتدركهم الشيخوخة والعجز، عبرة وموعظة، إذ أن دورة الحياة كانت تُبيِّنُ له مدى جهالة أولئك الذين يركبون موج الخطيئة ويستنيمون للفاحشة والعصيان، ويسترسلون مع الإثم، مغترين بعهود الشباب والتخفف من الأسقام، ثم لئ يلبثون أن تطوى صفحتهم ويضحوا مسخا ومعايب فاضحة. " ..فلو أمكن إظهار حوادث ما بعد خمسين سنة من المستقبل مثلما يمكن ذلك لحوادث الخمسين سنة الفانية – بجهاز كجهاز السينما – وعرضت حوادث أهل الضلالة وأحوالهم في المستقبل، إذن لتقززوا ولتألموا ولبكوا بكاء مرًّا على ما يفرحون منه الآن ويتلذذون به من المحرمات في الوقت الحاضر. [٩٢]

وفي هذا السياق نجد النورسي يحاور أهل الضلالة ممن يعتقدون أن الماضي واقع معدوم ومندرس ولا شأن له بالحاضر وبالواقع.. إذ الشأن كل الشأن – عندهم – هو الحاضر، وما تَغتصِب فيه النفسُ من لذائذ فانية .. ويجيبهم قائلا:

" إن ذلك الماضي السحيق ليس بمعدوم وليس بمقبرة تبلي كل شيء وتفنيه، بل هو عالم نوراني موجود فعلا، الذي ينقلب إلى المستقبل، وهو ساحة انتظار الأرواح الباقية المترقبة للبعث، دخولا إلى فردوس السعادة الأبدية المعدة لهم ، لذا يذيقك وأنت لا زلت في الدنيا – لذة الجنة المعنوية حسب درجة إيمانك، كما أن المستقبل ليس مؤلما ولا مقلقا ، وليس محلا للوحشة ولا واديا مظلما مخيفا ، بل هو بنور الإيمان، منازل سعادة أبدية للرحمن الرحيم .."[٩٣]

فبعقل الانسان وبما يتماسٌّ فيه ذلك العقل مع عالم الغيب من خلال الدلائل والآثار التي تحسها النفس ويدرك كنهها الضمير الحي، فارق الانسانُ الحيوانَ واكتسب خاصياته الوجدانية، وأضحى يعرب عن عواطف الألم والحنين، إذ أن عقل الانسان مرتبط بمعرفة منـزَّلة، لا يفتأ يغيبه عنها الضلال، لكن إثابته إلى الرشد لا تلبث من جهتها أن تدنيه من تلك المعرفية الربانية، إذ بالرشد الروحي يحقق الإنسان سكينته ..

" أيها الإنسان، لقد خرج شيء من ماضيك ومستقبلك من الغيب، بحكم ما تحمله من عقل، فأنت محروم كليا مما تتنعم به الحيوانات من راحة واطمئنان بانسدال ستار الغيب أماهما، فالحسرات والآهات الناشئة مما مضى، وأنواع الفراق الأليم والمخاوف

---

٩٢ الشعاعات ص٢٤٧.

٩٣ الشعاعات ص٢٤٩

الناجمة تزيل لذتك الجزئية وتبيدها وتهوي بك في درجة أدنى بكثير من الحيوان من حيث اللذة، فما دامت الحقيقة هكذا فما عليك إذاً إلا أن تتبرأ من عقلك وترميه خارجا، وتَعَدُّ نفسَك حيوانا فتنجو، أو تُنَوِّرُ عقلك بنور الإيمان وتنصت إلى الصوت العذب للقرآن الكريم، فتكون أرقى من الحيوان وأرفع، مغتنما لذائذ نقية، صافية، طاهرة، وأنت ما زلت في هذه الدنيا الفانية".[94]

فالإنسان يعيش على وعي عضوي بزمنه، فإدراك الزمن هو الذاكرة، وهو المخيلة..

فإذا ما عدم الإنسان زمنيته، وبات من غير ماض ولا مستقبل، أضحى ناقص السجايا..

" إن مقام الانسان الراقي وتفوقه على سائر الأحياء وامتيازه عليها إنما هو لسجاياه السامية، ولاستعداداته الفطرية الجامعة، ولعبوديته الكلية، ولسعة دوائر وجوده، لذا فالإنسان المنحصر في الحاضر فقط المنسلخ من الماضي، المبتوت الصلة بالمستقبل – وهما معدومان ميتان مظلمان بالنسبة إليه – هذا الانسان يكسب سجايا المروءة والمحبة والأخوة الانسانية على أساس حاضره الضيق، وتتحدد عنده تلك السجايا على وفق مقاييسه وموازينه المحدودة، فيولي المحبة لأبيه أو أخيه أوزوجته أو أمته ويقوم بخدمتهم على وفق تلك المقاييس الضيقة في الوفاء، وليس على وفق مكانة الإخلاص في الصداقة، أو درجة الود المصفى من الشوائب في المحبة، أومستوى الإحترام المبرأ من الغرض في الخدمة، لأن سعة تلك السجايا والكمالات قد تضاءلت وصغرت بالنسبة نفسها، وحينها يتردى الانسان إلى درك أدنى الحيوانات عقلا.. [95]

إن الإيمان بالآخرة يضفي مساحة الوجود حيال الانسان، ويبني روحيته على أسس ثابتة لا تقيس الأمور بمقياس الظرفية والإنقطاع.." ما أن يأتي الإيمان بالآخرة إلى هذا الانسان لينقذه ويمده ويغيثه حتى يحول ذلك الزمن الضيق – الشبيه بالقبر– إلى زمان فسيح واسع جداً، بحيث يستوعب الماضي والمستقبل معا، فيريه وجودا واسعا بسعة الدنيا، بل بسعة تمتد من الأزل إلى الأبد، وعندئذ يقوم هذا الإنسان باحترام والده وتوقيره بمقتضى الأبوة الممتدة إلى دار السعادة وعالم الأرواح، ويساعد أخاه ويعاونه

٩٤ الشعاعات ص٢٥٠.
٩٥ الشعاعات ص٢٧٩.

بذلك التفكير بالأخوة الممتدة إلى الأبد ..فتبدأ – من ثمة – كمالاته وخصاله بالسمو والرقي بالنسبة نفسها، وتتعالى إنسانيته ولكل حسب درجته..[96]

فالإيمان بالآخرة يوسع من رحابة الوجود ويركز عقيدة الدوام والأبدية، ويجعل من مطمح الخلود حقيقة منطقية، تنسجم مع روح القرآن الذي جعل من الحياة الدنيا معبرا لحياة أبدية..[97]

الزمن الدنيوي اِرهاص للزمن الأخروي، السرمدي

ففيما تركز معتقد الماديين على الزمن الدنيوي، وقطعوا مشاعرهم بما وراء ذلك، رأى النورسي أن الزمن الدنيوي هو جزء من الزمن السرمدي وموصول به ..

لقد ألحم النورسي مفهوم الزمان الأرضي بالزمن الأبدي، وجعل الموت عتبة عبور تنتقل منها الروح من وضع الظرفية والمرحلية إلى وضع الأبدية .. ومن خلال تلك النظرة قوّم سائر القضايا الوجودية والحوادث الحياتية .. فخلت نظرته إلى الزمن من أي إحساس بالقسرية أو بالاضطرارية، وأسندت كل واقعة وكل رجاء إلى اللوح المحفوظ، مخالفا بذلك احترازات المناطقة والفلاسفة الذين يلحون على السببية .. لقد دأب أولئك المناطقة والفلاسفة – كلما أحطأهم في سبرياتهم لمستويات من الظواهر والقضايا – ينفخون ويتعزون بكون علمهم لم يرق بعد إلى الأفق الذي يمكنهم من التحكم في كل القوانين، والإجابة عن كل الأسئلة..

كرامة طي الزمن

يتحدث النورسي عن ظاهرة غيبية شغلت أفكار الناس زمنا، وربما لا تزال، بل ربما ستكون وجها حاسما للفتوح العلمية في القابل .. وذلك لما تتسم به من طابع خارق، ونقصد بها فكرة طي الزمن وبسطه التي تنسب لبعض الأولياء .. لقد أقر النورسي تلك الكرامة قائلا : " لا ينبغي أن يستغرب فيستنكر، ..ألا ترى أنك في الرؤيا كأن مر عليك سنة في ليلة بل في ساعة ..ففي انكشاف هذه الحالة لأهل الكشف في اليقظة ينبسط الزمان ويطول العمر ويتقرب إلى دائرة الروح التي لا يقيدها الزمان .".[98]

---

٩٦ الشعاعات ص.٢٧٩.
٩٧ الشعاعات ص.٢٨٣ .
٩٨ المثنوي العربي النوري ص ٣٢٤

إن هذا الفهم ليؤكد أن النورسي – إلى جانب إيمانه الراسخ بالكرامة، كان يتمثـل للزمن رؤية تقوم على ما عرف بـ " **النظرية النسبية،** إذ أن حقيقة الزمن تستوعب وفق منطق رياضي، يأخذ بعين الاعتبار مقدار حساب التسارع الزمني ضمن شرط المكان الذي يظرف الحدث الزماني .. بما في ذلك الفضاء الأرضي ونظام المجرات، وهو ما يبينه النورسي من خلال التوضيح التالي ".. افرض أن أحدا ركب ميل الساعات وواحدا امتطى ظهر ميل العاشرات، فانظر كم بين ما رأيا وقطعا .. فقد انطوى لهذا ما انبسط لذلك بدرجة تكون ثانية ذا، سنة هذا، ولأن الحركة كجسم الزمان أو الزمان كلونها، فما يجري فيها يجري فيه أيضا، فلم لا يجوز للولي الغالب روحه على جسمانيته أن يصدر أفاعيله على مقياس سرعة الروح والخيال."[99]

إن ما يهمنا هنا هو هذا الاستيعاب النير والعصري الذي أظهره النورسي في تمثله لظاهرة تجريدية من أعقد الظواهر الكونية والروحية في وجودنا وهي ظاهرة الزمان.. تَمَثُّلٌ لم يكن يكتفي بصوغ الفرضية نظريا من خلال الشواهد والأمثلة الدالة على تفهم الظاهرة، بل إنه تمثل تمرسي، إذ كان النورسي يسعى بحكمة المصلح، إلى إدماج ذلك الفهم المتقدم للزمن في عملية إرسائه للفكر والمعرفة الإسلاميين، من خلال إقامة ذلك التزاوج بين الروح الدينية كما قررها القرآن وبين الاستقراء الفكري الذي كانت العقلية الإنسانية قد أثلته لفكرة الزمن والمقايسة، خاصة وأن النورسي قد لمس في ذلك التأثيل شيئا وجيها يسهم في ترجمة الأسرار الإعجازية التي انطوت عليها فاعلية الزمن، بوصفها شرطا كونيا أرست عليه القدرة الإلهية نظم الكون وإيقاعات حركته المجسدة لعظمة الخالق..

بل لقد لمس التأثير الفعال لوطأة هذا الشرط الوجودي على الانسانية بعد ما تعاقب عليها من أطوار وما تهيأ لها من أسباب الوعي والمدنية..

يقول النورسي:

" لقد تيقظ الانسان في عصرنا هذا بفضل العلوم والفنون ونُذُر الحروب والأحداث المذهلة، وشعر بقيمة جوهر الإنسانية واستعدادها الجامع، وأدرك أن الإنسان باستعداده الاجتماعي العجيب لم يخلق لقضاء هذه الحياة المتقلبة القصيرة، بل خلق للأبد والخلود، بدليل آماله الممتدة إلى الأبد ..وأن كل إنسان بدأ يشعر — حسب استعداده — أن هذه

---

٩٩ المثنوي العربي النوري ص ٣٢٥

الدنيا الفانية الضيقة لا تسع لتلك الآمال والرغبات غير المحدودة، حتى إذا قيل لقوة الخيال التي تخدم الانسانية : لك أن تعمري مليون سنة مع سلطنة الدنيا، نظير قبولك موتا أبديا لا حياة بعده إطلاقا . فلابد أن خيال ذلك الانسان المتيقظ الذي لم يفقد انسانيته سيتأوه كمدا وحزنا - بدلا من أن يفرح ويستبشر — لفقده السعادة الأبدية ".[100]

فالنزعة إلى الخلود، ميل انساني مركوز في فطرته، عوامل الاجتماع والمدنية قد تكون من دواعي تحريكه في النفس، فيكون التأثير أيجابيا، على نحو ما يفعله الدين في النفوس المؤمنة بخصوص المصير الأبدي ..

فالدين يتضمن الخلاص من العدمية والانهدار المجاني للحياة، وذلك ما يفسر سر لجوء الانسان فطريا إلى الدين : "وظهور ميل شديد إلى التحري عن الدين الحق في أعماق كل انسان، فهو يبحث قبل كل شيء عن حقيقة الدين الحق لتنقذه من الموت الأبدي ووضع العالم الحاضر خير شاهد على هذه الحقيقة".[101]

الإيمان بالغيب من الإيمان بالله

من هنا أكد النورسي الأسس الستة المكرسة للإيمان والتي تعتد في كليتها بشرط الإستيثاق من حتمية سفور الغيب بكل وعود الخالق الدائم، هذا الغيب الذي طفقت تبلغ عنه رسالات الله، لا سيما الرسالة الإسلامية الأشمل والأوطد..

إن تلك الأسس المنوطة باليقين الروحي الحق هي الإيمان بالله، وباليوم الآخر، وبملائكته وكتبه، ورسله، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى".[102]. وهي - كما نلاحظ - أركان روحية تتضمن في جملتها البعد الغيبي التمحيصي..

فركن الإيمان بالله يقتضي التصديق بما لا يحس أو بما لا يعاين - و بالتالي - بما لا يشخص .. وكذلك الحال فيما يخص ركن الإيمان بالملائكة، إذ أمر الملائكة مغيب، شأنه شأن اليوم الآخر ،وشأن القدر ،وشأن الكتب، وشأن الرسل، إذ أن ما طفق يقرره الرسل عبر تاريخ بعثاتهم السماوية، ظل موضع طعن وإنكار من قبل الجاحدين في كل بعثة، رغم الدلائل والبينات التي كان الله يمد بها رسله تبليغا لتعاليمه، إذ لم يكن الإيمان بالرسالات ليتهيأ إلا لمن هيأ الله قلبه لعناق اليقين ..

---

١٠٠ صيقل الإسلام ص ٤٩٤

١٠١ صيقل الإسلام ص.٤٩٤.

١٠٢ الشعاعات ص٣٠٠

ولا يسعنا أن ننكر ما أفادنا به القرآن العظيم الذي جعل من العقل والبيان التأملي المستنير حجته وأُسَّ برهانه ومصداقية أنبائه وتقريراته، إذ أن انكار تلك الآيات البينات المؤكدة بقاطع الحجة الكونية الظاهرة، انتحار مجاني، وإقرار - لا ينسجم مع المنطق والجِبلَّة - بعبثية الوجود وصُدْفيته، واعتباطية ما يكتنفه من نظم متداخلة متراكبة، معجزة في الدقة والإطراد ..

إن القول بعدمية الكائن وبآنيته، وفنائه، هو قول لا يرتكز على روح.. وإننا إذا ما قيدنا الوجود الإنساني بتجربة حياتية، بيولوجية، محضة، أنتجتها - افتراضا - السببية الوجودية، والصدفة المتوحشة، فكيف لا يحق لنا - وبالنظر إلى هذا الارتقاء الباهر الذي انتهت إليه حياتنا الفردية والكونية ضمن إطار الوحشية والصدفة الذي نزعم أنه أساسها - أن نتساءل عن سر إمساك هذه الإعتباطية النمائية التي حققت مرافق هذا الكون وجهزته بما يديره، وعمرته بالمخلوقات التي لا تنحصر أجناسها وأصنافها ومستويات حياتها في لون أو شكل أو نظام، وعجزها عن أن تنشئ له الامتداد الذي يعطي للوجود معنى ومعقولية، ويبعده عن المصير الانسدادي المتوج بالموت الفنائي المحتوم كما يتوهم الدهريون ؟.

فإذا ما كفرنا بوجود الجنة مثلا أو جهنم أو بغير ذلك مما أنبأ عنه القرآن من أمور الغيب، فإننا نكون أغلقنا الأفق الرحيب الذي فتحه الدين وأعطى به معنى أبديا لكينونتنا.

إن الكفر بجهنم - وهي مثابة القصاص الذي أناطت به العقيدة سلوكنا غير القويم - هو انحياز للعدم المحض.[١٠٣]. وهو بالتالي إقرار بهمجية الإنسان الذي لا قامع يكفه عن الخيانة والتعدي على حقوق الغير، إلا إذا أقر بما قرره الله مصيرا للمخلوقات .. إذ أن الضوابط الموضوعية، الخارجية، لا تصمد طويلا أمام جنوحات الانسان، لو لم يكن لهذا الانسان قوامع أخرى ذاتية، يستمدها من أواصره بعالم الغيب.. وذلك ما نبه إليه النورسي في سائر ما كتب..

---

١٠٣ الشعاعات ص.٢٨٧

الدعوة إلى تحصيف التراث وترقية منهج الوعظ والترشيد

وفي هذا النطاق رأيناه يستقرئ بذات التوجه النقدي المستقبلي، مصادر التراث ومرجعياته، إذ كان يتبين فيها النقص والقصور والمحدودية.. فمضامينها لم تكن تعالج اهتمامات العصر، بل لقد مضت تشد الأجيال إلى أزمنة سالفة، معطلة حركة التطور التي جاء الاسلام ليمضي بها قدما لصالح البشرية..

"إن قسما من مصنفات العلماء السابقين وأغلب الكتب القديمة للأولياء الصالحين تبحث في ثمار الايمان ونتائجه وفيوضات معرفة الله سبحانه، ذلك لأنه لم يكن في عصرهم تحد واضح ولا هجوم سافر، إذ كانت تلك الأسس متينة ورصينة .. أما الآن فإن هناك هجوما عنيفا جماعيا منظما على أركان الإيمان وأسسه لا يستطيع أغلب تلك الكتب والرسائل التي كانت تخاطب الأفراد وخواص المؤمنين فقط، أن تصد التيار الرهيب القوي لهذا الزمان، ولا أن تقاومه .." إن الدواوين والمؤلفات السابقة تقول : كن وليا وشاهد وارق في المقامات والدرجات، وأبصر وتناول الأنوار والفيوضات، بينما رسائل النور تقول : كن من شئت وابصر وافتح عينيك فحسب، وشاهد الحقيقة وانقذ إيمانك الذي هو مفتاح السعادة الأبدية" .[١٠٤]

لذا لبث النورسي ينعى عقم الوسائل التربوية الممارسة في عهده والعهود التي خلت، ويؤكد عدم مجاراتها لمتطلبات الزمن الجديد القائمة على البرهان والدليل العقليين ..

إذ هناك مستوى من ثقافة الوعظ التي تشيد بالبطالة العقلية وتدعو إلى التوكل السلبي وإلى الاستكانة وحب الوضاعة، إنما كانت ثقافة تقهقرية، تخرج عن دائرة الزمن الحي، لتستنيم لخدر الزمن الميت : "إني استمعت إلى الوعاظ فلم تؤثر في نصائحهم ووعظهم.. إنهم يتناسون الفرق بين الحاضر والماضي، فالزمن الحاضر أكثر حاجة إلى إيراد الأدلة ". [١٠٥]

ويتحدث النورسي عن سوء منهجية الوعاظ، وقصور نظرتهم التي لا تميز بين المقتضى الضروري وبين الفضلة والإضافة..فيقول :" إنهم لا يميزون بين المهم والأهم، إنهم لا يتكلمون بما يناسب تشخيص علة هذا العصر، وكأنهم يسحبون الناس إلى الزمان الغابر فيحدثونهم بلسان ذلك الزمان". [١٠٦]

---

١٠٤ الملاحق ص ١٠٥.

١٠٥ صيقل الإسلام ص ٤٧٣.

١٠٦ صيقل الإسلام ص ٤٧٣.

لقد آمن النورسي أن الحاجة باعث مهم على التحلحل وتجريب السير على طريــق التجدد والاختراع، ولاحظ أن واقع الانسان المسلم يحتم عليه أن يمضي علـى سـبيل التجريب وتلبية الحاجات والإلحاءات، وإلا هلك واندثر.. فالاستيقاظ أضحى حتميـة بقاء بالنسبة للمسلمين :" إن الحاجة التي هي أم المدنية وأم الاختراع والرقي قد رفعـت يدها لتنـزلها عليكم صفعة، فتأمركم: إما أن تعطوا حريتكم إلى الناهبين، أو عليكم أن تهرعوا إلى كعبة الكمالات بركوبكم منطاد العلم وقطار الصـنعة في ميـدان المدنيـة لاستقبال المستقبل الزاهر، مستردين أموال الاتفاق التي اغتصبها الأجنبي" .[١٠٧]

وبنفس النظرة المستقبلية رأينا النورسي يمارس التأويل وقراءة التراث .. فقد أقـر أن الزمن مفسر للقرآن، بحكم أن إطلاقات القرآن وتقيداته منوطة بالشروط الزمانية، فهي تتكيف في ضوئها:

"إن للتأويل والاحتمال مجالا، لأن النهي القرآني ليس بعام، بل مطلق، ومطلق قـد يقيد، والزمان مفسر عظيم، فإذا ما أظهر قيده، فلا اعتراض عليه". [١٠٨]

لقد عد ظاهرة المثاقفة التي شملت التفسير القرآني عبر العهود، ظاهرة قيـدت مـن روحه التقدمية، الاستقبالية، ذلك لأن القرآن الممجد للعقل، وبالتالي المعتـرف بحتميـة التطور، من حيث أن التطور هو المتابعة الموضوعية التي تتحقق للعقـل علـى صـعيد المكاسب ..

التقليد محنة قيدت العقل وأعاقت القابليات

إن القرآن العظيم قد وجد رحابته الربانية تضيق فجأة تحت تأثير الاجتهاد السـلبي الذي أوعزت به ثقافة الاسرائيليات، فشدت وثاقه، وربطته بالماضي الخرافي، وأعاقـت النظر الانساني عن أن يرى فيه حقائقه النيرة، المرتبطة بالحياة في سيرورتها البناءة، المفضية إلى السرمد..

وفي هذا المجال قامت عقيدة التقليد سدا منيعا يكرس الجمود، ويحجـم الطاقـات القرآنية اللامحدودة في مسلمات وتواضعات راكدة في الغالب، الأمر الذي أضر بالاسلام والمسلمين ولم يسعفهم بالتطور.. لقد انغلقوا تحت طائلة التسليم والتقليد، في قيم تحجب عليهم الرؤية، اعتقادا منهم أنهم بذلك التحجر الشكلي يتواصلون مـع القـرآن ومـع

١٠٧ صيقل الإسلام ص ٤٦٣

١٠٨ صيقل الإسلام ص. ٣٩٩.

روحيته المفتحة على الآتي والقابل، لكنهم بعملهم ذلك لم يكونوا إلا مناهضين لتعـــاليم القرآن المحفزة على التجدد والتطور والأخذ بأسباب السعادة ..

فالتقليد كما مارسه المسلمون، يعني السكونية والسير القهقـــرى، والالتفـــات إلى الخلف، والمراوحة في الموقف.. إن التقليد هو الإقرار بالعقم وانزلاق العقـــل في وحـــل الكسل والاستدانة، وهو ما نتج عنه عجز مخل في مجال تثمير القيم الاسلامية المباركـــة، وفي تصويب الفاعلية الزمنية نحو ما يخدم وما يقوي..

وشأن الفلسفة القديمة في مجال إعاقة الحركـــة العقليـــة الاســـلامية شـــأن ثقافـــة الاسرائيليات، إذ أن تسليم العقل الاسلامي بمبادئ وافتراضات الفلســـفة القديمـــة، في كلياتها أو في جزئياتها، قد أوثق الفكر الاسلامي، ولم يتح له المضي في الوجهة الســـليمة التي رسمها له القرآن..

لقد تعامى منطق التقليد عن أن يقر بأن لكل زمن منظوره ورؤاه، لذا مضـــى هـــذا المنطق يشد المسلمين إلى صدد خلفي واحد، ومغشوش في أكثر الجوانب، وهو ما سبب الكارثة الحضارية :

يقول النورسي :

"إن كثيرا من الكلمات والحكايات أو الخيالات أو المعاني التي كان السلف يتلقونها لم توافق الرغبات الشابة لدى الخلف، لأنها غدت عجوزا لا زينة لها، لذا أصبحت ســـببا لدفعهم إلى ميل التجدد والرغبة في الإيجاد والجرأة على التغيير .. هذه القاعدة جارية في اللغات مثلما هي جارية في الخيالات والمعاني والحكايات، ولهذا لا ينبغي الحكم على أي شيء بظاهره، إذ من شأن المحقق سبر أغوار الموضوع والتجرد من المؤثرات الزمانيـــة والغوص في أعماق الماضي، ووزن الأمور بموازين المنطق، ووجدان منبع كـــل شـــيء ومصدره..".[١٠٩]

وإن إظهار النورسي لمحاسن وإيجابيات الفلسفة الحديثة، هو وجه تجددي وتجديدي، شاء أن يوعز من خلاله للأمة بضرورة تجديد نظرتها وروابطها مع الغير ومع المعرفة ذاتها، إذ أن في شروط العصر الراهن ما يحتم الأخذ بهذا التجديد :

"نعم إن الحكمة القديمة خيرها قليل، خرافاتها كثيرة، حتى نهى السلف إلى حد مـــا عنها، حيث الأذهان كانت غير مستعدة والأفكار مقيدة والجهل مستوليا على العـــوام،

---

١٠٩ صيقل الإسلام ص ٤٠

بينما الفلسفة الحاضرة خيرها كثير من جهة المادة بالنسبة للقديمة، وكذبها وباطلها قليل ، والأفكار حرة في الوقت الحاضر، والمعرفة مسيطرة على الجميع ، وفي الحقيقة لابـــد أن يكون لكل زمـــان حكمه ".[110]

ولما كانت علاقة الأمة بتراثها وبروحيتها - التي لم تعد في جوانب كثيرة منها، تلبي حاجة العصر- هي علاقة الأمر الواقع، فقد حرص النورسي على أن يرسم الطريقة التي تكفل الاستفادة من ذلك التراث كما أنشأه السلف.. من حيث ضرورة تخضيعه للنقد، والوعي بالظروف التي صاحبت ظهوره، والمقاصد التي كان يحددها لمضامينه، والآليات المعرفية التي كان يفاعل بها ..وهو ما يخلع عنه صورة القداسة التي جعلت الخلف يتمثله بها ..

إذ لابد أن نقرأ التراث وأن ندركه من خلال مضامينه ذاتها، ولـــيس مـــن خـــلال قائليه.. فمهمة التمحيص تقتضي أن نقوِّم الرجال من خلال الحق، لا أن نقِّوم الحق من خلال الرجال.. وهو ما يجعل كنوز الحق كما حواها التراث تتصفى مـــن الشـــوائب والفضلات التي تنسب إلى العقول وإلى رؤى أصحابها وظروفهم المعرفية ..

لقد آمن النورسي أنه مثلما رفل الماضي في النور القلبي والقوامة الروحية والبرهان العقلي، فكذلك سيكون حال المستقبل، من حيث إعلاؤه للحق وللعلم والحقيقة :

"لما كان المهيمن هو الحق والبرهان والعقل والشورى في خير القرون وعصور السلف الصالح، لم يك للشكوك والشبهات موضع، كذلك نرى أنه بفضل انتشـــار العلـــوم في الوقت الحاضر وهيمنتها بصورة عامة، وفي المستقبل هيمنة تامة إن شـــاء الله، ســـيكون المهيمن هو الحق بدلا من القوة، والبرهان بدلا من الطبع، والهدى بدلا من الهوى، كما كان الحال في القرون الأولى والثانية والثالثة، وحتى القرن الخامس عامة" .[111]

* **

١١٠ صيقل الإسلام ص ٤١
١١١ صيقل الإسلام ص ٥١

الفصل الرابع

الجمال والجمالية .. في فكر النورسي

إن روح التنسك التي لازمت النورسي طيلة حياته، لاسيما الشطر الإخـير منهـا، أورثته طبيعة نفسية تأملية رهيفة، وعلى درجة من التأثر كبيرة .. ومن غير ما شـك أن تلك الحال التي نزع إليها إنما تجد تفسيرها في مكوناته الفطرية وفي رواسـب تنشـئته الريفية، وفي ثقافته الدينية، وفي استعداده النفسي والوجداني الرقيق..

لقد انطوت جوانحه على نفسية ووجدانية تلازمت فيها أسباب القـوة والضـعف، وشكلت دعامتها المزاجية وعلة توازنها العاطفي والجمالي..

إذ أن تلك الروح التي ظلت تحتفظ بدافعية هصورة في مواطن المواجهة والنـزال، ما أسرع ما كانت تجنح إلى حال من الضعف والتداعي ما إن تحركهـا دواعـي التأمـل والتفكير في وضع الإنسان وفي ارتكاساته.. لقد كانت عيناه لا تلبثان أن تدمعا حيـال مشاهد العبرة ومواطن الاتعاظ.. بل لقد كان الحزن يمضه – هو المؤمن بالله، الموقن من صفحه – كلما استشعر من نفسه اغترارا، أو خالجته نوازع أمل مادي وشدته إلى بهرج الدنيا لواعج حب الظهور وطلب الشأن والاستنامة للمغريات..

وما أكثرها تلك المواقف التي برح يذب فيها عن نفسه وينفي مـا كـان الأتبـاع يضفونه عليه من اعتبارات الكرامة والقداسة والإدراك.. وكل ذلك لأن النورسي الذي اعترف بتحوله الروحي والقلبي، وبتروضه النفسي الذي أحال منـه شخصـا مغـايرا لشخصه الأول، شخص يكاد لا يمت بصلة لسعيد الأول، إذ باتت القيم تتراءى له على نحو غير اعتيادي، فروح السمو التي نشدها انتهت به إلى أن يتسامى بنظرته عن الحيـاة ويستنكف عن معانيها المبتذلة، بحيث أضحت نظرة القرآن هي نظرته، وصار نور القرآن

هو المشكاة التي تستنير بها بصيرته، الأمر الذي جعله يقف من كثير من مسائل الحياة – التي يتبارى في احتيازها الناس العاديون– موقف الغفلة والإشاحة .

من الإنابة إلى الله ، إلى الاستغراق في ملكوت جماله

ولقد كان عناء النورسي في هذا المجال كبيرا لأنه كان يحمل بين جوانحه نفسا تتناغى مع الجمال .. فتمثله للذات العلية هو تمثل جمالي محض، إذ أن الكون وما انبنى عليه من عناصر مادية ومقومات غيبية ونواميس فطرية جميعا تعكس حقيقة الجمال الإلهي المطلق..

فرحمة الله في تجلياتها الطبيعية هي أحوال عارمة من الجمال الذي يأسر القلوب ويرقق المشاعر على أي وجه عَرَضَت للمخلوقات، فالرأفة التي تقرأها النفس – مثلا– في مشهد الرضيع ووالدته تغدقً عليه من صدرها فيض الحياة والمحبة، يعد مشهدا رائعا يجسد جمال الله الدافئ المشرب بكمال رأفته ورحمته، والذي لا حصر له..

والتوحيد الناتج عن التأمل واستشراف أعطاف هذا الملكوت الباهر، هو موقف روحي خالص الجمالية، لأن النفس فيه تناط بمواجهة الله، والتطلع إلى منبع الفيوض، والتخلي عن أثقال الواقع والتواصل مع الكلي..

" فالجمال والانتظام والانسجام دليل وحدانية وحجة قاطعة عليها". [١١٢]

وإذا كان التواصل مع الله هو تواصل مع الكلي والمطلق الذي تزول حياله كل معاني العلة والسببية، فلا جرم أن تجليات هذا الكلي في عالم الشهود هي تجليات لأسماء الله الحسنى، إذ أن تنوع مجالي الحسن وتلونها الذي لا يحد، هو انعكاس ملموس لجلال الألوهية وجمالها الذي تجسده أسماء الله وصفاته الحسنى من خلال تماهيها في الكون وظواهره البديعة ..

كل كائن هو قصيد شعري ونموذج جمالي رباني

"فكل كائن حي، نباتا كان أو حيوانا، فضلا عن الانسان، هو قصيدة صغيرة إلهية تحمل من المعاني العميقة الغزيرة، بحيث يطالعها ما لا يحد من ذوي الشعور بمتعة كاملة .. وهو لوحة تعلن عن حكمته تعالى، حيث تعرض إتقان الصانع الجليل في منتهى الجاذبية أمام أنظار من لا يحد من أهل التقدير والاستحسان" .[١١٣]

---

١١٢ الشعاعات.٣٦

١١٣ الشعاعات.١٧.

فالجمال في تصور النورسي هو مصدر كل جمال حسي، وإن آثار هذا الجمال الكلي هي المتبدية في مستويات الجمال الحسي التي يشهدها الإنسان في نفسه وفي ما حوله، ويُخْلَبُ بها..

فالكائنات الجميلة، هي مرايا صغيرة تتلقى أشعتها من العين العليا : ذات الله، التي هي أصل التجليات ومنبع الحسن في الوجود.

فـ"جميع أنواع الجمال المادي نابع من جمال معنوي لمعانيها، ومن حسن معنوي لحقائقها، أما حقائقها فتستفيض من الأسماء الإلهية، وهي نوع من ظلال تلك الأسماء" [114].

فالمصدر النهائي لأنواع جمال هذا الكون، إنما هو الذات الإلهية التي أشعت بسحرها من خلال أسماء الله الحسنى، تلك الأسماء التي تظل واسطة لهذا الجمال المطلق، تصبغه على الأرضي أو الكوني وتحمله إليه، ، فهي –من ثمة – مباينة له من حيث الكنهية، إذ لا يكون الصدى كالأصل في الوهج بطبيعة الحال :

"إن جميع أنواع الجمال الموجود في هذا الكون وجميع أنواع أنماطه وألوانه، إنما هو تجليات وإشارات وأمارات جمال مقدس عن القصور، ومجرد عن المادة، تتجلى من وراء عالم الغيب بواسطة أسماء . ولكن كما أن الذات المقدسة لا تشبه أبدا أية ذات أخرى ،وأن صفاته تعالى جليلة منزهة كليا عن صفات الممكنات، كذلك جماله المقدس أيضا لا يشبه جمال الممكنات، وليس كحسن المخلوقات قطعا، بل هو جمال سام، عال، رفيع، مقدس، مطلق ".[115]

ومما يؤكد فذاذة هذا الجمال الرباني المطلق، تواتر لوعة أهل العشق، ممن ظل تتيمهم محتدما – عبر العصور – بمحبة الله المتسامية عن التشخص، المنزهة عن التجسيدية، فصبابة هؤلاء صبابة روحية وإن تلبستها مشاعر الحس .. من هنا كان الاستدلال على أن النفس الانسانية في تعشقها لله، إنما تتعشق أكوانا من البهاء لا مثيل لها، فجمالية الله، لا مجال لمضاهاتها أو تمثُّلها بتاتا..

١١٤ الشعاعات.٨٨.

١١٥ الشعاعات ص.٨٩.

" إن وجود عشق إلهي شديد ومحبة ربانية قوية لدى من لا يحصيهم العد مـــن بـــني الإنسان، ولا سيما في طبقته العليا، على الرغم من اختلاف مسالكهم، يشير بالبداهة إلى جمال لا مثيل له يشهد له شهادة قاطعة..". [١١٦]

الجمال الإلهي وجمال المخلوقية

والجمال الإلهي سرمدي مصون، منـــزّه عن البذل، وجمال المخلوقية مبذول وظـــرفي ومتحول.. وتلك خصوصية مبدئية تنسجم مع المشيئة الإلهية التي قَدَّرَت أن تحكم بهـــا توازنات الوجود، فالمولى — عز وجل — قد خلق الموت والحياة، وجعل للأحوال أضدادا ومفارقات، وكل ذلك من أجل توطيد صبغة ما من الكمال على الكون، وهو ما يسوغ وجود عنصر الشر إلى جانب عنصر الخير، ووجود الملاك إلى جانب الشيطان، وكذلك نزعة الإيمان بالواحد إلى جانب نزعة الشرك به . إذ اقتضت الحكمة الإلهية أن يترتـــب الكون على منوال المفارقة من حيث أن المفارقة ذاتها هي مظهر حيوي يعكس الحكمـــة والجمال الإلهيين في هذا الوجود.. فالضد الموجب، هو الوجه الجمالي المجسد المستمد – من تلك الذات– قَوَامَ سِحْرِه .. أما الوجه السالب فهو وجه القبح، وهو الواقع تحـــت طائلة الفتنة والامتحان .. فطبيعة الحياة والموت نفسها إنما تقوم على مبـــدإ تجديـــدي، تتوطد به صبغة الجمال الإلهي التي أناط بها هذا الكون..

ذلك لأن " زوال الأشياء وفناءها – كما يرى النورسي – إنما هـــو تجديـــد لهـــا ولأمثالها، تجديد ممتع ملذ، تجديد للتجليات الجميلة، للأسماء الحسنى، ووظيفـــة يؤديهـــا ضمن سير وتجوال في عالم الشهادة، بعد مجيئها من عالم الغيب، وهو مظـــاهر حكيمـــة لجمال الربوبية . فالموجودات تؤدي به وظيفة المرآة إزاء الحسن السرمدي."[١١٧]

فكل نوع من أنواع الكائنات، بل حتى كل فرد من أفرادها قد نال حسب قابليتـــه حظا من جمال الأسماء الحسنى التي لا منتهى لجمالها..وهو ما تكرس به مبـــدأ العدالـــة الإلهية، بحيث أن الكائنات قاطبة قد تهيأ لها من قدرها الوجودي المقدار الذي لاءمهـــا وفق منطلق الكونية الرباني ..

وذلك ما دأب يؤكده أهل الاسشراف الروحي، إذ طفقوا يلحون على عدالة الخالق ونَصَفَتِه، وكونه قدَّر فأحسن التقدير، ووهب فأجاد الهبة وأحكم القسطاسية بشكل لا

١١٦ الشعاعات ص٩٣

١١٧ انظر الشعاعات ص٨٨

مراء فيه، وذلك ما أومأت إليه الآية الكريمة: (**فارجع البصر هل ترى من فطور**)..(الملك).

وربما كان في قول الغزالي حين قرر أنه " ليس في الامكان أبدع مما كان" ما يثيب هذه الحقيقة .. فقد فسر النورسي هذا القول بكون الحسن المطلق ليس موجودا ولا يمكن أن يوجد أبدع منه ولا أجمل، خارج دائرة ما خلق الله وأبدع في كونه المحس.. .[118].

الكون مرصد جمالي إلهي، خال من القبح

ولما كان الجمال الكوني يستمد كنهه من الخالق ومن أسراره القدسية، فقد عدم هذا الكون القبح، بل إن القبح الماثل في الكون لا يبلغ شناعته إلا حين يغدو شذوذا عن شرع الله وخروجا عن نهج الوحدانية..

لقد وجد العقل دليله على سمو جمال الله في أحوال العشق الخارق التي طفق المتبتلون وأهل الله يخصون بها معشوقهم الخالق، البارئ، سبحانه عز وجل..فـ"وجود عشق إلهي شديد، ومحبة ربانية قوية لدى من لا يحصيهم العد من بني الإنسان، لاسيما طبقته العليا، على الرغم من اختلاف مسالكهم، يشير بالبداهة إلى جمال لا مثيل له، بل يشهد له شهادة قاطعة" .[119]

لقد كانت رؤية النورسي للجمال رؤية استبشارية، اعتدلت بها نظرته إلى الحياة عامة، إذ لم تعد الحياة كما ألفناها عند جمهرة من متنسكي السلف، مدار حزن وكآبة ونواح.. لقد طفحت روح النورسي بمشاعر وهاجة ارتبط من خلالها بالكون، إذ رآه صعيدا ربيعيا فذا، عامرا بآثار الله النورانية، فهش للحياة، وتسامى بها، وأدرك أن السعي فيها انطلاقا من وصايا الشرع، سيسلك الإنسان في نطاق من التكريمية التي يستعيد بها مكانته الحق كمخلوق مكرم، مرشح لخلافة الله في أرضه، مهيء للخلود والسرمدية..

من هنا لا يمكن أن ندرج تواجدية النورسي بجمال الكون واللهج التسبيحي الصميم بتجليات الحسن الرباني ضمن نظرة التوله التي دأب أهل الوجدان يعربون عنها في صلتهم السكرى بالعاشق الفذ، كما لا يجب أن نعدها بعضا من الحال الانتشائية التي اعتدناها

---

١١٨ الشعاعات ص.٣٦.

١١٩ الشعاعات ص.٩٣.

عند أهل الشطح..إنما كانت تلك التواجدية اعرابا حيا، واعيا، ومؤسسا على عقل وإدراك حصيفين لما لمكونات هذا الكون من معنى يزكي وظيفة الحياة والمخلوقات..

لقد كان النورسي ربانيا مصلحا، لا يتحول بنظرته عن تعاليم القرآن التي تجعل من المسلم مسؤولا كونيا، مطالبا بالاضطلاع بوظيفة طلائعية مدنية، وبريادة انسانية حضارية، كونية .. من هنا طفق النورسي يتغنى بمآثر الكمال والجمال الكوني، موعزا للمسلمين أن يهشوا ويبشوا، ويعوا ما يكتنفهم من كمالات ربانية تحرضهم من خلال تجلياتها المختلفة على التفاؤل والاستبشار والتهيؤ والتوثب من أجل معاودة الدور، ومباشرة المهمة التي ترجوها الشريعة المحمدية منهم، بوصفهم الأمة الوسط، القوية بالحق، المستميتة بالايمان..

لقد كانت تبتلات النورسي المتوهجة بنور الخالق، المتهيجة بجلواته الفردوسية، دروسا يمليها على العقب، ليبتسموا للحياة، ويمارسوها بقلوب تتذوق الجمال، وتأخذ نصيبها من الدنيا، لا على أساس تمتعي استهلاكي، ولكن على أساس التزامي، جهادي، فعال..

من هنا تواشجت نوازعه التوحيدية والتواجدية، وبات المطمح المدني لديه قرينا بأحوال التهجد والابتهاج التي طفق يستجيب بها لكل لمسة حسن وغمزة افتتان رباني تلقي بها نسائم التأمل على قلبه المتيم بعشق الحقيقة..

كل ما خلق الله في أكوانه -حتى الشيطان- يمثل وجها من وجوه الخيرية والجمال

بل لقد رأى النورسي أن كل ما خلق الله في كونه وما عمر به هذا الكون من محسوسات، ومن معنويات، قد حوى مبدأ الخيرية والجمال، حتى الشيطان – وهو رمز لكل ما تتمثله نفوسنا من شر ومفاسد – لا يخلو مبدأ وجوده – كما يرى النورسي – من إيجابية .. ولعل الشيطان قد حاز ذلك القدر من الاعتبار المعنوي بما هيأ له من قابلية تهييج الدوافع وتحريك النوابض الأساسية لرقي البشر المعنوي و لتفعيل فطرة التسابق والمجاهدة التي تتصاف بها البشرية في طوابير البر أو الضلال .." لذلك فإن خَلْقَ نوع الشيطان خير، ويُعَدُّ من هذه الجهة جميلا .." [١٢٠]

١٢٠ الشعاعات.ص.٣٧.

فكل ما يمت للحياة، ويساهم في بلورتها، هو خير، بغض النظر عن طبيعته ووظيفته في هذا التفعيل الحياتي، من هنا أمكن للنورسي أن يقرر خيرية الوجود، وشرية العـــدم، فـــ"الوجود خير والعدم شر والمفاسد من العدم والخيرات من الوجود." [١٢١]

ذلك لإن " خلق الشياطين والشرور وإيجادها ليس شرا وليس قبيحا، لأنه متوجه نحو نتائج كلية وعظيمة، بل الشرور والقبائح الناتجة إنما هي حاصلة من سوء الاستعمال ومن الكسب الانساني الذي هو مباشرة خاصة، راجعة إلى الكسب الانساني، وليســـت إلى الخلق الإلهي". [١٢٢]

وواضح إن هذا الاعتقاد ينسجم مع أخلاقية النورسي الســـلمية، ومـــع الرؤيـــة الاستئلافية التي حرص على ترسيخها ربطا للانسان مع الطبيعة وسائر عناصر الكـــون، منظورها وخفيها، باعتبار الكون امتدادا اعتباريا ووسيلة ترشيد وسخرة تناط بها حيـــاة الانسان والمخلوقات قاطبة، وهي نظرة قرآنية، ظلت تشرك الانسان في المصير مع عوالم الغيب، ومنها الجماد (السماوات والأرض)، والروحانيات (الجن).. ...

ومما لاشك أن روح الإيمان حين تتعمق أغوار النفس وأقطارها، تكتسب هذا التأدب الذي يحجم عن أن ينتقص من صنعة الله .. فلا تقلل من شأن أي عنصر مما تحفـــل بـــه الحلبة المرئية وغير المرئية من مخلوقاته .. بما فيها الشيطان الذي نبذته الربوبيـــة ذاتهـــا، وجعلته عبرة للبشر كي لا يزيغوا عن الهدى .. ثم إن العقل المترعرع في رحاب الإيمان يتفتح على حقائق تتقدر بها المعطيات الكونية المادية والمعنوية بقيمة لا تراها لها العقـــول العطل من الإيمان.. من هنا أضفت الرؤية النورسية صفة الجمال على الكـــون وعوالمـــه قاطبة..

فالله هو مصدر الجمال والخير وسائر أنواع البر والحسن والنعم، إذ هي جميعا فضائل تنسكب من " الخزينة الربانية، ومن فيوض رحمة ذلك الجميل المطلق والرحيم المطلـــق.. أما المصائب والشرور فهي نتائج جزئية، قليلة، فردية، من بين كثير من النتائج المترتبـــة على قوانينه العامة والكلية .."[١٢٣].

١٢١ أنظر الشعاعات ص٩٤.
١٢٢ المكتوبات ص.٥٢.
١٢٣ الشعاعات ص٣٨

خلق الله الشر ليطّرد القانون الحيوي الناتج عن تفاعل عوامل السلب والإيجاب

لقد بَـيَّنَ النورسي العلة من خلق – المولى عز وجل – لعناصر الشـر، فـرأى أن ذلك مرتبط بسيرورة قوانين الفطرة المحركة بمشيئة الله لهذا الكون ومشمولاته ، وهو ما اقتضى أن تتناغم في تأدية الوظيفة الحيوية الكونية عوامل السلب وعوامـل الإيجـاب، فـ"لأجل الحفاظ على تلك القوانين ورعايتها والتي هي مبعث المصالح الكلية ومـدارها يخلق – سبحانه – تلك النتائج الجزئية ذات الشرور، ولكن تجاه تلك النتـائج الجزئيـة الأليمة يستغيث ويستنجد الأفراد الذين ابتلوا بالمصائب والذين نزلت بهم البلايا فيمدهم بإمداداته الخاصة الرحمانية .. فيظهر بهذا أنه الفاعل المختار، وأن كل شأن وثيق الصـلة بمشيئته تعالى، وأن قوانينه العامة أيضا تابعة دائما لإرادته واختياره، وأن ربا رحيما يسمع نداء الذين يعانون من ضيق تلك القوانين، فيغيثهم ويمدهم بإحسانه عليهم .."[١٢٤].

هكذا يرى النورسي في مظاهر الشر وجها لنوطة يكتمل بها النسيج الملحمي الذي تشَكَّلَ منه الوجودُ، إذ شاءت القدرةُ الإلهية أن يتأدى سير الحياة على إيقاع تتراوحـه لمسات الخير والشر..

الجمال خاصية عضوية أودعها الله بذرة الكائن

وتتجلى قدرة الله كما تستجليها رؤية النورسي في هذا التصميم الإلهي الفائق الذي قَـدَّ به – عز وجل – الكائنات الحية، إذ أودع في مباذرها الأولى جمـاع كينونتهـا، ورسم صورها، وحدد مصائرها وانبثاقاتها.." إن البذرة التي هي المبدأ الأسـاس لكـل شجرة مثمرة، هي علبية صغيرة تحمل برنامج تلك الشجرة وفهرستها وخطة عملهـا، وهي مصنع صغير تضم أجهزتها ولوازمها وتشكيلاتها، وهي ماكنة تحوي على تنظيماتها ووارداتها الدقيقة ومستهلكاتها اللطيفة"..[١٢٥].

ومن الجلي أن نظرة النورسي هنا تتقاطع مع نظرة بعض أسلافه من السـالكين، لا سيما ابن عربي.. فقد وجدنا يقول بذات التصور التكويني الذي أودعه الله فطـرة في الأشياء والمخلوقات .. إذ غدت –من خلال وازع الاستعداد– تستجيب لقوانين الكون

---

١٢٤ الشعاعات.٣٨

١٢٥ الشعاعات.٤٠

والطبيعة، من حيث أن تلك القوانين هي السنن الرباني الذي أحال الله عليهـــا حركـــة المخلوقات وسيرورتها، فهي من ثمة تمضي بها في كنف قدرته كما وطدها..

يقول ابن عربي:

"إنك تعلم قطعا في حبوب البُر وأمثاله أن كل برة فيها من الحقائق ما في أختها كما تعلم أيضا أن هذه الحبة ليست عين هذه الحبة الأخرى وإن كانتا تحتويان على حقـــائق متماثلة، فإنهما مثلان، فابحث عن هذه الحقيقة التي تجعلك تفرق بين هاتين الحبتين وتقول إن هذه ليست عين هذه، وهذا سار في جميع المتماثلات من حيث ما تماثلوا به. كذلك الأسماء كل اسم جامع لما جمعت الأسماء من الحقائق، ثم تعلم على القطع إن هذا الاسم ليس هو هذا الآخر بتلك اللطيفة التي بها فرقت بين حبوب البر وكل متماثل، فابحث عن هذا المعنى حتى تعرفه بالذكر لا بالفكر .. إن كل اسم كما قررنا يجمع حقـــائق الاسمـــاء ويحتوي عليها مع وجود اللطيفة التي وقع لك التمييز بها بين المثلين ..". [126]

كما وجدنا ابن عربي، يتحدث أيضا عن تبعية الموجودات في هذا الكـــون لأسمـــاء الله الحسنى، وخضوع حركتها لما تقتضيه إرادة الخالق المتجسدة فيها من خلال أسمائه الحسنى .. يقول ابن عربي :

إن الأسماء الحسنى التي تبلغ فوق أسماء الإحصاء عددا وتنزل دون أسماء الإحصاء سعادة ،هي المؤثرة في هذا العالم وهي المفاتح الأولى التي لا يعلمها إلا هو، وإن لكل حقيقة اسمـــا يخصها من الأسماء، وأعني بالحقيقة حقيقة تجمع جنسا من الحقائق.. [127]

من هنا لاغرابة أن يمضي النورسي على ذات النهج الاستشرافي والتذوقي الذي باشر به أقطاب من هذه الأمة معاني الكون وخاصية الجمال الإلهي.. على أن مسار النورسي في هذا الطريق قد امتاز عن سابقيه في كثير من التسديدات بتسلح معرفي وتفتح فكري وانخراط لبيب في معركة المصير الإسلامي المناط بإرادة البشر الذين تسددهم إرادة الله .. الأمر الذي جعل النورسي نموذجا اسلاميا لا يحتازه العصر الذي عاش فيه، ولكنه سيلبث واجهة تتحاور مع الأجيال ما تقدمت الدهور.. ألم نجده يتخاطب مع أجيـــال القابـــل المسلمة ممن ستقف على قبره وترى فيه دعامة مستقبلية دائمة الوهج..

---

١٢٦ الفتوحات المكية ج١.ص ١٠١ دار صادر.بيروت.
١٢٧ م.ن. ص ٩٩

أكرم الله الإنسان ،وجعله رأس هرم التزكية، وسخر له الكون والكائنات بما فيها ذوات الحيوات

لقد خلق الله الإنسان وأكرمه بما أصبغ عليه من نعمة العقل، وبما أغدق عليه من ألوان النعم التي وضعها في متناوله.. وسخّر له الكون وما حوى، وجعل روحه الأطهر والأزكى والأقمن بالتفدية والصيانة، واتخذ الحياة مشهدا اختارته إرادته العلية ليكون مسرحا لتعاليمه وموئلا لرسالاته ومجال سعى لمخلوقاته ..

كل ذلك منحة للانسان الذي سخر له كل ذات الأرواح من غير البشر، خدمة ومعاشا ..فـ"ما دامت الحياة أعظم نتيجة من الكون، والروح هي الخلاصة المختارة من الحياة، وأولو المشاعر وجميع الكائنات بدورها مسخرة وساعية لأجل الحياة، وذوو الحياة مسخرون لذوي الأرواح، وقد بعثوا إلى الدنيا لأجلهم، وذوو الأرواح مسخرون للإنسان وفي عونه دائما، والناس يحبون خالقهم محبة خالصة بفطرتهم، وخالقهم يحبهم ويحبب نفسه إليهم بكل وسيلة، واستعداد الانسان وأجهزته المعنوية تتطلع إلى عالم آخر باق وإلى حياة أخرى أبدية، وإن قلبه وشعوره ليطلبان البقاء ويتوقان إليه، وإن لسانه ليتوسل إلى خالقه بأدعية غير محدودة طالبا البقاء، فلا يمكن مطلقا إغضاب الناس المحبين المحبوبين وإسخاطهم بعداوة أبدية بعدم بعثهم بعد إماتتهم، وهم قد خلقوا أصلا لمحبة خالدة، وأرسلوا إلى هذه الدنيا بحكمة لنيل عيش سعيد في عالم أبدي آخر". [١٢٨]

لقد شكل التواجد الروحي – عند النورسي – مظهرا من مظاهر دفع شعور الفناء والعدمية.. إذ لبثت مواقف التأمل الاعتباري والاحتساب الإيماني تلازمه في كل توجه روحي يصله بالخالق، ومضت الأحاسيس تتهجد بالاستغاثات الربانية المبددة للكآبة والوجل وبالاستعاذات المُخَلِّصة من وطأة اليأس المقيت..فكان من جراء ذلك أن تولدت أدبية روحية نيرة تسلس بنكهة الأذكار التي هي خاصية تميزت بها الخطب الصوفية المرموقة : ".. حسبي من الحياة ولذتها علمي وإذعاني وشعوري وإيماني بأني عبده ومصنوعه ومخلوقه وفقيره ومحتاج إليه، وهو خالقي، رحيم بي، كريم، لطيف، منعم علي، يربيني كما يليق بي ". [١٢٩]

وذاك ما سنعرف شيئا منه في تالي الفصول..

---

١٢٨ الشعاعات ص. ٦٢

١٢٩ الشعاعات ص٩٩.

الفصل الخامس

التصوف في فكر النورسي

"لأسماء الله تجليات لا تحصر، وتنوع الموجودات ناتج عن تنوع تلـــك الأسمـــاء .. للاسماء ظهور، أي إنها تقتضي مشاهدة تجليات جمالها في مرايا نقوشها وأشهادها، بمعـــنى أن تلك الأسماء تقضي بتجدد كتاب الكون، أي تجدد الموجودات آنا فآنا، باســـتمرار دون توقف، أي إن تلك الأسماء تقتضي كتابة الموجودات مجـــددا وببلاغـــة حكيمـــة ومغزى دقيق بحيث يُظهر كل مكتوب نفسه أمام نظر الخالق جل وعلا ,امـــام أنظـــار المطالعين من الموجودات المالكة للشعور ويدفعهم لقراءته.".

"أيها السادة إني أعلم أنكم عندما تُغلبون في ميدان الحق تتشبثون بالقوة، ولكـــن لأن القوة في الحق وليس الحق في القوة، فلو جعلتم الدنيا على رأسي نارا تتأجج فإن هذا الرأس الذي أضحي به فداء للحقيقة القرآنية لا يخضع لكم أبدا".

التأمل، العتبة التي تعبرها الروح إلى أفق الغيب

يرى النورسي أن الإنسان يحمل في أعماقه نزعة التأمل والسياحة الوجدانية التي تربط الفرد ببعده الغيبي وهو الله.. فهذه النزعة الإيمانية فطرية في الانسان، وهي لذلك ظلت – وعلى مدي الدهور – تتلبس النفس الانسانية وتخامرها في صـــورة قلـــق أو حـــيرة وجودية أو شعور بالضياع والتوق إلى مساند تركن إليها الروح وتستقر.. لقد تعمقت الحاسة الإيمانية لدى المتحنفين، فترسموا خطاهم على هدي نداء الروح الباطن، واستقرأوا معالم الكون وآياته المحسات، فاستشرفوا الحقيقة الإلهية مصدر هذا الكون، وثابوا مـــن

رحلة التيه والشرود إلى رحاب الهداية والسكينة، إذ آمنوا بالله خالق الوجود، وسعدوا بالركون إليه وإخلاص المعبودية له.

وجاءت الرسالات ترسم للإنسان منذ آدم، طريقه في الحياة وصلته بالخالق، وتحدد له الغاية من مجيئه إلى هذا الكون والرسالة المناطة به في دنياه، والمصير الذي ينتظره يوم يقوم الناس لرب العالمين..

وإذا كانت طبيعة الإنسان، طبيعة تأملية – كما أسلفنا – فذلك لأنه مخلوق محدود الأفق يعيش بين عوالم لا يستطيع أن يخترق حجبها، ولا أن يدرك مداها، فهو كلما تدبر نفسه وسط هذه الفضاءات اللامحدودة، تيقن من ضعفه ومن لا جدوى ما يأتيه وما يسعى إلى تحقيقه من مكاسب زائلة ومبتغيات لا تدوم..

ومن غير شك أن الإنسانية تجد في ما أنجزت وتنجز من مدنيات، شيئا من السلوى والعزاء، وهو ما يجعلها تواصل المسيرة، وتبدي مزيدا من الإصرار على الحياة والتعلق بها، بيد أن هاجس المجهول ووطأة الفناء لا تبرحان تلحان على الضمير الانساني وتنغصان حبوره وتكدران بهجته، جراء المصير غير اليقيني، بل العدمي الذي قد يتبدى له أنه هو منطق هذا الكون وقانون هذا الوجود..

من هنا كانت أهمية الإيمان، إذ التسليم بأن الحياة ما هي إلا طورا أراده الله للمخلوقات كي تعيش وتؤدي وظيفة فيها صلاحها وصلاح الكون من حولها ، وأن الآخرة طور آخر ستتشمل فيه السرمدية عباد الله بألطافها ونعمائها لقاء ما قدموا من عمل ومبرة، هو ما يهب الطمأنينة الوجودية للإنسان ويحميه من مخاوفه الغريزية، ويسمو به عن درك الابتئاس الوهمي، والرؤية الانسدادية..

ولا يعني هذا أن بلسم الدين هو افتعال روحي اهتدى إليه الانسان جراء معاناة أزلية، فتداوى به، وقرره حمْيَةً لمنغصاته وابتلاءاته الوجودية. إذ من الثابت أن الانسان تعاطى الفلسفة منذ أن وعيَ أهمية الفكر والتفكير، وسعى من خلالها إلى تفسير الوجود والإجابة عن الحيرة البشرية، وإطفاء لواعج القنوط الوجودي، إلا أنه وعلى الرغم مما نوع من أصباغ منطقية وافتراضية ما برح يستبين في منجزاته العقلية واجتهاداته الميتافيزيقية طبيعة التمحل والإفتعال التي تطعن في وجاهة ما اعتقد، وصواب ما اعتنق ..

فلقد دأب العقل الانساني يستكشف الإختلالات في فرضياته الفكريـــة وتصـــوراته الذهنية على مر العصور، من هنا كان قلقه وعدم استقراره على مبدإ بعينه، ومن هنـــا أيضا أخطأ بلوغ اليقين، ولم يعد في وسعه إلا أن يركن إلى الحيرة يلوكها ..

إذ لم يعد يجد في كل ما أصل وفصل من عقائد سوى إجابات مشروطة برؤية محددة وأفق مغلق، ما أسرع ما يتكشف عوارها، كلما تبدل الظرف، أو تغير الشرط، أو شملها التقادم والبلى..

ومن رأفة الله ورحمته أن هيأ الدين لعباده، وأعدهم بالفطرة لتقبلـــه والســـير علـــى منهاجه ومغالبة النفس والأهواء بتوجيهاته.. إذ قايست مقررات الســـماء حاجـــات الفطرة، وأرست للانسان دعائم روحية وعقلية تتوازن بها حياته ومطالبه وتتحرر نفسه ومواجده من ضغوط الفكر الشارد عن الحقيقة الإلهية، وتنعتق روحه من نير الضياع..

النورسي متصوف، لكنه مباين لمعشر المتصوفة في تجربته ونهج سلوكه

التجربة المعيشة بوجدانين

لابد من التأكيد- في هذا الصدد - أن الفارق بينه وبين طوائف المتصوفة، شاســـع جدا، إذ أن الغفلة التي يطلبونها وينغمسون فيها، على صعيد السلوك، كانت تتم غالبـــا على حساب الوعي بكينونة الأمة الإسلامية وبمصيرها.. بمعنى أن السالك كـــان يجهـــد لنفسه في اغتنام الأسرار واللذاذات، وفي توسيع المرصود الشخصـــي مـــن اللطـــائف والسوانح، إذ غايته الأسمى هي تحقيق النجاة والحظوة للنفس حصرا..

أما النورسي فإن روحه التي استماتت في التجرد وطلب التواصل مع الله، قد ظلـــت متشابكة مع واقع أمته، منغرزة في همومها وفي ما يكتنفها من أوضاع التأخر والحيدة عن طريق الحق، وفي ما يتراوحها من ابتلاءات وامتحانات على يد الأعداء.. الأمر الـــذي جعل مواجده بقدر ما ترهفت وانساقت في سبيل التجرد والانصياع التام لالتزامات الحق، بقدر ما تقمصت محن أمتها وتعاستها وترديها.. وكل ذلك جعل النورسي يحـــي بوجدانين متلازمين، وجدان تحركه محبته لله التي كان ديدنها المطرد أن تـــتمحض لـــه، وتصفو، بحيث تتسامى عن رجاء أدنى هدف أو حظوة إلا هدف الإنصياع لتعاليم الله

.. ووجدان آخر موصول بواقع الأمة الإسلامية، ومبتلى بمحنها وبما كانت عليه من أوضاع زرية ..

من هنا كان تجديده الذي لا مراء فيه، على المستوى الروحي والتصوفي..

فالنورسي عاش سالكا طريقة هي جماعٌ لفضائل نافعة وبناءة، استذاقها في سائر الطرق التي زخر بها التراث، واحتك بها في بحثه ودرسه، لكنه عمل بما يشبه أن يكون غريزة تسديد كامنة في روحه وفكره، على استزراع الخصال التي لا تقطع السالك بالواقع، ولا تركز في مشاعره تلك العزة الذاتية التي تعطي الأولية للنفس وتجعلها الغاية التي يهون الابتلاء من أجلها، وهي-في الواقع – روح لا تسلم من وازع أناني وأن سوغته – عند الكثير من السالكين – رؤية تستجمع الكون في ذات الله، أو تتغافل عن عناصر الوجود شغفا بفذاذة الشهودية..

فالنورسي حافظ وبتوازن شاق ومثالي ،على استبقاء الحجاب مسدولا بينه وبين الحاجة أو – بالأحرى – بينه وبين لوازم كثير من الأسباب الحيوية والحياتية التي تقتضيها فطرة الفرد وبشريته، لاسيما على صعيد الاجتماع والمقتضيات التواضعية، ولقد بلغ في هذا الصدد الغاية، إذ لم ينعم بالقرين الزوجي و لم يسكن العش الأسروي الدافيء، و لم يرتبط بالمؤسسات العرفية الحميمية، فهو لم يمتلك العقار أو حتى الدار، و لم يحرص على ترك العقب، ذلك الوازع الوجودي الذي لا فكاك للفرد – ذكرا أو أنثى – من الاستجابة إليه إلا إذا حال العائق الخَلْقِي القاهر دونه . كما لم تستثره المكانة والمترلة بين الناس..

في حين نجده قد شرَّع أجنحة روحه اهتماما بأحوال أمته على أكمل ما يكون التفتح، بل لقد ربط وجوده بخدمة أمته والتفاني في استنقاذها من الدرك الانحطاطي المقيت، بل لقد امتدت آفاق نفسه ومطامحها لأن يخدم الانسانية قاطبة، فلقد كانت رؤيته القرآنية تحتفظ للانسان بمترلة التكريم الإلهي الذي خص به المخلوق البشري، مهما كانت حيدة هذا المخلوق عن الجادة ..

ذلك لأن النورسي كان يعي أن محبة الانسانية والحدب عليها لا يتنافى بتاتا مع الحرص على تهذيبها واستشناع ما يتلبسها من أحوال الزيغ والمروق عن شرعة صاحب الملكوت ..

بل لقد كان قلبه يمور بمحبة شاملة استوعبت مخلوقات الله، عجماوات وجمادات، فاستفاض معينه عاطفة رأفة وشفقة عليها جميعا، وباتت تمثل لناظره شواهد على قدرة وجمال الكون الذي هو من جمال الله وجلاء مثالي لأسمائه الحسنى.. لقد كانت نوازع النورسي الخيرية أثرا مباشرا لتلك الرحمة والقدسية التي عاين بها الكون، واستشعر فيها يد الله التي أبدعت كل شيء ولم تحرم أي عنصر من عناصر الكون من مسحة خير وجمال يستوجب التسبيح والامتنان..

وربما عمق من آلامه ما كان يراه من تيه وعماية عن الحق يقعدان بالأمة عن أن تسلك طريق العز والانبعاث..

لقد كان حسه الذي صقلته الترويضات الروحية الإرادية المتصاعدة، يعي الواقع المنحط الذي آلت إليه أمة الإسلام، فكانت – من ثمة – همومه تتفاقم، لكن الثقة بالله كانت لا تزايله رغم عوارض اليأس والقنوط التي كانت تكدر بواطنه أحيانا.. لقد كان الوجدان ينبض بمحبة الله وبالغيرة على دينه وكان ينيط نصرة الأمة به، وهو ما جعل الروح لا تنفصم بين الوازعين : وازع التفاؤل الإيماني الراسخ، ووازع التشاؤم العارض..

فالاهتمام والاغتمام لدين الله وللمصير المنتكس الذي آل إليه أمر المسلمين لا يناقض أبدا احتدام مشاعر الشوق إلى ذات الله والفناء في محبته، لا سيما حين تغدو هذه المحبة خالصة، لا تحركها رهانات ذاتية، إستئجارية..

الإيمان مهمة ثابتة تقتضي التعهد.. والذكر وقودها

على أن الإيمان يقتضي أن تُتَعَهَّدَ جذوتُه وأن يُحاط بيقظة لا تلابس الروح معها غفلة أو فتور.. فترغات الشيطان تترصد المؤمنين لتَنقضَّ عليهم، وتشغل قلوبهم عن ذكر الله ..

من هنا وجب التحوط للمباغتات، والتسلح ضد همزات الشيطان، ومراقبة النفس حتى لا تقع في الاحباط..

ولقد أخذت صلة الرقابة الذاتية التي يمارسها الفرد على نفسه صورا مختلفة أهمها وأكثرها شيوعا إلتزامه بالذكر، واستحضار إسم الله في نفسه وملء قلبه به، فبتلك الكيفية – كما يقول النورسي – ظل الإنسان المؤمن يستحصل ما لا يحصى من الراحة

القلبية والطمانينة النفسية، اطردت بها أيامه على إيقاع الإيمان والوثوق بأنه على موعد مع الحسنى الإلهية..

وبما أن الإنسان هو جماع هذا الكون، إذ هو – بحسب النورسي – يحمل في قلبه ودماغه قدرة تحسسية، تجعله على صلة بما يحوطه من أكوان . من هنا غدا الانسان محورا لما في الكون من حقائق لا تحد، ومظهرا لها، بل ونواتها الحق ". [١٣٠]

والواقع أن مركزية الانسان هذه، هي مسؤولية والتزام، ليس حيال نفسه فقط، ولكن حيال الكائنات في رمتها، لذا كان من قَدَر الإنسان، بل ومن شرفه أن يضطلع بواجبات مادية وأخرى روحية يتجسد فيها ذلك الإلتزام، وتتأدى بها تلك المسؤولية..

وإذا كان مستقبل الانسان، بل ومستقبل البسيطة برمتها، ومصير الكائنات البرية والبحرية فضلا عن العوالم المحيطة بنا، مناطا بسلوك وسيرة الإنسان نفسه، وبمدى محافظته على هذه العوالم والأكوان، وتثميرها التثمير المتزن، النابع من روح تستبطن حمد الله وتعترف بالأفضال المترادفة التي هيأها الله لعباده لتكون لهم نعيما وارتفاقا في هذه الحياة، فإن من مظاهر الخلوص لله في المعبودية، ملازمة ذكر الله وشكره على مكارمه التي حفَّ بها العباد وعلى مبراته بهم وبالمخلوقات جميعا..

من هنا كان قلب الانسان هو مثابة الطهر التي ترتفع منها الدعوات والتسبيحات والضراعات لله على صورة حافلة ودائمة.. إذ كلما تطيبت جارحة القلب بشهد الخلوص، كلما سمت الوظيفة التوسُّلية التي تنهض بها تلك الجارحة حيال بارئها لفائدتها وفائدة المخلوقات العجماء..

ذلك أن أعظم وظيفة يؤديها القلب الانساني – كما يقرر النورسي – هو الانشغال بذكر الله والتعلق به والتوجه إلى الحقائق الإيمانية، عبر مراتب الولاية، ضمن طريق السالكين. [١٣١]

ومن الواضح أن دلالة الولاية هنا، إنما توعز بحقيقة الدور الكلي للإنسان المؤمن في هذا الوجود ، وبالوصاية أو المسؤولية الكونية التي تنيطها روح الإسلام بزمرة الصالحين، إذ أن صلاحهم لا يتوطد ولا يبلغ تمامه إلا إذا رادف معني الإصلاح ومواجهة الحيف

١٣٠ المكتوبات ص.٥٧١ .

١٣١ المكتوبات ص .٥٧٢.

المادي والمعنوي، سواء ما تعلق منه بالكائنات العاقلة أو غير العاقلة.. وذلك لعمري هو ما جسدته سير الأبرار الأتقياء ومنهم النورسي..

غاية الطريقة اكتساب المعرفة النورانية،المتعمقة بالحقائق الإيمانية

وإذا كانت مداومة الذكر والمواظبة على التأمل وانتهاج الطريقة السلوكية تضمن لبعض الأرواح سكينتها، وتبعد عنها عناء الحيرة والخوف من المجهول، فإن غاية الطريقة وهدفها – كما يرى النورسي – هو اكتساب المعرفة النورانية التي يطبق بها أهل الله على الظلمة وتبددها ..

إذ السلوك عند النورسي ليس مجرد حال تتقمصها النفس وتتغيب بها عن الواقع الحسي الغليظ الذي يكتنفها، بل السلوك هو ترقٍّ قلبي ووجداني، وتجربة روحية مضمارها الورع النفسي والجلاء الذهني، ومناطها الحيوية العقلية المتمرسة بمقررات الشرع، والملابسة لروحه ومقاصده ..

فالسلوك من هنا – كما يرى النورسي – بات معرفة تتعمق بالحقائق الإيمانية والقرآنية، وسبيلا تُنال به الكمالات الروحانية، ومرقى تتعالى فيه الروح إلى العلياء " في ظل المعراج الأحمدي، وتحت رايته، بخطوات القلب، وصولا إلى حالة وجدانية وذوقية بما يشبه الشهود، من هنا كانت الطريقة وسلوك نهج التصوف، سرا إنسانيا رفيعا، وكمالا بشريا ساميا ". [١٣٢]

الطريقة والولاية والشريعة والبرهان

يرى النورسي أن الطريقة تترابط بالشريعة من حيث إن الأولى (الطريقة) لا تجد سندها وارتكازها إلا إذا استوعبتها الثانية (الشريعة). إذ لا يتحقق كشف ولا حظوة لمن يروم لقاء الله من غير سبيل الشريعة وتقمص روح الفرائض ..

فما قررته الشريعة من حقائق الأحكام، ينبغي أن يجد تطبيقه وتمثله في سلوك العبد وفي انصياعه القلبي والعملي لله..

من هنا كانت الطريقة احدى خزانات العقيدة الاسلامية، التي يستمد الروحانيون منها طاقتهم الباطنية ومددهم المعنوي.. والتي بفضلها تلتحم الروابط بين الأفراد والجماعات، لتنعكس – من ثمة – آثار ذلك التلاحم على الحياة الاجتماعية والمدنية، وتتجسد في صور

---

١٣٢ المكتوبات ص . ٥٧١

ومظاهر بناءة تعود بالجدوى على الفرد بفضل انخراطه في السلوك، وانتسابه إلى زمرة الصلاح : رواد الحضرة..

الطريقة تنظيم اجتماعي وتأطيري فاعل في حياة المسلمين

ومن غير ما شك أن دور الطريقة الاجتماعي والتأطيري كان عظيما في مراحل حاسمة من تاريخ المسلمين، بغض النظر عما عرا بعض جوانبه من ضعف، أو ما آلت إليه مواقف بعض الطرق أحيانا من سلبية إزاء أنواع الترديات والانخذالات التي واجهت الأمة وأعاقتها عن السير..

بل وحتى إزاء التصدي للعدوان الصليبي ومقاومة تغلغلاته، إما لجهل بمخاطره، و إما لأن واقعها الهش نفسه كان يفرض عليها أن تمادن العدوان وتفاعله بخضوع ومصانعة، بعد اتعاظها بمصير الحركات التي هبت لمغالبته وإعلان الثورة عليه، إذ لم يلحق تلك الحركات إلا الهزيمة والاندحار، كما حدث لثورة الأمير عبد القادر الجزائري في القرن التاسع عشر – وكان هو ذاته ابن طريقة – أو كما حدث لكثير من الثورات الشعبية التي قادتها الطريقة، وتصدت لمقاومة المستعمر سواء في الجزائر أو في ليبيا أو في السودان ..أو غيرها من أقطار الاسلام، خلال القرنين الماضي أو الراهن، إذ كان الفشل لها جميعا بالمرصاد، بسبب طغيان العدو وقوته من جهة، ونتيجة تفكك المقاومة الشعبية وضعفها من جهة مقابلة..

النورسي ينتصر للطريقة، إذ يرى فيها مددا استراتيجيا يفيد في معركة المرابطة والصمود الروحيين ضد اجتياحات الغرب المادي..

وعلى الرغم مما قد يقال على الطريقة ودورها التاريخي في المجتمعات الاسلامية، فإن النورسي ينتصر لها ويرفض ما يصدره البعض من أحكام في حقها، وما ييستهدفونها به من طعن وتعطيل..

لقد نظر النورسي – في موقفه الدفاعي هذا – إلى الطريقة من منطلق اسلامي استراتيجي، إذ أدرك ما لها من وظيفة أخلاقية مؤثرة وإسهام روحي فعال في تعضيد التوجه الإسلامي المعاصر،.. هذا التوجه الذي يتم ضمن تحولات اجتماعية وتثاقفية عالمية، نزعتها العدائية تتقوى باستمرار وتتداعى لتكون حربا على الاسلام، إذ أن القوى المهاجمة هي سائر قوى الشر وجحافلها من ماديين وملاحدة وصهيونيين حاقدين.. ممن ناصبوا الاسلام العداء، وترصدوا قيمه ومقوماته بالكيد والتشويه ..

وكانت الطرقية من أهم الجبهات الاسلامية التي تعرضت للسهام ورميت بكل سوء، وانتهى بها الأمر إلى حد أن باتت جهات من أهل الإسلام نفسه تهاجمها وتصمها بأنواع الاتهامات..

وذلك ما لاحظه النورسي، في معرض مدافعته عن الطريقة، والحض على انصافها والاعتراف لها بالقدر الجليل الذي تنهض به في خدمة الاسلام والمسلمين..

يتحدث النورسي عن الجهات التي تضاد الطريقة من أهل الإسلام ، فيقول:

"مما يؤسف له بالغ الأسف أن عددا من علماء أهل السنة والجماعة الذين يحكمون على الظاهر، وقسما من أهل السياسة الغافلين المنسوبين إلى أهل السنة والجماعة، يسعون لإيصاد أبواب تلك الخزينة العظمى، خزينة الولاية والطريقة، متذرعين بما يرونه من أخطاء قسم من أهل الطريقة وسوء تصرفاتهم، بل يبذلون جهدهم لهدمها وتدميرها وتجفيف ذلك النبع الفياض بالكوثر، الباعث على الحياة . علما أنه يندر أن يوجد في الأشياء أو في المناهج أو المسالك ما هو مبرأ من النقص والقصور، وأن تكون جوانبه كلها حسنة، صالحة. فلابد من حدوث نقص وسوء تصرف، إذا ما دخل أمرا ممن ليسوا من أهله إلا أساؤا إليه، ولكن الله تعالى يظهر عدالته الربانية، فمن رجحت حسناته وثقلت، فله الثواب الحسن وتقبل أعماله، ومن رجحت سيئاته وخفت حسناته فله العقاب وترد أعماله" . [١٣٣]

فالنورسي هنا لا ينفي النقص عن أهل الطريقة، ولكنه يثبت قيمتها الفعالة على الرغم مما يشوبها كثقافة واجتهادات روحية، من قصور أو ضعف، يجسده بعض الأتباع .. إن دفاع النورسي عن الطريقة، دفاع عن المبدإ، إذ يرى أن الطريقة منهج روحي تكيفت به الثقافة الاسلامية من أجل الصمود وديمومة قيمها، ولذلك فهو لا يطعن في قيمة الدور الذي تضطلع به، بالرغم من وجود سلبيات لا تعود إلى المنطلق الروحي للطريقة، ولكنها ترجع إلى سلوك الأفراد أو اجتهاداتهم غير الموفقة ..

فالفكرة الهدمية لا يؤمن بها النورسي، ولكنه يؤمن بضرورة الحفاظ على القائم، والمتوفر، وإصلاح نواقصه، وتلك رؤية رشيدة، بالنظر إلى التفاقم الأهوج الذي كانت العقيدة الاسلامية تتعرض له في تلك الفترة خاصة.. فتدبير الخصوم، كان يسدد سهامه نحو هذه الجوانب الروحية والتنظيمية التي توارثتها الأمة واتخذتها درعا على مر العصور،

---

١٣٣ المكتوبات ص.٥٧٣

لأن أولئك الخصوم كانوا يدركون أن تقويض الصرح لابد وأن يبدأ بتقـــويض أركانـــه ودعائمه..

من هنا وجدنا تقويمات النورسي الشرعية تأخذ بالحسبان واقع التآكـــل الارتـــدادي، الذي آذنت به قوى النكوص الآثمة، وهو ما كان يستوجب على الحكماء والمصلحين، أن يتحروا الرشد إزاءه، وينظروا إلى العواقب في تقويمهم للأمر وتقدير آثاره، لذلك جـــاءت نظرة النورسي حتى تهون من شر العصاة، قياسا بآفة المروق الـــتي كانـــت تستشـــري في الأوساط، بما كان يُرَوَّجُ لها من أفكار وحجج ومغريات.. إنها في الواقع فتوى تأخذ بمبـــدإ أخف الضررين، وتضع في اعتبارها المآل الذي يلحق بالأمة إن هي سدت الباب في وجـــه أهل التقصير، إذ أن ذلك الموقف الصدي، سوف يقصي عن الحظيرة أوساطا بكاملهـــا، لا سيما الشباب .. وهو ما راعته الفتوى النورسية، إذا استبقت الرابطة قائمة بين الفئات، و لم تتهور بقطع الصلة بين المخلين بالواجبات الشرعية وبين الملتزمين، مظهرة حسن الرجـــاء، مقدمة الحسنى.

وحتى يبرهن النورسي على صواب نظرته في هذا الصدد، راح يوازن بين انحراف بعض الطرقيين، وبين مروق أهل الضلالة ممن يجاهرون بكفرهم، لينتهي إلى أن الطرقي حـــتى في إخلاله بالواجبات لا يكون كافرا، وإنما تظل روحه مؤمنة، ولكنها لم تتوفق للالتزام فقط، من هنا لا يعد المقصر عاصيا، وليس كافرا كشأن الملحدين والزناديق ومن يضادون العقيدة ..

"إن أي منتسب اعتيادي مخلص من أهل الطريقة يحافظ على نفسه أكثر من أي مـــدع كان للعلم، إذ ينقذ إيمانه بما حصل عليه من الذوق الروحي في الطريقة وبما يحمله من حب تجاه الأولياء، فحتى بارتكابه الكبائر لا يكون كافرا، وإنما يكون فاسقا، إذ لا يلج صفوف الزندقة بيسر، وليست هناك قوة تستطيع أن تخرج ما ارتضاه من ولاء تجاه سلسلة أقطاب المشائخ الذين ارتبط بهم بمحبة شديدة واعتقاد جازم" . [١٣٤]

على أن النورسي وهو يواصل منافحته على الطريقة، يطالب بعدم الحكم عليهـــا مـــن خلال من تكون مذاهبهم قد ابتعدت بهم عن جوهر العقيدة، أو أولئك الذين انتسبوا إليها تضليلا ومكرا، وأطلقوا على أنفسهم اسم الطريقة كيدا للإسلام، وتذرعا إلى إشباع مـــا بأنفسهم، تحت غطائها..

---

١٣٤ المكتوبات ص ٥٧٤.

لقد كان دليله على أهمية الطريقة ونفاذ مكانتها الإيجابي في المجتمع، ذلك الدور الذي ظلت تلعبه باعتبارها وسيلة تآخي المسلمين، وواسطة جمع وتقريب بينهم، إذ أن الطريقة هي في مقدمة الفعاليات الإيمانية التي توسع من دائرة الأخوة الإسلامية وتبسط لواء رابطتها المقدسة في أرجاء العالم الإسلامي" . [١٣٥]

ونراه – من جهة أخرى – ينوه بمنـزلتها الدفاعية ضد هجمات النصارى ومكائدهم الساعية على مدى القرون، لإطفاء نور الإسلام، لا سيما في البلاد العثمانية، فيقول :" يجب أن لا ننسى فضل أهل الطرق في المحافظة على مركز الخلافة الإسلامية (استانبول) طوال خمسمائة وخمسين سنة، رغم هجمات الكفر وصليبية أوروبا، فالقوة الإيمانية، والمحبة الروحانية، والأشواق المتفجرة من المعرفة الإلهية لأولئك الذين يرددون " الله .. الله.." في الزوايا والتكايا المتممة لرسالة الجوامع والمساجد، والرافدة لهما بجداول الإيمان، حيث كانت تنبعث أنوار التوحيد في خمسمائة مكان، لتشكل بمجموعها أعظم نقطة ارتكاز للمؤمنين في ذلك المركز الاسلامي". [١٣٦]

ولقد كان أدعياء القومية التركية يعارضون الطريقة ويستهدفونها بالهجمات، لما رأوا لها من نفوذ يحفظ تماسك الأمة ويعترض على مساعيهم الشقاقية الرامية إلى زعزعة الإسلام وإجلائه من أوطانه، لذا ألفينا النورسي يتوجه إليهم في تجريح شديد يرد دعواهم، ويفند مقاصدهم بهذه الصرخة المعبرة عن مواجهة لا مراء فيها :

"فيا أدعياء الحمية، ويا سماسرة القومية المزيفين، ألا تقولون أية سيئة من سيئات الطريقة تفسد هذه الحسنة العظيمة في حياتكم الاجتماعية". [١٣٧]

الطريقة وتبعاتها العقلية والروحية

١- *السلوك*

يعتبر النورسي السلوك قيمة حيوية في الطريقة، فهو، وإن بدا سهلا للبعض، إلا أنه لا يخلو من صعوبة ،من شأنها أن تحول دون وصول الكثيرين ممن لا جَلَدَ لهم على تحمل الأعباء، ولا ثقافة روحية تعينهم على استكمال الطريق، وبلوغ ما راموا بلوغه..

والسلوك بحسبه قسمان، إذ هناك السير الأنفسي، والسير الآفاقي ..

---

١٣٥ المكتوبات ص.٥٧٤.

١٣٦ المكتوبات ص.٥٧٥.

١٣٧ المكتوبات ص.٥٧٥.

فالسير الأنفسي –كما يقرر النورسي – يبدأ من النفس ويتجه إلى الخارج، إذ يسعى فيه السالك إلى معانقة الحقيقة – التي يحضنها قلبه داخل جوانحه – واستجلاء معانيها في الآفاق والتجليات الكونية، من حيث كون تلك الآفاق والتجليات هي تجسيد للحقيقة الربانية وعلامة عليها.. فالسالك يرى أنوار الحقيقة المتلألئة بين جوانحه، تشع في الآفاق وتنعكس على الكائنات، وتتلون بألوانها وتتماهى بماهياتها، فلا يزداد القلب إلا تواجدا بها، وتذوقا لها..

فالسير الأنفسي يقتضي من السالك أن يفني نفسه في محبة الله، وأن يكسر شوكة الهوى، ويميت نوازع الشهوة حتى لا تشتغل بغير محبة الله.

أما **السير الآفاقي**، فإنه ينهج الى غايته طريق النفس، إذ ينطلق من الآفاق – حيث تتجلى أسماء الله الحسنى من خلال مظاهر الكون الأكبر – ويؤم النفس . ففي رحابة القلب يتسع للسالك أن يرى أنوار تجليات تلك الأسماء الحسنى تشع من داخل نفسه، فيتهيأ له على ذلك النحو، الطريق الأقرب إلى الله، ويدرك أن القلب – حقا –مرآة الصمدية، فيصل إلى قصده، ويظفر بمنتهى أمله. [١٣٨]

ومن الواضح أن النورسي بتمثله هذا للتجربة السلوكية، يكون قد جدد النظرة إلى السلوك، وأدرجه بالفعل ضمن نطاق علم النفس الروحي، مبتعدا بالظاهرة السلوكية عن المصادرة الجدالية التي كانت تضعها فيها تلك الثنائية المعرفية التقليدية المعروفة بوحدة الوجود ووحدة الشهود ..

ذلك لأن النورسي أدرك أن تمثل الفعل السلوكي من خلال أحد هذين التصورين يسيء إلى تعاليم القرآن بشأن الكون، إذ أن وحدة الوجود تقف على منطق مضمر يعدم الموجودات ما عدا الله، في حين أن القرآن يؤكد وجود الكون والكائنات، إذ هي مبتدعات إلهية ماثلة ولها وظيفتها العينية أو الغيبية التي على المسلم أن يقر بها.. كما أن وحدة الشهود تنطوي على مترع إغفال الوجود، وإسدال ستار النسيان عليه – كما يقول النورسي – وذلك ما لا يتلاءم مع المنطق الإيماني الذي يدعو إلى التدبر في الموجودات والوعي بها، وبالتالي الاعتراف بكينونتها، وأنها امتداد ملموس أو محسوس لتجليات القدرة الإلهية المطلقة..

١٣٨ المكتوبات ص.٥٧٥

لقد رد النورسي المطمح السلوكي إلى الواقع التربوي والنفسي، وإلى روح الســالك، وأناطه بنفسيته وبموقفه أو منهجه الذي يختاره تحصيلا لمرامه، وبلوغا لمقصده .. والنورسي إذ بطرح المسألة السلوكية على هذا الوجه، يكون قد أسهم في تقريب وعقلنة هذا النشاط الروحي الذي تتفتح عليه نفوس أهل الاستعداد والقابلية.. وهو بذلك يكــون قــد أدرج المعرفة السلوكية ضمن نطاق الملاحظة والتقويم، لاسيما في أطوارها الأولى، حين تكــون بَعْدُ ارتياضا روحيا وتمرسا تلقينيا..وتجربة معرفية متجددة.

٢- عوائق الطريق

ولما كان الطريق محفوفا بالمخاطر، كان حتما على السالك أن يحذر الزلق والسقوط .. فالنفس نزاعة للإغترار، وقد يتراءى لها أنها أدركت الحضرة وبلغت اللدنية، وقد يستبد بها شعور الظفر فتعرب عن نشوتها بغير ما يليق من انضباط في تلك المسيرة، ولا يسعها عندئذ إلا أن تسقط من مقام الشكر إلى موقع الفخر، متردية إلى الغرور .. وهو ما يتورط فيه كل سالك ذهل عن أن يلتزم بضبط النفس، إذ سرعان ما يجد نفسه وهو يعاين الأسرار الخفيــة ،أن ينجذب وراء الشطح، ويقع في الادعاء، فيضر بنفسه ويضر بغيره.

ومن مظاهر الادعاء التي يسجلها السالك على نفسه ويفسد بها غُنْمَه، تصوره نفسه أنه أكبر وأعظم ممن هم أرقى منه وأسمى مقاما.. بل قد لا يتردد بعضــهم، ونتيجــة انبهــار وجداني متعجل، أن يدعي المهدوية .. وهؤلاء – كما يقول النورسي – ليسوا كاذبين ولا مخادعين، ولكنهم يُنخَدَعون، إذ يظنون ما يرونه هو الحق، ولكن كما أن للأسماء الحســنى تجلياتها ابتداء من العرش الأعظم وحتى الذرة، فإن مظاهر هــذه التجليــات في الأكــوان والنفوس تتفاوت بالنسبة نفسها، وإن مراتب الولاية – التي هي نيل مظاهرها والتشرف بها – هي الأخرى متفاوتة .[١٣٩]

حقا إن بعض مقامات الولاية – كما يرى النورسي – يتسم بشيء من خواص المهدية ووظائفها، إذ أن هناك مقامات سلوكية لها رابطة ببعض مشاهير الأصفياء، حتى سميــت بأسمائها، من ذلك مقام الخضر، ومقام المهدية. فإذا ما انتهى السالك إلى مقام منها، التبس عليه الأمر، وتصور أنه هو ذلك الفذ الشهير، و أنه هو الخضر أو المهدي، أو أنه القطــب الأوحد .[١٤٠]

---

١٣٩ المكتوبات ص.٥٧٧.

١٤٠ انظرالمكتوبات ص.ص.٥٧٧

والسالك في ذلك الموقف الانجذابي، لا يمكن أن تقبل مفاخره وادعاءاته، ما لم تصدر عن نفس أماتت أهواءها، وأزالت أنانيتها، أما إذا كان في النفس شيء من أنانية، فإن الشطح والإدعاء مدانان، ومرفوضان، ويسقطان بالسالك في هوة الغرور والتأثم ..

"فأخطر المزالق والمهالك في هذا السلوك غير الناضج، هو أن المعاني الجزئية الواردة على القلب بصورة إلهام، يتوهمها السالك كلاما إلهيا صادرا إليه، فيعبر عن كل إلهام وارد بآية، فيمتزج بهذا الوهم عدم احترام لتلك المرتبة السامية للوحي".[١٤١] فالوحي – بحسب النورسي – غير الإلهام، إذ الوحي تجسد في واقعة النزول القرآني، وأما الإلهام، فإنه خواطر يلقاها المتروض، وتتوالى على قلبه نتيجة المعاناة، وما يعمر قلبه من ذكر ومن تشوق إلى ذات الله، وبسبب انفتاح أعماقه على الكون الخفي واستمدادها منه ما تلقى وما تجد من أحوال..

٣-وحدة الوجود والشهود

تعتبر وحدة الوجود فلسفة أو عقيدة يؤمن بها بعض الصوفية، إذ هي نظرة تنحصر فيها الأكوان والموجودات لتمحي في واجب الوجود، أي أن الموجود الحق، هو واجب الوجود سبحانه. "فالقائلون بوحدة الوجود يعتقدون أن الموجودات مجرد مرايا خالية لتجليات أسماء الله الحسنى..".[١٤٢]

أنهم ينكرون وجود الكون بجانب وجود الله الذي هو واجد الموجود.[١٤٣]

إن هده النظرة – كما يقول النورسي – لا تخلو من خطر، إذ أن مبادئ الإيمان تقرر موجودات لا بد على المؤمن أن يقول بها، منها وجود الآخرة .. فالإيمان بالآخرة لا يحتمل أن يقال بخياليتها، لذا وجب التحفظ – كما يحذر النورسي – في فهم مسألة وحدة الوجود.. وإلى ذلك فإنه يوصي " صاحب هذا المشرب ألا يصحب معه هذا المشرب، وألا يعمل بمقتضاه عندما يفيق من عالم الاستغراق والنشوة، ثم إن عليه ألا يقْلِبَ هذا المشرب القلبي والوجداني والذوقي إلى أسس عقلية وقولية وعلمية، وإلا أوهم نفسه وغيره بالمادية والطبيعية والوقوع في التحلل، والابتعاد عن حقيقة الإسلام..[١٤٤]

لقد كان النورسي يدرك مخاطر الإغراق في القول بمذهب وحدة الوجود، إذ أدرك المخاطر التي تتوارى خلف هذا المترع، فقد كان دعاته في كل عصر ينتهون – شاعرين أو

١٤١ المكتوبات ص .٥٧٨.
١٤٢ المكتوبات ص.٥٧٩.
١٤٣ م.ن. ص٥٧٩.
١٤٤ م.ن. ص٥٨٠.

غير شاعرين – إلى النتيجة الشركية التي يقول بها الطبيعيون، ممن ألّهوا الطبيعة وربوا المادة..

وكان يسيرا على أولئك الطبيعيين أن يقتنصوا الأبرياء والسذج، ممن تطرقهم أفكار وحدة الوجود دون فهم ولا استيعاب، فيستدرجونهم إلى الوقوع في مطب الشرك . إذ ما أسهل عليهم أن يتصيدوهم من هذا السبيل، سبيل التجلي ..وأن يخاطبوهم قائلين :" نحن وأنتم سواء، نحن أيضا نقول هكذا ونفكر هكذا " ونرى في الطبيعة مجلى ألوهيتنا، بل حقيقتها.. [١٤٥]

ويلاحظ النورسي في هذا الصدد أن منزلة الإيمان القرآني أعلى وأسنى من منزلة القبس الشهودي ، ذلك لأن الانصياع لتقريرات الله عز وجل من خلال منطوق كتابه العزيز أولى من تحسس الإيمان من خلال الاستغراقات الروحية التي قد لا يسلم متعاطيها من زلل:

" إن درجة الشهود أوطأ بكثير من درجة الإيمان بالغيب.." و" ميزان جميع الأحوال الروحية والكشفيات والأذواق والمشاهدات إنما هو دساتير الكتاب والسنة السامية وقوانين الأصفياء والمحققين الحدسية " [١٤٦]

ويسجل النورسي حقيقة الكسب الذي يدركه السالك المتمرس الذي يأخذ بمبدإ وحدة الوجود، فيقول :

وحدة الوجود مشرب وحال ومرتبة ناقصة، ولكنها مشرّبة بلذة ونشوة روحية أخاذة، تستهوي السالك وتسكره وتجعله يرتكن إليها حتى يتهيأ له أنها المرتبة الأسنى.. ومتى ما تسامت الروح في هذه المرتبة وتخلصت من الحجب و" نالت شهودا في لجة الاستغراق الكلي " فإن السالك قد ينتهي إلى" وحدة وجود حالي لا علمي، ناشئة من وحدة شهود وليس من وحدة الوجود، فتحقق لصاحبها كمالا ومقاما خاصا به، بل قد توصله إلى انكار وجود الكون عند تركيز انتباهه في وجود الله" [١٤٧]، وهنا قد يمْثُلُ الخطر، حيث أنه إذا كان صاحب هذا المشرب من الذين أغرقتهم المادة وأسبابها، فإن ادعاءه لوحدة الوجود قد تؤدي به إلى انكار وجود الله سبحانه لكون انتباهه منحصرا فى وجود الكون..[١٤٨].

---

١٤٥ المكتوبات ص. ٥٨٠
١٤٦ المكتوبات ص .١٠٥.
١٤٧ المكتوبات ص ١٠٦
١٤٨ م.ن ١٠٦

فطريقة السلف النيرين تتره الله عن الشبيه والمثيل، وتقرر أن الموجودات ليست أوهاما كما يدعي أصحاب وحدة الوجود، بل هذه الأشياء الظاهرة هي من آثار الله سبحانه وتعالى..[149]. " فليس صحيحا قولهم لا موجود إلا الله، وإنما الصحيح أن لا موجود إلا منه.[150]

والسلف الاخيار عندما يشيرون إلى أن " حقائق الأشياء ثابتة " يقرون بأن لأسماء الله تعالى تجليات حقيقية وأن لجميع الأشياء وجودا عرضيا أسبغه الله عليها بالخلق والإيجاد، ومع أن هذا الوجود يعتبر وجودا عرضيا وضعيفا وظلا غير دائم بالنسبة لوجود واجب الوجود، إلا أنه ليس وهما وليس خيالا، فإن الله سبحانه وتعالى قد أسبغ على الأشياء صفة الوجود بتجلي اسمه الخلاق وهو يديم هذا الوجود. [151]

٤-طريق السنة، طريق الولاية

يرى النورسي – شأنه في هذا شأن سائر علماء السنة – أن أفضل سبيل موصل إلى الولاية هو سلوك نهج السنة المطهرة .. " إن اتباع السنة النبوية المطهرة هو أجمل وألمع طريق موصلة إلى مرتبة الولاية من بين جميع الطرق، بل أقومها وأغناها..". [152]

والمريد الحق – في نظره – هو المتبع لما تقرر الشريعة، فيلتزمها بحذافيرها، إذ الإتّباع " يعني تحري المسلم السنة السنية وتقليدها في جميع تصرفاته وأعماله والاستهداء بالأحكام الشرعية في جميع معاملاته وأفعاله. [153]

ذلك لأن الإلتزام بالشريعة يكفل شرط الصحوة أو حال اليقظة والرقابة الذاتية التي لا ينبغي أن تخطئ المسلم في علاقته مع ربه ومع العباد..

من هنا فإن اتباع السنة المطهرة هو طريق الولاية الكبرى، وهو طريق ورثة النبوة من الصحابة الكرام والسلف الصالح." [154]

ولابد للسالك من أن تتوفر فيه روح الإخلاص، فبالإخلاص يتخلص العبد من نوازع الشرك " فمن لم يحمل إخلاصا في ثنايا قلبه فلا يستطيع أن يتجول في تلك الطريق".[155]

---

١٤٩ م.ن. ص١٠٦
١٥٠ م.ن. ص١٠٦
١٥١ م.ن. ص١٠٧.
١٥٢ المكتوبات ص٥٨١
١٥٣ م.ن. ص٥٨١.
١٥٤ م.ن. ص٥٨١.
١٥٥ م.ن. ص٥٨١.

على أن المحبة تظل أحسم سلاح في يد السالك، إذ أنها تحدو السالك إلى مواصلة الخوض في الطريق مهما كانت صعوبته، فـ"الذين يتوجهون بقلوبهم إلى معرفة الله عن طريق المحبة لا يصغون إلى الاعتراضات ويجاوزون سريعا العقبات والشبهات، وينقذون أنفسهم بسهولة، ويحصنونها من الظنون والأوهام".[١٥٦]

ولما كانت " المحبة النابعة من معرفة الله هي جوهر جميع مراتب الولاية وإكسيرها " توجَّبَ على السالك أن يحذر مما تنطوي عليه حالها من ورطات.. من قبيل تحول خلق الضراعة والتذلل التي يلتزمها السالك إزاء ربه، إلى خلق دلٍّ وإلى مطالب ودعاوى..

فبذلك التحول يطيش صواب السالك ويقع في مهلكة التبختر والاختيال ..وتتحول على ذلك النحو المحبة لديه من المعنى الحرفي إلى المعنى الإسمي..لأنها استحالت محبة لغير الله، محبة تظاهر ورغائب ودعاوى، وهو ما يجعلها تنقلب من داء شاف إلى سم زعاف.. من حيث وقوعه في عين المحظور، حين أضحت محبته ليست لله كما توهم ولكنها لذاته.. من دون تذكر الله ورسوله، مع أن الواجب عليه عند التوجه بالحب لما سوى الله أن يكون هذا الحب في الله ولله ..

من هنا كان ذلك الحب بمعناه الإسمي وسيلة لحب غير الله، بل ستارا من دونه، بينما الحب الحرفي أي بسبب من حب الله، فإنه يكون وسيلة إلى زيادة حب الله، بل يصح القول إنه تجل من تجلياته سبحانه.." [١٥٧]

فمما يتخوفه النورسي على السالك وقوعه تحت طائلة التطلع إلى نيل ثمرات الأعمال والإستئثارات الذاتية ..إذ في ذلك مقاضاة للأجر في الدنيا، وهو ما يفقد الصفقة قيمتها الربانية ..

بل إن آداب السالك ينبعي أن تمضي على ذات النهج التحفظي الذي لا تعروه أو تحوله الطوارئ أو المكاسب.. "فإذا ما وهب الله لهم كرامة أو كشفا أو نورا أو ذوقا فإنهم يتناولونه بأدب جم ويعدونه التفاتا وتكرما منه سبحانه إليهم ،فيحاولون ستر الكرامة وإخفاءها ولا يظهرونها ولا يفاخرون بها، بل يسارعون إلى زيادة شكرهم وتعميق عبوديتهم." [١٥٨]

---

١٥٦ م.ن. ص٥٨١.
١٥٧ م.ن. ص٥٨٢
١٥٨ م.ن. ص٥٨٣

الطريقة هي الشريعة ولا ينبغي أن تكون غير ذلك

فالطريقة كما يقرر النورسي هي الشريعة سلوكا وغاية، وأن ما يزعمه بعضهم بـأن الشريعة مجرد قشر ظاهري لا يأخذون به، هو باطل وافتئات على الحقيقة .. ثم إن آداب الشريعة كما سنها سيد المرسلين، والتي هي ثمرة الوحي، هي أسمى وأعلى من آداب الطريقة التي هي ثمرة الإلهام .. من هنا كان أساس الطريقة هو اتباع السنة النبوية.[١٥٩]

ومما ينبغي أن يتفاداه السالك في هذا المضمار، الوقوع في مراعاة الشكلية على حساب الجوهر، وذلك بأن تنحسر لديه الأعمال الشرعية وآداب السنة لتأخذ درجة ثانية من اهتمامه، لأن اهتمامه عندئذ يضحى مركوزا على أمور صورية شكلية، قوامها آداب الطريقة ورسومها، وذلك عندما يصبح المرء يفكر بحلقة الذكر أكثر من تفكيره بالصلاة، وينجذب إلى أوراده أكثر من انجذابه إلى الفرائض ويلزم نفسه بتجنب مخالفة آداب الطريقة أكثر من التزامه بتجنب الكبائر ..[١٦٠]

فالذي لا ينبغي أن يغيب عن السالك هو أن" أداءه لفريضة واحدة التزاما بـأوامر الشريعة لا يمكن أن توازيها أوراد الطريقة أو تحل محلها.. "[١٦١]

لذة السالك تكون في لذة أدائه للفرائض الشرعية والمواظبة عليها بشروطها

إن لذة السلوك ينبغي أن تجد في أداء الفرائض وسيلتها ومناطها.. هذا مـا يقـرره النورسي، وهذا ما قال به السلف من رجال السنة الصالحين..

وفي هذا الصدد يتساءل النورسي هل يمكن أن توجد طريقة خارج نطـاق السـنة النبوية الشريفة وأحكام الشريعة ؟. ويجيب عن ذلك إجابة مزدوجة، إيجابا وسلبا.. فهو يرى" أن وجود أولياء أُعدموا بسيف الحقيقة يدل على أن السلوك يمكـن أن يفضـي بسالكيه إلى خارج معالم الطريق ..

غير أن هذا لا يعني أنه يمكن أن يصل سالك إلى الحقيقة من خارج سـبيل الشـرع والإيمان بالله وبسنة نبيه ﷺ ..فقد أجمع الأولياء المحقون على استحالة إدراك الحقيقـة

---

١٥٩ م.ن. ص٥٨٤
١٦٠ م.ن. ص٥٨٤
١٦١ م.ن. ص٥٨٤

والاستضاءة بأنوارها من خارج الصراط الذي اختطه الرسول ﷺ ومن دونما اتباع لخطواته".[١٦٢]

مخاطر الانزلاق في أحوال السكر والانجذاب

ويتعرض النورسي لحال الجذب والاستغراق التي تتلبس طائفة من أهل السلوك لاستعداد روحي يطغى عليهم وهم يتواجدون بأسرار الحضرة، وما قد يَجُرُّه ذلك عليهم من مخالفات أو تجاوزات شرعية، ويُبيِّنُ أن مرد ذلك إلى ما في الإنسان من لطائف وقابليات لا ترضخ للتكاليف الشرعية، إذ عندما تتحكم تلك اللطائف في السالك فإنه لا يبقى مسؤولا أمام التكاليف الشرعية .. من هنا كانت تجاوزاته الإنجذابية مبررة، لأنها انخطاف خارج عن إرادته، وكل ما يَندُّ عنه في تلك الأثناء غير الواعية، هو معذور عنه، وغير محاسب عليه، ولا يسقطه من مرتبة الولاية..

ويلاحظ النورسي في هذا الصدد أيضا وجود قسمين من أهل الطريقة يعتبران خارج دائرة الشرع :

١- قسم تغلُبُ عليه حال الاستغراق والجذب والسكر، أو تغلبُ عليه لطائف تمنعه أن ينقاد للتكاليف.. وهؤلاء لا يتنكرون للشرع ولا يرفضون الأحكام، بل إن تركهم للأحكام يأتي اضطرارا .. ونجد أولياءً أصحاب شهرة ظلوا متلبسين بهذه الحال زمنا.. بل لقد كان منهم من حكم عليه أولياء محققون أنه ليس خارجا عن دائرة الشرع وحدها، بل هو خارج دائرة الاسلام .. إن هذا الصنف لا يمكن الحكم عليهم بالحياد عن الدين والشرع ولكن " بشرط ألا يُكذِّبوا بجميع ما جاء به الرسول ﷺ من أحكام .." فعدم تمكن هؤلاء من أداء الأحكام نتيجة حالهم يبرر وضعهم، لكنهم إذا تمكنوا منها و لم يلتزموها، فقد هلكوا.. [١٦٣]

٢-وقسم ثان، هم الذين ينجذبون لنشوة الأذواق ..ويتدرجون في التخلي عن الفرائض والاستهتار بأمر الشريعة إلى حد أن يظنوا أنها مجرد قشر ظاهري، وأن ما وجدوه من الحقيقة هو الأساس والغاية والقصد.. وهو ما يشجعهم على الإتيان بما يخالف الشرع بكامل وعيهم وتعمدهم.. إن هؤلاء " مسؤولون عن أعمالهم، ويدانون، بل يهلكون .." [١٦٤]

---

١٦٢ م.ن. ص٥٨٥

١٦٣ أنظر المكتوبات ص.٥٨٦.

١٦٤ م.ن. ص٥٨٧.

الأفضلية للنبوة على الولاية وليس العكس

ومما يحذر منه النورسي في هذا المجال، التورط في القول بأفضلية الولاية على النبوة .. أو بأرجحية درجة الولاية على درجة الصحبة . فقد دأبت فيئة من أهل الطريق على ترسيخ الزعم بأن الأولياء مفضلون على الصحابة، وهو اعتقاد خاطئ ذلك لـ " أن للصحابة الكرام خواصا متميزة بسبب الصحبة النبوية، بحيث لا يمكن للأولياء أن يبلغوا مرتبتهم أصلا فضلا عن أن يتفوقوا عليهم، ولا يمكنهم أن يبلغوا قطعا مرتبة الأنبياء".[165]

لقد أفضى بالقائلين بهذا الاعتقاد إلى حد أن أعلوا من قيمة أوراد طريقتهم على أذكار السنة النبوية . متناسين ما أكده محققو الطرق كالإمام الغزالي والإمام الرباني ،من أن" اتباع سنة واحدة من السنن النبوية يكون مقبولا عند الله أعظم من مائة من الآداب والنوافل الخاصة، إذ كما أن فرضا واحدا يرجح ألفا من السنن، فإن سنة واحدة من السنن ترجح ألفا من آداب التصوف".[166]

كما أن الاعتقاد في أفضلية الولاية قد جرَّ إلى القول بتساوي درجة الالهام مع درجة الوحي..وهو ما يزين لهم الانسياق مع الخواطر والنوازع، وما تختلج به جنوبهم من رؤىً فيتجاوزون الشرع، إذ يتوهمون أن خواطرهم إلهام يُلقي به الله إليهم على نحو ما كان الوحي يتنزل على الأنبياء والرسل من قبل..

ولن يُنْجي هؤلاء من المزلق إلا بالإثابة إلى الشرع، وأن " يضعوا أصول الإيمان وأسس الشرع نصب أعينهم ويتخذوها مرشدا دائما لهم، وأن يخالفوا أذواقهم ومشهوداتهم ويتِّهموها عند تعارضها مع تلك الأسس.".[167]

ومما يميز سير أهل الأذواق والأشواق – حسب النورسي- جنوحهم إلى الإدعاء والتظاهر والفخر وإشاعة الشطحات وطلب الصدارة بين الناس ونيل الإهتمام والحظوة، والتوق إلى أن يضحوا أهل شأن ومرجعيات روحية في المجتمع، وكل ذلك يبعدهم عن الطريق الحق، إذ أنهم ينشدون – على ذلك النحو المكشوف – العاجل والزائل من المكاسب على الدائم والمؤجل..وكان الحري بهم أن يمضوا على طريق الضراعة والشكر والاستغناء عن الناس .." فأساس العبودية وسرها هو التضرع والدعاء والخشوع والعجز

---

١٦٥ م.ن. ص٥٨٨
١٦٦ م.ن. ص٥٨٨
١٦٧ م.ن. ص٥٩٠

والفقر والاستغناء عن الناس، وبهذا فقط يمكن الوصول إلى كمال تلك الحقيقة، حقيقة العبودية.."[168].

ولا ريب أن ما تتوج به تجربة السالكين بعد تجاوزهم لِمحَنِ الطريق وتمكنهم من تلافي مزالقها، هو "ظهور الحقائق الإيمانية وانكشافها ووضوحها إلى درجة عين اليقين بواسطة الطريقة الصحيحة التي هي منابع .. أبدية ".[169]

وذلك ما يترتب عنه اكتمال الوجود الحقيقي للانسان .. إذ تكون الطريقة قد حركت فيه القلب ووجهته صوب الله، فتثور بذلك لطائف إنسانيته وتأخذ نصابها من الحركة والظهور، وهو ما تتأكد به حقيقة الإنسان.[170]. كما أن بلوغ الكمال يزيل عن النفس وحشة الانفراد الذي لازمها طيلة الطريق، وتستعيض عنه بأنس معنوي لالتحاقها بإحدى سلاسل الطريقة في سلوكها وفي رحلتها نحو الحياة البرزخية، والتفييء بظلال أهل السبق وبالإنتماء إليهم، وهو ما تتعزز به الثقة في الله وتتبدد الأضاليل والأوهام التي ترد إلى الذهن.[171]

إن الطريقة بما هي تربية وسلوك، تَمَكِّنُ من نمو شجرة الإيمان، إذ أن النهج التربوي الذي تقوم عليه الطريقة يغرس في النفس وازع اليقظة ومداومة ذكر الله ، إذ تضحى الطاعة والعبادة مثار اشتياق وحب، لا مثار تعب وتكليف". [172]

فبالسلوك نتحصل على درجات التوكل والرضى والتسليم، وهي درجات تَـذَوُّقِ السعادة واللذة والأنس الذي لا تشوبه وحشة. وفي ذلك فكاك للانسان من آفات الشرك الخفي والرياء والتصنع وغيرها من الرذائل التي تحبل بها النفس الأمارة بالسوء . وكل ذلك من شأنه أن يفضي بالانسان إلى حال من المطابقة الايمانية التي تجعل عاداته اليومية في حكم العبادات، وأعماله الدنيوية بمثابة أعمال أخروية .. الأمر الذي يجعل منه ذلك الانسان الكامل الذي لا يغفل عن خالقه ومعبوده لحظة، فهو سيكون ذلك الانسان الذي نال حقيقة الإيمان والإسلام لا صُورِيَتَهُما..الانسان الذي هو عبد خالص لرب العالمين، ومناط خطابه، وممتلا للكائنات من جهة، ووليا لله وخليلا له، حتى كأنه مرآة لتجلياته سبحانه عز وجل..[173]

---

١٦٨ م.ن. ص٥٩٠
١٦٩ م.ن. ص٥٩١
١٧٠ م.ن. ص٥٩١
١٧١ م.ن. ص٥٩١.
١٧٢ م.ن. ص٥٩٢.
١٧٣ م.ن. ص٥٩٣

لا يحق للسالك التعبير عن رؤاه الكشفية، وإلا وقع في المحظور وقارف الخطأ

وعن تساؤل بعضهم عن سبب مخالفة تصريحات أهل السلوك، المتعلقة برؤاهم وبما قرروه من مشاهدات جاءت الجغرافية والعلوم الحاضرة تنكر ما يقولون، يجيب النورسي بأن شأن أولئك السالكين في وضعهم ذاك، شأن صاحب الرؤيا الذي لا يحق له التعبير عن رؤياه بنفسه. فذلك القسم من أهل الشهود والكشف ليس لهم الحق أن يعبروا عن مشاهداتهم في تلك الحالة، حالة الشهود .

فالذي يحق له التعبير عن تلك المشاهدات إنما هم ورثة الانبياء من العلماء المحققين المعروفين بالأصفياء، ولا ريب ان أهل الشهود هؤلاء عندما يرقون إلى مقام الأصفياء سيدركون خطأهم بأنفسهم بإرشاد الكتاب والسنة ويصححونها، وقد صححها فعلا قسم منهم.. فما يرونه هو صدق وحقيقة، ولكن لأن عالم المثال شبيه صورة بالعالم المادي، فهم يرونهما، أي العالمين كليهما ممزوجين معا، فيعبرون عما يشاهدون كما هو، ولكن لان مشهوداتهم غير موزونة بموازين الكتاب والسنة ويسجلونها كما هي في كتبهم عندما يعودون إلى عالم الصحو، فإن الناس يتلقونها خلاف الحقيقة ".[174]

الأئمة الأربعة هم أركان الاجتهاد الشرعي، وهم أهل القطبية

لقد ساق النورسي حديثه عن الطريقة ومكانتها حيال النبوة، فاستطرد ليبرز أفضلية أئمة الشرع، ويؤكد تقدمهم على من سواهم من أصحاب الاجتهادات الروحية، لأن هؤلاء الأئمة احتضنوا الشريعة وراعوا بانهماكهم الروحي والعقلي حاجة الأمة ومطالبها الإيمانية عامة، في حين كان انخراط أهل القطبية السلوكية ذا جدوى وفاعلية ولكن على نطاق خاص ومحدود ..يقول النورسي :

الأقطاب المجتهدون الأربعة – وهم أبو حنيفة والشافعي ومالك وأحمد بن حنبل – هم الأفضل (من شيوخ الطريقة)، فهم يفوقون الأقطاب وسادة الطرق، ولكن بعض الأقطاب العظام كالكيلاني له مقام أسطع من جهة في الفضائل الخاصة، لأن الفضيلة الكلية هي للأئمة الكرام..[175]

---

١٧٤ المكتوبات ص.١٠٤

١٧٥ م.ن. ص٣٦٢.

لقد اتخذ النورسي – الذي كانت مَـعْلَميته الصوفية لا تنازع – شعارات أربعه تدور كلها حول القرآن وروح القرآن، إذ طفق يصرح للأتباع والمسلمين قاطبة :

إن كنت تريد وليا فكفى بالله وليا –إن كنت تريد أنيسا فكفى بالقرآن أنيسا – وإن كنت تريد مالا فكفى بالقناعة كنزا – وأن كنت تريد عدوا فكفى بالنفس عدوا.[١٧٦]

ذلك لأن النورسي قد أدرك أن طريق السلوك هو طريق الخاصة، وبالتالي هو واجب كفاية، أما طريق الشريعة أو طريق تصديق الحقائق الإيمانية القرآنية، فهو سبيل الواجب العيني الذي لا يخرج عن ربقته مسلم.. وهو النهج الذي شاءته واختارت السير فيه رسائل النور :

إن إحدى طرق الوصول إلى هذا الإيمان التحقيقي هو بلوغ الحقيقة بالولاية الكاملة بالكشف والشهود، وهذا الطريق إيمان شهودي يخص أخص الخواص.أما الثاني فهو تصديق الحقائق الإيمانية بعلم اليقين البالغ درجة البداهة والضرورة، وبقوة تبلغ درجة حق اليقين، وذلك بفيض سر من أسرار الوحي الإلهي من جهة الإيمان بالغيب وبطراز برهاني وقرآني يمتزج فيه العقل والقلب معا.

فهذا الطريق هو أساس رسائل النور وخميرتها وروحها وحقيقتها. .[١٧٧]

لقد آمن النورسي أن السادة الأقطاب من السالكين الواصلين، لو أنهم عاشوا في عصرنا الراهن، ورأوا ما عليه الأمة من ترد ومن هوان، لرجحوا طريق التجنيد والعمل اللذين تكفلهما الشريعة الغراء، ولأرجأوا المطلب السلوكي، إذ أنه سيكون بمثابة المطمح الكمالي :

إني أخال أن لو كان الشيخ الكيلاني والشاه النقشبند والإمام الرباني وأمثالهم من أقطاب الإيمان رضوان الله عليهم أجمعين في عصرنا هذا لبذلوا كل ما في وسعهم لتقوية الحقائق الإيمانية والعقائد الاسلامية، ذلك لأنهما منشأ السعادة الأبدية، وإن أي تقصير فيهما يعني الشقاء الأبدي.

نعم لا يمكن دخول الجنة من دون إيمان، بينما يدخلها الكثيرون جدا دون تصوف، فالانسان لا يمكن ان يعيش دون خبز، بينما يمكنه العيش دون فاكهة . فالتصوف فاكهة

---

١٧٦ م.ن. ص٣٦٥

١٧٧ م.ن.ص.١١١

والحقائق الاسلامية خبز.ويلاحظ أن السلوك إلى الإيمان كان فيمــا مضـــى يســـتغرق الأوقات والفترات، لكن التوفيق الإلهي يستطيع أن يهيأ لأهل العصر الحاضر من الطرق ما يكفي لإدراك تلك الحقائق في يسر ودون استغراق زمني.. مشيرا بذلك إلى ما يمكن لدارس رسائل النور، أو من يحتك بالمصادر الروحية المرشد والحصيفة عموما، أن يجنيــه من جليل الفائدة وسابغ الغنم ..[178]

لقد كان كتب النورسي بحق كتبا " لبيان أسرار القرآن " .. فأسرار القرآن هي أنجع دواء لأمراض هذا العصر وأفضل مرهم يمرر على جروحه وأنفع نور يبـــدد هجمـــات الظلام الحالك المغيرة على المجتمع الاسلامي".[179]

* * *

الفصل السادس

178 المكتوبات ص٢٨.
179 المكتوبات ص.٢٨.

تفسير القرآن للنورسي

إطلالة على كتاب "إشارات الإعجاز"

"للقرآن أبواب ما زالت مغلقة وستفتح مستقبلا."[180]

"إن القرآن الحكيم بمثابة عقل الأرض وفكرها الثاقب، فلو خرج القرآن – والعياذ بالله – من هذه الأرض لجنت الأرض، وليس ببعيد أن تنطح رأسها الذي أصبح خاليا من العقل بإحدى السيارات، وتتسبب في حدوث قيامة." [181]

تفسير النورسي للقرآن العظيم

من الثابت أن لكل مصلح اسلامي حظا من الإجتهاد.. إذ أن ميزته أو خصوصيته الإصلاحية إنما تظهر في الحيز الانجازي الذي يُوَفَّقُ إلى تحقيقه في مضمار التسديد وتأصيل الرؤية الاجتماعية التي يفاعل بها الواقع المدني والحضاري من حوله..

من هنا كان تفاوت العاملين في حقل الإصلاح ..إذ كان منهم المصلح بالأصالة وكان منهم العامل الجاري على هدي غيره، وكان منهم الموفق وكان القاصر..

وإذا كانت منزلة الصنف الأول من أهل الاصلاح هي منزلة المجتهد – بغض النظر عما أغَلَّ جهده من ثمار إجتهادية تخدم الأمة وتوسع من مداركها – فإن منزلة الصنف الثاني هي منزلة الواعظ الذي مطمحه أن يكرر ما تلقن من نصائح، كيفما كانت أهمية تلك النصائح وصلتها بالمرحلة التي يعيشها أو ينشط فيها ..

ومعلوم أن النص القرآني ظل يمثل حجر الزاوية في كل توجه اصلاحي وتجديدي، إذ غدا فهم الفحوى القرآني وتفسير دلالته، وتوجيهها نحو الوجهة النافذة والمعدلة للترتيبات المدنية المتحكمة في واقع الناس، والمثبتة لقناعاتهم .. تلك القناعات التي تنزع — عادة — بهم إلى الاستنامة والقعود عن تحقيق مزيد من التقدم وبلوغ منزلة الكمال التي رشح الله عباده إليها بالتزام الإيمان والعمل الصالح..

لذا أضحى التعديل الاجتماعي والاصلاحي ينطلق غالبا من تعديل السائد من المفاهيم، إما بإحياء قيم هذا السائد كما عاشها السلف الصالح من الأمة في عهد نضارة

---

١٨٠ الكلمات ص. ٤٥١

١٨١ الشعاعات ص.٤٤٤.

العقيدة ،وإما بإعطاء هذا السائد حظا من التسديد والترشيد ما يزكيه ويجعلـه أكثـر ملاءمة لروح العقيدة ولمتطلبات الحياة الكريمة التي ينبغي أن يحياها المسلم، أينما كان وفي أي زمن كان ..

في هذا الإطار تندرج جهود النورسي الإصلاحية والتفسيرية، إذ هي جهود تركزت على المتن القرآني تستقرئه وتستوعبه وتقبس منه الأنوار التي طفقت تبدد الظلام من سماء الأمة..

التنـزيل واحد، والتنـزل متعدد

لقد صدر النورسي في تفسيره للقرآن عن اعتقاد يثبت للنص القرآني تعددية معنويـة مؤكدة، تستكنهها بصيرة المفسر حسب ما يحيط به من أجواء ويستغرقه من اهتمامات.. فالدلالة السماوية لها تنـزيلٌ واحدٌ، هو الذي نطق به سيدنا محمد ﷺ، ولها أيضا تَنَزُّلٌ، وهو نتاج القراءات المتنوعة التي تستنبطها العقول المؤمنة عبر الزمان والمكان..

من هنا وجدنا النورسي يقرر " أن جمل القرآن لا تنحصر في معنى واحد، بل هي في حكم كلي يتضمن معاني لكل طبقة من طبقات البشرية، وذلك لكون القرآن الكـريم خطابا موجها لعموم طبقات البشر، لذا فالمعاني المبينة هي في حكم جزئيـات لتلـك القاعدة الكلية، فيذكر كل مفسر وكل عارف بالله من ذلك المعنى الكلي شيئا، ويستند في تفسيره هذا إما إلى كشفياته أو إلى دليله أو إلى مشربه، فيرجح معنى من المعاني ..". [١٨٢]

ومن الواضح أن النورسي يسير في هذا السياق التفسيري على طريق السلف، فقـد ظلت دلالة النص القرآني تتأسس في نظر الشراح والمتأولين من رجال السلف على أربعة مستويات، إذ لها ظاهر وباطن وحد ومطلع.. بل لقد رأيناهم يستوعبون ظاهرة الاعجاز بروح تلهج بخصائصها المبهرة، وتتواجد بمقوماتها البيانية جملة، فليس عندهم في فـذاذة البيان القرآن عنصرا أدائيا — حتى النقطة والحرف – إلا وله حظ ثابت من البيان وإسهام في إحداث الأثر القدسي..

في هذا السبيل ذاته سار النورسي، وعلى هدي فطاحل التفسير المسـتنرين طـرق، لكنه تميز عنهم بهذا التنويع التخريجي الذي استغرقه طيلة حياته، بحيث جـاءت سـائر أعماله منظومة تفسيرية للقرآن ..

---

١٨٢ المكتوبات ص٤٢٢.

الوحي وسَنَنُ التوصيل الإستئناسي النافذ

يرى النورسي أن فاعلية الخطاب القرآني قد تأصلت خصائصها التوصيلية العمومية بصورة جوهرية من خلال طبيعة النظم القرآني التصويرية التي تجنح إلى تخريج مضامينها تخريجا حسيا ملموسا.. إذ أن هذا الخطاب القدسي قد نأى – على نحو لا يمارى – بتبليغيته عن أن تغدو تبليغية طبقية أو فيئوية محدودة ..

ذلك لأنه خطاب السماء إلى الأرض، وهو لذلك أصَّل لإفضاءاته من الأسباب البيانية والدعامات البلاغية ما جعل المعطى القرآني يمثل أمام النفوس قريبا منها، ومدركا على نحو لا يُعْنِتُ السامعَ أو المتلقي، لتجاوز هذا الخطاب المبين الإعضالات البيانية والأدائية التي تَغْفِلُ المطلب العقلي السمح والاقتضاء الإدراكي الفطري الذي يجعل الأمي والمتعلم – على سواء – يتفاعلان مع أعمق الأفكار والرؤى في مجالات الكون والإنسان ومصائر الحضارات وعوالم الغيب والشهود، من دون أن يتجشما رهقا إزاء الدلالة القرآنية الجلية والمتعالية عن التفذلك المجاني أو التشدق الأخرق..

لقد رجح القرآن مقومات البلاغة العالية من أجل ضبط أدائية كلامية نبيلة لا تسف بالمعطى القولي، ولا تستغلق عنه.. بحيث عرض خطابه الكريم المناحي المجردة من خلال وسائط قولية كان التشبيه والتمثيل في مقدمة أدواتها البيانية..

وحتى يبين النورسي طبيعة هذا النهج الأدائي السامي، والميسر، الذي اتبعه القرآن العظيم في منظومة متْنِه، راح يستطرد كاشفا الارتكازات التي قامت عليها بلاغة القرآن من خلال تفحصه لشواهد قرآنية عرضت له وهو ماض في تفسير آيات من سورة البقرة..

الخطاب القرآني يفاعل مواجد المتلقي

لقد علق النورسي على قوله تعالى : (**مثلهم كمثل الذي استوقد نارا..**)، فأشار إلى مستويات النظم التي لحمت الآية، ثم بين سر هذا التعقيب التمثيلي الذي ساقه الله في موقف كشفه لحقيقة المنافقين، هذا السر الذي بُنِيَ على الإيفاء بثلاث متطلبات توصيلية، تُسْتَكْمَلُ بها عملية التبليغ التي يريدها القرآن فاعلة ومغيِّرة للأوضاع البشرية، وهذه المتطلبات – كما يحصرها النورسي – هي :

١– تأنيس الخيال الذي هو أطوع للمتخيلات من المعقولات، وتأمين إطاعة الـوهم الذي شأنه التشكيكات ومعارضة العقل وانقياده بإظهار الوحشي بصـورة المـأنوس، وتصوير الغائب بصورة الشاهد.

٢– تهييج الوجدان وتحريك نفرته ليتفق الحس والفكر بتمثيل المعقول بالمحسوس .

٣– ربط المعاني المتفرقة وإراءة رابطة حقيقية بينها بواسطة التمثيل .. وأيضا الوضع نصب عين الخيال ليجتني بالنظر الدقائق التي أهملها اللسان. [١٨٣]

وواضح أن النورسي يركز في هذا الاستطراد علـى ابـراز الوظيفـة الشـعورية والتحسيسية التي يراعيها الخطاب القرآني في بلاغته الاعجازية، وهذا من خلال مفاعلـة هذا الخطاب الفذ لخيال المتلقي، بما يؤثر فيه ويوسع من مداركه ويعلو بمقامه الإنسـاني، ويجعله يقف من الحقيقة القرآنية وجها لوجه..

فالبلاغة القرآنية موصولة بذهن المتلقي ..

وإذا كانت البلاغة عامة تتأهل — بطبيعتها الاقتدارية – لتفعيل مواجد المتلقي مـتى كان المتكلم متمكنا من السنن، إذ الباث يتحول في ذات الوقت إلى مرسل ومتلـق – بحيث يضع نفسه في موضع المتلقي – الأمر الذي يمكنه مـن أن يوظـف الإمكانـات البلاغية والخطابية بحسب ما يفي بالتعبير عن رسالته..

وإذا كانت هذه هي حال الانسان مع الإنسان، فلا جرم يغدو الموقف الخطابي على أسمى ما يكون الأداء متى كان المخاطب هو المولى عز وجل.. الذي جبل النفوس وقدر حاجاتها..

لذلك جاءت بلاغة القرآن وتوصيليته على هذا المسـتوى الأسـنى مـن البراعـة والتمكين..

مفاتيح فهم الخطاب القرآني

يرى النورسي أن هناك فائدة كبرى من وراء فهمنا لفنيات البلاغة العربية ولمفرداتها المعيارية..

إذ أن في ثناياها ارتكازا جوهريا لفهم الفحوى الخطابي .. ذلك لأن القـرآن قـد استخدم أسس البلاغة استخداما عبر به ومن خلاله عن مقاصده العليا .. من هنا لابد

---

١٨٣ إشارات الإعجاز ص.١٢٦

من استحضار السنن التبليغي كما كانت مرعية عند العرب، مـــن أجـــل أن نســـتكنه المضامين القرآنية ..

لقد حدد النورسي كمال الكلام بكمال الأسلوب المستخدم في الآثار والنصوص.. فالأسلوب – كما يقول – هو صورة الحقائق وقالب المعاني المتخذ من قطعات الاستعارة التمثيلية، وكأن تلك القطعات " سيموطوغراف " خيالي. .. [١٨٤]

و تحدث عن فنية التمثيل، فقال : إن فائدة أسلوب التمثيل .. هـــي : أن المـــتكلم بواسطة الاستعارة التمثيلية يظهر العروق العميقة ويوصل المعاني المتفرقة، وإذا وضع بيد السامع طرفا أمكن أن يجر الباقي إلى نفسه، وينتقل إليه بواسطة الاتصال. فبرؤية بعض يتدرج شيئا فشيئا – ولو مع ظلمة – إلى تمامه .. [١٨٥]

وواضح هنا الدور الذي يسنده النورسي للمتلقي، إذ أن وظيفة الباث أن يضع رسالة كلامية يستوفي بعضُ معطياتها القولية بعضاً في مجال تأدية المعـــنى، إذ أن كـــل إشـــارة خطابية تتهيأ لأن تجعل ذهن المتلقي يستحصل المعنى المقصود من خلال آلية الإدراك التي تثيرها شفرة الرسالة في متناول المتلقي .

ثم يتحول النورسي إلى الحديث عن الفحوى فيستحضر أقوالا جاءت تقوم الخطاب الرفيع وتربطه بالمضمون، فقد ورد في قولهم أن " الكلام البليغ هو ما ثقبته الفكـــرة و هو "ما طبخ في مراجل العلم . و هو " ما أخذت بخطامه وأنخته في مبرك المعنى "..[١٨٦].

ولا يخفى ما للفحوى أو القيمة المعنوية من أهمية في هذه الإشارات المبينة للحدود التي على الأثر النصي أن ينتهي إليها حتى يحوز الكمال ..

ومن الواضح أن حديث النورسي هنا يوسع من النظر إلى الآثار النصـــية الجميلـــة، بحيث يشرك السامعَ في تحديد قيمتها، إذ أن دور السامع مركـــزي في تحديـــد القيمـــة الجمالية للنص..

بل إن النص إنما تتم هندسته على وفق قواعـــد المخاطبـــة المســـتحكمة في الحـــس الاستقبالي للأفراد والجماعات.. من هنا فإن إدراك تلك القواعد، أو ما يعـــرف تراثيـــا بالسنن، إنما يساعد كثيرا على معرفة المساند النفسية واللسانية التي يقتضـــيها الموقـــف التواصلي، وتتطلبها عملية الفهم والاستيعاب..

---

١٨٤ إشارات الإعجاز ص ١٢٠

١٨٥ م.ن. ص١٢٠.

١٨٦ م.ن. ص١٢٠

ذلك لأن النورسي وهو يتحدث عن الخطاب الجميل مطلقا، إنما كان يهـــدف إلى امتلاك المفاتيح التواصلية التي تؤسس لماهية و كُنْه الخطاب القرآني على اعتبار أن ذلـــك الخطاب قد بنى مرتكزات توصيله على أسس بلاغته وبيانه العربيين ..وأن فهمه تفسيرا وتأويلا إنما يقتضي فهم ومعرفة تلك اللوازم البيانية والسننية على النحو التام..

من هنا كان التفات النورسي إلى هذه المقومات الخطابية الجمالية والتشديد عليها، في ضوء القيم الفنية والنظمية التي تقوم عليها البلاغة، دون أن يغفل الإطار العام للصـــلة الذهنية والشعورية التي يترابط بها عادة، وتلقائيا، المتواصلان : أي الباث والمتلقي..

لقد عدَّ النورسي هذه الجوانب مجتمعة مرتكزا أساسيا لفهـــم المضـــمون القـــرآني وتفسيره، واستقراء أوجه من رسالته على نحو إيجابي وبناء وحصيف..

لقد قدَّرَ النورسي أن التوصيلية القرآنية المعجزة قد أستمسكت بمقـــومين تـــنهض عليهما البلاغة الراقية في كل خطاب، وهذان المقومان هما:

١- البعد التمثيلي الاستعاري الذي دأب الخطاب القرآني يرســـي عليـــه حقائقـــه وتعاليمه.

٢- البعد التقريبي، الكشفي، الذي نهضت به عدة التمثيـــل وتوصـــيل الحقـــائق السماوية إلى العقول، خاصة تلك العقول البسيطة والتي لم تزايلها حال الفطرة ..

وبما أن فنية التمثيل هي أحد وجوه إعلاء المعطى الكلامي، وإدراجه ضـــمن دائـــرة الجمال، فلا ريب أن يكون للمخيلة في ذلك الإعلاء دور يقوم عليه المقصدان : الجمالي والتفهيمي.. من هنا كان استخدام التمثيل يكفل مهمة عرض عميق المعـــاني — كمـــا يقول النورسي — وتقديمها على الصورة الأدائية التي لا ينفر منها البســـطاء، والســـواد الأعم، ولا يستسخفها العقلاء وأهل التمرس المعرفي..

فالتمثيل والتشبيه على الوجه الذي طرحه به النورسي هنا إنما القصد منه التصوير.. فالمفهوم يستوعب المصطلح البلاغي المدرسي ويتجاوزه، لأنه يرســـم دائـــرة تحديديـــة موصولة بالخيال وبالقابليات الذهنية وقدرتها على تأدية المعنى وتبليغه..

فالمسألة كما نرى تتجاوز المعطى البلاغي في صورته المفرداتية التي عرضـــته عليهـــا المدونات التعليمية..

ترى هل كان النورسي يرهص بالقول في هذا المجال للسيد قطب الذي أناط الإعجاز بالتصوير الفني وبالتجسيد الظلالي المعبر، أم كان يرهص بالقول إلى مالك بن نبي الذي قدر هو الآخر للإعجاز ثقلا يرتبط بمجازيته وبالتالي بأدبيته..؟

ولا يفوت النورسي – في هذا المجال – أن ينبه إلى المزلق الخطير الذي وقع فيه كل من سعى إلى تفسير القرآن من غير فهم لآليات البيان العربي ولسننه كما دأبت السليقة العربية تتمرس بها على مدى عهود الصفاء الأولى..

لقد استغلق على هؤلاء أن يفهموا من ظاهر النصوص القرآنية مقاصدها الحق، بل فهموا منها مقاصد مناهضة لروح القرآن .. فهؤلاء رأوا في الصيغ التمثيلية المحيلة على الذات الإلهية – مثلا – حقائق عينية أرادوا أن يرسوا عندها بعقولهم، مع ما يثيره ذلك الرسو التجسيدي من شطط وجنوح عن الحقيقة القرآنية المتعالية عن التعيين حين يتعلق الأمر بالذات الإلهية..

من هنا راح النورسي يؤكد أنه لم يقم جانب مما عُدَّ متشابها في القرآن إلا من هذا الصدد البياني الأصيل في الأعراف البلاغية العربية والغريب –في نفس الوقت– عن الدخلاء على هذه البلاغة ..

ذلك لأن المتقولين لم يدركوا طبيعة الأداء التمثيلي، لاسيما في تلك المواطن التي أحال الخطاب القرآني فيها على الذات العلية : كقوله : **(على العرش استوى)** وفاتهم أن ما يعرف بمتشابهات القرآن إن هو إلا نوع من التمثيلات العالية والأساليب المتعلقة بحقائق محضة ومعقولات صرفة، ولأن العوام لا يتلقون الحقائق في الأغلب، إلا بصورة متخيلة، ولا يفهمون المعقولات الصرفة إلا بأساليب تمثيلية .. وذلك لتأنيس أذهانهم ومراعاة أفهامهم.. [187]

ولا بدع أن نجد جانبا من هذه الإشكالات الاستيعابية التي خصت مستوى من المتن القرآني، إنما بدأ يظهر حين باشرته الذهنيات التي كانت بعيدة بسليقتها اللغوية عن المناخ اللغوي البياني العربي، الراسخ..

النورسي يؤكد دور المتلقي في اجلاء النص

لقد أكد النورسي مكانة المتلقي، وشدد على ضرورة أن يراعي الموقف الكلامي حاجة السامع من أجل أن يتبلور المعطى القولي حسب مستوى خياله، وذلك ما

---

١٨٧ إشارات الإعجاز .ص.١١٨.

استوفاه -بكمالٍ- الخطاب القرآني العظيم، إذ صدر عن هذا المبدإ التبليغي التوصـــيلي الحاسم .[188]

فمن شأن البلاغة المقتدرة- كما يقول النورسي - أن تفيد " بصريح الكلام ما تعلق به الغرض واقتضاه المقام وطلبه المخاطب ..[189]

من هنا وجدنا النورسي يلفت الانتباه إلى طبيعة المواقف الخطابية وما تتضمنه عادة من جوانب غير منطوقة، أو ما يمكن أن نسميه الإيعازات، وما تقوم عليه تلك الجوانب من خصوصيات شعورية محسوسة في الموقف الكلامي رغم إضماريتها.. فهي قيم معنوية قد تستتر في كلمة، وقد يتشربها الكلام، مثل مواقف التحسر في :(**إني وضعتها أنثى**)، والتأسف : في "ليت الشباب" .. وما إلى ذلك..

فالكلام يبنى على أسس إفصاحية تنتج له طاقته وتضفي عليه السلاسة والحلاوة :

" اعلم أن سلاسة الكلام المنتجة للطافته وحلوه هو أن تكون المعـــاني والحســـيات المندمِجة فيه ممتزجة تتحد أو مختلفة تنتظم لئلا تتشرب الجوانب قوة الافادة والغرض، بل يجذب المركز القوة من الاطراف، وأيضا من السلاسة أن يتعين المقصد .. وأيضا منه أن يتظاهر ملتقي الأغراض ". [190]

فأعلى مراتب البلاغة هي التي يحافظ فيها المتكلم ويراعي نسب قيود الكلام وروابط الكلمات وموزانة الجمل بحيث يُظْهِـــرُ كلٌّ مع الآخر نقشا متسلســـــلا إلى الـــنقش الأعظم، حتى كأن المتكلم استخدمَ عقـــولا إلى عقله". [191]

لقد تلاقى النورسي في نظرته إلى العملية الابداعية الخطابية مع جمهرة الاعجـــازيين، وجعل سند الخطاب وصنعته قاسما مشتركا بين الباث والمتلقي، وأناط بالباث مســـؤولية النفاذ إلى أعمق درجات الفطنة والاقتدار بحيث يتسنى له تلبية حاجة الســـامع.. هـــذا السامع الذي عليه — هو الآخر - مسؤولية خطيرة في فهم الرسالة الخطابية وإدراكهـــا على وفق مقاصدها.. وهو ما يتطلب منه الإحاطة بنظام الخطاب والأخـــذ باللطـــائف والحسيات المندمجة فيه، والتي قد لا ينطق بها النص، وإنما يوعز بها ويصدر عنها..

---

١٨٨ م.ن ص.١٢١
١٨٩ م.ن. ص.١٢٣
١٩٠ م.ن. ص.١٢٤
١٩١ إشارات الإعجاز ص.١٢٤

فالخطاب القرآني الذي بارى قول الفحول من العرب، قد صدر في معجزه البياني عن أعراف وقيم المخاطبين موضوع التحدي، وانتهى بأن قهرهم فنيـا، دون أن يغفـل أو يخرج قط عن اعتباراتهم البيانية و الجمالية والسليقية..

من هنا لزم قارئ القرآن ومفسره ومتأوله أن يحيط بالبيئة اللسانية وبالعرفية اللغويـة والتوصيلية التي عايشت واقعة النـزول، كي يتسنى له فهم المقاصد النصية القرآنية.

لقد دخل النورسي إلى عالم ملامسة الروح الاعجازية القرآنية وهو يمتلـك رؤيـة مكتملة لمفهوم البلاغة الراقية، ولخصائص الأداء الأسلوبي الباهر، متسـلحا بمـا أنجـزه الاعجازيون والمفسرون قبله، سائرا على منوال يستفيد من مآثر هـؤلاء الاعجـازيين والمفسرين، وخاصة منهم الجرجاني والزمخشري والرازي، مكيفا بيداغوجيته التفسيرية مع رؤيته الاصلاحية المعاصرة والاستراتيجية التي دأبت على توظيف السياقات في إطار يربط النتائج بالمنجز من تراث السلف من جهة، وبالمقتضيات الراهنة والاستقبالية من جهـة ثانية..

ولقد كان أسلوبه التفسيري يجنح إلى استثمار وسيلة التمثيل بالشـواهد إيضـاحا للمقاصد، وتيسيرا لتوسع وانتشار النتائج التأويلية التي كان ينفذ إليها بعقله وقلبه ..

فلقد سجل في كتابه " الكلمات " الدافع التربوي والتوصـيلي الـذي كـان وراء استخدامه ذلك المستوى التفسيري الإيضاحي والمتعلق بالاستشهاد للحقائق والتمثيل لها:

" إن سبب إيرادي التشبيه والتمثيل بصورة حكايات في هذه الرسائل هـو تقريـب المعاني إلى الأذهان من ناحية، وإظهار مدى معقولية الحقائق الاسلامية ومدى تناسـبها ورصانتها من ناحية أخرى، فمغزى الحكايات إنما هو الحقائق التي انتهى إليها، والتي تدل عليها كناية . فهي إذن ليست حكايات خيالية وإنما حقائق صادقة"..[١٩٢]

لقد أحصى النورسي خصائص بارزة يستند عليها الأسلوب التوصيلي القرآني، لعـل من أهمها طابع بيانه التعليمي، الإفهامي :

"أما البيان القرآني في الافهام والتعليم، فهو خارق و ذو لطافة وسـلامة، حـتى إن أبسط شخص عامي يفهم – بتلك البيانات – أعظم حقيقة وأعمقها بيسر وسهولة .. فكما إذا ما حاور إنسان صبيا، فإنه يستعمل تعابير خاصة به، كذلك الأساليب القرآنية والتي تسمى بـ" التنـزلات الإلهية إلى عقول البشر "، خطاب يترل إلى مستوى مدارك

١٩٢ الكلمات ص.٤٧

المخاطبين، حتى يفهم أشد العوام أمية من الحقائق الغامضة والأسرار الربانية ما يعجـز حكماء متبحرون عن بلوغها بفكرهم، وذلـك بالتشـبيهات والتمـثلات بصـورة متشابهات". [193]

على أن مواقف التفسير في هذا الكتاب " الكلمات "، كانت تتلبسها أحيانا صورة المناجاة الذاتية، فالموقف التفسيري سرعان ما يتحول إلى مخاطبة للـذات وتقريـع لهـا وتسديد لإيمانها..

.. وأحيانا أخرى يأتي الموقف التفسيري على صورة محاورة مع الصاحب....كما هو حال الكلمة الحادية والعشرين مثلا . [194]

لقد نوع النورسي رؤاه التفسيرية وزاولها خلال مراحل وملابسات مختلفة جعلـت معالجاته التفسيرية تأخذ ألوانا ومستويات من الطرح والأداء تحتاج حقـا إلى دراسـة مستقلة .. ومن جهتنا سنركز القول على كتاب " إشارات الإعجاز" وهو كما نعتقـد شاهد آخر من شواهد التجربة التفسيرية كما تمرس بها النورسي..

التفسير وظيفة كشفية

مستويات الوحي :

لقد رأينا – من خلال تتبعنا لآثار النورسي أو رسائله– كيف أنه يبـدي ادراكـا مدهشا حيال إشكالات قراءة النص المعجز، وحيال مهمة التأويل والتفسير تحديـدا، إذ ينيط بهذه المهمة رهانا كشفيا يتمثل في استجلاء المستوى غير العادي الـذي تجسـده ظاهرة الوحي وحقيقة الخطاب المنـزل..

لقد تعرض النورسي للحديث عن ظاهرة الوحي، وقسَّمَه – اعتبارا لدرجة مبنـاه ووضوح أو خفاء دلالته — إلى قسمين :

١– وحي صريح، يتمثل في نص القرآن وجزء من الأحاديث النبوية.. فالرسـول – كما يقول النورسي – في هذا مبلِّغ محض لا غير، من دون أن يكون له تصرف أو تدخل في شيء منه.

٢– وحي ضمني، وهو الذي — كما يقول النورسي– يستند في خلاصته ومجمله إلى الوحي والإلهام، إلا أنه في تفصيله وتصويره يعود إلى الرسول ﷺ .

١٩٣ الكلمات.ص.٤٥٠.
١٩٤ الكلمات ص.٢٩٧.

ويورد النورسي في هذا السياق، مثالا على الكيفية التي تُـؤُولَ بها نص حديث على عهد الرسول ﷺ وفي حضرته، فيقول :

سمع الناس – ذات مرة – وهم جلوس عند رسول الله ﷺ دويا هـائلا، فقـال ﷺ موضحا الحدث : إن هذا صوت حجر ظل يتدحرج سبعين عاما حتى وصـل الآن إلى قعر جهنم .. ويواصل النورسي روايته قائلا: و لم تمض ساعة حتى جاء الجواب، إذ أتى أحدهم يقول : إن المنافق المشهور الذي ناهز السبعين من عمره قد مات وولى إلى جهنم وبئس المصير .. ويعلق النورسي قائلا: فكان هذا تأويلا للتشبيه الذي ذكـره الرسـول ﷺ.[195]

".. فتفصيل الحادثة الآتية مجملا وتصويرها إما أن يبينه الرسول ﷺ أحيانا بالاسـتناد إلى الإلهام أو إلى الوحي، أو يبينه بفراسته الشخصية، وهذه التفاصيل التي يبينها الرسول ﷺ باجتهاده الذاتي، إما أنه يبينها بما يتمتع به من قوة قدسية عليا، بمقتضـى الرسـالة والاصطفاء، وإما يبينها بخصائصـه البشـرية وبمسـتوى عـرف النـاس وعـاداتهم وأفكارهم".[196]

وواضح أن النورسي يزيل الإشكال الذي قد يقوم في الأذهان إزاء مواقف المراجعـة أو التراجع التي سجلتها سيرة الرسول ﷺ إزاء حوادث ما.. فالمسلم لا يـرى في مـا يصدر عنه الرسول ﷺ إلا وحيا وإلهاما وتسديدا إلهيا لا يرد، متناسين جانب البشرية في شخصه ﷺ، وأنه كان إلى جانب الاضطلاع بمأمورية تبليغ الوحي التي كانت حـالا استقبالية تخرج عن إرادته، كان هناك الجانب الإنسي الذي لا يختلف فيه الرسول ﷺ عن غيره من عباد الله .. وهو ما جعل شيئا من آرائه ﷺ يندرج ضمن الرؤيـة البشـرية العادية.. وذلك ما أكده ﷺ بتصريحاته في عدة مواقف، لعل أشهرها ذاك الذي أعلن فيه للصحابة الكرام قائلا : أنتم أدرى بشؤون دنياكم..

في ضوء هذه الحقيقة، رأى النورسي أن هناك مستوى مـن أقـوال الرسـول ﷺ وتصريحاته، صدرت فيها الرؤية صدورا بشريا، إذ أن رؤية الرسول ﷺ كانت حـال صدور تلك الأقول عنه، رؤية الإنسان العادي.. من هنا اتسع لنا نحن الخلف المجال إزاء إدراكها على النحو الذي ينبغي أن تدرك عليه ..

---

١٩٥ المكتوبات ص.١١٩.
١٩٦ المكتوبات ص ١١٩

وذاك هو ما قصد إليه النورسي حين تحدث عن صلة القارئ بمادة النصوص المقدسة وبتفاصيلها، إذ قال : وهكذا لا ينظر (القارئ أو المستنبط) إلى جميع تفاصيل كل حديث شريف بمنظار الوحي المحض، ولا يتحرى عن الآثار السامية للرسالة في معاملاته ﷺ وأفكاره التي تجري بمقتضيات البشرية .

ثم يبين النورسي البعد التأويلي الذي قد يقتضيه الخطاب الموحى به، فيقول : وحيث أن بعض الحوادث يوحى إليه (بها) وحيا مجملا ومطلقا، وهو بدوره يصوره بفراسته الشخصية أو بحسب نظر العرف العام، لذا يلزم أحيانا التفسير وربما التعبير لهذه المتشابهات والمشكلات التي ينطوي عليها ذلك التصوير.

لقد بنى النورسي نظريته التفسيرية انطلاقا من فهم تراثي لروح اللغة - بوصفها حقيقية ومجازا - ومن وعي حاد، وواقعي، لدور المفسر، ولما ينبغي أن تنهض به عملية الاستنباط المعنوي التي تعالج بها النصوص، من وظيفة تنويرية تجدد فهم المسلمين للواقع وتسير بهم في طريق تكريس إرادتهم التي هي من إرادة الله، والتي مدارها الصلاح والإصلاح ..

من هنا ظل النورسي يؤكد قابلية المعنى القرآني التي لا تحد من حيث قدرتها على إلهام القلوب والعقول من ثراء معينها الغزير ..

ومن هنا أيضا كانت نظرة النورسي تحدد للمعنى القرآني مواصفات خاصة نابعة من طبيعته الشرعية وسجاياه العلوية :

" يجب أن يكون للمعنى الحقيقي ختم خاص وعلامة واضحة متميزة . والمشخص لتلك العلامة هو الحسن المجرد الناشئ من موازنة مقاصد الشريعة".[١٩٧]

المجاز وجه بياني قرآني، وتأوله يقتضي أن يتم على وفق السنن البلاغي العربي

ولما كان المعنى تتراوحه صيغتا الحقيقة والمجاز، فقد أبرز النورسي الكيفية التي يفهم بها الخطاب، ومتى يكون ذلك الخطاب حقيقة ومتى يكون مجازا، فيقول :

" أما جواز المجاز فيجب أن يكون على وفق شروط البلاغة وقواعدها، وإلا فرؤية المجاز حقيقة والحقيقة مجازا، أو اراءتهما هكذا، إمدادٌ لسيطرة الجهل ليس إلا..".[١٩٨]

١٩٧ صيقل الإسلام ص ٤١
١٩٨ ن.م. ص٤١

وفي هذا السياق يحذر النورسي من مغبة التفريط والإفراط التي يتأول بها بعض المفسرين الآي القرآنية أو الأحاديث النبوية، فيقول :

"إن ميل التفريط من شأنه حمل كل شيء على الظاهر، حتى لينتهي الأمر تدريجيا إلى نشوء مذهب الظاهرية مع الأسف، وإن حب الإفراط من شأنه النظر إلى كل شيء بنظر المجاز حتى لينتهي الأمر تدريجيا إلى نشوء مذهب الباطنية الباطل، فكما أن الأول مضر، فالثاني أكثر ضررا منه بدرجات".[199]

ويبين النورسي-بعد هذا- طبيعة المسطرة التي على المتأول أن يستهدي بها فيقول:

" والذي يبين الحد الأوسط ويحد من الإفراط والتفريط، إنما هو فلسفة الشريعة مع البلاغة، والحكمة مع المنطق ..".[200]

ويبرهن على رجاحة هذا الرأي الوسطي، فيقول :

" نعم أقول: الحكمة (الفلسفة) لأنها خير كثير مع تضمنها الشر، إلا أنه شر جزئي، ومن الأصول المسلمة أنه يلزم اختيار أهون الشرين، إذ ترك ما فيه خير كثير لأجل شر جزئي فيه، يعني القيام بشر كثير." [201]

ولما كان الخطاب القرآني ظاهرة جمالية راسخة، فقد كان على بيانه أن يتأصل وأن يتسامى ببلاغته على سائر ما درجت عليه الخطب من شعرية ونظم.. وهو ما أعطى المجاز القرآني امتيازه النوعي الذي توطد به سحر الإعجاز..

من هنا كان لزاما على المتأول للنص القرآني أن يدرك كُنْهَ الفنية المجازية القرآنية، فقد كانت تعبيريتها تقوم على التصوير والتشخيص العاليين.. فلقد تأول المغرضون المجاز القرآني على وجه مادي سعيا منهم إلى أن يضاهوا بين المعطى الإنجيلي المبني على التشخيص والتعددية التي صيغت فيها صورة الإله (سبحانه وتعالى)، وبين المحتوى القرآني الصارم في تنـزيهيته، والحاسم في إعلائيته التي تتسامى عن أن تجعل لله الشبيه والولد..

ومن جهة أخرى فقد نتج عن سوء فهم طبيعة المجاز القرآني – من حيث هو خاصية لسانية يَعْتَدُّ بها الخطاب العربي البليغ – وعن الكيفية الحرفية التي قرأته بها طوائف من المتأولين، تخريج سلبي أضر بالحقيقة القرآنية وأضفى عليها طابعا خرافيا، تحول بالأذهان

---

١٩٩ م.ن. ص ٤١

٢٠٠ م.ن. ص ٤١

٢٠١ صيقل الإسلام ص ٤١.

بعيدا عن صعيد الصمدية والتعالي الجديرين بالألوهية .. من هنا ألفينا المتنورين المسلمين في كل عصر تقريبا يركزون على أهمية فهم البيان القرآني الفهم الإيجابي، واستيعاب قيمه المجازية على نحو سليم يتناسب مع المقاصد الروحية للعقيدة الاسلامية..

وقد لاحظ الإمام النورسي في هذا الصدد أن تداول العامة – ومن في حكمهم من مدعي العلم — للعمل التأويلي قد تحول بالمجاز القرآني عن هدفه التبليغي الإيحــائي ..إذ تنــزلت الدلالة المعنوية – بذلك التخريج الناقص – إلى قيمة إعرابية حقيقية انفتح بهـــا الباب في وجه الخرافات والتهيؤات التي انحرفت بالمقصد القرآني إلى ســبيل لا يــتلاءم وروحه الإعلائية.. يقول النورسي:

" إذا وقع المجاز من يد العلم إلى يد الجهل ينقلــب إلى حقيقــة، ويفــتح البــاب للخرافات، إذ المجازات والتشبيهات إذا ما اقتطفتها يَسَارُ الجهل المظلم من يمين العلــم المنور، أو استمرتا وطال عمرهما، انقلبتا إلى حقيقة مستفرغة من الطراوة والنداوة، فتصير سرابا خــادعا، بعدما كانت شرابا زلالا، وتصبــح عجوزا شمطاء بعدما كانت فاتنــة حسناء". [٢٠٢]

القراءة تجدد المضامين بتجدد الزمان والمكان

ويتحدث النورسي – بعد هذا– عن ظاهرة تبدل الدلالة وحؤولتها، شأنها في ذلــك شأن سائر الظواهر الحية .. إذ أن ما تؤشر له لغة جيل في عصر ما، ســيطرأ عليــه – ضرورة – تغيُّرٌ وتطور على مستوى المؤشر اللغوي نفسه، إذا ما باشرها جيل آخــر في عصر آخر بالقراءة المخالفة والاستيعاب المتغير. "إن كثيرا من الكلمات أو الحكايات أو الخيالات أو المعاني التي كان السلف يتذوقها لم توافق الرغبات الشابة لدى الخلــف، لأنها غدت عجوزا لا زينة لها، لذا أصبحت سببا لدفعهم إلى ميل التجــدد والرغبــة في الإيجاد والجرأة على التغيير، هذه القاعدة جارية في اللغات مثلما هي جارية في الخيالات والمعاني والحكايات، ولهذا لا ينبغي الحكم على أي شيء بظاهره"[٢٠٣] وفي هذا المجــال يسجل النورسي الضوابط التي على المحقق أن يراعيها في قراءة النصوص وتأويلها، " إذ من شأن المحقق أن يسبر غور الموضوع، ومراميه العميقة، بتجرد من مؤثرات الزمــان،

---

٢٠٢ صيقل الإسلام ص ٤٠ .
٢٠٣ م.ن. ص ٤٠

وأن يغوص في أعماق الماضي، وأن يزن الأمور بموازين المنطق، وأن يجد لكـــل مســـألة منبعها ومصدرها ". [٢٠٤]

رسائل النور فضاء تفسيري مادته القرآن وآفاقه الاستلهامات الروحية الناتجة عن ملابسة الآيات

ومما لا شك فيه أن النورسي قد مارس التفسير في كل ما أنجز من أعمال.

فرسائل النور –كما ظل يؤكد – تعد في مجملها تفسيرا قرآنيا، خاض في تتبع الحقائق القرآنية ،واستقراء إفاداتها، وتمحيص إحالاتها الظاهرة والضمنية، واستجلاء مكنوزاتهـــا ونفائسها .. وكل ذلك من أجل تسطير المدونة الروحية والعقلية والسلوكية التي يتـــأطر بها المسلم ضمن مشروع نهضوي يكفل قوة وحصانة الكيـــان، وصـــولا إلى منـــــزلة الكمال والإشعاع التي يضحى بها نور القرآن مشكاة يستنير بها العالَمون.." فقد كتبت جميع رسائل النور إما لشرح آية أو لتوضيح معنى حديث شريف وبيانه، كما أن معظم رسائل النور كتبت لتوضيح الحقائق الدينية والإيمانية، وحول عقائد الإيمان بالله وبرسوله واليوم الآخر، ولكي تتوضح هذه الحقائق بشكل أفضل انتهجت رسائل النور أســـلوب ضرب الأمثال وإيراد القصص، وقدمت رأيها العلمي وإرشاداتها ونصائحها الأخلاقيـــة ضمن مناقب حميدة وتجارب في الحياة وقصص ذات عبر ..". [٢٠٥]

لقد اعتبر النورسي رسائل النور تفسيرا قيما وحقيقيا للقرآن الكريم ..

ذلك لأن التفسير كما يرى نوعان :

–التفاسير المعروفة التي تبين وتوضح وتثبت معاني عبارات القرآن الكـــريم وجملـــه وكلماته.

–والنوع الثاني من التفاسير يقوم على إيضاح وبيان وإثبات الحقائق الإيمانية للقـــرآن الكريم، إثباتا مدعما بالحجج الرصينة والبراهين الواضحة، ولهذا القسم أهمية كبيرة .. أما التفاسير المعروفة والمتداولة فإنها تتناول هذا النوع الأخير من التفاسير تناولا مجملا أحيانا، **إلا أن رسائل النور اتخذت هذا القسم أساسا لها مباشرة، فهي تفسير معنوي للقرآن الكريم بحيث تلزم أعتى الفلاسفة وتسكتهم**". [٢٠٦]

---

٢٠٤ صيقل الإسلام ص ٤٠.
٢٠٥ الشعاعات ص.٣٣٧.
٢٠٦ الشعاعات ص.٥٦٢.

لقد احتفل النورسي كثيرا بالخواطر والإشارات القلبية التي كان توغله الروحـــي في عالم التدبر والخوض في دلالات القرآن يلهمه إياها، من هنا أولاها عناية واعتبرها مجالا آخر تستشرف منه الروح جانبا من الحقيقة الربانية:

" الإشارة الغيبية مهما كانت خفية وضعيفة، فهي في نظري على جانب عظيم مـــن الأهمية والقوة، وذلك لدلالتها على صواب المسائل وقبول الخدمة، وأنها تحد من غروري وتكسر شوكته.. وقد بينت لي بوضوح أنني لست إلا ترجمانا للرسائل، ولم تـــدع لي شيئا من موضع افتخار، بل تظهر لي الأشياء التي هي مدار شكران فحسب" .[٢٠٧]

كتاب"إشارات الإعجاز" أثر تفسيري أصيل

قد جاء كتاب " إشارات الإعجاز في مظان المجـــاز.." قـــراءة تفســـيرية أصـــيلة للمضمون القرآني، إذ سلك منهج تحليل النظم وتحسس إشاراته البيانية والرمزية نفاذا إلى الفحوى..

لقد باشرت هذه القراءة العقلية والتذوقية مستوى من الاستكناه المعنـــوي القـــرآني، بحيث ظهر من خلالها ما يشبه الجهاز الاصطلاحي التفسيري الجديد، الذي كان محصلة عقلية ومعرفية استثمرت بمهارة مفردات البلاغة العربية، ووظفت بتوفيق العدة المنطقية والإجرائية من أجل فك وتفكيك بنية الخطاب، دون أن يزايل الروح- في غضون ذلك - تلك الحال المجنحة في الفيض التواجدي الصوفي، ودون أن يغفل الفكر تفتحه علـــى المرصود المعرفي العصري الذي كان النورسي يدرك خطورته وأهميته في تفتيق الأذهـــان وربطها بالواقع الحياتي المتجدد..

فقد دأب النورسي على استثمار رشيد للمناسبات القرآنية، من أجـــل أن يلتفـــت بالإشارة التنـــزيلية إلى ناحية ما من واقع المسلمين، أو من العصـــر الـــذي يعيشـــونه، تحسيسا لهم بالواجبات التي عليهم أن يؤدوها كي يرشدوا.

من ذلك مثلا ما فسر به قوله تعالى: (**وعلم آدم الأسماء كلها**)

يقول النورسي : إني أفهم من أستاذية إعجاز القرآن الكـــريم في قصـــص الأنبيـــاء ومعجزاتهم، التشويق والتشجيع للبشر على التوسل للوصول إلى أشباهها، كأن القـــرآن بتلك القصص يضع أصبعه على الخطوط الأساسية ونظاير نتائج نهايات مساعي البشـــر للترقي في الاستقبال الذي يُبنى على مؤسسات الماضي الذي هو المستقبل، وكأن القرآن

---

٢٠٧ المكتوبات ص ٤٩٢.

يمسح ظهر البشر بيد التشويق والتشجيع قائلا له : اسع واجتهد في الوسائل التي توصلك إلى بعض تلك الخوارق، أفلا ترى أن الساعة والسفينة أول ما أهداهما للبشر يد المعجزة ..

ويمضي النورسي في هذا الاستطراد ليشير إلى جملة من الآيات ذات العلاقة بعالم الصناعة والمعادن وغيرها من أسباب القوة التي أوتيها الأنبياء مثل : الحديد لداود، والريح لسليمان، وتفجير الحجر بعصا موسى، وإبراء الأكمه والابرص لعيسى عليه السلام.. ليقرر أن الحكمة من سرد القرآن لتلك الظواهر والمعجزات ينسجم مع مبدإ التعليمية الإلهية التي شملتها آية (**وعلم آدم الأسماء كلها**..) ويتساوق مع حيوية وتلاحق الفكر البشري الذي طفق ينوع من اختراعاته وخوارقه في مجال النقل والمواصلات وفي حقل الطب وفي سائر ما ابتدعه الانسان من آلات ناطقة ومتحركة وعاملة ..وما توطد لهذا الفكر البشري على صعيد البلاغة والأدب والفنون من انجازات وسعت الأفق في وجه البشرية .. وكل ذلك يشمله معنى تعليم آدم الأسماء كلها..

هكذا يحيط النورسي بالآيات القرآنية ويسعى إلى ربط ما يتأتّى من دلالاتها بالمجال الحياتي، قبل أن يباشر شرح معانيها وتبيان لويناتها التي يشف عنها الخطاب القرآني، مفككا البنية إلى عناصر بلاغية وأسلوبية يحيل بعضها إلى بعض، في تساوق يعرب عن القصد القرآني الكريم..

لقد تميز هذا النمط من التفسير البياني الذي اتبعه النورسي في هذا الكتاب، بالمنهج الدلالي، النصي، وبالاستقراء البلاغي، إذ سبر المحمول من خلال البيان..

على أننا وجدنا النورسي يَتَّبعُ – في بعض أعماله الأخرى – أساليب أخرى متنوعة في تفسير القرآن، مستثمرا الخواطر القلبية، واللطائف الروحية التي تتدفق بها لحظات تأمله واستغراقه الوجداني .. مستلهما المدد الاجتماعي والعرف المعرفي والعلمي في تأصيل بيداغوجية تفسيرية تخاطب سائر العقول، مقتديا في ذلك بمنهج القرآن الذي شرّع دلالته ومقاصده في وجه القلوب والعقول كلها، تنال منها حسب حاجتها واستعدادها ..

وقد شق النورسي الدرب – في هذا المضمار وبلا منازع – أمام جمهرة المفسرين المعاصرين، لا سيما السيد قطب والشعراوي والغزالي والسقا رحمهم الله ..ممن أعطوا مشغل التفسير روحا دينامية وحصيفة تنفذ إلى الأذهان دون استئذان..

لقد استثمر النورسي جهوده في فهم النصوص الشرعية ومعرفـــة مراميهـــا، فكـــان "..يأتي بتفاسير جديدة وأصيلة وعميقة، ثم يعرض هذه المعاني الإلهية المستنـــــزلة إلى مستوى المدارك الانسانية أمام العيون الباحثة والقلوب الظمأى للحقائق، فيثير وجـــداننا بأفكار الذهنية التي تعكس ارتفاع هذه المعاني إلى ذروة المدارك الانسانية ". [٢٠٨]

ويندرج ضمن هذا المنهج ما تضمنته أعماله في عمومها، من اقتحام لمسائل اجتهادية وغيبية، ومعالجتها بعقل متنور، وتحصيف مبين، دون أن يقع في مزالق ثقافة الاسرائيليات التي تلوثت بها كثير من الحقائق القرآنية بسبب اعتماد المسلمين لها، وعـــدم التصـــدي الجرئ والمعقلن الذي يقصيها عن ساحة تراثنا الروحي، ويزيلها عن ناصية قرآننا العظيم، وهو ما انبرى له النورسي من خلال إثارته الكثـــير مـــن الإشـــكالات والتســـاؤلات والفرضيات التي قامت على المفارقة والمباينة لروح القرآن، فعالجها بما جعل منها مسائل تمت إلى الحيرة البشرية بصلة مشروعة ولا غبار عليها ..

لقد اكتسبت مسائل من قبيل :الحشر وجهنم وحكم الله في والـــدي الرســـول ﷺ وغيرها من الأسئلة المحرجة التي أجاب عنها النورسي برشاد في كتابه " المكتوبـــات " أهلية الطرح واستحقاق المعالجة العقلية المبرأة من شوائب الافتراض المجاني والتطـــارح الفكري العقيم .[٢٠٩].

الجانب الغيبي في تفسير النورسي ارتقاء بالمدارك البشرية إلى مستوى علو المقاصد القرآنية

وكذلك كان حاله في تفسيره " إشارات الإعجاز." حيث كان يعـــرض لقضـــايا معرفية وغيبية بقصد ترشيدي، إذ يحرص على تجاوز منطق تفسير القرآن وفق الرائج من المعارف الانسانية التي لا تفتأ تتبدل وتتغير في ضوء اطراد حركة الكشـــوف العلميـــة والتوسع التجريبي..

فقد وجدناه يتناول مثلا قضية الكون ومرافقه الكبرى لا ســـيما الأرض والســـماء وإشكالية أيهما أسبق من حيث الخلقة.. فقد ترتب سياق بعض آيات على نحو يـــوعز بأسبقية إحداهما على الأخرى، فيما جاءت سياقات أخرى توحي بالعكس..يقول:

٢٠٨ تقديم المثنوي العربي النوري –ط.
٢٠٩ المكتوبات ص ٤٩٥

إن القصد من القرآن الكريم ليس درس تاريخ الخلقة، بل نزل لتدريس معرفة الصانع .. ففيه مقامان : ففي مقام بيان النعمة واللطف والمرحمة وظهور الدليل تكـــون الأرض أقدم . وفي مقام دلائل العظمة والعزة والقدرة تكون السماوات أسبق ..

ومن الثابت أن النورسي بهذا الاجتهاد يخرج هذه المسألة من إطار جدلي شبه مفرغ من الغاية، إلى تسويغ ذي معنى، إذ ليس يستهويه الإثبات لذات الإثبات في هذه القضية الغيبية التي لم تقطع فيها النصوص ..

فالنورسي بمثل هذه الحالات الفكرية التي ظل يسجلها في تراثه، كان يتحول بالنقاش والفذلكات التي لا تسلم من مجانية وخواء في كثير من الآثار التفسيرية، إلى صعيد أرقى، ليعطي مثل تلك الفذلكات الإفادة التي تقتضيها المقاصد القرآنية، حيـــث لا يمكـــن أن تتنـــزل النصوص السماوية لتشد عقول الناس إلى مجالات جدلية شكلية، من قبيل تلك التي أودت بمدنيات وحضارات سبقت مدنية الاسلام.. ألم تشب النيران في أروقة النظام الروماني وساسته ينتصرون لآرائهم بخصوص أسبقية الدجاجة أو البيضة في الوجود..

ولم يتوقف النورسي عند هذا الحد التسديدي إزاء قضية أي المرفقين الكونيين أسبق أالسماء أم الأرض، ولكنه انعطف بها ليستعرض شيئا من المعرفة التي ظلت تكتنفها ومن مختلف المصادر..

" اعلم أن الحكمة العتيقة قائلة بأن السموات تسعة وتصورها أهلها بصورة عجيبـــة واستولى فكرهم على نوع البشر في أعصار . حتى اضطر كثير من المفسرين إلى إمالـــة ظواهر الآيات إلى مذهبهم .. وأما الحكمة الجديدة فقائلة بأن النجوم معلقة في الفضـــاء والخلو كأنها منكرة لوجود السماء، فكما أفرط أحدهما فرط الآخـــر، وأمـــا الشـــريعة فحاكمة بأن الصانع جل جلاله خلق سبع سموات وجعل النجوم فيها كالسماك تسبح، والحديث يدل على أن السماء موج مكفوف ،وتحقيق هذا المـــذهب الحـــق في ســـت مقدمات .."

ثم يمضي النورسي يعدد هذه المقدمات، ومما جاء في بعضها :

" إن هذه الامارات تدل على تعدد السموات، والشارع الصادق قال هي سبعة فهي سبعة، على أن السبع والسبعين والسبع مائة في أساليب العرب لمعنى الكثرة .. ".[٢١٠]

---

٢١٠ إشارات الإعجاز.ص٢٢٦

كما أن النورسي يعرض لمسائل من قبيل جهنم، وتحديد مكانها، وهل هي معدة، أم أنها لم تخلق بعد؟.. فقد عقب على قوله تعالى: (**أعدت للكافرين**)

بأن جهنم مخلوقة موجودة، يستشهد في هذا باكتناف النار لهذا الكون، فهي تغلب عليه مجرات وبواطن كواكب، ومما يقوله النورسي في هذا الصدد : ثم إن مما يدلك ويفيد حدسا لك على أبدية جهنم أنك إذا تفكرت في العالم بنظر الحكمة ترى النار مخلوقة عظيمة مستولية ،غالبة، كأنها عنصر أساس في العلويات والسفليات ..

ثم يتساءل، فإن قلت : إذا كانت جهنم موجودة الآن فأين موضعها ؟.

ويجيب : قيل لك نحن معاشر أهل السنة والجماعة نعتقد وجودها الآن لكن لا نعين موضعها..

ثم يسترسل في الحديث عن المسألة بروح جدلية تكشف عن استيعاب كبير لطبيعة الكون وخصائصه الفيزيائية لا سيما عنصري الحرارة والبرودة وارتباط بعضهما ببعض، ليخلص في الأخير إلى ابراز الكيفية التي يتبعها القرآن في الكشف عن هذه الكليات الغيبية، والمقاصد التربوية التي يتواخاها من وراء ذلك . [٢١١]

ولا يعني بتاتا أن النورسي رجح في مركز اهتمامه الفكري، الخوض في مسائل الغيب وحدها، بل لقد أعطى الحظ الأوفى من جهده العقلي والتأملي لموضوعات الانسان والنفس والسعادة النفسية المترسخة برسوخ اليقين، وجهاد الانسان من أجل أن يعطي لحياته معنى تمتد به وتدوم لتكتسب حق الخلود، ومقابلته الواقع المدني الاسلامي مع الواقع المدني الأجنبي، ونعيه حال الفرقة والتمزق التي يحياها المسلمون، وتمسكه بمبدإ الخلافة الاسلامية التي تمكن للمسلمين في الأرض وتجعلهم أمة وسطا تفشي الخير بين العالمين، وبته في واجبات المسلم المعرفية والروحية والاستراتيجية، وغيرها من الجوانب التي تبني شخصية المسلم وتبعث فيه همة النهوض والانطلاق من جديد..

وبالأضافة إلى ذلك كان النورسي يستثير مستويات من ذلك الصنف الغيبي الذي استقرت له في الذهنية الشعبية المسلمة صورة لا تتناسب مع روح الاستنارة التي جاء القرآن يركزها في عقل المسلم وقلبه، حتى يكون عنصرا فاعلا لدنياه ودينه، كي يلقى ربه وهو عنه راض.. فأضفى عليها النورسي ثوبا جديدا سار بها وبحق صوب صعيد المعقولية والاستنارة..

---

٢١١ انظر إشارات الإعجاز ص. ١٩٠

التخريج والتأويل أو الاجتهاد وروح تحيين التراث وقلب الأوضاع بجرّافات القـــرآن النورانية

مما يتميز به فكر النورسي التأويلي، انطباع ممارسته للتخريجات القرآنية أو النبويـــة بروح وثقافة عصره، إذ متحت اجتهادته التأويلية ليس فقط من معين التراث، ولكن من واقع الحضارة المعاصرة وفي ضوء ملابسات مرحلته التاريخية .. وهو مـــنهج تعاطتـــه القرائح عبر العصور، وربما رأى بعض المتحفظين في هذا التوجه خروجا بالنصوص عـــن سياقاتها، وتحميلها من الدلائل ما لا تحتمل، وتعريضها على ذلك النحو لمزلق التعســـف والافتعال..

لكن الذي لا ريب فيه أن تحجير النص الديني، والاحتفاظ له بنظرة اجتهادية لاءمت عصراً ما، وصدرت عن ذهن تَحَرَّى السداد في ذلك الوجه الذي تأوله به متأول ما، لا يبرر أن تظل الدلالة المُنَزَّلَة حبيسة نظرة اجتهادية قد تكون عوارض الزمان حولت تلك الدلالة عن مراميها المرحلية تلك، إلى أفق جديد ارتبطت به مصـــلحة الأمـــة الدينيـــة والدنيوية المستجدة ..

فالدلالة القدسية دلالة مُشْرَّعَةٌ في وجه التحولات والأزمنة المتلاحقة، وهي تستوعب الطوارئ ولا تستوعبها الطوارئ .. من هنا تكررت نداءات العلماء المسلمين النيرين منذ العهد الإسلامي الأول بالدعوة إلى تثوير النصوص، فقد وجدنا الصحابي ابن مســـعود مثلا ينصح قائلا: من شاء أن يجد علوم الدنيا والآخرة فليثوِّر القرآن ..أو كما قـــال .. و لم يكن عمل ابن عباس إلا وجها اجتهاديا أرهص به ذلك العهد الاسلامي الغض لمـــا ينبغي أن تكون عليه قراءة القرآن من تثمير جريء لمعارف العصر في فهم الدلالة القرآنية وتحكيم النص القرآني في تحصيف تلك المعارف، لا العكس.. وعلى ذات الدرب سارت تأويلية عمر (رضي الله عنه)، فقد زاوجت في تَمَثُّلِهَا للموقف القرآني بين الوجه العملي، الإجرائي، بحكم مركز الإمرة الذي كان يحتله على رأس المسلمين، وبين الوجه النظري ،الفكري.. تماما كما كان عليه شأن علي (رضي الله عنه) وغيره من الخلفاء

.. فالدعوة إلى سبر جوهر القرآن والنفاذ إلى أغواره واستخراج الأحكام والدرر من بواطنه الثرة التي لا تغيض، إن هذه الدعوة التثميرية للقرآن ظلت تتردد عبر العصور، لا سيما على ألسنة الفذاذات التي كانت تستشرف بقريحتها وسداد بصيرتها مـــا يحـــوزه

القرآن العظيم من كنوز من شأنها إذا ما استغلت، أن تحقق للأمة كل أسباب العزة والنهوض..

وحين يقرأ النورسي في الشواهد القدسية أمارات واقع عصره وكشوفه ومنجزاته الفنية، فلأنه كان يرى الطباقات قائمة بين ما يوعز به النص الشريف وبين وقائع الحياة من خلال ظواهرها ومكتسباتها، ثم لأنه – في رؤيته التي حرص على أن يدمج بها المعارف والمبتكرات ضمن دائرة التسليم – يريد للحكم القرآني أن يظل معيارا رؤيويا تتقوَّمُ في ضوئه الأشياء والأحداث والمواقف..

النورسي يتسلح باليقظة ويثمر التأويل في الرد على الكائدين

لقد كانت رياح المروق تعصف بالأمم، وكانت تسعف ذوي الأفئدة الخاوية حوادثٌ ومعطياتٌ مدنيةٌ وحضاريةٌ تعزز لديهم نوازع الجحود.. كما أن وطأة الانبهار، لاسيما من قبل فئات مسلمة كانت الخصاصة والجهالة تسحقها، قد جعلت النورسي يتسلح باليقظة للاعتراض على ما يفاقم من تلك الأحوال الشعورية النكوصية العامة التي كانت تترك الأثر السيء على النفوس، وتهيئها للانتحار المعنوي، أو تجعلها قاب قوسين أو أدنى من الافتتان، وكل ذلك كان النورسي يبادر إلى تبديده، وكان عليه ليكون فعالا، أن يتمرس ببيداغوجية مجدية، إذ أن أساليب الإغواء كانت من الخطورة والنفاذ بحيث لا يمكن للمساعي الاعتراضية أن تؤدي وظيفتها الحمائية ما لم تكن على مستوى من النجاعة والتمهر..

ولقد كان من جملة ما اهتدت إليه قناعة النورسي التحصينية، أن يضع في مركز اهتمامه تلك المعطيات العلمية والإنجازية التي كانت بعض ما يتذرع به الغرب المارق لتضليل الشعوب المستضعفة وعزلها عن روحيتها، وكان عليه أن يتدبر أمر تلك المنجزات بكامل المعقولية والتبصر، وأن يربط بين مظاهر القوة والتوفيق التي تجسدها تلك المكاسب وبين العظمة الخارقة لله الذي جهز الانسان وكفل له من الرسائل والمحفزات ما يسر عليه أن يحقق ما حقق في مضمار التجهيز ومغالبة الضعف البشري ..

إنه نوع من الاحتياز، أو هي – بالاحرى – حال من الاسترجاع والتملك كان النورسي يهيئها للأمة عندما يقرر لها أن التوفيق الإلهي هو الذي مكن الغرب الغالب من أن يتخطى عتبة البدائية، وأن في مكنة الأمة المسلمة إذا ما وطنت صلتها بالله وبقرآنه أن تتوفق هي الأخرى إلى حيازة السبق في مضمار المنجزات العلمية والتقنية ..

لقد كان النورسي يُعَدِّلُ من مَيْلِ الأمة ويُرَشِّدُها في هذا الاتجاه، من منطلق إنساني مسدد بتعاليم الله التي لا عرقية فيها ولا تغطرس ..

إن موقف التنويه بمبتكرات العقل الإنساني التي كان الغرب يتبجح بها ويجور، وإرجاعها إلى أصلها وعلتها – وهي الله – لهو في الواقع ضرب من إعادة التمليك يقوم به النورسي لصالح الأمة .. بكل ما يُحدث ذلك الفعل الترشيدي من آثار إيجابية على المعنويات العامة لفئات تلك الأمة ..

لقد كان النورسي يبث وعيا تخليصيا، مفاده أن العقل الانساني – بتلك المبتكرات المادية المبهرة – لم يستحصل إلا ما شاء الله له أن يستحصل، فلا امتياز ولا مزايدة على البشرية وعلى تساويها في الخصائص، وإن عملت المراحل على احداث التفاوت بينها..

فسنة التداول على المقدمة ماضية في الورى بلا إخلاف، وهو ما يثبت التساوي الطبيعي المبدئي بين بني البشر.. ولما كانت قابلية الإيمان الروحي السماوي أقرب إلى نفوس المسلمين، بفضل إحساسهم بأن أمر الانسانية يعنيهم – باعتبارهم الأمة التي تَتَوَجَّتْ بكتابها رسائلُ السماء إلى الارض – فإن تلك التقريرات الإيمانية والتوحيدية، والرابطة بين المنجزات والتطور الحضاري وبين الله وتوفيقاته وأفضاله على العباد، كانت تحدث فعلا تنفيسيا وانعاشيا، يخالج روح الأمة ويبعث فيها شيئا من التماسك، ومن التفاؤل والأمل بأن لها هي أيضا قابلية الفعل، وأنها تملك الحظوظ التي ستكفل لها السبق..

لقد كان النورسي يدرك تلك الآثار الإيجابية التي تحدثها تعاليمه الترشيدية وبيداغوجيته التي تعيد في كل تحليل نصاب القوة والتفوق إلى الله، وليس إلى الأعراق والقوميات.. فلذلك دأب النورسي على تبيين الحقائق للأمة، خاصة وأن احتدام الوهج الإيماني التوحيدي في جوانحه كان يزكي من قيمة تلك الحقائق ولا يفتأ يبرهن ويحاجج على ألوهيتها ..

من هنا كان النورسي يحرص على الربط بين أوضاع اعتلال الأمة وبُعْدِها عن تحكيم النصوص الدينية في أوضاعها، وبين حال تخلفها وصغارها المدني الطارئ..

ولا غرو أن يستغرق أعمالَه الفكريةَ في جملتها وازعُ التدبرِ واستنطاقِ الكتابِ المبين والسنةِ الشريفة.. ولا غرو كذلك أن تشغله أحوال الأمة والخطوب الفاجعة التي كانت

تتلاحق عليها في تلك المرحلة.. وأن يلازمه التفكير في راهنها وقابلها انطلاقا من منظور كتابها المحكم..

لقد كان النورسي بملازمته القرآن العظيم يجد السلوى والترشيد اللذين كفلا لــه أن ينهض بمهمة الاستنقاذ والإغاثة التي كانت الأمة المسلمة في مسيس الحاجة إليها..

من هنا جاءت آثار النورسي كتابا مفتوحا على واقع أمته، وقراءة لسيرورتها غــير الموفقة، والتي آلت بها إلى الدمار الروحي المريع بعد أن خرجت عــن ســكة الكتــاب والسنة..

بل لقد طفق النورسي يستقرئ تلك الأوضاع المتزلزلة من فحوى الأثر الديني على وجه الخصوص، ويستبين في ضوئها القرائن الكاشفة لما كان يطفو على الســطح مــن طحالب الردة والنكوص التي أفرزتها مرحلته، وكل ذلك كان تأهيبا للأمة – من جهة – حتى لا تسلم المقادة لجزاريها من دون مقاومة، ومن جهة أخرى فإنه كان يتوخى بــث ضرب من التطمين المُقَوِّي للروحية، والذي من شأنه أن يصور للأمة تلك الأحــداث والنكسات المميتة على أنها أمر عارض، وداءٌ داهم، وأن صفة التداوي منه قــد بينتهــا التوقعات النبوية المُرَشَّدَة، وهي الاعتصام بالقرآن العظيم والتدرع بتوجيهاته العلويــة في بناء الاستراتيجية المخلِّصة من كابوس الغلبة والاندحار..

التأويل نافذة على قراءة الواقع

لقد راح النورسي عبر مواطن كثيرة من أثاره يتتبع هذا اللون العلاجي، الإيقــاظي، المستند على فاعلية القراءة المتدبرة والتخريج المبين للنصوص الشرعية، إجــلاء لحقــائق تضمنتها الآثار القدسية، ووجد النورسي في تبيان حقائقها جانبا مهما مــن متطلبــات العلاج المكثف الذي كان يقتضيه وضع الأمة المتفاقم..

لقد أصل النورسي منظومة معتبرة أناط الجهد فيها بتحقيق توعية الأمة وتبصيرها بما كان الأبالسة يحيكونه لها من ويلات..

لقد كانت قراءته لهذا المستوى من الآثار الدينية وجها يندرج ضمن روح الجهاد التي انبرى بها للفساد والردة ..

كما أن هذا الوجه من القراءة والتأويل قد كشف الاستراتيجية التأويلية التي تبناها، كموقف فكري ملتزم، ومتصد للعدوان..

وربما يندرج ضمن نطاق هذه المنظومة تأَوُّ لُهُ الملهم لحديث السفياني .. لقد تتبع جزئيات هذا الأثر، واستقرأ منها بكل لبابة خصائص حدد بها تعيينات بشرية كان دورها التغريبي رئيسيا في ما عرفته أحوال تركيا ما بعد الخلافة..

فقد ورد في الأثر : أن السفياني من أشخاص آخر الزمان ستنخرق كفه..

ووجدنا النورسي يخرِّجُ معنى هذا الحديث بقوله : إن أحد أوجه التأويل لهذا الحديث والله أعلم :

لا يبقى المال في يده، لكثرة إسرافه وتبذيره في السفاهة واللهو والعبث. فالمال يجري في كفه إلى الإسراف.

ولكي يسوغ النورسي ما ذهب إليه، رأيناه يستدعي السند التدليلي من خلال إيراده لغة الأمثال اضاءة لمعنى الحديث . يقول :

وفي المثل : فلان منخرق الكف، أي مبذر، مسرف. ثم يخلص إلى تقرير النتيجة، وهي أن ".. السفياني بحضه الناس على الإسراف، يثير فيهم حرصا شديدا ويهيج طمعا غالبا، فيسخرهم لمآربه من نواحي ضعفهم تلك..".[٢١٢]

وواضح أن النورسي قد تخطى منذ البدء – وهو يتأول هذا النص المقدس – مأزق التفكير الأحدي، إذ قرر أن للحديث احتمالات شتى، رأى أن أرجحها هو ما فسره به..

من هنا تبدو مرونة النورسي الفكرية ورؤيته القويمة التي لا تجزم بأمر إلا بعد استقراء عقلي متثبت لتلك التقريرات الدينية المقدسة التي جاءت خبريتها عامة لا تهم الفرد بقدر ما تهم الأمة، ولا تقتصر إفادتها على تعيين إشكال عصر بعينه، ولكنها تنفتح على الإيماءة إلى إشكالات لا تخلو منها كثير من العصور والمراحل..

ولما كانت ظروف الناس والأجيال تتباين وتختلف من مرحلة ألى أخرى، كان طبيعيا أن تتباين التسديدات التي تَتَخرَّج وفقها الدلالة النصية القدسية..

من هنا كان النورسي – وهو الذي كان من الرجاحة والأهلية ما جعله رأسا معنويا في أمته – لا يتردد في قراءة أحوال عصره من خلال استيعابه للمأثور الديني الشريف وإسقاط اعازاته عليه ..

---

٢١٢ الشعاعات ص١١٠

ولما كان إحساسه بالمسؤولية حيال عقيدته وحيال أمته راسخا، فإنه لم يشأ أن يختزل اتساع النص في قول يطابق به ما كان عليه واقعه الاجتماعي والحضاري من أوضاع، لذا بادر في مطلع حديثه عن مقاصد ذلك الحديث إلى إثبات مبدإ تعددية المعنى وانفساح الفحوى ليشمل مرامي أخرى، شاء هو أن يتخير أحدها .. مفسحا بذلك المجـــال في وجه المتأولين المسلمين وما قد يعطونه لهذا النص من معان غير المعنى الذي أعطاه هو له، سواء ممن يجمعه معهم العهد أو من هم خارج عصره..

ومما لا شك فيه، وكما هو جلي، فإن النورسي لم يتهافت بالنص، حين قرأه علـــى ذلك النحو الواقعي – تهافتا يمس بقداسة الأثر أو يلقي عليه ظلالا من التقزيم الذي ينشأ عادة بسبب ما يحدثه التأويل حين تتسع الهوة بين مستوى المُتأَوَّل ودلالته الواقعية..

وفي اعتقادنا ان النورسي لم يشأ أن يدخل إلى غايته التأويلية تلك، هـــذا المـــدخل الاسقاطي، الطباقي، إلا لتعرية مخازي عهد ونظام أدارتـــه وحركـــت دوالبـــه غوايـــة السفياني..

وذاك ما كفله له إختيار هذا النص الشريف، إذ هيأت قراءته للداعية أن يشـــخص الداء كما جسدته أفعال المرتدين، وهذا بالمطابقة الضمنية لأفعالهم بأفعال السفياني كما سجلها الحديث الشريف، فجاء من ثمة منحى الخطـــاب التـــأويلي متســـما بســـمة الاستفظاع والتشنيع..

إنه نوع من استدعاء المسكوت عنه، وإثارة القول فيه، بطريق متناهية الكياسة، دونما الوقوع في المواجهة وما تقتضيه من مهاترة تحذق حوكها دوائر الجور وتستثمرها بقصد التقليل من الأثر الإداني الذي تلحقه بها مثل تلك القراءة الاستقرائية المترفعة عن اتبـــاع أساليب التصريح والمباشرة في مواطن لا يقصر فيها الإيعاز عن الكشـــف عمـــا يريـــد الكشف عنه..

وهكذا أتاح للنورسي منهج المقاربة بين رموز الردة كما كانت تجسدها مواقفهم في أرض الواقع وبين نعوت السفياني كما أخبرت عنه السنة الشريفة، أن يكشف جملة من جوانب الفساد والانحراف التي سببتها سياسة السفياني ..وأن يُشَهِّرَ بها، وأن يعمـــل من خلال ذلك على كسب الناس إلى جانب الحق، وتحصينهم بالحق على طريق الحق..

فقد تابع النورسي رسم الصورة الإيعازية التي أراد أن يؤطر بها رســـالته إلى الأمـــة بخصوص فضح أفاعيل الساسة المتغربين، فتطرق إلى إيراد مزيد من التفاصيل من خـــلال

مواصلته تأويل نص نبوي ثان، جاء فيه : إن شخصا رهيبا – من أشخاص آخر الزمان – يصبح وإذا على جبينه مكتوب : هذا كافر.

ويبادر النورسي إلى تأول هذا النص على نحو استقرائي لا يحتكر الوصاية على الدلالة أو يقصرها على تخريج واحد.. فيقول : إن ذلك السفياني سيلبس قبعة الافرنج، ويُكره الناس على لبسها، ولكن لأنه يعمم لبسها بالإكراه والقانون، وتلك القبعة ستهتدي بإذن الله – حيث تهوي الى السجود – لذا لا يكون كافـرا من لبسها مكرهـا عليها، غير راغب فيها.. ".[213]

وواضح أن وجهة الحديث قد تحددت واتضحت مقاصدها الإدانية، إذ اسـتهدفت الجهة التي كانت في ذلك العهد تلزم المجتمع التركي على ارتداء القبعة..

بل لقد جاء التأويل هنا يجمع بين إفادات جمة إذ تضمنت الطعن والتوجيه والفتوى.. فهو تأويل قد طعن – بهذا الإيعاز البين والنافذ – في شخص السفياني الواقعي .. فقـد أبان هوية هذا السفياني من خلال ما أسند إليه من فعل، بحيث باتت شخصيته مكشوفة لدى أفراد المجتمع نتيجة التدليل عليها بفعلها كما أسلفنا..

ومن جهة أخرى فقد تضمن التخريج ما كان النورسي يقدره من علاج مناسـب للواقعة الاجتماعية والروحية القسرية، إذ أوضح أن الأسلوب القويم الذي على الأمة أن تواجه به هذا الإجراء التغييري الظالم، هو أن تستمر على إيمانها فلا يحولها إشكال لـبس القبعة عن ممارسة شعائرها وفرائض دينها.

كما أن التأويل صدر عن روح فقهية تُجَوِّزُ أداء الشعائر بالهيئة التي أرغمت عليهـا الأمة حين أُجبرت على لبس القبعة.. فالفتوى التي قرَّرها النورسي هنا هي جواز الأخذ بالبدعة لمن أكره عليها..

ويتابع النورسي إرساء اللوحة التي ترسَّمها للخصم الملي من خلال تناول مزيد مـن الأقوال الموعزة بصفات ومناكر السفياني.. وفي هذا السياق يورد الخبر الذي رُفِـعَ في حق حكام آخر الزمان، ومفاده : أن لحكام آخر الزمان المستبدين – ولا سيما الدجال– جنة وجهنم زائفتين.ويتأوله النورسي قائلا:

---

[213] الشعاعات ص١١٠

"إنه إشارة إلى ما في الدوائر الحكومية من أوضاع متقابلـــة متنـــاظرة، كالمدرســـة الإعدادية مع السجن، إحداهما صورة مشوهة للحور والغلمان، والأخرى موضع عذاب وسجن".[٢١٤]

ويلحق ذلك بخبر آخر يفيد بأنه لا يبقى من يقول الله الله في آخر الزمان.

ويفسره قائلا :

" إن تأويلا لهذا – ولا يعلم الغيب إلا الله – هو : إن الزوايا التي يذكر فيها الله .الله. الله.. والتكايا وأماكن الذكر والمدارس الدينية ستغلق أبوابها، وسيوضع اسم آخر بـــدلا من اسم الله في الشعائر الاسلامية كالأذان والإقامة.."

لقد كان النورسي يلمس في إفادات الحديث وقائع حية كانت الـــدوائر الســـلطوية تنفذها وتعمل دائبة من خلالها على قطع الصلة بين الشعب وعقيدتـــه..لكن النورســـي كان على وثوق بعدم فلاح تلك المساعي الإلحادية الظالمة الهادفة إلى تغيـــير الفطـــرة في النفوس وركونها إلى الإيمان على أي نحو كان ذلك الإيمان.. وهو ما يكشف عنه تعقيب النورسي على ما تأول به الخبر، حيث لاحظ أن " ليس معنى الرواية أن النـــاس كلهـــم سيتردون في الكفر المطلق، لأن انكار الله أبعد عن العقل من انكار الكون، فالعقـــل لا يقبل وقوع معظم الناس في هذا الانكار فضلا عن كلهم.[٢١٥].

ثم يستمر بعد هذا في تنويع التخريج لنفس الخبر، قائلا : وتأويله الآخـــر هـــو: أن أرواح المؤمنين تقبض قبيل قيام الساعة كيلا يروا هول أحداثها، فتندلع القيامـــة علـــى رؤوس الكفار وحدهم..[٢١٦]

هكذا يواصل النورسي بسط تأويلاته التي قرأ بها أخبارا نبوية تدور حول الـــدجال وفتنة آخر الزمان، وما جاء عن تكاثر النساء وتناقص الرجال، ومـــا ورد عـــن مقتـــل الدجال على يد سيدنا عيسى عليه السلام، وحول أخبار ياجوج ومـــاجوج، وأخبـــار المهدي، وعن طلوع الشمس من مغربها وظهور دابة الأرض، وعن سر تسمي الدجالَيْن باسم المسيح.. إلى غير ما جاء في ذلك المستوى التأويلي الذي خاض فيه النورسي بروح حرصت على أن تجد في بيان ما توعز به تلك الأخبار متين الصلات مع ما كان يميـــز الوضع الإسلامي والمجتمع التركي في تلك المرحلة تحديدا..

---

٢١٤ الشعاعات ص.١١٠

٢١٥ الشعاعات ص.١١٠

٢١٦ م.ن. ص١١٠

تحصيف المروي من الأخبار، بواسطة حسن التأول والتأويل

على أننا وجدنا النورسي – وبالرغم من استعداده الكبير للخوض في كثير من مسائل الغيب –أو ما يسميه المتشابه من الآيات والأخبار، وتأويلها – يقرر وجـــوب التـــزام موقف التخفظ إزاء بعض ما يتواتر به صنف من الروايات المتصلة بمسائل مغيبة أو فوق عقلية .. ذلك لأنه رأى أن هناك مرويات تروج وتفيد بحقائق غيبية معينة قد لا يدركها العقل .. ورأيه في هذا الصدد أن يقف المسلم من تلك المرويات موقف التقبل والتسليم ، إذا ما جزم بصحة تواترها، دون البحث لها عن تَـــمَـــثُّـــلٍ: "..هناك من المسائل فوق العقلية التي يطالب الفرد فيها بـــ"القبول التسليمي وعدم الـــرد، لا الإذعـــان اليقيـــني القصدي حتى تحتاج إلى طلب البرهان القطعي..". [217]

وفي هذا الإطار يرى النورسي أنه علينا أن نعتمد وسيلة التأويل لفهـــم كثـــير مـــن المسائل الشرعية الملحة لا سيما بعض الأخبار، لأن الإفادات لا تعدم جوًّا يسوغ مراميها ويحدد مقاصدها، وبما أننا تلقينا الإفادات – محل الاشتباه – بواسطة الخـــبر، فعلينـــا أن نُمَحِّصَ أولا مصداقيتها وعدالة القناة التي بثتها، (سلسلسة الرواة)، ثم علينا بعد ذلـــك أن نتأول معناها ..

"..ألا تعلم أن متشابهات القرآن كما تحتاج إلى الـــتأويل كذلك مشكلات الأخبار تحتاج إلى التعبير والتفسير، فإذا صادفك رواية مخالفة للواقع — في نظرك الظاهري — فمع احتمال أن تكون من الاسرائيليات، وأن تكون من أقوال الـــرواة، وأن تكـــون مـــن مستبطنات الناقلين، وأن تكون من المسموعات المتعارفة بين الناس، يذكرها النبي عليـــه الصلاة والسلام لا للتبليغ السماوي، بل للمصاحبة العرفية للتنبيه .. يلزم النـــاظر أن لا يقصر النظر على الظاهر، بل يؤول بتأويل تمثيلي كنائي مسوق لمقصد ارشادي، أو يفسر بتعبير كتعبير النائم في نومه ما رآه اليقظان في يقظته.. فكما تعبر أيها اليقظان مـــا رآه النائم، كذلك فعبر أيها النائم — إن استطعت — في غفلة هذه الحياة ما رآه اليقظان الذي لا ينام قلبه الذي هو مظهر (**ما زاغ البصر وما طغى**) (النجم:١٧).[218]

حقا، إن النورسي ، المتنور، يغلب في هذه القضايا الإشكالية الروائية، جانب النقـــل على العقل، ثم يرجح فاعلية القراءة والتأويل، من أجل فك المقاصد الشـــرعية في هـــذه المسائل التي اعتبرت من المتشابه الخبري .. وزيادة على ذلك، فإن النورسي بهذا الفهم

---

٢١٧ المثنوي العربي النوري ص ٤٤٥.

٢١٨ المثنوي العربي النوري ص ٤٤٥

الحصيف للتأويل الذي ينبغي أن تترجم به دلالات وإشارات نصية معينة، وخاصة منها تلك التي توسم بما فوق عقلية، ليكشف عن إدراك حداثي لخصوصية النصـــوص ذات الإيماء الغيبي.. إدراك تماسٌ فيه مع فهم النفسانيين والمحللين لمسألة اللاشـــعور ورمزيـــة الأحلام ولغة المنام ..

نماذج من تأويلية النورسي لمستويات من مشكل الأثر

وحتى نأخذ صورة ضافية عن الكيفية التأويلية التي أخذتها تلك الأخبـــار في ذهـــن النورسي، نستعرض بإيجاز أهم ما ترجم به النورسي بعضا آخر منها ..

فعما ورد في الأثر من أن الدجال وأمثاله سيدّعون الألوهية في آخر الزمان ويكرهون الناس على السجود لهم .. يتأوله النورسي بما بات الساسة المتغربون الآخذون بمـــذهب الماديين والطبيعيين يلزمون به أتباعهم وأقوامهم من طاعة وخنوع..

وأما خبر فتنة آخر الزمان التي استعاذت الأمة منها منذ ثلاثة عشـــر قرنـــا، فـــإن النورسي يتأوله بما كان يقوم في بعض المجتمعات الغربية من مظاهر الافتتان الاجتماعي والأخلاقي كاختلاط الجنسين عرايا في الحمامات ..وكشيوع الملاهي الخليعة والمسارح الداعرة والمراقص وأماكن الفجور..

وعن علم السفياني وإضلاله الناس بذاك العلم، يرى النورسي أن السفياني يتخذ مـــن عقله مناطَ قوته وعصبيته التي ينتصر بها ويصطنع الصنائع والمســـبحين بحمـــده نفاقـــا وانتهازية، إذ يسخر بعقله عقول كثير من العلماء ويجعلهم يدورون في فلكه ويصدرون له الفتاوى ويجعل كثيرا من المعلمين موالين له ويسعى حثيثا لتعميم التعليم المجرد مـــن دروس الدين وجعله نهجا رائدا..[٢١٩]

وواضح أن النورسي بهذا التأويل كان يتصدى للمناورة التغريبية من خلال الطعـــن حتى في جوانبها الإيجابية، أو التي تبدو إيجابية، فقد خرَّج نص الحديث تخريجا جعله يلفت النظر إلى ما يحمله ذلك المستوى من التعليم الحكومي من مضار زرع الإلحـــاد وإفتـــان الناشئة بمغريات كاذبة ..

وعن الحدوث المتوقع لفتنة الدجال الرهيبة في صفوف المسلمين، تلك الفتنـــة الـــتي استعاذت الأمة كلها منها..يرى النورسي أن هناك دجالان، دجال للمســـلمين وهـــو

---

٢١٩ الشعاعات ص١١٢

السفياني كما قال الإمام علي (رضي الله عنه) ودجال للكفار .. وأن عيث السـفياني فسادا في صفوف المسلمين هو ما يسبب الفتنة ويشيع الفساد..

وعن توقع الناس أن تكون فتن الدجال حول بلاد الشام أو في الجزيرة، يرى النورسي أن هذا التحديد المكاني مرده إلى وجود مركز الخلافة قديما في هذين المكانين، من هنـا توقع الرواة أن تحدث فتن السفياني هناك. (ومن الواضح أن النورسي بهذا التأويل للخبر الشريف انطلاقا من معناه الجغرافي، أراد أن يقرر أن فتنة السفياني تلاحق المَواطن الـتي تحل بها دار الخلافة، ومن ثمة، فإن أعمال السفياني تكون هي تلك التي كانت تشـمل تركيا في عهد الردة باعتبارها كانت يومئذ دار الخلافة..)

وعن القدرة الهائلة التي ستكون لأشخاص الفتنة في آخر الزمان، يرى النورسي أنه لما كانت قوتهم قائمة على ما يرتكبون من أعمال هدمية، تخريبية، فإن صورهم تضخمت في الأثر الخبري لما لهم من باع في أعمال التخريب والهدم.. باعتبار أن الهدم أيسر عليهم وأكثر تعبيرا عن همجيتهم واستفحال ضراوتهم..

كما تأوَّلَ النورسي الخبر الذي مفاده أن جنس النساء – في آخر الزمان – سيتكاثر قياسا إلى جنس الرجال.. وقرأه باجتهادين، الأول رأى فيه أن مصداق هذا الخبر يـتم حين يقل الزواج الشرعي، ويشيع الاختلاط من غير رباط.. فعنـدها يكـون الرجـل السائب قيما على أربعين امرأة شقية..

والاجتهاد الثاني رأى فيه أن هذا الخبر كناية عن الحرب التي تقع في فتنة السـفياني، وعن كون أكثر الولادات من الإناث بناء على حكمة إلهية، وربما يلهب تحرر النسـاء تحررا كليا شهواتهن، فيتغلبن بغلبة الشبق فطرة على أزواجهن، مما يسبب نزوع الطفـل إلى صورة أمه فتصبح الإناث كثيرات جدا بأمر إلهي ..[٢٢٠]

ولا شك أن الصلة ثابتة بين القراءة التي يتأول النورسي بها الأخبار وبين وقائع تلك المرحلة.. والقصد بطبيعة الحال هو بث الوعي، وتحسيس المسلمين بما كان ينالهم..

وإذا ما تخطينا مسائل تأويلية أخرى عرض لها النورسي وتوقفنا عند هذا الخبر الذي يفيد بأن اليهود هم القوة العظيمة للدجال ويتبعونه طوعا.. فسنجد النورسي يقرؤه قراءة سياسية رابطا إياه مع أحداث عاشتها بعض جهات العالم المجـاورة لـبلاده يومـذاك ..يقول النورسي:

---

٢٢٠ الشعاعات ص١١٤

".. ان جزءا من تأويل هذه الرواية قد تحقق في روسيا، إذ اليهود الذين قاسوا مظالم بيد الحكومات كلها تجمعوا بكثرة في ألمانيا لأجل أن ينتقموا من الدول والشعوب، فكانت لـ"تروتسكي" اليهودي اليد الطولى في تأسيس منظمة الشيوعية حتى أوصلوه إلى القيادة العامة، ومن بعد ذلك جعلوه في رئاسة الحكومة في روسيا خلفا للينين الذي ربوه، فدمروا روسيا دمارا رهيبا وأبادوا محاصيلها لألف سنة (ياسبحان الله، أليس واقع الروس اليوم هو وليد ذلك السبيل الشقي الذي سلكته بهم اليهودية)، وأظهروا – أي اليهود– بهذا أنهم منظمة من منظمات الدجال الكبير ومنفذو أعماله، وقد زعزعوا كيان سائر الحكومات أيضا وأثاروا فيها الاضطراب والقلاقل..

وواضح أن النورسي لم يتجوز في هذا الاجتهاد الذي تأول به نص الأثر السابق، ولكنه أدرج الخَطْبَ التهديمي الذي كانت اليهودية تباشره على نطاق عالمي وتتأهب به لاقتحام دار الإسلام، تحقيقا لمراميها التخريبية المقيتة.. أدرجه ضمن نطاق المساعي الاستراتيجية اليهودية ..

إن الشواهد والأحداث العالمية كانت تحمل كل ذي عقل على تقدير المخاطر التي كانت تحدق بالوضع الروحي والأخلاقي الأممي.. وكل ذلك كان يتلاقى مع تحذيرات القرآن المطردة من أعمال اليهود ومن خبثهم، الأمر الذي جعل النورسي يقرأ المقاصد التنبئية الشريفة التي أوردتها الروايات والأحاديث من خلال تلك الوقائع المقترفة بأيدي اليهودية على عهده وبالقرب منه، ذلك لأنه كان يدرك أبعاد الرهان الذي كانت تلك القوى الشريرة، العنصرية، الحاقدة، تراهن به على مصير الأمة الاسلامية ووحدتها وخلافتها..

بل لقد مضى النورسي على ذلك النهج الاستقرائي الذي كان يَحِّنُ به فحوى النصوص ويطابقها بالواقع التاريخي لعصره .. إلى درجة أن شخص به ومن خلاله معطيات مأثورة في أقوام بعينها.. فقد وجدناه مثلا يميل إلى أن يماهي بين ياجوج وماجوج وبين قبائل أسيوية معينة .. فمن المعلوم أن الإشارة إلى ياجوج وماجوج وردت مجملة في القرآن، فيما جاءت على شيء من التفصيل في الحديث الشريف ،غير أن النورسي رأى أن التفصيلات التي جاء بها الحديث قد تعد من المتشابهات التي تحتاج إلى تأويل .. لذا ذهب يتأول أمر تلك الأقوام بكون الخبر إنما جاء كناية عن قبائل المانجور والمغول الذين سيدمرون العالم كله في الأزمان المقبلة مثلما أغاروا عدة مرات

على آسيا وأوروبا وأحلوا فيهما الهرج والمرج، حتى أن الارهابيين المشهورين في المنظمات الشيوعية الآن ينتمون إليهم...

ومن غير شك ان السند التاريخي على ما اقترفت تلك القبائل على مدى مراحل من التاريخ القديم، وما كان لهم من دور في تأجيج نار الفوضى في أحداث روسيا البلشفية، كان يُسوِّغُ للنورسي أن يطابق بينهم وبين ياجوج وماجوج كما نص على ذلك الخبر المأثور..

بل أكاد أزعم أن هذا التأويل الاستقرائي القريب من الواقع التاريخي لعهده،، إنما كان وجها من الترخيص الإجتهادي الذي رأى النورسي أن يؤهب به أمته التي كانت الأسياف تنهال عليها بيَد العدو وبأيدي الأبناء المارقين كذلك.. يفعل ذلك في موقف كانت الدعوة الترشيدية مغَيبة، بسبب المحاصرة التي أحكمتها دوائر الجور من حول المتنورين وما أقلهم، وبسبب الوعي العديم والجهالة المطبقة، والشعور المهزوم.. فكان من ثمة في اختيار تلك الأحاديث ما يهيئ للداعية أن يقول استطرادا ما لا يستطيع أن يقوله غاية، كما أنه كان له في الإلتفات إلى ما يقع من الحوادث في المحيط الدولي القريب من تركيا، وأمام النظر، ما يُهَوِّنُ له أن يحرك من جماد أمة كانت ماضية في سباهّا، محمولة بأيدي جلاديها، نحو حتفها المعنوي ..

وفي سياق تأويله ذاك، نجد النورسي يستطرد ملاحظا أن الفكر الاشتراكي تولد في الثورة الفرنسية وترعرع في كنف دعوهّا إلى التحرر، ولما كان هذا الفكر يدعو إلى تدمير قسم من المقدسات فقد انقلب أخيرا ليأخذ صورته البلشفية الشيوعية، وقد نشرت البلشفية أيضا بذور الإفساد لتحطيم كثير من المقدسات والمثل الأخلاقية والانسانية، وستُثْمِر تلك البذور حتما حناظل العقيدة الفوضوية والإرهاب التي لا تعرف حدودا ولا تقيم لَقيمة وزنا ..

ويخلص بعد هذا الاستطراد إلى القول إن " أخصب مرتع للفكر الفوضوي الارهابي هو الأماكن المزدحمة بالمظلومين والقبائل البعيدة عن الحضارة وعن الحكومة والدولة، والتي اعتادت النهب والإغارة، فهذه الشروط تنطبق على قبائل المانجور والمغول...." [٢٢١]

---

٢٢١ الشعاعات ص١١٧

وإنه لاستخلاص موضوعي انتهي إليه النورسي، إذ ربط مظـــاهر الثـــورة الهدميـــة والتدمير الاجتماعي والمدني بمجتمعات الخصاصة والتوحش ومن يستشـــعرون الظلـــم وتتغذى نفوسهم باستمرار على مشاعر النقمة والاضطغان وحب الفتك..

على أن النورسي سيسند ضمن رؤيته التنبئية بالمستقبل البشري دورا للنصـــارى في القضاء على الدجال وفتنته، فقد تأول الخبر القائل بأن عيسى عليه السلام يقتل الدجال الأكبر، بتخريجين، أحدهما أن من تؤهله كفاءاته المادية والمعنوية للقضاء على الدجال هي الجهة التي تضاهيه في امتلاك القوة وكفاءة المغالبة.. وتلك الجهة هي النبي عيسى عليـــه السلام.

وثاني التخريجين هو أن الذي سيقتل الشخصية المعنوية لشخص الدجال - المقتـــول بسيف عيسى عليه السلام - ويبيد الكفر بإنكار الألوهية، هم الروحانيون النصـــارى، فهؤلاء الروحانيون يهلكونه - ويقتلونه معنى- بقوة نابعة من مزجهم حقيقة النصـــرانية مع حقائق الاسلام، حتى أن ما ورد بأن عيسى عليه السلام سينـــزل ويقتدي بالمهـــدي في الصلاة، يشير إلى هذا الاتفاق، وإلى ريادة الحقيقة القرآنية..[٢٢٢].

لا شك أن مثل هذا التخريج كانت مراميه القريبة هي تحقيق الإسناد المعنوي لامـــة مخذولة بواقعها المنحط، وتعزيز شيء من الثقة والاعتداد العديمة لديها، إذ من شأن ذلك أن يلفتهم إلى الدور الحتمي الذي سينهضون به في ريادة العالم ،وانضمام القوى الأممية الراقية إلى عقيدتهم الاسلامية..

وعن الخبر الذي فحواه أن الدنيا ستسمع ظهور الدجال يوم ظهوره، وأنه سيسيح في الأرض أربعين يوما وله حمار، دابة خارقة.. فإن النورسي يتأوله - بعد اشتراط صـــحة الروايات التي تداولته- ..أن هذه الروايات تخبر أخبارا معجزة عن أن وســـائط النقـــل والمخابرة ستتقدم في زمن ظهور الدجال، بحيث أن حادثة واحدة تسمع في اليوم الواحد في أنحاء العالم كله، فيصيح الدجال بالراديو ويسمعه الشرق والغرب، وتقرأ الحادثـــة في جميع صحفه وجرائده.. ثم إن الدجال لا يُسمع - في العالم - بكونه دجالا، وإنما بصفته مالكا وحاكما مستبدا مطلقا، وأن سياحته في الأرض ليست للاستيلاء على الأمـــاكن كلها، وإنما لإيقاظ الفتنة والإضلال والإغواء، أما دابته وحماره، فإما أنه القطار الـــذي احدى أذنيه ورأسه مصدر النار كجهنم، وأذنه الأخرى مكان مفروش ومزين كجنـــة

---

٢٢٢ الشعاعات ص١١٥

كاذبة، فيرسل أعداءه إلى الرأس ذي النار، ويجعل أصدقاءه في الرأس المعد للضيافة، أو أن حماره ودابته سيارة عجيبة أو طائرة .. أو (يجب السكوت).[223].

ومن غير شك أن تركيب هذه الصور على الصيغة الساحرة والمريرة التي جاء بها، مدعاة إلى إثارة البسمة، لما تنضح به المطابقة من واقعية تفضح الحال غير السوية التي تتحدث عنها تلك الصور، والتي كانت تركيا مسرحا لها نتيجة تمادي السفياني في التحول بها عن أصالتها وعقيدتها .. ومن جهة أخرى، لا جرم أن الإحالة التي يسدد نحوها النورسي والتي تجعل من الوضع في تركيا هدفها، قد اتسعت لتشمل – بداهة – كافة أوضاع البلاد والأمصار الاسلامية التي استفحل فيها الطغيان، ليس في تلك الفترة التي عاش النورسي أطوارها فحسب، ولكن في سائر المراحل، حتى الراهن منها، بل والقابل..

والملاحظ أن النورسي لا يفتأ يباشر في تخريجاته تلك، واقع تركيا والمسلمين على نحو زاده المنحى التلميحي دلالة وسفورا .. ففي حديثه عن السفيانيين، نراه – وبعد أن قرر روح الاستبداد التي تطبع المنازع السفيانية – يبين الصورة التي قد يأخذها ذلك الاستبداد حين يُمارَسُ على الفرد، إذ أنه يتوسل بستار القانون للنفاذ إلى وجدان الفرد، وهو ما يجعل ذلك الفرد مغلوبا على أمره، لا يستطيع فكاكا مما أريد له..

ثم يسترسل النورسي في ابراز الصلة الوشيجة بين خبر السفياني وواقع عصره، فيؤكد العلاقة بين اليهودية وتنظيماتها السرية من جهة وبين الظَّلَمَة وأهل الجور ممن كان يراهم يجسدون صورة السفياني من جهة ثانية، فيبين المدد الإسنادي الذي يربط السفيانيين باليهودية وتنظيماتها الحاقدة على الاسلام والنصارى وما يؤازر تلك التنظيمات، قائلا : إن كلا الدجالين يحصلان على معاونة المنظمات السرية اليهودية الحاقدة على الاسلام والنصارى حقدا شديدا، ومؤازرة منظمة رهيبة أخرى تعمل تحت ستار حرية النساء، حتى أن دجال المسلمين يتمكن من خداع لجان الماسونيين، فيكسب ودهم وتأييدهم ..

وواضح أن التعيين هنا يشف عن مقاصده الواقعية، الحاضرة في المشهد السياسي يومذاك، وهو تعيين يحدد الجهة التي يشير إليها الخطاب بما لا تخطئه فطنة المجتمع..

---

٢٢٣ الشعاعات ص١١٨

بل إننا سنجد النورسي يبني رؤية متكاملة تحيل على الواقع التاريخي الذي كانــت الأمة التركية تمر به في ذلك العهد، وهذا من خلال ترصد مجموعة أحاديــث وأخبــار تتقرر بها في الأخير حقيقة أمر السفياني، من حيث نسبته وموطنه وجرائره الآثمة ..

من ذلك استرسال النورسي – قصدا– في الحديث عن ملابسات تتعلــق بالــدجال السفياني الذي يرأس دولة الاسلام، ذلك الاسترسال الذي لا نلبث أن نكتشف الغايــة منه، وهي تعرية النظام الارتدادي..

ويأبى النورسي إلا أن يبرز اللحمة بين السفياني واليهودية، فيستدعي خبر عمر بــن الخطاب (رضي الله عنه) وما وقع له مع النبي ﷺ ذات يوم وهما يمران على صــبية مــن اليهود، ويفسر ما جاء في ذلك الخبر بأن دلالته تشير إلى أن الســفياني ســيولد بــين اليهود..[٢٢٤].

ويتأول من ناحية أخرى خبر ظهور دجال المسلمين في خراسان، ويؤكد أن الأمــة المعنية بظهوره بينها هي الأمة التركية، إذ أن الشعب التركي –كما يقرر النورســي – كان يقطن أطراف خراسان زمن تلك الرواية .. فالرواية تشير بذكرها موطن سكناهم في ذلك الوقت إلى ظهور الدجال السفياني فيهم ..[٢٢٥]

ثم ينهي النورسي حديثه ذلك بالإعراب السافر والصريح عن تعجبه لمــا أصــاب الشعب التركي – وهو حامل راية الإسلام – من ارتكاس تحت قيادة السفياني .. يقول النورسي :

"وإنه لغريب بل غريب جدا أن الشعب التركي الذي كان رمزا لشــرف الاســلام وعزته، وسيفا ألماسيا بيد الاسلام والقرآن سبعمائة سنة، يسعى الــدجال الســفياني أن يستعمل – مؤقتا – هذا الشعب والقومية التركية ضد قسم من شعائر الاسلام .."

ويستدرك النورسي ويسارع إلى استنقاذ نفسه من مرارة اليأس التي استبدت بها، ولا يلبث أن يستدعي بابا للأمل يُشرِّعُهُ في وجه الأمة، بما ينيطه بالجيش من دور تخليصــي سيقيل به من عثار الشعب، ويفتَــكُّــهُ من براثين التغريب.. فيقول :

"..ولكن هيهات، فلا يفلح في عمل، بل يتقهقر حتما، كما يفهم من الروايات، إن الجيش البطل سينقذ زمامه من يده . والله أعلم بالصواب "

---

٢٢٤ الشعاعات ص١٢٥

٢٢٥ الشعاعات ص١٢٦

هكذا يتصدى النورسي من خلال قراءة جانب الأثر الشـريف، ويسـقط دلالتـه التأويلية على الواقع التركي والإسلامي والعالمي السائد آنذاك، للتخذيل عن المسـلمين، وتوعيتهم، وإبراز المحاذير التي حملتها الآثار الشريفة، فاضحًا بـذلك خطـط الـردة، وموعزا للشعب بالكيفيات التي تكفل له التماسك والبقاء على الجادة، مهيبـا في ذات الوقت بالجيش أن يثب فيستنقذ الملة من نكبتها ..

من هنا يمكننا القول إن قراءة الواقع وتأويله في ضوء السنة قد شكل أحد أسـلحة المدافعة والإقتحام التي دك بها النورسي قلاع الانحراف والكفر، تلك القلاع التي أقامتها الكمالية الطورانية والصهيونية المدعمة لها واستهدفت بها ضرب الاسلام في الصميم..

تأويل " مسألة الثور والحوت"

يبادر النورسي منذ البداية إلى تقرير طابع الوضع الذي يميز هذه المسألة، مبينا سبب إلحاقها أو نسبتها إلى ابن عباس .. مذكرا بأن ابن عباس (رضي الله عنه) كان قد التفت في أيام شبابه إلى الإسرائيليات عن طريق الحكايات، إظهارا لبعض الحقائق ..الأمر الذي يترتب عنه إدراك أن ما قاله ابن عباس لايلزم أن يكون كله حديثا صحيحا ..

ثم يباشر بعد ذلك معالجة هذا الخبر مسجلا تحفظه إزاء صحة هذا الحديث من ثلاثة مستويات قائلا:

-لا نسلم أنه حديث لأن عليه علامة الإسرائيليات.

ثم يردف مفترضا قائلا :

- ولو سلمنا أنه حديث، فأنه آحادي، يفيد الظن لضعف الإتصال، فلا يـدخل في العقيدة، إذ اليقين شرط فيها.. لأن القطعية بالمتن والتواتر لا تعني الصحة :

فـحتى لو كان هذا الخبر متواترا وقطعي المتن، فهو ليس بقطع الدلالة .. وممـا لا شك فيه أن النورسي قصد بقوله " قطعي المتن وليس بقطعي الدلالة " الانفتاح المعنوي الذي ينبغي أن يتسدد نحوه معنى النص المتواتر على أيدي أهل الاستنارة من المتـأولين، بعيدا عن التوهمات السطحية والخرافية التي تسيء للشريعة، والتي يتوهم البعض أن مـا تواتر من تأويل مأثور قد قطع بها، وأنه لا حق للخلف في التحول عما تقرر، ولو شابته ظلال الخرافة واللا معقولية..

وهو ما سيتولى معالجته النورسي، إذ سيشرع في قراءة دلالة النص وتصحيحها من وجوه ثلاثة أيضا..

ومما يقوله في الوجه الأول :

"فكما أن حملة العرش المسماة بـ" الثور، النسر، الانسان" وغيرهم ملائكة، كذلك هذا الثور والحوت ملكان إثنان حاملان للأرض، وإلا فإن تحميل العرش العظيم على الملائكة، بينما الأرض على ثور عاجز – كالأرض- مناف لنظام العالم.."

ويقول في الوجه الثاني :

"إن الثور هو المثير للحرث وأهم واسطة لزراعة الأرض وعمارتها، أما الحوت (السمك) فهو مصدر عيش أهل السواحل، بل كثير من الناس. فإذا سأل أحد بم تقوم الدولة ؟ فالجواب : على السيف والقلم . أو إذا سأل بم تقوم المدنية ؟ فالجواب : على المعرفة والصناعة والتجارة . أو إذا سأل : بم تدوم البشرية وتبقى ؟ فالجواب : بالعلم والعمل. ثم يستنتج النورسي من هذا أن الرسول ﷺ يكون قد أجاب إيعازا – من خلال هذا الخبر- بما من شأنه أن يرشد الإنسان إلى أسباب البقاء وتعمير الأرض، وذلك حين أوعز إلى موارد الرزق فيها: الزراعية والبحرية.."

أما الوجه الثالث فيقرؤه على النحو التالي:

أن الثور والحوت برجان مقدران في مدار الأرض السنوي، فتلك البروج وإن كانت افتراضية .. إلا أن السنن الإلهية ..قد تمركزت في تلك البروج"[٢٢٦]

ثم يتطرق بعد هذا إلى مدارسة المستوى الشكلي لنص الخبر، وذلك من خلال تسجيل رأيه حول الصيغ المختلفة التي ورد عليها هذا الخبر، فقد جاء في صيغة أن الأرض محمولة على الحوت، وجاء في صيغة أخرى أخرى أنها محمولة على الثور..ويبين أن تعدد الصيغة هنا لا يتضمن – حسبه- إلا ترجيحا للجانب الفلكي، وهو ما توعز به تلك التسميات..

على أن ما نفيده نحن من تتبعنا لهذا الطرح التأويلي، أن النورسي ظل في جانب من اهتماماته التراثية يقتحم المسائل ذات الإُشكال التأويلي في تراثنا، وظل يعالجها بذهنية حصيفة، غير خرافية، وبعقلية لا تماشي الوهم .. ولا تتردد في الإيعاز إلى القارئ المسلم بشيء مما يخدمه واقعيا وروحيا..

---

٢٢٦ صيقل الإسلام ص ٧٤.

ومن غير شك فإن النورسي حين يلتفت في استقرائه لهذا الخبر إلى الحديث عن الدولة والمدنية، وعن المعرفة والصناعة والتجارة، أو عن العلم والعمل ،(....) فإنما يريد أن يثمر الخبر لفائدة المسلم، وأن يحيل دلالته إلى ما ينفع هذا المسلم ويدفع به في طريق الفـــلاح الدنيوي والأخروي..

والجدير بالذكر أن النورسي قد تتبع بهذه الروح التمحيصية، الترشـــيدية، مواضـــيع اشكالية عديدة، منها موضوع (ذو القرنين)، و(ياجوج وماجوج) كما رأينا ســـابقا ،,وغيرها من المسائل الخبرية المستغلقة .. وقد تأولها مقرًّا بحقيقتها، مقراً أن العلم بوجود شيء ما، غير العلم بماهيته وكيفيته.. متناولا قضايا تقف في طريق المتأول وتحيد به أحيانا، ومنها الإشكال اللغوي البلاغي، ومستويات الدلالة المرتبطة بالحقيقة وبالمجـــاز، وأبـــرز الحاجة الأكيدة للمتأول في أن يكون على مكنة لغوية واقتدار بياني، حتى يتسنى له النفاذ إلى ماوراء سطح الدلالة ..

لقد وقف النورسي – ومن هذا المنظور البلاغي الذي شدد عليه – يقرأ قوله تعـــالى :(**والشمس تجرى لمستقر لها**) .(يس٣٨).– وبعض آيات أخرى – ليتأول الجريان، جريان الشمس، ويثبت أنه جريان تبعي، عرضي، صوري .. وليستخلص من ذلك كله ضـــرورة استيعاب روح البيان وما تحفل به الصورة الاستعارية القرآنية من طاقـــة تفعـــم الدلالـــة بإيعازات لا يمكن أن نحجرها في مستواها الخارجي، إذا ما أردنا أن ننفذ إلى روح المعـــنى وإلى إشارته العميقة.. " إن الجمود البارد والتعصب على الظاهر ينـــافي حـــرارة البلاغـــة ولطافتها، كما أنه يجرح ويخالف استحسان العقل الشاهد على الحكمة الإلهية الـــتي هـــي أساس نظام العالم الشاهد على الصانع .." [٢٢٧]

على أنه لابد من الإشارة إلى أن تفسير إشارات الإعجاز قد اقتصر على جزء مـــن سورة البقرة، كان النورسي قد أملاها في جبهة القتال ضد روسيا وواصل إملاءها وهو في الأسر بأقاصي روسيا .. واختار لها اللغة العربية .. فهي عمل أصّله النورسي باللسان العربي..

ولابد للدارس أن يستقرئ في ثنايا هذا العمل شيئا من الروح التي لابست النورسي وهو عاكف يستنـــزل الدلالات والتخريجات للنص القرآني العظيم..

ولذلك المطمح مجال آخر إن شاء الله..

---

٢٢٧ صيقل الإسلام ص٩٠

التفسير والتخريج التأويلي

وطبيعي أن ينبه النورسي إلى المخاطر التي تعرِضُ لقارئ القرآن ولمفسره، إذا ما باشر العملية التأويلية من غير تسليح ثقافي، إذ أن من لا حصانة علمية له ولا رصيد معـــرفي ستعلق به كثير من الأوحال الاجتهادية التي كرسها التواتر والاعتقاد الإنقيادي الـــذي ورثته الأمة عن عهود التثاقف والإختراقات المعرفية المدخولة .

ذلك لأن كثيرا من المقررات المتداولة في حقل التفسير لم ينطلق أصحابها من قاعـــدة تستوثق لاستقراءاتها وتتحرى المرامي النصية من خلال التوسل إلى الحقيقة بما يقـــود إلى استجلائها، ولكنهم عالجوها فقط عن طريق الحدس الظني أو السماع أو مـــا تـــردده الإذهان بفعل المثاقفة والتمازج مع معارف الآخرين، تلك المعارف الـــتي لا تســـلم – ضرورة –من آثار الأسطورة والتصورات الخيالية..

إن هذا الواقع المشوب هو ما دفع النورسي إلى تكرار تحذيره النـــاس مـــن مغبـــة الانصياع الكلي إلى ما تحتويه كثير من المجاميع التفسيرية، إذ أن اجتهاداتهـــا متفاوتـــة بتفاوت عقول أصحابها، وهو ما يجعل النتائج نفسها مختلفة، فإذا اتسم بعضها بالحصافة والاستنارة، فإن بعضها الآخر لا بد وأنه جاء على غير ذلك المستوى..

وفي هذا الصدد، يقرر النورسي أن مناط هذا التفاوت العقلي الذي تجســـده آثـــار علمائنا في حقل التفسير والـــتأويل أمر طبيعي، ولا ينم إلا عن حقيقة التســـيب الـــتي عرفتها منظومة العلوم، والعلوم الشرعية في مقدمتها، وذلك حين تدخل في تعاطيها من لا أهلية له، أو من كانت كفاءته العلمية والذهنية لا تكفل له حق تعـــاطي الاجتهـــاد والتخريج الشرعي..

إذ هناك قانون إلهي، فطري، توزعت بمقتضاه الحظوظ والاستعدادات بين النـــاس، وفي ضوء ذلك تهيأ الأفراد للوظائف والأعمال، وبناءا على ذلك بات الاجتهاد من شأن أهل القابلية والكفاءة العلمية والنبوغ الذهني القادرين على الاســـتنباط والاستبصـــار، والمؤهلين لرؤية المستويات المختلفة التي يحفل بها الموقف القـــرآني أو ســـياق الآيـــة أو الحديث ..

فوفق قانون تقسيم الأعمال هذا، تتهيأ المرجعيات الحجة للظهور، وطبيعي أن تنـــاط الحجة بحقل إختصاصها، من هنا لا ينبغي أن نحمل كل ما ورد في مصادر التفسير على أنه حجة، " فحكم مفسر أو فقيه – بشرط التخصص – يعد حجة في التفسير فقط، أو

في الفقه فحسب، وإلا فهو ليس بحجة في الأمور التي دخلت خلسة في كتب التفسير أو الفقه.." [228]

من هنا حث النورسي على الأخذ بالمعرفة البلاغية – ضمن جملة من الشروط الاخرى – سعيا إلى قراءة الخطاب وفق خصائصه الذاتية، والأصيلة..

بيداغوجية الوعظ السلبي أساءت إلى حقائق التنزل

لقد عزا النورسي حدوث كثير من المبالغات والاشتطاطات التي مازجت التراث الديني، التفسيري، إلى الشراح والوعاظ الذين سلكوا سبيل التهويل والتفظيع ردعا للنوازع ..وتكريسا لخلقية الكف :

" فالوعاظ الذين لا يملكون موازين، ويطلقون كلامهم جزافا، قد سببوا حجب كثير من حقائق الدين النيرة، فمثلا الزيادة التي زيدت في معجزة انشقاق القمر الباهرة المبالغة في الكلام، وهي أن القمر قد نزل من السماء ودخل تحت ابط الرسول ﷺ ثم رجع إلى السماء .. هذه الزيادة جعلت تلك المعجزة الباهرة كالشمس، مخفية كنجم السهى، وجعلت البرهان للنبوة الذي هو كالقمر مخسوفا، وفتحت أبواب حجج تافهة للمنكرين.." [229]

إن الخلاصة التي ينتهي إليها النورسي في معرض تقويمه لتجربة الإجتهاد، ولبيداغوجية التوصيل والترشيد التأويليين هي " أن الشارع سبحانه وتعالى قد وضع سكته وختمه المعتمد على كل حكم من أحكام الشرع، ولابد من قراءة تلك السكة والختم، فذلك الحكم مستغن عن كل شيء سوى قيمته وسكته، فهو في غنى عن تزيين وتصرف الذين يلهثون وراء المبالغين والمغالين والمنمقين للفظ.." [230]

وفي هذا الصدد يوجه النورسي حديثه التأنيبي إلى أولئك المجازفين بالأحكام والمواعظ المرتجلة قائلا : وليعلم الذين يطلقون الكلام جزافا كم يكونون ممقوتين في نظر الحقيقة في نصحهم الآخرين.."[231]. ذلك لأنهم يخطئون السداد من حيث يشاؤون الإصابة والترشيد..

---

٢٢٨ صيقل الإسلام ص ٤٤.
٢٢٩ صيقل الإسلام ص٤٦.
٢٣٠ صيقل الإسلام ص٤٦.
٢٣١ صيقل الإسلام ص ٤٧

فالموجه الأحمق في نطر النورسي أضر بالدين من العدو..والنصح الذي يمحضه النورسي لهؤلاء أن يزنوا الأمور بالمحاكمات العقلية، وألا ينخدعوا بالنظر السطحي في إصدار الأحكام وإقرار القواعد..[232]

لقد اعترف النورسي أن هذه المهمة التحصيفية للمنهج التعليمي والتوجيهي هي التي حدت به منذ النعومة إلى أن يرفع صوته مجاهرا بالحق في وجه السفهاء المتطفلين على حقل التربية، واعتراضا على متسطحي الفكر والرؤية .. وتلك روح إصلاحية رافقته طيلة مساره الإصلاحي، لما كان يرى عليه حال الأمة وعقليتها من ضلال وإمحال وعقم، بسبب ما استشرى فيها من أوبئة فكرية نتيجة تغلب منطق الجهل على منطق الهداية الحق:

"..إن أساس مسلكي منذ صباي ولا فخر، ازالة الشبهات التي تلوث حقائق الاسلام سواء بالإفراط أم بالتفريط، وصقل تلك الحقائق الألماسية، والشاهد على هذا تاريخ حياتي في كثير من حوادثه .."[233]

لقد أدرك النورسي – شأن المتنورين من علماء الأمة – ما للوسائط التعليمية والمراجع التدريسية –بما لحقها من جهل – من أثر سلبي على المحصول المعرفي الضحل الذي لبثت الأجيال تجتره في غير ما طائل ..

لقد انبخست العلوم العالية كما يلاحظ النورسي، وذلك حين التفت المسلمون إلى العلوم الآلية – أي تلك التي يستعان بها على الفهم مثل النحو والصرف والمنطق وما إليها– بعد أن أدرجت ضمن العلوم الضرورية والمقصودة، وهنالك سيطر على الأذهان حل العبارة العربية التي لباسها (لفظها) في حكم معناها، وظل العلم الذي هو أصل القصد، تبعياً، زد على ذلك أن الكتب التي أصبحت في سلسلة التحصيل العلمي رسمية وعباراتها متداولة إلى حد ما، هذه الكتب حصرت الأوقات والأفكار في نفسها و لم تفسح المجال للخروج منها. [234]

* * *

٢٣٢ صيقل الإسلام ص ٤٨.
٢٣٣ صيقل الإسلام ص٦٤.
٢٣٤ صيقل الإسلام ص ٦٧ .

الفصل السابع

المنحى التجريدي والرؤية التحليلية عند النورسي

سياحة في ربوع كتاب: المثنوي العربي النوري

النورسي نسيج وحده

مدخل:

مما لا شك فيه أن كتاب المثنوي جاء بمثابة الخلوة الروحية والمحراب التبتلي الـــذي أدى فيه النورسي أحوالا عطرة من الذكر والاعتبار وخلوص الرؤية في مقام العبودية..

لقد راوح النورسي في فصول هذا الكتاب على مقام التوحيد ، حيث اســـتغرقته — وعلى مدى فصول الكتاب – روح التهجد واستشراف الحقيقة واستقراء آيـــات الله في الكون وفي نفسه، والاسترسال –من ثمة – في محاورة الذات والآخر، بثا للنجوى الإيمانية وتعميقا للعقيدة..

ولقد ظهرت الصلة على أكمل ما تكون وثوقا بين ما استقرأ به النورســـي معـــاني الآيات البينات كما سردها القرآن العظيم وبين تعابير الخالق كما خطتها قدرته العليـــة على جسد هذا الكون المهيب..

فالمتن القرآني في هذا الكتاب، يتضاهى من حيث البيان والترشيد، مع مـــتن آخـــر حسي يتمثل في هذا الوجود اللامتناهي .. إنه الكون المرئي الذي أفاضـــه الله وعمَّـــرَه بمرافق شملت هذه العوالم التي تحيط بنا من كل جانب ..

" إن القرآن المعنوي المكتوب بمداد النجوم على صحائف طبقات السموات، إذا قرأ على الأنظار آيات العظمة والجبروت التكوينية، يقرأ معه – رأســـا بـــرأس – القـــرآن المكتوب بمداد الجواهر الفردة على جزء لا يتجزا في حجيرة عينيـــك : آيـــات العلـــم والحكمة..".[٢٣٥]

قراءة في أسفار المثنوي العربي النوري

إن صفحات هذا الكتاب هي قبسات إيمانية، ونفثات روحية، حَوْصَلَتْ في ثناياها رؤيةَ النورسي كما بَسطها عبر كتبه وساوقها خلال دروسه ورسائله ..

ولما كان محور هذه الرؤية هو الإيمان، فقد تواترت البيانات القوليـــة واطـــردت في صورة لازمة مفتاحية عَـــرْضِية، تلقينية، صِغَـــتُها (اِعلم)..

---

٢٣٥ المثنوي العربي النوري ص ٢٨٤

وراوحت تلك البيانات — في عمومها — تركز عقيدة التنـزيه والتوحيد، وجعلت من الإنسان – بوصفه عقلا وقلبا – مَدَارَها .. إليه تتوجه، ومنه تنطلق، وفي عوالم شكه ويقينه تجول، مغترفة في بناء تصوراتها وتمثلاتها من معين الحدس الذي زكا بفيض القرآن، ومسددة يقينها بمنظار الحق الذي لا تشوبه أقذاء الفكر المدخول ..

وإذا كان من المتعذر حصر الآفاق الرحيبة واللامحدودة التي باشرتها هذه التلقينات اليقينية التي حواها الكتاب، فإن الثابت أنها خصّت محاور التوحيد والروح والفكر برجاحة لا تكاد تخطئها عين القارئ في أي فصل يقف عليه من الكتاب..

ومع ذلك يمكننا القول إن كتاب المثنوي يدور في جملته حول محاور تتوزعها الإشكالات البارزة التالية :

١– التوحيد .. ومعرفة الله، والبراهين الدالة على وجوده، والعلامات المثبتة لقيوميته.

٢– القرآن.. باعتباره عقل الأرض، أو كتاب الكون المعنوي المسطور الذي جاء فحواه مطابقا لمحتويات كتاب الحس الكوني الكبير، ومترجما لتجلياته الوجودية المشهودة..

٣–المدنية.. بوصفها مناط الإجتماع الإنساني المعاصر، هذا الاجتماع الذي عرضت له دواعٍ جحودية وغرورية أزاغته عن الطريق، إذ أضلته انجازاته المادية عن الإيمان، فمال إلى اعتناق عقائد وهمية أبعدته عن الخالق عز وجل .[٢٣٦]

٤–الفلسفة.. بصفتها ارتكازا فكريا شائنا، ومريضا، وعاجزا عن أن يستجيب لحيرة الانسان، وعن أن يكفل للنفس يقينا تطمئن به، إذ هو فكر يضرب في فلوات من التيه يعمق مأساوية الانسان، لما يلازم هذا الانسان من مشاعر الضياع واللاوجهة، واللاهدف، واللامسؤولية..

٥–الإنسان بحكم كونه مركز الخليقة، والمؤتمن على السر، والمنوط بأسمى المهام، والمجابه لأعتى التحديات وفي مقدمتها جنوح النفس الأمارة واستفحال نزوعها إلى الغواية ومقارفة الإثم نتيجة انسياقها وراء مباذل المدنيات الفاسقة .

إن "..كتاب المثنوي يعد في الحقيقة معرضا روحيا وعقليا لمواضيع واسعة جليلة، وفهرسا لها، يمكن أن يؤلف حول كل واحد منها كتابا خاصا.. هذه المواضيع التي

---

٢٣٦ سنتناول هذا الموضوع بتفصيل في فصل مستقل.

تناولها (النورسي) بالشرح والتفصيل فيما بعد في رسائل النور، في مختلف أجزائهـــا.." [237]

وسنحاول بدورنا أن نقف على هذه المحاور مستجلين الرؤية الإسلامية والحضارية كما شخصها ملامحها النورسي من خلال فصول هذا الكتاب..

التوحيـد

فَجَّرَ الإسلامُ في وعْيِ النورسي مكامن الفطرة السليمة التي تقر لعوالم هذا الكـــون المعمور بواحدية الخالق..

فالإيمان كما تَجَسَّدَ في فكر النورسي، شرط وجودي، لا تلقنه الديانات الســـماوية وحدها، ولكن تؤكده المشاهدات الحسية والملاحظات التي لا يكف النظر عن تسجيلها في الذات الانسانية وفي ما يحيط بها من دلائل كونية شاخصة...

فكل ما في الوجود من عناصر الحياة والجماد تشمله حال الانتظام والتوازن بحيث لا ينبو عنصر مما يضمه الوجود عن حركة السياق الحياتي الكلي..

بل إن هارمونية الأشياء لتبهر حس وعقل كل من تتيح له قابليته التمييزية أن يدرك التناغم بين معطيات الكون- ماثِلِها وخفيِّها- وبين ما يستبطن النفس البشرية من نوازع وكوامن ..

ذلك أنه حتى الظواهر المجردة مثل ظاهرة الزمن الذي يعد مـــن أهـــم الشـــرائط الوجودية الدالة على قدرة الله – تترك من خلال دوراتها وتلاحق وتائرها- الصدى الذي يظل به الماضي – الوعي المتصرم – عاملا شاخصا وفاعلا في حركة الحاضر والراهن..

كما أن نتائج تلك الوتائر الزمنية المتعاقبة تظل معلقة في تواصلها وديناميتها باللامرئي وبالمُغَيَّبِ الذي لم يحن تَبَلُّجُهُ بعدُ .. من هنا فإن حركة الزمن – شـــأنها شـــأن ســـائر الظواهر المدركة وغير المدركة – تبقى في تدآبها الوطيد – محكومة بوعي كلي، تدبيري، لا يغفل المراحل المستهلكة، ولا تلك التي تنتظر أجَلَ انبثاقها في رحم الغيب..

من هنا نتبين — كما يرى النورسي – تناغمية الكون ببعده الحسي والمجـــرد، إنهـــا تناغمية منتظمة، تدور بآلية مبرأة من الاضطراب ومن عدم التناسق ..

فهي إذن آلية مضبوطة بقيم فائقة الدقة والانتظام والشمول ..

---

[237] تقديم المثنوي العربي النوري ص –ع

فهي — حتما – خاضعة لإدارة عليا مسيطرة، ولمرجعية كلية تدير بقبضتها قـــانون الحياة والكون، تنتظمه وفق مشيئتها المترهة عن السيبة والاعتباط، والبعيدة عن منطـــق الصدفة والتلقائية والنـــزوانية.. إذ لا مجال للإعتباط في هذا الوجود..

التوحيد ومعرفة الخالق البارئ

معرفة الله الحقة فتح ذاتي، لذلك كان منطلقها الجهل والمجهولية

لقد صدر النورسي في ادراكه لحقيقة هذا الوجود، من معرفة قبلية زمامها الـــوحي، واتخذ من العقل ومن التجربة والمكاسب الاختبارية مناط برهان على صدق تلك المعرفة السبقية، وذلك ما استرسلت رسائله وأعماله الفكرية تثبته وتؤكده على مدار عقود من الجهاد..

لقد فاض معين حبوره القلبي الذي طفحت به رسائله، نتيجة تأجج النشوة الروحية والفكرية التي كانت تصاحب أحوال الاستبصار الذي لازمه والذي اتخذه سبيلا تعبديا يكفل لروحه اليقظة والمداومة..

استبصار ما فتئ يطابق في ضوئه بين المشاهدات الكونية والحسية وما يستجليه منها عقله، وبين الحقائق القرآنية كما قررها الله في محكم تتريله..

لقد كان عقله برهانيا، إذ كان دائم التمحيص للمعطى القرآني، ومقابلة إفضـــاءاته الصريحة والضمنية بالظاهرة الكونية و بالحقائق النفسية و العقلية التي ترسو عليها إنسانية الانسان..

لقد اكتسب النورسي قابلية إثباتية لم يعد يعجزها قط أن ترى وجه الايمـــان مـــن خلال مطابقة المعطى القرآني على المظهر الكوني أو الطبيعي أو الابتداعي..

ذلك أن النورسي يرى أن عقيدة التوحيد تظل ناقصة وغير ذات نفاذ روحي تستمد منه النفْسُ استنارتها وطمأنينتها، ما ظلت تلك العقيدة تقليدية، توارثيـــة .. فالتوحيـــد يكتسب توهجه ودافقيته وامتلاءه متى قام على وازع عقلي، تأملي، أي متى كان مـــن اكتشافات الذات ..

من هنا كان الطريق إلى الله يستضاء بالإيمان المبني على القناعـــة القلبيـــة والرشـــاد العقلي، ومن هنا أيضا كان السير في ذلك الطريق يكتسب عنفوانه اليقيني متى ما تأسس ذلك الإيمان عن بحث تنقشع له سحُب الجهل بالتنقيب العقلـــي والتحســـس القلـــبي

والتقريب الإدراكي، ومتى ما تسلقت النفس سلم المعرفة الروحيــة بجهــدها الــذاتي، وبتطلعها الاستبصاري، التدبري..

فخلوص التوحيد – في رأي النورسي – لا يكون إلا بتجاوز نهج التقليــد حيــث يكتفي المرء بأن يرث قيم عقيدته ويتلقاها بالدروج والتبعية الساذجة، والخالية من المراس الكشفي الروحي الذاتي :

".. اعلم أنك إذا توجهت إليه تعالى بعنوان المعلوم والمعروف، يصير لــك مجهــولا ومنكرا، إذ هذه المعلومية والمعروفية نتيجة الألفة العرفية والتسامع التقليــدي والتــداول الاصطلاحي، وهي لا تغني من الحقيقة شيئا، بل ما يتراءى لك فيها (هــو) مقيــد لا يتحمل الصفات المطلقة، بل إنما هو نوع عنوان لملاحظة الذات الأقدس." [٢٣٨]

ولا بدع أن تكون هذه هي رؤية النورسي، إذ العلاقة الروحية والسلوكية مع شيخه الغزالي كانت من العمق بحيث كان التأثر ثابتا، وهو ما جعل لديهما تشابه المنظورين إلى الإيمان واحدا، إذ أن الغزالي كان هو الآخر قد استهدى إلى الحق واليقين بواسطة الشك واللايقين..

وإذا كان هناك من اختلاف بين الإمامين، فهو أن تجربة النورسي لم ينحسر عنهـــا إيمانها قط كما حدث للغزالي في بعض مراحل حياته، بل لقد مضى ايمان النورسي ثابتا، وإنما الذي طرأ عليه، هو خاصية الارتقاء والتحول التي ميزت روحيتــه عــبر مراحــل حياته.. فقد تدرج من ايمان عادي، إلى إيمان لدني، عبر تربية روحية التفتت إلى معــين القرآن ..

من هنا أمكننا القول إنه حتى لَدُنِّيَّةُ النورسي أو كشفيته لم تكــن عاديــة، إذ أنهـــا اختارت أن تتعمق في فهم جواهر القرآن وأن لا تقتصر على استظهار الأوراد وترديدها بتلك الآلية المعهودة في حلقات الذكر ومجالسه..

لذلك رأيناه يتبع طريقة الــتمحيص النصي ويتخذها منطلقا للتأمل في المطلق، بدلا من الاقتصار على التريض وتصيد السوانح النفسية والروحية الصرف.. لذا جاءت تعاليم النورسي في جملتها وتفاصيلها تعاليم توحيدية، ذلك لأنه ارتكز في بلورة رؤاه اليقينيــة على المرتكز العقلي، وجعل الإيمان حجر الزاوية في كل تقرير معرفي أصَّلَهُ، وجعل روح القرآن هي الأساس الذي تقوم عليه معرفته الإيمانية.. من هنا كانــت روح التوحيــد

---

٢٣٨ المثنوي العربي النوري ص ٢٣٥.

حاضرة في كل موقف تأملي، أو استجلائي، أو استشرافي، أو تعليمي، أو استرجاعي، أو تسبيحي، أو بوحي، أو تواجدي، يصدر عنه ..

لقد انتهى النورسي بإيمانه إلى درجة أيقن فيها أن الحياة جسر، وأن عبور الانسان لهذا الجسر مرحلي، وأن الانسان لا يتجشم في تجربة الحياة القصيرة إلا عناء يعمق فيه حال النقص والتآكل، وأن النتيجة التي يراهن عليها العبد في الأخير، تظل بطبيعتها الغيبية نتيجة غير مضمونة.. ولذا، فما على الانسان إزاء ذلك كله إلا أن يديم الحمد والمعبودية، وأن يوثق في قلبه الشعور بأن كل ما يملك وما يكسب – بما في ذلك آلة الجسد– إن هو إلا عارية مصيرها الرجوع إلى بارئها الذي ستقف أمامه حاملة كتابها بما قدمت:".. ليس لك منك إلا النقصان والقصور، إذ بسوء اختيارك تُغَيِّرُ صورة فيض الكمال المفاض عليك.. وبأن الجسد الذي هو مترلك، عارية وأمانة وأنت مسافر، ومحاسنك هذه موهوبة، وسيئاتك مكسوبة لك، فلابد أن تقول: له الملك وله الحمد."[239]ذلك لأن النورسي قد سلَّم بأن خلو النفس من الإيمان سيفاقم من عناء تجربة الحياة، وسيجعل منها تجربة عقيمة من غير طائل:

".. قد شاهدت أن الدنيا بجميع لذائذها حمل ثقيل، وقيد لا يرضى بها إلا المريض الفاسد الروح، فبدلا من التعلقات بالكائنات والاحتجاجات إلى كل الأسباب، والتملق لكل الوسائط، والتذبذب بين الأرباب المتشاكسين الصم، العمي، لابد من الالتجاء إلى الرب الواحد السميع البصير الذي إن توكلت عليه فهو حسبك"[240].

مبدأ الوحدة يكرس منطق التوحيد.

ظل النورسي يسوق من الشواهد الحسية القريبة إلى الإدراك ما يشخص به الصورة التي ترسخت للإيمان والوحدانية في قلبه ..

لقد كان اقتناعه ثابتا بأن منطق الوحدة الذي يتجلى في سير الظواهر الوجودية، هو مؤشر وجيه ودال على مبدإ الوحدانية الذي يشرط الوجود في كليته :

" اعلم أن كمال صنعة كل شيء واتقانها، ما هو إلا من سر الوحدة، ولولا الوحدة بلا توزيع، وبلا تجزؤ، وبلا تزاحم، لتفاوتت المصنوعات، كوحدة الشمس ووجودها بالتجلي في كل ما مسه ضياؤها .. من ذرة شفافة إلى وجه البحر، ولا يشغلها شيء عن شيء، فهذا السر تشاهده في هذه الشمس الممكنة المسكينة المقيدة ،المحدودة، الجامدة،

٢٣٩ المثنوي العربي النوري ص ١٢٧.

٢٤٠ المثنوي العربي النوري ص ١٣٠

الميتة، التي هي قطرة متلمعة بتجلي شعلة من اسم النور الحـــق، فكيـــف شمـــس الأزل والسلطان الأبد والقيوم السرمد الواجب الواحد الأحد، الحي القدير الصمد جل جلاله ؟. (ولله المثل الاعلى) . فوحدة الضياء المحيط تشير إلى الواحدية، ووجـــود الشـــمس بخاصيتها، بالتجلي في كل جزء وذرة من ذلك الضياء المحـــيط، يرمـــز إلى الأحديـــة، فتأمل.. ".[241]

فمبدأ الوحدة الذي تقوم عليه عِلّيّةُ الأشياء في هذا الكون هو دليـــل عقلـــي علـــى التوحيد ..ومن شأن بلسم التوحيد إذا ما لابس النفس عن بيِّنة وبصيرة، أن يحررها من أوهام لا تقتصر مضارها على الجانب الروحي المعنوي فقط، ولكن آثار تلـــك المضـــار ستشـــمل فاعلية الانسان كلية، لأنها سترتبطه بمنطلقات أرضية لا تسمو بها النفس، ولا يتاح للعقل الإنساني معها أن يضرب مَـــلـــيًا في رحاب المعرفة، وفي تعميقها بالقـــدر الذي يتلاءم حقا مع ما أهَّلَ الله له الانسان من طلاقة وروحانية يخترق بهمـــا آمـــاد المجهول..

إن رسوح عقيدة التوحيد يلغي وَهْمَ التعددية الذي أضل الإنسانية طويلا ورغَّمَها في طين الوثنية والشرك ..

ذلك أن منطق تعددية الآلهة لا يحتمله نظام الكون ولا ينسجم مع طبيعة الأشـــياء.. ولا يسيغه العقل، حتى العقل المادي، إذ أن هذا العقل يقر هو أيضا بأن الكون مصـــدره واحد، هو المادة ..

من هنا طفق النورسي يؤكد حقيقة رسو الوجود على منطق التوحيد

" لقد شاهدت أنه لو لم يسند كل شيء إليه تعالى، لزم إثبات آلهة غير متناهية، كل منها ضدٌّ للكل وصنوٌ في آن واحد.. يزيد عددها على عدد ذرات العالم ومركباتهـــا، بوجه يكون كل إله يمد يده إلى مجموع العالم ويتصرف فيه.[242]

التساوق التكويني الباهر دليل الوحدانية

إن التناسق الذي يعم مرافق الكون وعناصره، ويعطيها صفة الكتاب الفني، المرقـــوم، لهو دليل الوحدانية، وبرهان التوحيد:

---

٢٤١ المثنوي العربي النوري ص ٢١١.

٢٤٢ المثنوي العربي النوري ص ١٦١.

"..إن الإعجاز الباهر الظاهر في النظام والتناسق والإطراد المشاهد في كتاب الكــون الكبير – وهو برهاننا الثاني على التوحيد – يُظهر بوضوح تام كالشمس الســاطعة أن الكون وما فيه ليس إلا آثار قدرة مطلقة وعلم لا يتناهى وإرادة أزلية.."[٢٤٣]

الوصف المطلق يحيل إليه سبحانه وتعالى، انحصارا

يمنطق النورسي معنى الوحدانية، ويرى أن إثباتها يتضمن – وجوبا — النفي للشــرك وقصر صفة الوجود والواحدية عليه – عز وجل ..

فالتوجه إليه بالأدعية والضراعات يعني تجاوز كل ما عداه، والإغضاء عما ســواه، وإيكال الأمر إليه وحده:

" إذا نودي أحد بوصف مطلق في مقام التعيين، يدل على انحصار الوصف فيه.

مثلا :(يا دائم) أي يا من لا دائم في العالم إلا هو. فله سبحانه حجب نورانيــة إلى سبعين ألفا كما روي .. ولوجود المنافذ في الحجب والتناظر في الشؤونات والتعاكس في الأسماء، والتداخل في التمثلات، والتمازج في العنوانات، والتشابه في احاطة الواحديــة، لزم البتة، لمن عَرَفَهُ سبحانه في واحد مما مَــرّ، أن لا يستنكره في سائر ذلك، بل يفهــم بــالبداهة أنه هو هو .."[٢٤٤]

من هنا تتأكد حقيقة منطقية وهي أن سائر مظاهر الكون الحسي مفعمة بالــدلائل والإشارات التي تثبت معنى الواحدية ،والتي لا تخفى إلا عن أعمى البصيرة .. من ذلــك مثلا، ما تسجله ظاهرة انبثاق الإنبات والإثمار.. سواء المتحايثة منها أو غير المتحايثة [في المكان الواحد]، إذ أنها تدل على قدرة حضورية خارقة لشروط الزمان والمكان.. وتلك هي قدرته عز وجل التي لا تحدها أطواق المكان، ولا أحلاق الزمان..

".. إذ لابد لصانع ذرتين، أو زهرتين، أو ثمرتين، أو نحلتين في مكانين في آن واحد، من بُعْدٍ أزيد من البعد بينهما ."[٢٤٥]

سنة الله أو قوانينه التي تجسدها شريعته الكونية أو الطبيعية

لقد توهم الانسان في ضوء اطراد السنن الكوني، أن الطبيعة هي الفاعلة والمــؤثرة في الموجودات والكون، من هنا راح ينسب إليها من الأفعال والنتائج مــا انتهــى بــه إلى تأليهها..

---

٢٤٣ المثنوي العربي النوري ص ٤٢٦
٢٤٤ المثنوي العربي النوري ص ٣٤٣
٢٤٥ المثنوي العربي النوري ص ٤١٣

" إن الطبيعة هي شريعة إلهية كبرى أوقعت نظاما دقيقا بين أفعال وعناصر وأعضاء جَسَد الخليقة المسمى بعالم الشهادة . هذه الشريعة الفطرية هي التي تسمى بـ(سنة الله) و(الطَبيعة)، وهو محصلة وخلاصة مجموع القوانين الاعتبارية الجارية في الكون. أما ما يسمونه بـ (القوى) فكل منها هو حكم من أحكام هذه الشريعة.

و(القوانين) كل منها عبارة عن مسألة من مسائلها.ولكن لاستمرار هذه الشريعة واطراد مسائلها تَوَهَّمَ الخيالُ فجسمها في (الطبيعة)، واعتبرها موجودا خارجيا مؤثرا وحقيقة واقعية فاعلة، بينما هي أمر اعتباري ذهني .. فما ساقهم إلى هذه الفكرة غير المعقولة إلا انكارهم حقيقة الخالق الجليل، وذلك لعجزهم عن إدراك آثار قدرته المعجزة المحيرة للعقول".[٢٤٦]

الشريعة الإلهية مستويان اثنان

يقرر النورسي أن الشريعة الإلهية تأخذ مظهرين تتجلى بهما على الصعيد العملي والواقعي .. إذ هناك:

١- الشريعة الآتية من صفة الكلام التي تنظم أفعال العباد الاختيارية.. أي إنها مقررات الرسالة السماوية وتعاليمها التي يبلغها رسل الله إلى البشر..

٢- وهناك الشريعة الآتية من صفة الإرادة التي تسمى بالأوامر التكوينية والشريعة الفطرية، وهي محصلة قوانين عادات الله الجارية في الكون.

فكما أن الشريعة الأولى عبارة عن قوانين معقولة، فإن الشريعة الثانية أيضا عبارة عن مجموع القوانين الاعتبارية، والتي تسمى خطأ بالطبيعة . فهذه القوانين لا تملك التأثير الحقيقي ولا الإيجاد اللذين هما من خواص القدرة الإلهية..

إن كل مظهر كوني هو مرتبط بالضرورة مع بقية العناصر الكونية جميعا، فلا شيء يحدث من دون الأشياء جميعا، فالذي يخلق شيئا قد خلق جميع الأشياء، لذا فليس الخالق الشيء، إلا الواحد الأحد الصمد. بينما الأسباب الطبيعية التي يسوقونها أهل الضلالة هي متعددة، فضلا عن أنها جاهلة لا يعرف بعضها بعضا، علاوة على أنها عمياء، وليس بين يديها إلا المصادفة العمياء، **(قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون)** الأنعام /٩١. [٢٤٧]

٢٤٦ المثنوي العربي النوري ص ٤٢٥

٢٤٧ المثنوي العربي النوري ص ٤٢٦.

العلوم وسيط إيماني وتوحيدي لايمارى

مما لا ريب فيه أن العلوم وما يتعاطاه الإنسان من تجارب في حقـــول المعرفـــة وفي مجالات فقه المادة العضوية، يثبت الوحدانية. ذلك لأن "..العلوم الكونية التي توصل إليها الإنسان، هي كالحواس لنوع الانسان، وكالجواسيس تكشف له عن مجاهيل لا يصـــلها بنفسه، فبالاستقراء التام يمكنه أن يتوصل إلى كشف ذلـــك النظـــام بتلـــك الحـــواس والجواسيس .

فكل نوع من أنواع الكائنات قد خص بعلم أو في طريقه إلى ذلك، لذا يظهر كل علم ما في نوعه من انتظام ونظام بكلية قواعده، لأن كل علم في الحقيقة عبـــارة عـــن دساتير وقواعد كلية، وكلية القواعد تدل على حسن النظام، إذ ما لا نظام له لا تجـــري فيه الكلية، فالإنسان مع أنه قد لا يحيط بنفسه بالنظام كله، إلا أنه يدركـــه بجواســـيس العلوم، فيرى أن الانسان الأكبر – وهو العالم – منظم كالإنسان الأصغر سواء بسواء، فما من شيء إلا ومبني على أسس حكيمة، فلا عبث ولا شيء سدى، فبرهاننا هذا ليس قاصرا – كما ترى – على أركان الكائنات وأعضائها، بل يشـــمل الخلايـــا وجميـــع الكائنات الحية، بل يشمل الذرات جميعا، فكلها لسان ذاكر يلهج بالتوحيد، والجميـــع يذكرون معا : لا إله إلا الله".[٢٤٨]

التفكير والتأمل قناة للوصول إلى الإقرار بالتوحيد

يرى النورسي أن التفكير الروحي يذب الغفلة عن الـــنفس، وأن نهـــج الاســـتبطان والتأمل القلبي إذا ما استقام على أسس روحية سوية لا محالة سيؤدي إلى الإيمان بالله "..إن التفكير نور يذيب الغفلة الباردة الجامدة، والدقة نار تحرق الأوهـــام .. لكـــن إذا تفكرت في نفسك فدقق وتمهل وتغلغل وفصله تفصيلا، بمقتضـــى الاســـم (البـــاطن) المتعمق، إذ كمال الصنعة أتم في تحليله وتفصيله".[٢٤٩]

منهج التفكير المجدي

على أن النورسي قد وضع شروطا للتفكير الوجودي من شأنها أن تَـــحُدَّ من ضياع القلب وتسيب الروح وراء آماد من الحيرة الفكرية التي لا تستطيع أن تحيط بشساعتها، بل والتي لا تتمكن من الظفر منها بطائل اللهم إلا المضي في طريق الشك وعدم اليقين..

---

٢٤٨ المثنوي العربي النوري ص.٤٢٧.

٢٤٩ المثنوي العربي النوري ص ٢٥٦

فإطلاق العنان لقابلية التأمل لدى الإنسان والتجنيح في غياهب غيبيـــة لا ضـــابط موضوعي لها قد لا يثمر ولا يقود إلا إلى متاهة تتميع فيها لطائف الاستعداد الروحـــي الذي تتميز به أعماق النفس جبلة..

فمواجهة المطلقات بغير تهيئ روحي وقلبي قد لا يضمن حصول الإيمان وقـــراره في القلب، لذلك وجب على المتفكر في شؤون الغيب والملكوت أن ينطلق مـــن دعامـــات معرفية تكون له بمثابة الموجِّه والدليل في ذهابه وإيابه..

من هنا كان التفكير في الكائنات والموجودات مطلقا يشوش النظر ويُتيِّهُـــهُ.. بعكس التفكير في الذات وفي النفس، إذ أن ذلك من شأنه أن يركز الفكر ويحصـــر الجهـــد في نطاق استدلالي مقيد.. لقد بيَّنَ النورسي للمتأمل النهج الذي عليه أن يتبعه في تمرســـاته الروحية والقلبية من أجل أن لا تزل به القدم :

"**وإذا تفكرت في الآفاق**، فأجمل ولا تغص ولا تخض إلا لحاجة إيضاح القاعدة، ولا تحدد النظر، كما هو مقتضى الاسم (الظاهر) الواسع، إذ شعشعة الصنعة أجلى وأجمل في إجماله ومجموعه، ولئلا تغرق فيما لا ساحل له.

فإذا فصلت هناك – يعني في نفسك – وأجملت هنا، تقربت إلى الوحدة، فصـــارت الجزئيات أجزاء، والأنواع كلا، والمختلط ممتزجا، والممتزج متحدا، فيفور منـــه نـــور اليقين.

وإذا عكست بأن أجملت فيك، وفصلت في الآفاق تشتت بك الكثرة وتســـتهوي بك الأوهام وتستغلظ أنانيتك، وتتصلب غفلتك، فتنقلب طبيعة . فهذا طريق الكثـــرة المنجرة إلى الضلالة .." .[٢٥٠]

ويحدد النورسي – بعد هذا – أوجه البراهين التوحيدية ويقسمها إلى ثلاثـــة أقســـام ..ويدعو المستكشف إلى الحذر من المجازفة في الاعتداد بما قد يصيب خلال تقمصه لهذه الأقسام من فوائد أولية في طريق الإيمان :

".. يا من يحب أن ينظر ويصل إلى نور معرفة الحق سبحانه من مسامات الـــدلائل والبراهين ومن مرايا الآيات والشواهد، لا تتجسس بأصابع التنقيد ما جرى عليك، ولا تنقد بيد ما وهب إليك، ولا تمدن يدك لأخذ نور أضاء لك، بل تجرد وتعرض وتوجه .. فإني قد شاهدت من أنواع الشواهد والبراهين ثلاثة:

---

٢٥٠ المثنوي العربي النوري ص ٢٥٦.

١ –قسم محسوس ومرئي، وإن تعذر المسك به، فهو بمثابة الماء يرى ويلمس، ولكن لا تقبض عليه الأصابع..

قسم منها كالماء يرى ويحس، ولكن لا يستمسك بالاصبع، فتجرد عن خيالاتـــك، وانغمس فيه بكليتك، ولا تتجسس بإصبع التنقيد، فإنه يسيل ولا يرضى بالأصبع محلا .

٢ –وقسم يحس، ويلمس، ولكن لا يرى، فهو بمثابة الهواء، يمسنا ونحس به، ونحيا به لكننا لانراه..

وقسم منها كالهواء يحس ولكن لا يرى ولا يتخذ، فتعرص بوجهك وفمك وروحك لنفحات رياح الرحمة، ولا تقابلها بيد الأخذ والتنقيد والتردد، بدل تنفس الفم وتـــروح الروح، فإنه يزول، وهو منطلق ولا يرضى باليد مترلا .

٣ –وقسم يرى لكنه لا يلمس، ولا يقبض عليه، فهو بمنـــزلة النور الذي يعشـــي أبصارنا ، لكننا لا نستطيع الإمساك به، ولا محاصرته في حيز ..

إن هذا القسم هو مناط أفئدتنا : فتوجه ببصر بصيرتك مقابلا له بقلبك، فإن النور لا يؤخذ ولا يصاد إلا بالنور، ولا تمد يدا مادية حريصة، ولا تزنه بميزان الماديـــات، فإنـــه يختفي، وإن لم ينطفئ، ولا يرضى بالمادي حبسا وقيدا وبالكثيف مالكا وسيدا..".[٢٥١]

فهذه المستويات من الإدراك الروحي هي التي تنتظم النفوس وفق استعداداتها، فكـــل مهيأ للولوج إلى رحاب الإيمان من مستوى إدراكي معين كما اثبت النورسي ..

وما أكثر ما وجدنا الإستدلال التوحيدي يأخذ عند النورسي صورة نجوى تتوجـــه إلى القلب بالمحاورة والتلقين..من ذلك قوله :

يا قلبي إن الأبله الذي لا يعرف الشمس إذا رأى في مرآة تمثال شمس، لا يحـــب إلا المرآة ويحافظ عليها بحرص شديد لاستبقاء الشمس، وإذا تفطن أن الشـــمس لا تمـــوت بموت المرآة ولا تفنى بانكسارها، توجه بتمام محبته إلى الشمس، إذ ما يشاهد في المـــرآة ليس بقائم بها، بل هو قيومها، وبقاؤه ليس بها، بل بنفسه..".[٢٥٢]

ومما لا ريب فيه أن النورسي يكشف هنا عن إطار لتجربة سلوكية قائمة على اليقين والاستيثاق الروحي من صدق كشفها، فلذلك جاءت تقريراته علـــى هـــذه الصـــيغة التبصيرية التي تطبع سائر تعاليم النورسي.. الأمر الذي تتأكد معه الصلة الروحية الـــتي تربطه مع المناقب والاشتغال التصوفي المتميز..

---

٢٥١ المثنوي العربي النوري ص ٢٨٠

٢٥٢ المثنوي العربي النوري ص ٢٦٣

لقد عمت الفكرة التوحيدية أعمال النورسي ورسائله، حتى شكلت العظـم الـذي تقوم عليه تعاليمه.. ذلك لأن تعاليمه قد تفتحت على عالم الروح وظلت مشدودة إلى الملكوت، وهو ما جعل كل ما يصدر عنها بمثابة التسابيح المرفوعة إلى البـاري عـز وجل..

إشكال التوحيد عند العامة والخاصة

ما فتئ النورسي يتحدث عن الإيمان وبواعثه والشواهد الـتي تسـتقرئ النفـوس بواسطتها الحجة والبرهان على الوحدانية.. ولا ريب أن النورسي يدرك أن هناك مـن الظواهر والمثيرات الحسية ما يجعل النفس تحدس – مباشرة وبتلقائية – حقيقة التوحيـد والوحدانية .. وإلى هذا هناك مستويات من التجرد والتأمل العقليين تجعل مـن عمليـة الإقرار بالوحدانية صعيدا برهانيا وفكريا تتهيأ فيه امكانية الإثبات والاسـتدلال عـن الوحدانية..

لقد ميز النورسي في مؤلفه الموسوم بـ: (الكلمات) والذي عالج فيه– في جملة مـا عالج – قضية الإيمان بالخالق، ميز بين مستويين من التوحيد:

١– التوحيد العامي الظاهري.. وهو مستوى إيماني قلبي، وطبيعته – أنه يحمل دلالة إثباته على الوحدانية من غير أن يكون في حاجة إلى أن يدلل على فحواه، فهو توحيد – كما يقول – يثبت بأن لا يثبت.. أو هو يشير من غير ما إشارة، إذ في ظـاهر حالـه حقيقتُهُ وكنهُه التوحيدي الجلي..

ذلك "..أن الحقيقة تشبه الظاهر في الصورة، مع عظمة بُعْدِ ما بينهمـا في نفـس الأمر..

٢– وهناك توحيد آخر يسميه توحيد أهل الحقيقة.. وطبيعته– كما يقول النورسي – أنه يثبت بأن يثبت..

ومن غير شك أن النورسي يشير هنا إلى توحيد أهل الفكر الذين يؤسسون إيمـانهم على قاعدة العقل والفكر..

ويشرح النورسي رؤيته هذه بالحديث عن خصوصية كلا التوحيـدين الظـاهري والعقلي، فيرى أن: التوحيد العامي الظاهري يثبت بأن لا يثبت ولا يسـند الأشـياء والمخلوقات إلى غيره تعالى ".. فالسلبية البادية في هذا النوع من التوحيـد، هـي أسُّ إيجابيته في واقع الأمر.. بمعنى أن إقراره بظاهر الحقيقة واقتناعه بانـدماجها في نطـاق

الشمولية المطلقة للقدرة الإلهية – ذلك النطاق الذي يترجمه معنى الربوبية – هو مناط ذلك التوحيد أو ذلك الإيمان..

ومن المؤكد أن النورسي يشير هنا إلى الجانب البديهي الذي توفره المؤشرات الكونية والظواهر الطبيعية لقطاعات من النفوس البسيطة والذهنيات الساذجة التي لا يسعها حيال تلك المؤشرات ذات الدلالة اليقينية إلا الإقرار من خلال سجيتها بعظمة الخالق وقدرته الراسخة ..من غير ما استطاعة على البرهنة النظرية عن يقينيها التوحيدي..

ثم يتحدث النورسي عن توحيد أهل الحقيقة، فيرى أنه توحيد عقلي قابل لأن يعرض حجته ،ويوضح كنهه ويبرهن عن فحواه.. يقول :

".. وأما التوحيد لأهل الحقيقة فإنما يثبت بأن يثبت كل شيء مما يشاهد من الأشياء ويسنده إليه سبحانه، ويرى فيه سِكَّتَهُ، ويقرأ عليه خاتمه جل جلاله، وهذا الاثبات يثبت الحضور وينافي الغفلة. ".[٢٥٣]

وجلي أن المسألة التوحيدية من خلال هذا التصنيف قد ارتبطت بمستوى مدارك الشخص المُوحِّد وكفاءته في الإعراب عن المشاعر الروحية التي يتجسد له– من خلالها – التمثل الإيماني الصمدي، إذ أن النفس التي لا قدرة إدراكية لها تساعدها على ترجمة إيمانها، لا يسعها إلا أن تنخرط في اصطناع المجاز – بمعناه الواسع – للإعراب عن الحقيقة..هذا المجاز الذي غالبا ما يتخذ صورة الشعور الفطري، الحدسي..

فالحقيقة كما عناها النورسي هنا هي الإيمان بوحدة الخالق واليقين من مصدريته وهيمنته المطلقة على الكون والوجود ..

على أن الوصول إلى هذه اليقينية يقتضي سلوك سبل مختلفة، إذ :" يمكن أن يذهب الموفَّق من الظاهر إلى الحقيقة بلا مرور على برزخ الطريقة .." ويمكنه أن يمر إليها من طريق التقريرات القرآنية الكاشفة، ويمكن أن يتوصل إليها بدون المرور على برزخ العلوم الآلية، وهو ما يؤكده النورسي بقوله : "وقد رأيت من القرآن طريقا إلى الحقيقة بدون الطريقة، أي المشهورة، وكذا رأيت طريقا موصلا إلى العلوم المقصودة بدون المرور على برزخ العلوم الآلية".[٢٥٤]. وهو يقصد بالعلوم الآلية مشاغل المنطق واللغة وعلوم الفلسفة وغيرها..

---

٢٥٣ المثنوي العربي النوري ص ٣٤٦

٢٥٤ المثنوي العربي النوري ص ٣٤٧

كما يتحدث النورسي عن وجود دستورين معرفيين يتحـــدد في ضـــوئهما مـــترع التوحيد في ضمائر الناس.. وهذان الدستوران هما: النبوة والفلسفة ..

وإذا كانت الفلسفة الميتافيزيقية القديمة تقر بأن الوحدة هي مناط الواحدية، فإنها من ناحية أخرى قد جعلت ذلك التناسب مرتبطا بالوسائط الفاعلة بين المصدر والنتيجة، في حين أقرت النبوة ألا واسطية هناك بين الوحدة والواحدية، وأن كل شيء ناشئ عـــن الواحدية ومنبثق من إرادتها، وقدرتها المطلقة..

يقول:

"..من النتائج المثلى للنبوة ومن قواعدها السامية في التوحيد، (أن الواحد لا يصـــدر إلا عن واحد)، أي أن كل ما له وحدة لا يصدر إلا عن الواحد، إذ ما دامت في كـــل شيء وفي الأشياء كلها وحدة ظاهرة، فلابد أنها من إيجاد ذات واحدة ..

بينما دستور الفلسفة القديمة تقيم عقيدتها على منطق الوسيطية : وهي أن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد، أي لا يصدر عن ذات واحدة إلا شيء واحـــد، ثم الأشـــياء الأخرى تصدر بتوسط الوسائط ..

وهي نظرة أفضت بطبيعتها إلى القول بالتراتب بين الوسائط، والزعم بوجود منظومة من العقول تدير الكون، أعلاها وأرقاها هو **العقل الأول**.. إن هذا التعالق أو الـــتلازم الوسيطي بين المصدر ومنتوجه هو ما يعطي للوسيط صبغة الطرفية، وبالتالي، يجعل منـــه شريكا في عملية الإيجاد، الأمر الذي تنتفي معه الواحدية.. وذلك ما يلاحظه النورسي، إذ يستطرد:

"..هذه القاعدة للفلسفة القديمة تعطي للأسباب القائمة والوسائط نوعا من الشراكة في الربوبية وتظهر أن القدير على كل شيء والغني المطلق والمستغني عن كل شيء بحاجة إلى وسائط عاجزة، بل ضلوا ضلالا بعيدا فأطلقوا على الخالق – جل وعلا– اسم مخلوق وهو : **العقل الأول** .. وقسموا سائر ملكه بين الوسائط، ففتحوا الطريـــق إلى شـــرك عظيم.. فإن كان الإشراقيون الذين هم أرقى الفلاسفة والحكماء فهماً يتفوهون بهـــذا السخف من الكلام، فكيف يكون يا ترى كلام من هم دونهم في الفلسفة والحكمة من ماديين وطبيعيين؟. ". [٢٥٥]

ويلاحظ النورسي في هذا الصدد أن النبوة تقرر أن للأشياء حِكَماً كثيرة تتجـــه إلى ذاتها وإلى غيرها، وإلى خالقها على وجه الخصوص..

---

٢٥٥ الكلمات ص.٦٤٤,٦٤٥.

"..إنه من الدساتير الحكيمة للنبوة أن لكل شيء حكما كثيرة ومنافع شتى حتى أن للثمرة من الحكم ما يعد بعدد ثمرات الشجرة.. فإن كانت هناك نتيجة واحدة – لخلق ذي حياة – متوجهة إلى المخلوق نفسه، وحكمة واحدة من وجوده تعود إليه، فإن آلافا من النتائج تعود إلى خالقه الحكيم، وآلافا من الحكم تتوجه إلى فاطره الجليل.

بينما تقرر الفلسفة أن الحكمة في الأشياء هي تحقيق النفع الذاتي أو هي ضمان الحاجة الاستنفاعية التي ينالها الانسان منها بحيلته وتدبيره..

"..أما دستور الفلسفة فهو(أن حكمة كل كائن حي وفائدته متوجهة إلى نفسه أو تعود إلى منافع الانسان ومصالحه)، هذه القاعدة تسلب من الموجودات حكما كثيرة أنيطت بها، وتعطي ثمرة جزئية كحبة من خردل إلى شجرة ضخمة هائلة، فتحول الموجودات إلى عبث لا طائل من ورائه.."

إن هذه الرؤية التي كرستها الفلسفة القديمة في الفكر الانساني، وحاولت من خلالها أن تفصم العلاقة الفعلية والمصدرية بين الموجودات وبارئها، قد أثرت التأثير السلبي على المفكرين المسلمين ،إذ لوثت نظرة التوحيد التي أرساها الاسلام في القلوب، وهو ما لاحظه النورسي، إذ سجل أن فلاسفة الاسلام – بنظرتهم إلى كثير من الأشياء – كانوا ضحايا للفلسفة .. و لم يبلغوا من الإيمان أبعد من عتبته:

" ذلك لأنه – ونظرا لاستناد الفلسفة إلى مثل هذه الأسس السقيمة ولنتائجها الوخيمة –فإن فلاسفة الاسلام الدهاة الذين غرهم مظهر الفلسفة البراق، فانساقوا إلى طريقها، كابن سيناء والفارابي، لم ينالوا إلا أدنى درجة الإيمان، درجة المؤمن العادي، بل لم يمنحهم حجة الاسلام الإمام الغزالي حتى تلك الدرجة، وكذا أئمة المعتزلة، وهم من علماء الكلام المتبحرين، فلأنهم افتتنوا بالفلسفة وزينتها وأوثقوا صلتهم بها، وحكَّموا العقل، لم يظفروا سوى بدرجة المؤمن المبتدع الفاسق.."[٢٥٦]

بل لقد وجدناه يترصد نتائج الإختراق الفلسفي السلبي لمجالات ثقافية ومعرفية أخرى أكثر حيوية لصلتها بالمجتمع وبالحياة العامة، ونقصد بها المجال الأدبي والفني..

فلقد سجل النورسي أن هناك طائفة من أدباء ونوابغ المسلمين ممن ابتلوا بالفلسفة، قد ضلوا وأضلوا، وغدت آدابهم محاضن ومرجعيات تنشر الزندقة وتبث عدوى الجحود في الأوساط الإجتماعة .. ولقد خص بالذكر من هؤلاء أبا العلاء المعري، وهو " المعروف بتشاؤمه، وعمر الخيام الموصوف بنحيبه اليتمي، وأمثالهما من الأدباء الأعلام

---

٢٥٦ الكلمات ص.٦٤٥.

ممن استهوتهم الفلسفة وانبهرت نفوسهم الأمارة بها، فهؤلاء قد تلقنوا صـفعة تأديـب ولطمة تحقير وتكفير من قبل أهل الحقيقة والكمال، فزجروهم قائلين : أيها السفهاء أنتم تمارسون السفه وسوء الأدب، وتسلكون سبيل الزندقة، وتربون الزنادقـة في أحضـان أدبكم .." [٢٥٧]

وواضح أن النورسي يقدر هنا خطورة الانحراف الفكري الذي ترتب عـن شـيوع فلسفة الشك والحيرة الوجودية، لاسيما تلك الصادرة عن مرجعيات لها مـن النبـوغ والوجاهة ما كان لأولئك المبرزين من أدباء ومفكرين مسلمين، إذ أن النفـوس مولعـة بالانسياق وراء الاستثناءات، فهي -أي النفس الأمارة - بحكم تكوينها المهيأ للسـير في طريق الحيدة والانحراف عن الحق، تكون أسرع إلى الأخذ بما يُزلُّ ويضل، وهـو مـا أوقعت فيه الكثيرين من الناس تلك أفكار الوجودية اللا إيمانية القلقة التي طفقت تـنم عنها آثار بعض الأعلام المسلمين، إذ لم تكن هذه الآثار لتعدم من يتفاعل معها، فيخرج عن نطاق ثقافة وعقيدة التوحيد التي شملت الأمة وجعلتها كيانا روحيا عضويا واحدا..

الإيمان وازع فطري، وجودي

لا بدع أن يحب النورسي الحياة، وأن يعرب عن محبتـه تلـك في العديـد مـن المناسبات.. ذلك لأن الحياة - عنده - تعتبر من أهم الأصعدة التي تجلت فيهـا قـدرة الخالق وعظمته على العطاء والابداع، والمجال الحيوي الذي تعلقت به مواجد الإنسـان من حيث هو انسان، مميز للشهوات، متذوق للنعم، ومتشه للطيبات..

فالحياة بما حفلت به من تنوع في مُقَدَّرَاتها، وبما تَوَفَّر لَها مـن اغتنـاء في الألـوان والطبوع والمكونات، وما تميزت به من تعقُّد في تركيب الظواهر وتعددها، كل ذلـك جعل الإنسان يستشعر -على نحو أو آخر- أن هذا الغنى وهذا التلون وهذا التداخل قد هيئ له ولفائدته..

من هنا تَرَسَّخت محبتُه لهذه الحياة التي تغمره نعمُها من كل جانب والتي لا يسـتطيع - مع ذلك -أن يستغرق حاجته منها لما جُبِلَ عليه من شَـرَهٍ، ولما طُبِعَ به مـروره في هذه الحياة من قِصَرٍ..

على أن هذه اللهفة لا يمكن أن تترجم بأنها خروج عن الحد السوي الـذي يحتمـه سلطان الفضيلة، بل لا بد وأن يكون حرصُ الإنسان على الحياة والبقاء، ومحبته الجارفة

---

٢٥٧ الكلمات ص. ٦٤٦.

لها، وتعلقه بها، يترجم النزوع الفطري الذي أودعه الله سرا من أسراره في الإنسان وفي روحه وجوانحه " لابد أن حقيقة الماهية الانسانية الشاملة جدا مرتبطة فطـرةً بـالخلود والبقاء.." [٢٥٨]

من هنا غدت واقعة الموت أكبر الظواهر التي تعكس عجـز الإنسـان ومأسـاويته الوجودية..

بالإيمان يتحقق فلاح الانسان

لقد خلق الإنسان ضعيفا، شريدا، محفوفا بأعداء لا عداد لهم، وقد اعتصم في وجـه الزعازع بمنارة التوحيد .." فلولا التوحيد لأصبح الانسـان أشـقى المخلوقـات وأدنى الموجودات وأضعف الحيوانات وأشد ذوي المشاعر حزنا وأكثرهم عذابا وألما، ذلك لأن الإنسان يحمل عجزا غير متناه، وله أعداء لا نهاية لهم، وينطوي على فقر دائم لا حدود له وحاجات لا حدود لها..". [٢٥٩]

ومع ذلك جهزه الله بعدة ادراكية وتجاوزية تظل مهمتها الاسنادية كفيلة بتحقيـق سعادته المنوطة بشرط الإيمان.. إذ بدون الإيمان يفتقد الانسـان ارتكـازات سـكينته وسعادته..

النورسي و هاجس الموت

لقد ظلت تصريحات النورسي تؤكد هذه الحقيقة التي تُظهرُ مدى تولع الفرد بالحياة وبالبقاء .. مقابل تَفَجُّعه وتَرَوُّعه حيال قدر الموت.." إنني أسألكم أتوجد في هذه الدنيا مسألة أكبر من مسالة الموت ؟.أهناك مسألة إنسانية أهم وأكبر من هذه المسألة؟". [٢٦٠]

إنه تساؤل وجودي يؤكد أن الموت قوة لا تقهر، وأن الإنسان العنيد بطبعه، سيظل مسكونا بفاجعة الموت لأنه يرى فيها الإعجاز المريع الذي يتحداه ويقمع فيه كل تـوق إلى الإستعلاء والتحرر:

"ما دام الموت لا يقتل، وباب القبر لا يغلق، فإن أعظم ما سيشغل بـال الانسـان ويشكل أكبر معضلة له، هو النجاة من يد جلاد الموت هذا، والخلاص من سجن القـبر المنفرد". [٢٦١]

---

٢٥٨ الشعاعات ص٢٧٨
٢٥٩ أنظر الشعاعات ص.١٩.
٢٦٠ الشعاعات ص٣٢٩.
٢٦١ الشعاعات ص٢٤٣

ومما لاشك فيه أن مثل هذه التصريحات الصادرة عن النورسي إنما تكشف الحال التي أقلته – هو أيضا – إلى عدوَة الإنابة والتسليم لله .. لقد عَبَر إلى اليقين الإيماني بعد أن تجشم أعباء الخوف من العدم، والنفور من الزوال، والقنوط من جدوى حياة مؤطرة بالموت:

" حينما وافقت العوارض المزلزلة لكياني أمثال الشيب والغربة والمرض وكوني مغلوبا على أمري، فترة غفلتي، وكأن وجودي الذي أتعلق به بشدة يذهب إلى العدم، بل وجود المخلوقات كلها يفنى وينتهي إلى الزوال .. ولَّدَ عندي ذهاب الجميع إلى العدم قلقا شديدا واضطرابا أليما، فراجعت الآية الكريمة (**حسبنا الله ونعم الوكيل**).[٢٦٢].

لم يعش النورسي تحت وهم الغفلة التي تلابس الإنسان وتجعله يحيى بروح من سيُعَمَّرُ أبدا، وأنه لن يغادر هذه الحياة قط.. بل لقد وضع نُصْبَ عينيه حقيقة الموت ومغادرة عالم الدنيا:

" الموت لا مفرَّ منه أبدا، بل مجيئه أيقن من مجيئ الليل لهذا النهار .. فالموت الذي يفرغ كل مدينة من سكانها مائة مرة ويدفع بهم إلى المقابر، لابد أنه يطلب شيئا أكثر من هذه الحياة الفانية وأعظم رفعة منها .."[٢٦٣]

بهذه الروح الموقنة من الرحيل، أصَّلَ النورسي نظرته الوجودية وجعلها نظرة تستمد قناعتها من تعاليم القرآن..

لقد عاش الأنبياء بهذه الروح، فقد كانت تجربة الحياة بالنسبة إليهم مجرد رحلة ابتلاء، لا يأبهون بما يصيبونه فيها إلا على مقدار ما تتأكد به طاعتهم وقربهم من الخالق.. لقد عاش الرسول ﷺ أزهد ما يكون في الدنيا، ولكنه زهد لم يقعد به عن السعي وأداء واجبات هذه الحياة كما حددها له ربه.. وطبيعي أن يستنَّ الصالحون ومنهم النورسي في هذا المجال بالنبي ﷺ، فكان – من ثمة – شعارهم أن مقامهم في الدنيا مقام عابر، وأن مكثهم بها ظرفي، وأنهم موكلون بتأدية صالح الأعمال الذي تزكو به أرواحهم وتخلُصُ خضوعيتُهم لربهم في ما يُظهرون ويُسِرُّون..

فالموت ليس اعداما، ولكنه تحول إلى طورِ السرمدية والخلود، ولذلك كان لابد وأن يكون فيه العبد المرتحل على حظ من الاستعداد والتزود..

---

٢٦٢ الشعاعات ص٧٩
٢٦٣ الشعاعات ص٢٤٣

".. إننا.. على يقين لا يتزعزع بأن الموت بالنسبة لنا – بسر القرآن الكريم – لـيس اعداما أبديا، بل تذكرة تسريح .. بينما يُعَدُّ هذا الموت بالنسبة لمعارضينا وبالنسبة للسائرين في درب الضلالة موتا أكيدا واعداما أبديا (إن لم يكن يؤمن بالآخرة إيمانا لا شبهة فيه). [264]

القــرآن الكريم

تلابست افادات البوح – التي استغرقت أجزاء (المثنوي) – بروح القــرآن، مـن حيث شكَّلَ القرآن العظيم أرضيتها الرؤية الفكرية، ومنطلقها الاستبصاري العقلي الذي صدر عنه النورسي واسترشده ..

إذ أن مواجد الإيمان ومشاعر اليقين التي طفقت تستغرق النورسي، لم تسترسل على صورة تهيْام مشبوب ينتهي بها إلى تلك المشارف التي تغيب فيها عن المخاطب والمتلقي لمعةُ الوضوح، وتغدوً الدلالة مفتوحة على آفاق معنوية ظنية..

ذلك أن النورسي – وإن انطبع خطابه بمسحة أصيلة من التواجد والتهيام الشعري والذوقي أبانت عنها بلاغة النجوى الروحية التي عالج بها قضايا التوحيد في سائر كتبه ورسائله – إلا أنه ظل فيها جميعا – لا سيما في المثنوي – على كامل وعيه الأدائي، يقرر ما يقرر ليس عن انجذاب روحي أو انخطاف عاطفي تُمْلِي فحواه لواعج الباطن، ولكنه ظل يكشف عن خوالجه انطلاقا من فكر راجح وعقل مستوعب لإشكالية الإيمان – لا كما طرحها السلف، أو تداولوها في مجادلاتهم فقط – ولكنه إلى ذلك تَمَثَّلَ مسألة التوحيد والإيمان من خلال فهم راهن، محايثٍ لما يكتنف روحية التوحيد القرآنية من مصادرات عدوانية وتشديد للخناق عليها..

وغير خاف المنحى الإفضائي الذي ميز الأداء الإعرابي عند النورسي ..لقد استجمعت تلك البلاغة التي عالج بها النورسي مسألة التوحيد أصداءً من بلاغات شتى جربها أهل السلوك في ما عالجوا من أحوال و في ما تجشموا من أشواق .. فكان طبيعيا أن تحمل تلك البلاغة شيئا من مسحة التواجد التي ميزت بَوْحِيَاتِ أصحاب الكشوف، لا سيما النفري.. إلا أن الفارق الأدائي يبقى بارزا بين إفضاءات المثنوي وإفضاءات موافقات النفري ومخاطباته..

---

٢٦٤ الشعاعات ص٣٢٩.

لقد حمل خطاب النفري في تلك المقامات مسحة حلولية، إذ جاء القول يصطنع لسان الخالق، الأمر الذي خرق - شكليا كما نعتقد - بروتوكول التراتب التوصيلي المعروف، إذ لا ينبغي أن يَتَقَنَّعَ المخلوق بخطاب الخالق، ويصطنع ماهيته العلوية ،وذلك ما وقعت فيه — على نحو أو آخر — أدائية النفري، إذ تصدت للقول من منطلق فوقي، علوي ..

لكأن الخطاب –في تلك المواقف – يصدر عن الذات الإلهية وليس عن هوية بشرية تعرض فكرها وما يقر في قلبها من مواجد واستشرافات مردها الاعتلاج والتماهي الروحي الذي انجذب إليه السالك و لم يسعه فيه إلجام جموحه الوجداني..

وإذا كان هناك تأويل كثير لمسألة التمثل بالذات الإلهية – سواء من حيث اصطناع الأنا العلوي أو من حيث الصدور عن ذلك الأنا المطلق – فلا جرم أن بلاغة النورسي قد ابتعدت عن مواطن الريبة، إذ جاءت مطارحات المثنوي تصريحات لا تتوفر فحسب على رجاحتها العقلية وعلى امتلاكها لزمامها الرؤيوي الإيماني الراسخ، ولكنها – إلى ذلك – جاءت مطارحات قرآنية الروح، لا تقلب النظر في الكون ولا تستوثق لدلائلها العقلية إلا من خلال آيات الله البينات كما أودعها الخالق في محكمه العزيز..

فلا بدع – والحال تلك – أن يصدر النورسي عن تلك الروح القرآنية، فـ"قد كان الاشتغال بالقرآن الكريم والتعمق في فهمه الشغل الشاغل لهذه العقلية النيرة، فاعتبارا من إشارات الإعجاز، إلى المثنوي، إلى الكلمات المختلفة في كتابه (الكلمات) ولا سيما الكلمة الخامسة والعشرون، نراه يتنفس القرآن في كل كلمة يفضي بها ". [٢٦٥]

لقد دأب النورسي يؤكد الطابع الإنفتاحي الذي يميز الدلالة القرآنية واتساع الأفق الذي يمكنها أن تستوعبه تأويلا وايعازا .. ونتيجة ذلك الانفتاح أو الانفساح المعنوي هو ما يسَّر – بحسبه — على الخاصة والعامة أن تصيب من النص القرآني حظوظا إدراكية تتفاوت وفق تفاوت الاستعداد والقابلية ..

ذلك لأن تعدد مشارب التلقي حيال القرآن العظيم – من حيث قابلية التمثل والتنوع، وبقاء وحدته التوحيدية المبدئية – أمر ثابت ولا مراء فيه لأنه ".. كما لكل أحد من العالم عالما يخصه، كذلك لكلٍّ – باعتبار مشربه من القرآن – قرآنٌ يخصه ويربيه ويداويه..". [٢٦٦]

---

٢٦٥ من تقديم المثنوي العربي النوري.

٢٦٦ المثنوي العربي النوري ص ٢٤٩

تعليمية القرآن ذات الحقائق المجَسَّمَة في العيان

يتحدث النورسي في المثنوي عن ظاهرة السماحة الروحية والفكرية والترشيدية التي يتسم بها المضمون القرآني، ويرى في ذلك رحمة إلهية عم بها الخالق عباده المؤمنين، إذ باتت مداركهم ومواجدهم على اختلاف مشاربها الإيمانية تظفر بما يُجَلِّي جذوة الروح ويسمو بها .. يتساوى في ذلك العالم والمتعلم، بل إنه حتى الأمي والعجمي يجد نفسه على استعداد للتفاعل والتواجد بما يسمع من القرآن، لما للآيات الكريمة من قدرة على النفاذ، وما ذلك إلا نتيجة لما خَصَّ الله به القرآن من جاذبية نورانية لا تخطئ من تلامس قلبه، بل تلازمه وتقوي أحاسيسه الروحية..فـ"من لطائف القرآن أن رحمته عامة للكافة.."[٢٦٧].

لقد نبه النورسي إلى تلك الكيفية التوصيلية الناجعة التي سلكها القرآن العظيم إزاء متلقيه، إذ قرَّب القيم والتعاليم السماوية التوحيدية من مداركهم، من خلال تلك المزاوجة بين الحسي والمعنوي، أو بين المشهود على صفحة الوجود من جهة، والمرتسم في الغيب والمتعلق بذات الخالق العلية من جهة ثانية، وهو ما عناه النورسي حيث قال:

".. انظر إلى درجة رحمة القرآن وشفقته على جمهور العوام ومراعاته لبساطة أفكارهم، كيف يكرر الآيات الواضحة المسطورة في جباه السموات والأرض، فيقرئهم الحروفات الكبيرة الظاهرة التي تقرأ بكمال السهولة، بلا شبهة، كخلق السموات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض، وأمثالها، ولا يوجه الأنظار إلى الحروف الدقيقة المكتوبة في الحروف الكبيرة إلا نادرا .."[٢٦٨].

فقراءة القرآن للكون الماثل للعيان، وتمثله للظواهر الشاخصة، هو تفعيل تربوي غاية في الترشيد، إذ كل متفحص لآياته المنزلة يدهش من هذا التواتر المستمر لمعاني الكون الحسي ونظمه ومكوناته، والمحيلة على الخالق سبحانه وتعالى.. يقول النورسي متابعا حديثه عن هذا التواصل القائم بين الكون المنظور والكون المضمر الذي يصدر عنه القرآن:

".. ثم انظر إلى جزالة بيان القرآن كيف يتلو على الإنسان ما كتبته القدرة في صحائف الكائنات، حتى كأن القرآن قراءة للكائنات ونظاماتها وتلاوة لشؤون مكونها

---

٢٦٧ المثنوي العربي النوري ص ٢٤٩
٢٦٨ المثنوي العربي النوري ص٢٨١

وأفاعيله، فإن شئت فاستمع بقلب شهيد أمثال سورة (**عم**) وآية (**قل اللهم مالـــك الملك**). (آل عمران:٢٦) [٢٦٩]

على أنه لا ينبغي أن يغيب عنا أن الخطاب القرآني حين يشير إلى بعـــض التعيينـــات الخاصة، وإن جاءت في الظاهر تتعلق بالإنسان وشؤونه، إلا أنها غالبا ما تتضمن مقاصد أعم وأشمل .. وهو ما سجله النورسي إذ قال :

"..اعلم أن ذكر القرآن لبعض الغايات الراجعة إلى الإنسان إنما هـــو للأخطـــار لا للإنحصار، أي لتوجيه نظره إلى الدقة في فوائد نظام ذلك الشيء ذي الغاية، وفي انتظامه الدال على أسماء صانعه، إذ الانسان إنما يهتم بما له علاقة ما به، فيرجح ذرة ما إليه على شمس ليست إليه.. مثلا (**والقمر قدرناه منازل**)، (**لتعلموا عدد السنين والحساب**) . هذه غاية من ألوف غايات تقدير القمر، وليس المراد الانحصار، أي إنما خلق ذلك لهذا، بل إن هذا المشهود لكم من ثمرات ذلك.. ".[٢٧٠]

بل لقد رأى النورسي في الكون المحسوس، كتابا إلهيا يضاهي الكتاب المترل، وهو ما عبر عنه بالقرآن المعنوي والقرآن الحرفي. لأن الكتابين معا هما من إرادة الله، ومـــن قدرته :

".. إن القرآن المعنوي المكتوب بمداد النجوم على صحائف طبقات الســـموات، إذا قَرَأَ على الأنظار آيات العظمة والجبروت التكوينية، يَقْرَأُ معه – رأسا برأس – القـــرآن المكتوب بمداد الجواهر الفردة على جزء لا يتجزأ في حجيرة عينـــك : آيـــات العلـــم والحكمة. فإذا سمعت من ذاك : سبحانه ما أعظم شأنه، سمعت من هذا أيضا : سبحانه ما أدق حكمته وما ألطف صنعته . فإذا تساوى القرآنان واقتضت الحكمة تكثير نســـخ أحدهما – وتكثير نسخ الكبير لا يفيد الناظرين – فلابد مـــن تكثـــير نســـخ الصـــغير للمطالعين المتفكرين الغير المحدودين من المَلَك إلى الجن والإنس وغـــيرهم، وفي تكثـــير النسخ لا يبقى الكتاب كتابا واحدا، بل تتنوع الكتب وتتفاوت الفوائد وتتعدد المفاهيم، فتتلاحق الأمثال، فيتزايد الحسن والجزالة، ولولا ادراج كثير من سور الكتاب الصـــغير ونسخه في بعض حروفات القرآن الكبير، لفاق الصغير على الكبير بدرجة صغره..".[٢٧١]

---

٢٦٩ المثنوي العربي النوري ص ٢٨١
٢٧٠ المثنوي العربي النوري ص ٣٥٧
٢٧١ المثنوي العربي النوري ص ٢٨٤

الرؤية البنيوية والإجتزائية للنص القرآني العظيم .

ومما يراه النورسي خاصية توصيلية احتازها النص القرآني، إمكانية قراءة هذا النص القدسي مجتزءاً، وتحصيل فوائده كاملة – رغم ذلك الاجتزاء – .. وما ذلك إلا لأن له **تركيبة بنيوية ونصية جاءت تفاريقها موسومة بسمة الاكتفاء**، بحيث يكفل لك الجزء منها الغَناء ويسد حاجتك..

فاليسيرُ من الآيات التي تستجمعها سور مختلفة أو مواطن متفرقة من المتن، تمكنك على معرفة روح العقيدة ولمس مقاصد الكتاب ..

بل إن السورة الواحدة هي – من حيث كفايتها – قرآن ".. اعلم أن تضمين كل سورة سورة من القرآن مجمل ما في كل القرآن وسائر السور من المقاصد وأهم القصص، لأجل أن لا يحرم من يقرأ سورة فقط عما أنزل له التتريل، إذ في المكلفين الأمي أو الغبي، ومن لا يتيسر له إلا قراءة سورة قصيرة فقط، فمن هذه اللمعة الاعجازية تصير السورة قرآنا تاما لمن يقرأها".[٢٧٢]

فالقرآن هو النص الذي امتلك خاصية تركيبية ذاتية، اجتزائية، إذ أن آياته استوفت قوامة تفي بغرض الإفادة والكفاء الأدائي، سواءً سِيقَتْ ضمن بنيتها النصية أم اجتزئت واستنطقت بانفراد وعلى حدة..

"..إن آياته مع كمال الانسجام وغاية الارتباط وتمام الاتصال بينهما، يتيسر لكل أحد أن يأخذ من السور المتعددة آيات متفرقة لهدايته وشفائه، كما أخذها عموم أهل المشارب وأهل العلوم، فبينما تراها أشتاتا باعتبار المنازل والنزول، إذاً تراها قد صارت كقلادة منظمة ائتلفت واتصلت مع أخواها الجديدة، فلا بالفصل من الأصل تنتقص، ولا بالوصل بالآيات الأخر تستوحش، فهذا السر يشير إلى أن لأكثر الآيات الفرقانية مع سائر الآيات مناسبات دقيقة يجوز ذكرها واتصالها بها". [٢٧٣]

إن الطبيعة البنائية للسُّوَرِ – رغم قابلية الإجتزاء واستقلال الآي والمقاطع الخطابية بذواها – هي طبيعة بارزة .. وذلك من خلال اللحمة الداخلية الموحدة للبنى القرآنية التي يتساوق ضمنها وباسترسال عضوي، الموقف القصصي و الموقف الاعتباري التوحيدي و مساقات التشريع والتلقين أو ما إلى ذلك..

---

٢٧٢ المثنوي العربي النوري ص ٢٠٨

٢٧٣ المثنوي العربي النوري ص ٢٤٩.

فاللواحم الخطابية أو الفذلكات المذكورة في أواخر الآيات - كما يسميها النورسي- تشد المواطن القرآنية بعضها الى بعض، وتمد السدى المعنوي بين أجزاء المـــتن، وتبـــني الصرح كأكمل ما يكون التساوق بين مكونات الخطابيه..

ولعل هذه الخاصية تتجلى في العلاقة التي تربط استهلالات السور بنهاياتها، ذلك أن خواتم الآيات مرتبطة بفحوى السور ضمن كلية المتن القرآني.. وهو ما سجله النورسي بقوله :

" اعلم أن الفذلكات المذكورة في أواخر الآيات لاتنظر إلى تلك الآية التي هي فيها فقط، بل تنظر إلى مجموع القصة، بل إلى تمام السورة ، بل إلى جميع القـــرآن، لتســـاند الآيات وتلاحظها وتناظرها، فلا تزن ما في الفذلكة بميزان آيتها فقط، ولا تحمل عظمتها على حكم جزئي مَهَّدَ المحل لذكرها، وإلا بخسْتَها حقها مثل قال (**وكذلك نفصـــل الآيات**). (**ولقد صرفنا في هذا القرآن**). (**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن مـــن كل مثل**). (**إن الله عليم قدير**). ومثل(**لعلكم تذكرون**).و(**لعلكم تتقون**).. وأمثالها مما له عيون ناظرة إلى أكثر الآيات التنـــزيلية، وأكثر الآيات التكوينية، وأكثر الأحوال البشرية. فهذه الخواتيم القرآنية التي تمهر بها الآيات مع تأييـــدها لآياتهـــا، ترفـــع رأس المخاطب من الجزئي المشتت، إلى الكلي البسيط، ومن الجزء المفصل، إلى الكل المجمل، وتوجه نظره إلى المقصد الأعلى، وغير ذلك من أسرار البلاغة.".[٢٧٤]

النظر القرآني الكلي والقطعي يسفّه النظر الفلسفي الجزئي والتوهمي

لقد آمن النورسي **أن رؤية القرآن العظيم** – زيادة عما يؤكده منطق الأشياء مـــن حولنا في هذا الكون – تسفه **رؤية الفلسفة و تفند نظرة العقل الوضعي والتخيلي** إلى حقيقة الألوهية وكنهها القدري وإلى قضايا الوجود.. ذلك العقل الـــذي راح يعتـــدّ بالظواهر في حركتها الدنيا، العينية، متغافلا عما يصلها بالخالق – عز وجـــل – الـــذي هيأها وجعلها مجلى لقدرته وجبروته:

" ..اعلم أن الكتاب الكبير المشهود (أي العالم) والكتاب العزيز المســـموع (أي القرآن) بخس البشرَ حقَّهما، إذ فيلسوفهم المتفكر لا يعطي بالذات (للواجب) إلا جزءا

٢٧٤ المثنوي العربي النوري ص ٢٦٧

بسيطا وقشرا رقيقا أو تركيبا اعتباريا، ثم يقسم الباقي على علل موهومات، بل ممتنعات وأسماء بلا مسميات .. وأما الموحد فيقول : الكل ماله ومنه وإليه وبه.

أما القرآن، فأديبهم المتخيل لا يعطي لذي العرش من ذلك القصر المحتشم (أي من القرآن) .. إلا بعض نقوش النظم، وقسما من المعاني .. ثم يقسم الباقي من تلك النجوم السماوية على ســـاكني الأرض بدسيسة تلاحق الأفكار ..". [٢٧٥]

فالإختلاف بين أهل الإيمان وأهل الضلال يكمن في المنطلق الإحالي الذي ينيط بـــه كل منهما الوجود، ففيما يقر المؤمن للخالق بمصدرية الأكوان والموجـــودات، يحـــرص الضال على أن يتمحل عللا ومصادر حسية لهذا الوجود.. اعتقادا منه بأن المادة تخلـــق المادة، متناسيا الأصل والمنشأ..

فـــ"المؤمن الحق يقول : كل ما اشتمل عليه من أول الأساسات إلى آخر نقوش النظم منه وله. وأن القرآن لف في أساليب هي معاكس ألوف مراتب مقتضـــيات المقامـــات وحسيات المخاطبين.. وكذا مرَّ القرآن على سبعين ألف حجاب، وتداخَلَ إلى أعماق القلوب والأرواح، وسافر ناشرا لفيضه ومونسا بخطابه على طبقات البشر، يفهمه ويعرفه كل دور، ويعترف بكماله ويقبله كل قرن، ويستأنس به ويتخذه أستاذا كـــل عصـــر، ويحتاج إليه ويحترمه كل زمان بدرجة يتخيل كلٌّ: أنه أنزل له خاصـــة، فلـــيس ذلـــك الكتاب شيئا رقيقا سطحيا، بل بحر زخار وشمس فياض وكتاب عميق دقيق ". [٢٧٦]

إن الديمومة التي تكرست لبراهين القرآن وحججه، مقابل تبلبل الافتراضات الفلسفية وتغير حججها عبر الزمان والمكان، لمما يدفع بالنفس الإنسانية إلى التفكير في حقيقة كل من المذهبين: الإيماني الروحي، والعقلي التجريبي، انتهاء إلى ترجيح كفة الثابـــت علـــى المتحول، السماوي على الأرضي، وذلك ما يكرس الإيمان ويستقيم به المسار في هـــذا الوجود..

القرآن خرق للمألوف

ومن الخاصيات التوصيلية الأخرى التي يسجلها النورسي للقرآن العظيم، مباشـــرته للمسلمات والبديهيات التي اعتادها الحس ودرجت عليها مدارك الإنسان، إذ يستثيرها، ويستحضرها، ولكن بمقصد اعتباري، تحسيسي .. فإحالات القرآن المتواترة إلى الفضاء

---

٢٧٥ المثنوي العربي النوري ص ٣٠٨

٢٧٦ المثنوي العربي النوري ص ٣٠٨.

السحيق وما يعمره من سموات وأرضين مثلا، إنما تدأب على إسْتدْعاء المشهد الكـــوني الذي يكتنف المخلوقات والذي لا تنكره الخليقة لما يربطها به من أَلفة ..

لكن استدعاءات القرآن لهذا المشهد الكوني المألوف، والملابس لمواجـــد الإنســـان ولوجوده، إنما تواترت لتشد الأذهان والبصائر إلى ما يخفيه هذا المشهد من حقـــائق لا تدركها الجوارح الحسية.. من هنا أربطت فلسفة القرآن أسسها التأمليـــة، التعبديـــة، الموصولة بالفكر وبالتفكير بالخالق، من خلال لفت الأبصار إلى مرافق هذا الكـــون الخارق الذي هو من ابداعه وايجاده – عز وعلا– .. إذ أن استحضار الخطاب القـــرآني العظيم لعناصر الكون المحسوس، قد اقترن دائما بتقرير مبدأ الألوهية أو تَلاَزَمَ مع الدعوة إلى التفكير في الماهية السامية التي أوجدت كل ما تحفل به الآفاق من موجودات..

"..إن أكثر معلومات البشر الأرضية ومسلماته، بل بديهياته، مبنية على الألفة، وهي مفروشة على الجهل المركب، ففي الأساس فساد أي فساد . فلهذا السر تُوَجِّهُ الآيـــات أنظار البشر إلى العاديات المألوفة، وتثـــقب نجوم القرآن حجاب الألفة، ويأخذ بـــأذن البشر ويُميل رأسَه، ويريه ما تحت الألفة من خوارق العادات في عين العاديات..". [٢٧٧]

من سجايا علو الخطاب القرآني وكمال بيانه

لقد طفق النورسي يرادف المواقف التي سعى من خلالها إلى إبـــراز الخصوصـــيات الإعجازية للخطاب القرآني، من ذلك ما لاحظه حول انجدال البيان القرآني القائم على المقابلة في الإدلاء بين عوامل خطابية معنوية ونصية متناظرة .. فالوحدة يقابلها التعـــدد، والإجمال يعقبه التفصيل، والمقدمات تتوج بالنتائج، كل ذلـــك ضـــمن ســـياق مـــن الاسترسال البياني القويم الذي لا يملك ازاءه الذهن إلا أن يستيقظ ويظل مشدودا، لمـــا يميز الأداء من توثب لا يخترقه الفتور .. يقول النورسي :

"..اعلم أن من مزيات علو القرآن، إِيراد مذكرات الوحدة خلف مباحث الكثـــرة، والإجمالَ عقيب التفصيل، وترديف بحث الجزئيات، بدساتير الربوبية المطلقة، ونـــواميس الصفات الكمالية العامة الشاملة، بذكر فذلكات كالنتائج، أو كالتعلات في أخريـــات الآيات، لأجل أن لا يتغلغل ذهن السامع في ذلك الجزء الكوني المذكور، لذي العظمـــة والهيبة والكبرياء. وكذا ليبسط ذهنك من ذلك الجزئي إلى أمثاله وأشباهه .. وكـــذلك يريك القرآن بهذا الأسلوب، ويفهمك أن في كل جزئي ولو حقيرا وزائلا سبيلا واضحا،

---

٢٧٧ المثنوي العربي النوري ص ٣٢٤.

وصراطا مستقيما، ومحجة بيضاء إلى معرفة سلطان الأزل والأبد، وإلى شهود جلـــوات أسماء الأحد الصمد". [٢٧٨]

بين مرامي القرآن العظيم ومرامي الفلسفة

إن الاختلاف بين جوهر الفلسفة ومراميها وبين روح القرآن ومقاصده، يتبـــدى في طبيعة الصلة بين المصدرين وبين الوجود، ويتبدى أيضا في مستوى الحوار الذي يعقد كل منهما مع الكون وعناصره :

فـــ" القرآن يبحث عن معاني كتاب الكائنات ودلالتها، أما الفلسفة فإنما تبحث عن نقوش الحروف ووضعياتها ومناسباتها، ولا تعرف أن الموجودات كلمات تـــدل علـــى معان، فإن شئت أن ترى فرق حكمة الفلسفة وحكمة القرآن، فراجع مـــــا في بيـــان آيـــة: (**ومن يؤت الحكمة، فقد أوتي خيرا كثيرا**) ". [٢٧٩]

الفلسفة والقرآن

لا يخفى علينا واقع الاسترابة الذي طفق يكتنف رؤى الفلسفة عبر العصور ويرتكس بها إلى نقطة البدء، نتيجة فشلها في الوفاء بالتزاماتها المعرفية ورهاناتها الكشفية إزاء حيرة الإنسان وضياعه وجهله بعلل هذا الوجود وبمقاصده..

ومما لا شك فيه أن تنوع الفلسفات واختلاف مشاربها وتباين مراميها، يعكس وطأة التيه الخانقة التي ظل العقل البشري يضرب فيها، بحثا عن معالم طريق يسكن إليه ويقـــر فيه قراره.. فلقد لبثت التسديدات التأملية تقلب النظر في هذا الاتجاه وفي ذاك، نشـــدانا للحقيقة وطلبا للاستنارة التي تثوب بها السكينة إلى قلب المخلوق..

لكن تلك التسديدات ظلت في كل مرة تصطدم بما يسفهها ويفند مسلماتها ويهـــز يقينها.

لقد ضاعت الحقيقة بين الاجتهادات والتجديدات النظرية، إذ تشعبتها الفرضـــيات والسبل، و لم يتهيأ لها في أي صدد طرقته، هداية أو يقين ..

ولعل ذلك ما أشار إليه الفيلسوف الإسباني المعاصر **أورتيجا إي جاســـت**، حيـــث يقول : لقد أساء إلى الفلسفة حتى الآن أنها نظرة وحيدة مطلقة، ولهذا رأينا اخـــتلاف المذاهب وتنازعها وضرب بعضها ببعض على طول العصور..

---

٢٧٨ المثنوي العربي النوري ص ٤١٠.

٢٧٩ المثنوي العربي النوري ص ٧٦

و يذكر هذا الفيلسوف نفسه في مقال آخر له بعنوان " الحقيقية ووجهة النظر " ظهر سنة ١٩١٦، أن ثمة اتجاهين فلسفيين كلاهما خطأ، هما "الشك" و" المذهب العقلـــي". الأول يقول : إنه ليس ثمة وجهة نظر غير وجهة النظر الفردية، وبهـــذا ينكـــر وجـــود الحقيقة، والثاني يؤكد وجود الحقيقة لكنه من أجل ذلك يفترض وجهـــة نظـــر فـــوق فردية...

وعند أورتيجا أن الاتجاه الصحيح هو القول بأوجه نظر عديدة بقدر الذين ينظـــرون إلى الكون، وكلٌّ ينظر إليه من زاويته الخاصة . وكما لا يمكن اختراع وجهة النظر، فإن وجهات النظر كلها صادقة، لأن كلا منها يمثل المنظور الذي منه ينظـــر الانســـان إلى الكون . إذ لا يستبعد بعضها بعضا، بل بالعكس هي متكاملة، أعني إن بعضها يكمـــل بعضا، وليس منها واحدة تستغرق أو تستنفد الواقع كله، بل لا يمكن إحداها أن تنوب عن غيرها أو تحل محلها."

وغير خاف المنحى التلفيقي الذي يلتجئ إليه هذا التصويب الفلسفي الأفتراضي حين ينيط الحقيقة بالإتجاهات المتصارعة جميعها، فيعطي الحق والصواب لكل منها..

ولابد أن نعترف مع ذلك، بأنها نظرة ليس في وسعها إلا أن تتجاوز اشكالها علـــى ذلك النحو الإجماعي، إذ هي نظرة وليدة الفكر الانساني المحدود ..من هنا فإنها تنم في الواقع عن فوضى أكثر مما تنم عن رشاد يواجه الحقيقة من تلقائها المعقول..

لقد كان هذا هو حال الفلسفة في الغرب في القرن العشرين، القرن الذي وطد لآرائه وأفكاره وهيأ لها أن تنتشر وتسري، حاملة معها قيمها وقناعاتها المادية والتلفيقية، محورة من روحية الأمم والشعوب على قدر انفتاح المجتمعات على تلك القيم والقناعات..

من هنا لا نستغرب إذا ما وجدنا النورسي يتصدى لوقع تلك المـــداهمات الفكريـــة الفتاكة والمدمرة التي كانت تستهدف روح الإيمان الحق ..

لقد ظلت دروس النورسي تحتل – منذ مطلع هذا القرن – مقدمة الجبهة الإســـلامية المواجهة لتيارات الفلسفة الإلحادية والعقائد الفوضوية والتمردية التي أفرزها القرن التاسع عشر في أوروبا والغرب عامة، والتي راحت تجتاح برياحها الصقيعية بـــلاد المشـــرق، وضربت بزمهريرها شجرة الإيمان..

لقد ربط النورسي بين الفلسفة المادية وبين المدنية الغربيـــة، مـــن حيـــث التوجـــه اللاروحي، الذي يميزهما. فكلاهما يرسو على قاعدة من الجحود الصراح ، إذ لا تـــبرح الفلسفة المادية تناهض الإيمان وتغذي قابلية الزيغ والضلال في الإنسان الغـــربي، فيمـــا

تصعد المدنية المعاصرة من دواعي الإنغماس والتحلل، توريطا للفرد في المعصية، وكسبا له.. ذلك لأنها أقامت سوقها على ترويج الخطايا وإشهار الآثام..

بل لقد ميز النورسي اتجاهين يستوعبان عالمنا الأرضي منذ القديم، ويطبعان روحيته.. فهناك –كما يرى – اتجاه شرقي تطغى عليه الروحانية والاعتقاد الغيبي، وهو ما جعل إنسان هذا العالم الشرقي موئلا للنبوات والأديان .. وهناك اتجاه غربي تزدهر فيه الفلسفة ويحفل بالتجريب الفكري، الأمر الذي أعطى لمسيرة كل منهما خصائصها الروحية والوجدانية والمعرفية المميزة..

إن هذا الواقع جعل الرجاحة الروحية تترسخ للبلاد المشرقية، مقابل وطادة عقلية تَرَبُّبية تهيأت للبلاد الغربية، وطبعت فكرها المشوب بالجبروت، وميزت منظورها الوجودي والأخلاقي التراع إلى الإلحاد..

لقد انتهت تلك الآفاق في رصيد عريض من فكرها وتعاليمها، إلى قتل الإله، وتأليه الإنسان، وتلك مغبة الانغماس في التفكير المادي الوضعي ..

بل إن جذور هذا الانحراف لتكمن في العقيدة الكتابية نفسها، تلك العقيدة التي شكلت أهم رافد لصناعة الفكر والعقلنة الغربية، فقد أقرت تلك العقيدة إنسية الرب، وبشريته، في شخص المسيح، بل وفي شخص يهوة الرب القومي العبري، ذي المنازع البشرية الصارخة .. لقد هيأت العقيدة الكتابية الرب لهذا المصير المؤنسن، فكان عليه أن ينغمس في حياة البشر فيتزوج ويلد ويسري عليه الحتف والعدم في النهاية مثلما يسري على الإنسان سواء بسواء..

من هنا تباينت نظرة الطرفين – من حيث المنطلق – إلى كثير من حقائق هذا الكون وأسراره.. فلا بدع والحال هذه، أن نجد للقرآن نظرته الكونية التي تباين نظرة الفلسفة الغربية في هذا المجال..إذ أن لكل منهما رؤيته الخاصة ومنهاجه الذي يبرز به حقيقة هذا الوجود..

يقول النورسي :

" ..الفلسفة السقيمة والمدنية السفيهة تزيدان جمودها (الدنيا) وكدورتها بالتدقيقات الفلسفية والمباحث الطبيعية، وأما القرآن فينفش الدنيا كالعهن بآياته، ويشففها ببيناته، ويذيبها بنيرانه، ويمزق أبديتها الموهومة بنعياته، ويفرق الغفلة المولدة للطبيعة برعداته،

فحقيقة الدنيا المتزلزلة تقرأ بلسان حالها المذكورة آية : (**وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون**) (الأعراف :٢٠٤)".[٢٨٠]

ويلاحظ النورسي في هذا الصدد أن طبيعة الفلسفة هي طبيعة توصيفية، تحديدية، تستهدف ظاهر الأمور وشكلها.. من هنا كان ديدن الفيلسوف أن يواصف الأشياء والظواهر أو يعاينها كما تبدو له من خارجها، أو كما تقربها إليه حواسُّه، ولا يلتفت إلى علتها الأولى، ولا يهتم بموجدها الأول .. فنظرة الفيلسوف للشمس مثلا لا تعدو التشخيص العيني البارد، السطحي ..

إذ هو لا يُقيِّمُها إلا من حيث هي كتلة نارية مائعة تفوق الأرض بكذا، وتدور على نفسها، وقد كانت أصلا لكواكب أخرى تشظت منها، مثل كوكبنا الأرضي..وأن تلك الكواكب محكومة بجاذب عمومي لو حادت عنه إحداها لوقع هول يشمل السموات والأرض..

إن مثل هذا التوصيف الحسي غير المؤسس على منطق روحاني إيماني من شأنه – كما يرى النورسي – أن يبث الروع في النفس، إذ أنه يجعل الأكوان رهينة بالصدفة وبتلقائية الحركة، فهو يتغافل عن أهم إرتكاز يعطي للطرح وجاهته وصوابه، ويسنده بالسند الروحي الذي تغدو معه الأشياء والأكوان جميعا منسجمة مع الحقيقة الكلية التي تديره، ألا وهو إرادة الله التي لا مجال لصدفة أو اعتباط معها..فليست" الشمس مع سياراتها إلا مصنوعة موظفة، ومخلوقة مسخرة بأمر فاطرها الحكيم، وبقوة خالقها القدير، وما هي مع عظمتها إلا قطرة متلمعة في وجه بحر السماء يتجلى شعاع من اسم (النور) عليها."[٢٨١]..

فتغييب الفلسفة لأهم جوهر إحالي في معاينتها لظواهر هذا الكون والوجود، يُعَدُّ – من قِبَلها – تجاهلا سافرا، وغير مبرر، لتلك الأبعاد الغيبية التي لم تستطع مصادراتنا العقلية والتعليلية الحسية أن تسوغها ولا أن تُدرك كُنْهَهَا..

ومن الثابت أن تلك الهوامش العريضة من الظواهر والاشكالات التي يقف العقل حيالها عاجزا عن التعليل والاستيعاب، إنما تدخل في الحيز الذي ينبعي أن يناط بقدرة الله، إذ أن ما عجز العقل الإنساني عن تفسيره، وتفعيله، لا يمكن إلا أن يرتد في معرفة

---

٢٨٠ المثنوي العربي النوري ص.٧٦

٢٨١ المثنوي العربي النوري ص ٧٥

كنهه وحقيقته إلى تلك القوة الخارقة التي تدير حيواتنا والعوالم من حولنا.. الله خـــالق الكون..

وذلك هو بالضبط ما تتغاضى عن الإقرار به الفلسفة الحسية المصـــمتة ..ولـــو أن الفلاسفة " أدرجوا في مسائلهم قبسا من القرآن فقالوا : يفعل الله بهذه الأجرام المدهشة الجامدة وظائف في غاية الانتظام والحكمة، وهي في غاية الإطاعة لأمره، لكان لعلمهـــم معنى، وإلا بأن أسندوا إلى أنفسها وإلى الأسباب، صاروا كما قال القرآن (**ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الـــريح في مكـــان ســـحيق**) (الحج:٣١) وقس على هذه المسألة سائر المسائل.".[٢٨٢]

ويمضي النورسي في إبراز علة هذه المفارقة القائمة بين النظـــرة القرآنيـــة والنظـــرة الفلسفية للأشياء والوقائع.. فيرى أن القرآن يتناول الظواهر ويســـتدعيها في مقاماتـــه الخطابية لا على أنها مواضيع غائية، يريد أن يستفرغ حديثه عنها كوقائع قائمة بـــذاتها، ولكنه يتناولها من حيث هي دلالات وإحالات تشحذ العقل وتجلي له سُـــلَّمِيَّةَ العلـــل والأسباب التي تنتهي إليها حقيقة كل شيء في هذا الوجود..

إذ ما من ظاهرة إلا ووراءها خيط يوصلها بالخالق الباري .. وهو ما تخطئه الفلسفة التي تعالج القضايا والظواهر في ذاتها ولذاتها.. منفصلة عن القدرة الإلهيـــة أصـــل هـــذا الكون..

" فإن قلت لأي شيء لا يبحث القرآن عن الكائنات كما يبحث عنها فن الحكمـــة والفلسفة؟. قيل لك لأن الفلسفة عدلت عن طريق الحقيقة، فاســـتخدمت الموجـــودات لأنفسها بالمعنى الاسمي، وأما القرآن فبالحق أنزل وبالحق نـــزل وإلى الحقيقـــة يـــذهب فيستخدم الموجودات بالمعنى الحرفي لا لأنفسها بل لخالقها.." [٢٨٣]

ذلك لأن " الفلسفة المادية تقوم الأشياء والموجودات بذاتها ولذتاتها، فهي مـــن ثمـــة تصدر عن رؤية تقطع الأواصر بين الموجد (الله) والموجود.. على عكس الرؤية القرآنية التي تقرر الأشياء وتحرص إيما حرص على ربطها بخالقها، فهي من ثمـــة رؤيـــة تكفـــل الترشيد للخالق، ولا تجعل منه مظنة بلا منطلق ولا منتهى ..

فالقرآن إنما ينظر من الموجودات إلى وجوهها الناظرة إلى فاطرها، وأما الفلسفة فإنما تنظر من الموجودات إلى وجوهها الناظرة إلى أنفسها وأسبابها، وغايتها الناظرة إلى مصالح

٢٨٢ المثنوي العربي النوري ص ٧٥

٢٨٣ المثنوي العربي النوري ص ٧٢.

جزئية فلسفية أو صنعوية .فما أجهل من اغتر بالفنون الفلسفية وصيرها محكا لمباحث القرآن القدسية .." .[284]

لقد استخدم النورسي مفهومي الإسمية والحرفية، ليشخص من خلالهما الفارق الأساسي بين المنظورين القرآني والفلسفي .. موازيا بين الإفادة التي يستحصلها العقل من وراء تعاطيه الفلسفة والعلم القرآني وبين الدلالة التي يحيل إليها كل من الحرف والاسم ..وإذا كان الاسم – في تحديد النحاة– هو ما دل على معنى في ذاته، فإن دلالة الحرف – عندهم – إحالية متعلقه بغيره.

فكذلك شأن المنظورين القرآني والفلسفي .. إذ أن رؤية القرآن إحالية، تصل الوقائع ببارئها، فهي – بذلك – بمثابة الرؤية الحرفية التي تستبين دلالتها من خلال صلتها بمتعلقها الاسمي .. إذ الظواهر فيها تأخذ صبغة العلامة والدليل المشير إلى حقيقة معنوية أشمل، هي الله .. بينما الرؤية الفلسفية رؤية عينية، ذاتية، مصمتة، لا يتعدى فيها الدال مدلوله الحسي الشاخص.. فهي بمثابة الاسم يحمل فحواه في بنيته وحسْب..

من هنا كان النظر القرآني للأشياء نظرا إيمانيا، يلحم بين الظواهر وبين الله خالقها ومدبرها .. فيما كان النظر الفلسفي نظرا شيئيا، حسيا، لا يرسو بمصادراته العقلية القاصرة إلا على منطق تشييئي، جحودي، من أبرز محدداته الاصطلاحية : المجهول، واللانهائي، والمطلق.. وما إلى ذلك من التعيينات التي تعكس ضيعة الإنسان وعجزه..

ومن هنا كانت رؤية المؤمن إلى الموجودات حرفية، إذ أنها نظرة متعلقة بمصدر الوجود تدل على معنى في غيرها.. وكان رؤية الكافر إلى تلك الموجودات قصدية، اسمية، إذ أنه لا يراها إلا هي، ولا يلمس فيها إلا دلالتها على نفسها..[285].

ومن هنا أيضا جاء الخلل في منهج ومنطق الفلاسفة وفي ما يكتبون، وهو ما لاحظه النورسي بقوله : " ترى كتب الفلاسفة أحكم فيما يعود إلى الكائنات في أنفسها، مع أنها أوهن من بيت العنكبوت فيما يعود إليها، بالنسبة إلى صانعها . وكلام المتكلمين مثلا، لا ينظر إلى المسائل الفلسفية والعلوم الكونية، إلا بالمعنى الحرفي التبعي والاستطرادي وللاستدلال فقط ".[286].

---

٢٨٤ المثنوي العربي النوري ص ٧٧.
٢٨٥ المثنوي العربي النوري ص ٤٠٤
٢٨٦ المثنوي العربي النوري ص ٤٠٤.

الإنســــان

أنا البشر متعدد، لذا تعددت طرقه ورؤاه للحقيقة

يقرر النورسي أن منـــزلة الإنسان وحقيقة إنسانيته إنما تتكرسان بالإيمـــان عنـــدما يمازج القلب ويشيع فيه الطمأنينة والوثوق بالمصير..

فـــ" إكسير الايمان إذا دخل في القلب يصير الانسان جوهرا لائقا للأبدية والجنـــة، وبالكفر يصير خزفا فانيا . إذ الإيمان يرى تحت القشر الفاني لُـــبًّا لطيفا رصينا، ويرى ما يتوهم حبابا مشمسا زائلا، ألماسا متنورا . والكفر يرى القشر لُـــبًّا فيتصلب فيـــه فقط، فتنـــزل درجة الانسان من الألماس إلى الزجاجة، بل إلى الجمد". [٢٨٧]

إن اختلاف نظرة البشر إلى الحياة وإلى الغاية من هذا الوجود الذي يمخرون عبابه ، هو ما يضفي على الحياة قيمتها الحق ويحدد صورتها وماهيتها..

ومما لا ريب فيه أن ما أحال الإنسان المادي إلى عبد للغريزة، وقنٍّ للأهواء، إنما هـــو خلو قلبه من القيم القدُسية التي ترتفع به نحو الأسمى والأطهر..

على خلاف الإنسان الروحاني، الموحد، المقر لله بالألوهية وبأنه مصدر ومِلاك أمـــر هذا الوجود..

فهذا الإنسان المؤمن لا تختلط عليه الرؤى ولا تتشابه حياله السبل في تمييز الأشياء وتحديد مصدرها، إذ كل ما يحتويه الكون هو من صنع الله ومن قدرته..

ولا يمكن أن يَقَـــرَ في خَلَدِنا أن إحالة الموجودات على الخالق — عز وجل — هو تنصل فكري ينم عن سلبية وانصياع بليد يتحاشى الخوض في مسائل غيبية لا يتأهل لها إلا العقل الحي .. ذلك أن مسألة الإيمان قد ظلت مدار معركة يومية لدى ذوي البصيرة، لأن الحياة بالقياس إليهم إنما هي مواجهة دائمة ومتواصلة مع الحقائق الاعتبارية التي يمور بها قلب الانسان ومع هذه الظواهر والتجليات الكونية ..

من هنا يصح أن نعتبر الجحود - لا الإيمان - هو الموقف التنصلي، السلبي، الـــذي يعجز عن تجاوز عتبة الحيرة التي يبعثها الواقع الشاحص حيالنا .. الواقع الذي لا تعرف كل نفس كيف تستأنسه وتســـتـــنطقه وتستجلي حقيقته ومقوماته الكامنة فيه ..

---

٢٨٧ المثنوي العربي النوري ص ١٥٨.

فمن شأن الجاحدين — في كل عصر – أن يصرخوا في وجه النـــاس متـــذمرين، مستفزين، معلنين بأن لا حقيقة وراء هذا الكون إلا العدم واللامعقول، وأن لا مآل هناك إلا المآل الدماري الذي سوف يعصف بالعوالم يوما ما وينهي اللعبة..

إنها عقلية العبث القاصرة التي تحصر تجربة الوجود في هذه الرؤية الدمارية العقيمـــة ،وفي وجود يمضي مهرولا بالإنسانية – مؤمنة وملحدة – على طريق نضال لا شك أن ثماره الإعلائية، المجسدة لموثق الإستخلاف الذي عقده الرب – سبحانه وتعالى لعبده – لا تفتأ تتجلى باطراد لكل ذي عقل وبصيرة، من خلال الكشوف والمكاسب والمزايا التي يتلاحق تحققها للإنسانية بتوفيق من رب العالمين..

ولعله من المناسب أن نذكر هنا بأن هذه الكشوف التي تتحقق للانسانية يوما بعـــد يوم في مضامير الحياة العلمية المختلفة، قد ظلت تقوي من روح الإيمان، وتهيئ مزيدا من القابليات اليقينية لدى الأوساط العلمية أو الفئات المحتكة بهم، الأمر الذي يعطي الدليل على أن المعرفة الحق، من شأنها – متى سادت – أن تسارع بإزاحة غشاوة الجحود مـــن على بصيرة البشر، وهو ما آمن به النورسي، وتوقعه، وأناط به مستقبل الإسلام ،إذ قدّر أن توسع وانتشار المعرفة العلمية من شأنها أن تلفت الناس بصورة أكبر إلى الإسلام، لأن المعرفة المحصفة هي من مشمولات القرآن ومن مرتكزات الدعوة الإسلامية، النورانيـــة، المبرأة من كل تلبيس أو تدليس..

فلسـفة الأنـا

أَنَا الإنسان .. بعيدا عن منطق الحلول والتأله

خلق الله الانسان وأحله محل التكريم والاجتباء، وزوده بملكات عقلية وبماهية روحية اعتبرت مفتاحا ينفذ به إلى فهم مغاليق هذا الوجود المترامي من حوله..

وإذا كانت المعرفة التي يكتسبها الانسان في هذه الحياة هي في ذاتها أحد مظاهر قدرة الله وعظمته التي هيأت المخلوق لأن يستوعب من الحقائق والخبايا ما يـــدهش ويثـــير العجب، فإن الذي يُعَدُّ حقا مثار العجب هو انحراف الإنسان عـــن جـــادة الصـــواب وجنوحه إلى الكفر وجحود نعم الله وما هيأ له من أفضال وقابليات مكنته من أن يسود الكائنات ومن أن يمضي مصعدا سيادته على الكون والطبيعة إلى حـــدود لا تعـــرف التوقف..

من هذه المفارقة اعتبر النورسي (**أنا**) الإنسان مفتاح خير، لأن هذا الأنـــا يظـــل بلصوقه بالنبع الإلهي، يستمد من إيمانه الوهج الروحي والطمأنينة القلبية.

كما اعتبر النورسي هذا الأنا من جهة ثانية مفتاح شر، وذلك لما تعرض الإنسان من أسباب تحرفه عن الهدى والصواب، وهو ما يقطع صلته بالخالق ويطفئ مـــن أعماقـــه شعلة الإيمان..

"إن مفتاح العالم في يد الانسان وفي نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب (هـــي في الواقع) منغلقة . فالحق سبحانه أودع من جهة الأمانة في الانسان مفتاحا يفتح بـــه كل أبواب العالم، وطلسما يفتح به كنـــزَ خلاَّقِ الكون، **والمفتاح ما فيك من أنا** . إلا أن " **أنا** " أيضا معمى مغلق ومطلسم منغلق، فإذا فتحتَ (**أنا**) بمعرفة ماهيته الموهومـــة انفتح لك الكائنات.."[٢٨٨]

فاذا ما أدرك الإنسان حقيقة (أناه)، وكَونُهَا ماهيـــة تتحـــرك بـــإرادة خالقهـــا، وتكتسب ما تكتسب من عمل بمشيئة ربها، كانت صلته بالكائنات وبالحقـــائق صـــلة سوية، ومن شأن ذلك أن ينفث نسائم السعادة على حياته، إذ تضحى حياة مؤسســـة على وعي إيماني يسند الأمور والوقائع إلى الله، موجب الوجود.

" فالإنسان إذا عرف " **أنا** " ما هو، بأن رآه شعرة شعورية في حبل وجود الانسان ..له وجهان، وجه إلى الخير، فبه قابل للفيض لا فاعل، ووجه إلى الشر والعـــدم، وبـــه فاعل، وماهيته موهومة، وربوبيته مخيلة، ووجوده أضـــعف مـــن أن يتحمـــل شـــيئا بالذات..إن الانسان إذا عرف ذلك .. وأذعن ، دخل تحت (**قد أفلح مـــن زكاهـــا**) (الشمس:٢). وأدى الأمانة بحقها . فإذا تأملت في "أنا " بالمعنى الحرفي، صار لك عينـــا تفهَّمَتْ، ورأيت به كل ما في الكون، لأنه إذا جاءت المعلومات الآفاقية، صادفت في أنا ما يصدقها . فإذا فهمتها انتهت وظيفة " أنا " وربوبيته الموهومة، ومالكيته المفروضة .. وأما إذا نظرت إلى " أنا " بالمعنى الاسمي واعتقدته مالكا، وخنت في الأمانـــة، دخلـــت تحت (**وقد خاب من دساها**) (الشمس:٤)".[٢٨٩]

فلم يهلك الإنسان إلا اعتقاده الضال بأنه هو الفاعل والمتصرف، وأنه سيد نفســـه والمسؤول عن مصيره.

---

٢٨٨ الكلمات ص. ٦٣٨

٢٨٩ م.ن. ص ٦٣٨

"إذ الأمانة التي تدهشت من حملها السموات والأرض والجبال هي " أنا " من هـــذه الجهة، منها يتولد الشرك والشرور والضلالات، فإذا تستر " **أنا** " عنك غلظ حتى صار حبلا بلع وجودك، فصار كذلك **أنا**. ثم استغلظ بأنانية النوع والاستناد بـــه، فيصـــير شيطانا يبارز أمر صانعه، ثم يقيس الناس، ثم الأسباب، على نفسه، فيقع في شرك عظيم . ففي هذا الوجه لو أرسلت عينك وفتحت كل الآفاق، انغلق في وجهك، برجوع عينك إلى نفسك، إذ ترى كل شيء بلون ما في نفسك من " **أنا** " ولونه في ذاته – في هـــذا الوجه – الشرك والتعطيل، ولو ملئت الآفاق آيات باهـــرة، وبقي في أنا نقطة مظلمـــة طـــمت على الآيات." [٢٩٠]

إن الفطرة السليمة والحدس السوي يشهدان " أن الفاعلية هي من شأن اللطيف، وأن الإنفعالية من شأن المادي.." [٢٩١]

فمعرفة النفس أو الـــ(أنا) بمصطلح النورسي، تتجاذبها تعـــاليم الســـماء وتعـــاليم الأرض، أذ أن معرفة الفرد لنفسه في ضوء الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ تجعـــل الفـــرد يدرك حقيقـــــة (أناه)، ويقدر منزلتها الخضوعية، التعبدية، الموكلة بتمجيد الخالق في ما تؤدي من صالح الأعمال ..

أما معرفة النفس على هدي تعاليم الفلسفة وجدلها الافتراضي، فمن شأنها أن يورث الحسرة والقلق وتضع الإنسان في متاهة متعددة الأنفاق ..

"إن (أنا) له وجهان، وجه أخذته النبوة، ووجه أخذته الفلسفة. فالوجه الأول منشأ العبودية المحضة، ماهيته حرفية، ووجوده تبعي، ومالكيته وهميـــة، وحقيقتـــه فرضـــية، ووظيفته : صيرورته ميزانا ومقياسا لفهم صفات الخالق . فالأنبياء هكذا نظروا إلى أنا، فسلموا الملك كله لله. وحكموا بأنه لا شريك له لا في ملكـــه ولا في ربوبيتـــه ولا في ألوهيته، وبيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير. ومن هذا الوجـــه الشـــفاف الحي أَنْبَتَ الرحيم جل جلاله شجرة طوبى العبودية، فأثمرت أغصانها المباركة .. ثمرات الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين المتلألئين كالنجوم في الظلمات". [٢٩٢]

هكذا ينساق الحديث بالنورسي عن الفلسفة ليبحث في مسائل الإنســـان، ويحلـــل مركباته، وليشخص الأسباب التي تجعل النفس البشرية عرضة للزيغ.. لقد أكد النورسي أن الفلسفة إذا لم تتحصن بالمعرفة الدينية المرشِّدة، فإنها تضر بالفطرة وتهز قابلية الإيمان..

٢٩٠ المثنوي العربي النوري ص ٣٢٨.
٢٩١ المثنوي العربي النوري ص ٢٥٥.
٢٩٢ المثنوي العربي النوري ص ٣٢٩.

الأنا ونوازع الانسياق للخير والشر

ذلك لأن من الأسباب الدافعة لانحراف الانسان عن فطرتـــه، انغماســـه في الفكـــر الجحودي المضل، بل إن من عوامل تحول (الأنا) من حال شفافيتها وغضارتها إلى حالٍ الغلظة والجفاء، تمرسه بالفلسفة المادية، إذ أن ذلك التمرس السيء يجعل (أنـــا) الفـــردً ينخرط في غمار وجهة لا أفق لها من التيه الفكري، واليأس النفسي، والغبن الوجودي، والقنوط الروحي المردي ..

وذلك ما عبر عنه النورسي من خلال هذا التشخيص، حيث يقول :

"ثم إن من نتائج الأسس الفاسدة للفلسفة: أن (أنا) الذي ليس له في ذاته إلا ماهيـــة ضعيفة كأنه هواء أو بخار، لكن – بشؤم نظر الفلسفة ورؤيتها الأشياء بالمعنى الاسمـــي– يتميع، ثم بسبب الألفة والتوغل في الماديات والشهوات، كأنه يتصلب، ثم تعتريه الغفلـــة والإنكار فتتجمد تلك الأنانية، ثم بالعصيان – لأوامر الله – يتكدر (أنا) ويفقد شفافيته ويصبح قاتما، ثم يستغلظ شيئا فشيئا حتى يبتلع صاحبه، بل لا يقف (أنا) عند هذا الحد وإنما ينتفخ ويتوسع بأفكار الانسان ويشرع بقياس الناس، وحتى الأسباب، على نفسه، فيمنحها فرعونية طاغية – رغم رفضها واستعاذتها منها – وعند ذلك يأخذ طور الخصم للأوامر الإلهية فيقول : (**من يحي العظام وهي رميم**) يس:٧٨، وكأنه يتحدى الله عـــز وجل، ويتهم القدير على كل شيء بالعجز، ثم يبلغ به الأمر أن يتدخل في أوصـــاف الله الجليلة، فينكر أو يحرف أو يرد كل ما لا يلائم هواه، أو يعجب فرعونية نفسه" .

ويمضي النورسي بعد هذا في الشرح، قائلا :

"فمثلا : أطلقت طائفة من الفلاسفة على الله سبحانه وتعـــالى : اســـم (الموجـــب بالذات)، فنفوا الإرادة والاختيار منه تعالى، مكذبين شهادة جميع الكون علـــى إرادتـــه الطليقة. فيا سبحان الله، ما أعجب هذا الانسان . إن الموجودات قاطبة من الذرات إلى الشموس لتدل دلالة واضحة على إرادة الخالق الحكيم، بتعيناتها، وانتظاماتها، وحكمها، وموازينها، كيف لا تراها عين الفلسفة ؟ أعمى الله أبصارهم..".

ثم يستطرد ناعيا على الفلاسفة عماهم الفكري، وضيق أفقهم في تصورهم للـــذات الإلهية، ولعلمه الشمولي الذي لا تعزب عنه ذرة .. يقول النورسي :

"فمن دلائل عمى كثير من الفلاسفة أنهم يحصرون علم الله في الكليات، ويعطـــون الطبيعة قدرة الإيجاد. فقد ادعت طائفة من الفلاسفة ".. أن علم الله لا يتعلق بالجزئيات .. ومنحت الفلسفة قدرة التأثير للأسباب وأعطت الطبيعة العاجزة، الجامـــدة، قـــدرة

الإيجاد والابداع.. وعجزت الفلسفة من جهة أخرى عن أن تستوعب مبدأ الحشر، فأنكرته وادعت أزلية الأرواح . وهكذا يمكنك أن تقيس سائر مسائل الفلسفة على هذه الخرافات السخيفة.." .[٢٩٣]

الإنسان المعاصر عبد المدنية والتقنية

ولا مشاحة في أن النورسي قد اعترف أن الانسان وإن وسعه أن يحظى بالمزايا التي منحها إياه الله، فمكنته من أن يكون سيد المخلوقات من حيث قدرة الإختيار وممارسة إرادته، إلا أن تلك المزايا تظل قاصرة عن أن تكفل له نيل كل ما يريد أو حيازة سائر ما يتوق إلى احتيازه، وتلك هي الدائرة التي تكشف حدود بشرية الانسان، إذ هو بكل قابليات التحدي التي يتوفر عليها، لا يسعه أن يتجاوز نطاق ما كفله له الله – عز وجل – في مضمار تأكيد الذات وتجسيد الإرادة ..

فالمعبودية تتأكد من هذا الصدد الذي يبدي فيه الانسان عجزه ويعترف فيه بقصوره.. يقول النورسي في هذا السياق :

" الانسان أشرف الأسباب وأوسعها اختيارا، ومع ذلك فإن دائرة اختياره ونطاق اقتداره لا يسع له تحصيل كل ما يشاء" .[٢٩٤]

ومن غير شك أن استحكام عقدة العجز هذه، تتحول عند فيئات من البشر – لاسيما بتحريض مما يسمى فلسفة التمرد – إلى باعث فكري ونفسي للكفر والجحود، فهم بدلا من أن يعالجوا حالة الإحباط الوجودي التي تسكنهم، يروحون ينفسون عن مشاعرهم المتأزمة بالتجذيف وبإظهار العصيان .. وربما فاقمت من حال التمرد الروحي أوضاع الحضارة الراهنة..

لقد سارت المدنية الفاسقة – كما يقول النورسي – بالانسان نحو طريق الإستعباد المادي والسخرة الروحية .. ذلك لأنه بدل أن تهيئ الإرتقاءات الحضارية والصناعية والمعرفية فضاء من الإيمان يؤكد اللحمة بين الخالق والمخلوق، استيثاقا لمسيرة تطوره، فإن المنجزات المدنية المعاصرة قد طفقت توسوس للإنسان الحديث – من خلال ثقافة التجهيز والتسليح الماديين –أن يعتد بمكاسبه وبقدراته، فانساق – بذلك – وراء روحية تكديس الأشياء والمتع، وغفل عن خالقه، معولا في تحدياته على ما تصنع يداه، وما تبتكر قريحته، متنكرا لصانعه ومصوره، فلم يُعَتِّمْ بذلك الانزلاق أن انحدر إلى مستوى

٢٩٣ الكلمات ص.٦٤٦,٦٤٧.

٢٩٤ المثنوي العربي النوري ص ٢٧٠.

خنوعي مقيت، إذ أضحى عبدا لُمـُثُل أفرزتها الآلة والتعاملات الماركوتينغية، فانغمس في ثقافة (الأجَنْدات)، ونسي مواعيده الروحية التي قررها له الدين، وبات أمر القيم والمقدسات صدى لا يحرك فيه شعورا..

بل لقد تحول الانسان المعاصر بقابلية التقديس وأضفاها على عالم الكسب والهيمنة، وانْتصَبَ يعبد رمزيات أخرى، أنتجتها دوائر الإلحاد وصالونات العرض، وتجارة الجنس، ومرافق البورسة التي جردت الإنسان من نبله، وأحالته فاعلية محمومة من الشراسة والظمإ إلى الكسب الخسيس، و جعلته يكاد يصير مجرد قوة صماء من الغرور والتدني .. وذلك ما استشعر وطأته الخطيرة حتى عقلاء الغرب من غير المتدينين ..

يرى الفيلسوف جونتر اندرز الألماني أن **الانسان** يميل شيئا فشيئا إلى تصور نفسه في ضوء نتاجه التقني والصناعي، لينتهي به ذلك التصور الذي يقارن فيه بين نفسه وبين الآلات التي يبتكرها، إلى الحط من قدر نفسه بقدر ما يزيد من تقديره لكفاءة آلاته ودقتها وكمالها، لكن مثل هذا التصور من شأنه أن يأتي بنتائج أخلاقية ذات أهمية خطيرة، لأن مثل هذا التقدير – أو التحقير – لشأن نفسه، يفضي إلى النفي الجذري لسمو الروح على الجسم".[٢٩٥]

ونفس الرأي ذهب إليه الفيلسوف الوجودي سيوران، إذ قال : إن المدنية تعلمنا كيف نتعلق بالأشياء، مع أن من واجبها أن تلقننا فن التخلي عن الأشياء، لأنه لن توجد حرية ولا حياة حقيقية بدون تعلم التخلي وعدم الامتلاك . إني أستولي على شيء وأحسب نفسي **سيدا له، والواقع أني عبد له**، كما أني عبد أيضا للآلة التي أصنعها وأديرها.. "

وهذا هو بالذات ما أجمله النورسي، ولكن من خلال بصيرة قرآنية، حين تحدث عن آليات المدنية المعاصرة، قائلا :

" إن المدنية الفاسقة أبرزت رياء مدهشا يتعذر الخلاص منه على أصحاب المدنية، إذ سَمَّتْ الرياء بـ (شان وشرف)، وصيرت المرء يرائي للملل ويتصنع للعناصر كما يرائي للإشخاص، وصيرت الجرائد دلالين له، وجعلت التاريخ يصفق ويشوق بالتصفيق، وأنست الموت الشخصي بحياة العنصرية المتمردة بدسيسة الحمية الجاهلية الغدارة.." [٢٩٦]

---

٢٩٥ بدوي م.س .٢٠٩.

٢٩٦ المثنوي العربي النوري ص ٣٠٩.

بل لقد اعتبر النورسي داء الأنانية من أخطر ما أصاب الإنسان المادي من علل جردته من إنسانيته، بعد أن ركن إلى اعتداد مَرَضي بذاته، أضحى به أشد المخلوقات ممارسة للظلم، ظلم نفسه، وظلم غيره، وهو ما سجله النورسي بقوله :

"إن أظلم الخلق هو الإنسان، فانظر ما أشده ظلما . فلشدة حبه لنفسه لا يعطي الأشياء قيمة إلا بمقدار خدمتها لنفسه، وينظر إلى ثمرتها بمقياس نفعها للإنسان، ويظن العلة الغائية في الحياة عين الحياة . كلا، إن للخالق في كل حي حِكَمًا تدق عن العقول". [٢٩٧]

ومما أثبته النورسي في هذا السياق، تفاوت قيمة الأفراد بتفاوت عقولهم ونفوسهم بخلاف أجناس الحيوانات، إذ أنها – كما يقول –على تفاوت صورها، فهي متدانية في قيمة أرواحها، في حين تتباعد الفوارق العقلية بين بني البشر، وذلك بسبب ما هيأ الخالق للانسان من انفساح عقلي وروحي لأن يكون برزخيا، وذلك متى استمسك بالعروة الوثقى :

".. إن من أعاجيب فطرة الانسان في وقت الغفلة، التباس أحكام اللطائف والحواس ..(كتوهم المجنون شيئا قريبا من يده وهو بعيد أو خيالي).

فالإنسان الغافل الذي لا تصل يد اقتداره إلى تنظيم أدنى جزء من أجزاء نفسه، يتطاول بغروره وبسعة خياله إلى الحكم والتحكم في أفعال الله في الآفاق.. وكذا من أعجب فطرة البشر أن أفراده مع تقارب درجاتها في الصورة الجسمية، تتفاوت معنى بدرجات، كما بين الذرة إلى الشمس، إلى شمس الشموس، خلافا لسائر الحيوانات، إذ هي مع تفاوت أفرادها في الصور الجسمية، كالسمك والطير، تتقارب في قيمة الروح، فكأن الانسان الذي قام من مخروط الكائنات في حاق الوسط، منه إلى الذرة، ومنه إلى شمس الشموس سواء . إذ لم يُحَدَّدْ قواه ولم تُقَيَّدْ، أمكن له أن يتنزل ويتسفل بـ(الأنانية) إلى أن يكون هو والذرة سواء . وكذا جاز له أن يتجاوز بالعبودية وبترك (**أنا**)، ويتصاعد بإذنه تعالى إلى أن يصير بفضل الله كشمس الشموس مثل محمد عليه الصلاة والسلام". [٢٩٨]

فالخالق فطر الإنسان على حب التسامي واستشراف آفاق الغيب والشهادة، إذ أودع فيه طاقة من الروح والعقل مكنته من تحقيق الفتوح، كما جعل السداد حليفه أينما ولى

---

٢٩٧ المثنوي العربي النوري ص ٣١١.

٢٩٨ المثنوي العربي النوري ص ٢٣١.

وجهه وحيثما أخلص النية وأصل العزيمة.. لكن الإنسان الجحود ما أسرع ما تغويه انجازاته التي هي في حقيقتها توفيقات من الله، فيضل ويجور..

فقد " خلق الله الانسان ليكون كاشفا وبرهانا لكنه استحال حجابا وسدا " [٢٩٩]. ذلك لأن "الخالق أودع في يد الانسان مفتاحا ".[٣٠٠]

وهذا المفتاح هو العقل والروح التي قبست من نور ربها ما تسترشد به في إضاءة أنفاق النفس والحياة.. لكن الإنسان غفل عن شحن مصباح العقل من بطارية الإيمان، فبهت النور، وباتت الرؤية شبحية لا تستوثق من شيء، وبات عليه أن يسير متحسسا الخطو، لا يكاد يسلم من عثرات، يلوب في دائرة مظلمة، ويحسب أنه يمضي قدما..فما أشد غرور الانسان الضال..

فقيمة كل نفس تكمن في ما تحوز من أسباب السمو والإيمان .. بل إن قيمة الكون ذاته إنما مدارها على ما تهيئه من انصياع إلهي، وتسبيح إيماني.. والإنسان يكتسب قيمه من ثقافته ومن مصادر تنويره، من هنا اختلفت الاستجابات الروحية باختلاف المؤثرات الثقافية والفكرية ..

" كما أن قيمة الانسان المؤمن قيمة ما فيه من الصنعة العالية، والصبغة الغالية، ونقوش جلوات الأسماء، وقيمة الإنسان الكافر أو الغافل قيمة مادته الفانية الساقطة، كذلك قيمة هذا العالم تزيد بلا نهاية – إن نظر إليه بالمعنى الحرفي وبحسابه سبحانه – كما علم القرآن . وتسقط قيمته إلى درجة المادة المتغيرة الجامدة – إن نظر إليه بالمعنى الاسمي وبحساب الأسباب– كما علمته الحكمة الفلسفية . فالعلم المستفاد من القرآن أعلى وأغلى بما لا يحد من العلم المستفاد من فنون الفلسفة". [٣٠١]

العقل وقوانين العلة والإدراك

لقد أوقع الإنسان المدني المعاصر في الخطإ والخطيئة اعتقاده أنه اجتاز – بما حقق من مكاسب وما أحكم من أهلية تنفيذية – عتبة الوصاية، وأنه بات مستقلا بإرادته عن سلطان الغيب..

---

٢٩٩ المثنوي العربي النوري ص ٣٠٣
٣٠٠ المثنوي العربي النوري ص ٣٢٧.
٣٠١ المثنوي العربي النوري ص ٣٧٨.

بل لقد بدت له حقب الإيمان مجرد ذكرى مفعمة بالسذاجة ،لا تثــير في نفســه إلا البسمة والسخرية من ماضيه البدائي .. لقد اعتد بالعقل الأغلف، ودان له، وفَصَلَهُ على قوامته الإلهية التي هيأته للانسان وجهزته به كي يكون له نبراسا ودليلا .

بل لقد بات الإنسان الضال يعتبر أن العقل نفسه من منجزاته هو، ذلك لأنه يجزم أن حقب التطور والصراع قد أخرجته من طور الحيوانية، وانتهت به، بفضــل جهــوده ونضالاته، إلى أن يصطنع القابليات العقلية التي وعي بها ذاته، وتخلص من تبعيته للآلهة ..

هكذا يمنطق الإنسان الضال سيرورته .. وتسأله عن المصير، فيُشَعِّبُ لك احتمالات، بعضها يقرر أن الانسان سيُنَصَّبُ إلها حقا، مالكا لقوامته، مسيطرا علــى الأســباب، مسرمدا لوجوده، بعد أن يقضي على علل العجز والفناء في هذا الوجــود . وبعضــها يعترف – بانكسار – أن الدائرة ستنغلق من حوله وسيرتد إلى بدائية خِلْقية ومعرفيــة، بالنظر إلى الآفاق التي ستفتحها المنجزات المستقبلية ..

و إلى هذا وذاك، تعترف بعض التصورات الآخرى أن المادة والمنجــزات التقنيــة المستحصلة ستأخذ يوما قريبا بمخنق الإنسان وستضطهده وترديه من عليائه الكريمــة الحالية..

هكذا تتعدد الرؤى الضالة التي اختارت أن تُخرِج يدها من يد العصمة الإلهية وتحيد عن الطريق.. وهي جميعا رؤى لا وثوق لها، ولا طمأنينة .. فهي تعكس روحا تَخْــبِطُ في التيه، بلا دليل ولا مرشد .. الأمر الذي يجعل – فعلا – الإنســانية تخشــى علــى مصيرها، لأنها بهذه الروحية ستمضي على طريق صعب مشبع بالمتفجرات ..

فالإنسانية حين زاغت عن الدين، ألغت بأهم أسباب تآخيها وتساكنها وستضــل وستهان..

لهذا بات حتما على الانسانية أن تلتزم بالروح وبالعقيدة القرآنية الفــذة، إذ هــي مدونة السلوك القدسية التي من شأنها أن تجنب الإنسانية الخروج من المغامرة، وتعطــي لوجودها إيقاعا شعريا، لأنها ستجد نفسها تســير على هدي تعاليم الله.

فالنجاحات الإنسانية المادية لا يمكن أن تقوَّمَ على أنها شهادة إثبــات لاســتقلالية الإنسان وسيادته ومطلقيته .. فما يتحقق للبشر من نفاذ عملي لابد وأن يكون برهانــا على تبعية الفرد لخالقه .. فمعايير الذات، وتقديراتها، وافتراضــاتها، ليســت مقياســا صحيحا للحقائق.. إذ لو كانت كذلك لما تردد الإنسان في اختيار المصير الــذي لــن يكون — بالضرورة — مطابقا للمصير القدري الذي حدد للكائن الحي والمتوج بالموت

.. من هنا أضحى من العبث أن يتوق الإنسان بفكره وجهده إلى ما هو خارج دائرة قدرته البشرية، إذ أن التفكير في تحوير وهندسة ما قدر الله من موت وحياة وشقاء وسعادة وألم وأمل، هو من الأعباء التي لا يخرج منها الانسان بطائل..

وليت شعري أي مصير كانت ستتمكن الإنسانية من التوافق عليه، وأي وجهة تنشدها، وأي سبيل تطرقها مجتمعة أو فرقاء ، لو أن أمر تحديد المصير كان من شأنها وبيدها؟ ..

" فيا أيها المشتكي من أنت حتى تعترض وتصيِّرَ هوسك الجزئي مهندس كليات الكائنات، وتجعل ذوقك الفاسد مقياس درجات النعم ؟ وما يدريك لعل ما تراه نقما هو عين النعم؟ ومن أنت حتى يغير حركة دواليب العالم ..لتسكين هوسك الذي لا يوازي جناح البعوضة ولا يملأ نواة التينة ؟. لكن لك أن تشتكي إليه لا منه .." [٣٠٢]

الفلسفة

الفلسفة مراس فكري مغلق لا يوطد قناعة إيمانية، ولكنه يهارش نوازع الشك والحيرة في روح الإنسان

لا شك أن الفلسفة هي ممارسة ثقافة الحيرة، وإدارة فعل التساؤل والاسترسال في الاستبار الميتافيزيقي، والتردد في الأخذ بما يخطر على النفس من أجوبة، بحكم أن اليقين والقطعية والجزم هي أحوال تتعلق بالمجال العلمي التجريبي، خلاف المجال التأملي الذي ينطلق من واقع حسي منوط بعالم الغيب، أو هو ينطلق من اللاواقع ليتمحل له واقعية آنية أو بَعدية مرتبطة بالماوراء.. من هنا عُدَّتْ الفلسفة مراسا فكريا استداريا، وحلقة مغلقة، مفرغة، ومجافية لمبدإ التسليم، وسؤالا يتوالد وينتج القلق إلى ما لانهاية ..

لذلك – وعلى الرغم من تعدد مشارب الفلسفة ومذاهبها – فإنها اعتبرت دائما وفي سائر العصور، ميدان الشمولية المعرفية النظرية، إذ من شأن تحريك الذهن بما يصدم من التساؤلات، أن يزج بالعقل في غمار البحث والاستكشاف..

وربما نشأت من جراء ذلك الحفز الاستكشافي فوائد تخص المجالات النفعية والتطبيقية، وذلك حين يعمد العقل إلى سحب نتائج التجريب على ميادين العمل والاستخدام..

---

٣٠٢ المثنوي العربي النوري ص ٣٢٠.

بيد أن الفلسفة ظلت عبر العصور – لا سيما العصر الراهن – تناهض المسلّمات حتى في مضمار العلم الرياضي الدقيق، وتسعى إلى تجاوزها، ولذلك، وبسبب خاصيتها الاستفزازية تلك فقد تناوشت مع الدين، بل و تعارضت معه، في بناءات فكرية عديدة، ودخلت معه في علاقة عداء سافر، خاصة في العصور الوسيطة حين كانت الكنيسة تتعصب لفرض معتقداتها وحجْب الرؤية عن أنظار الناس..

على أن الفلسفة الاسلامية استطاعت أن تتكيف مع الدين، وأن تتماهى إلى حد في التوحيد، وأن تتلافى كثيرا مما كانت الروح الوثنية الإغريقية العالقة بها، تنضح به من حسية وتشخيص وسببية صماء ..

ومع العصر الحديث، تفاقمت زندقة الفلسفة المادية بعد ما رأت من غلبة واضحة للكشوف العلمية والرياضية وقلبها للأطر والفرضيات والاستشرافات التي ظلت تنادي بها التعاليم الإنجيلية، الأمر الذي جعل الفلسفة الوضعية تنحو منحى الثورة في رفضها للمعطى الديني، وفي تعاملها مع المقدس، وفي بناء أخلاقيتها على مسطرة اللادين..

فقد آمنت الفلسفة المادية بالحسي، وكفرت بالمسلمات المقدسة، وسنت خلقية غايتها استنقاذ الانسان من الهوة العميقة التي ألقت به فيها المعرفة الكهنوتية..

لقد هدمت تلك الفلسفة المرتكزات الروحية التي ظلت الديانة المسيحية تسعى إلى أن تحفظ بها تماسك الفرد والجماعة وتسلك بها في طريق السكينة..

ومن الثابت أن ثورة الفلسفة على الدين كان لها ما يبررها بالنظر إلى ماضي الكنيسة وعلاقتها مع العقل والتطور.. لكن خطأ الفلسفة أنها وجهت نقمتها على الروحيات كافة، وحتى ما سعى من مباحثها إلى الإبقاء على صلة مع الروحيات، فإنه ظل قلقا، تائها في معارج كتابية، لم يعرف كيف يتخلص من خرافتها..

ثم خطت الفلسفة المادية خطوة مناهضة للمسلمات الكنسية عندما ألَّهت الانسان، وجعلت السيادة الكونية له، وأناطت به المستقبل والمصير ..

والواقع أن ثورة الفلسفة على الرب – وسبحان الله عما يقولون – قد وقعت في شرك الروح الكتابية ذاتها و لم تخرج عنها، وذلك حين ناظرت بين الرب المُمات على يدها (المسيح) وبين الإنسان المُؤلَّه على يديها أيضا (المسيح أيضا) ..

و لم تتبين تلك الفلسفة أن ألوهية المسيح البشري التي تقول بها الكنيسة تناظر تماما ألوهية الإنسان التي تقول بها تلك الفلسفات الغربية ذات الوازع الإيديولجي العرقي..

ذلك لأن الإنسان المؤله لديها، ليس هو الإنسان مطلقا، ولكنه إنسان الاستعمار، الفاتح، الإمبراطوري.. من هنا اكتمل وضع الانغماس الذي تردت فيه الفلسفة الغربية حين مرقت من ربقة الدين، و لم تراع القوامة الإنسانية الراجحة التي يقول بها الإسلام ..

ذلك لأن الاسلام ظل معدودا عند الغربيين (لادين) أو هو دين ملفق لا غير .. من هنا بنت الفلسفة الغربية رؤيتها على قاعدة طغيانية، مركزية، استئثارية، الأمر الذي جعلها تمجد القوة، وتعتنق عقيدة العرق، وتؤمن بالتراتب الإنساني ..

" ان حكمة الفلسفة ترى القوة نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية، وتهدف إلى تحقيق المنفعة في كل شيء، وتتخذ الصراع دستورا للحياة، وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات، أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس وإثارة الهوى. ومن المعلوم أن شأن القوة هو الاعتداء، وشأن المنفعة هو التزاحم، إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم . وشأن الصراع هو التراع والجدال، وشأن العنصرية هو الإعتداء إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى. ومن هنا تلمس لم سُلِبَت البشرية من جراء اللهاث وراء هذه الحكمة.." [٣٠٣]

بهذه الروح قوَّم النورسي الفلسفة ونظر إليها بمنظار يقدم مصلحة الانسانية المرشَّدَة بالدين واليقين الروحي..على الاستئثارات الخاصة والمبنية على العرق والوهم، وعلى قيم ما أنزل الله بها من سلطان..

الفلسفة تعجز عن ارتسام محجة يقبل السير عليها الناس جميعا

لقد طفق فطاحل الفلاسفة – كما يقول النورسي – من كل ملة وحضارة يجوبون آفاق الفكر، وينشدون الوجهة التي تكفل للإنسان سكينته وتسليمه، لكنهم قصروا جميعا عن ادراك القناعة المشتركة التي يسلم بها الناس جميعا..

وشأن الفلاسفة المسلمون في هذا الصدد شأن غيرهم من أقطاب الفكر، إذ طوفوا بدورهم في رحاب المجهول، وتحسسوا ارتكازات حسبوا أنهم بها أجابوا عن تساؤلات البشرية، وفكوا المغاليق في وجهها، بيد أن تأثيلاتهم ما برحت أن تبدت مهزوزة حتى في نظرهم هم أنفسهم، وما لبثوا أن ارتدوا عن وجهتهم، و لم يسعفهم تعقبهم لخُطا يونان والهند والروم بطائل ..

---

٣٠٣ الكلمات ص.١٤٥

بل لقد أيقن المُرَشَّدُون من أهل الفكر منهم – شأن الغــزالي – أنهــم لم يكونــوا يضربون إلا في تيه، و لم يتبعوا في كل ما قرروا وتحروا إلا الظن، وأن الظن لا يغني من الحق شيئا .. عندئذ التفتوا إلى معين الدين، وأذهلهم أن يروا تسديداته الجلية تَــسْتَبِقُهُم إلى الإجابة عما ظلوا يترسمونه بلا جدوى في عوالم التجريد، وهنالك هتفوا ملء الحناجر أن في الاستضاء بوهج الشمس غناء عن اقتداح أعواد الثقاب في الدامس واللامحدود من الظلمات..

بهذه الحصانة الربانية المتمثلة في الدين تأَتَّى لقلب الإنسان المؤمن أن يَقَرَّ، ولروحه أن تطمئن، و بات في وسعه أن يعيش حياته بمنأى عن القلق والخوف من المجهول..

فبإخلاص العقيدة والمعبودية لرب العالمين ينمو لدى الانسان وازع اليقظة النفســية والروحية فيضحى رقيب ذاته وحسيب نفسه، إذ يستشعر مســؤوليته إزاء ربــه وإزاء المحيط الذي يعيش فيه، فيكون دوره تعميريا فعالا، إذ أن إدراك المرء لمهمته الحياتيــة النبيلة، وترشيده لأفعاله وسلوكه، والتسامي بما يستبطنه من نوايا، يجعل نوازع الخــير تغلب على نوازع الشر في نفسه، وهو ما يرجح لديه حب الخير والفضيلة..

النورسي يستنقص نظرة الفلسفة إلى الوجود ويستعيض عنها بالرؤية القرآنية

لقد عزف النورسي عن اتباع نهج أهل الفكر الفلسفي، ورفض أن يجري في مضمار أصحاب الفذلكات الحجاجية التي تهتم بأعراف المنطق الصــوري والمراســيم الجداليــة المدرسية، أكثر من اهتمامها بالجوهر الترشيدي، التنويري، الذي يخدم الانسانية ويجلب لها السعادة الدائمة ..

من هنا تجاوز النورسي البروتوكولية النخبوية، وطوى رايتها وألقى بها بعيــدا عــن طريقه، ليرفع راية القرآن، وليجادل بمنطق القرآن، وليسدد الفــذلكات والفرضــيات الوضعية بسهام القرآن، إذ أنه كان على يقين بأن قصارى جهد أهل الفكر الجدالي في سعيهم إلى استجلاء وجه الحق، أن يقضوا العمر في دبيبهم الحيران ودورانهم المضــني في كل اتجاه فوق بقعة من جسد الحقيقة المديد، دون أن يدركوا موقعهم منها ولا على أي عضو بها يقفون..

بل لقد تأبى النورسي حتى عن تطعيم تقريراته بما يخرج عن نطــاق عقــل القــرآن ومنطقه من متواضعات أهل الفكر وحكمتهم ..

فلقد توسل الناس في كل عصر بالفكر الفلسفي وبمسلمات المعرفة الوضعية يسندون بها آراءهم ويسوغون طروحهم، ويخطبون لها الوجاهة والقبول، بيد أن النورسي الملتزم بإيمان فوقي واعتقاد شمولي، والمعتدّ بصلابة الأسس والدعائم التي يقوم عليهـــا بنيانـــه القرآني، يرفض كلية أن ينافح عن عقيدته بغير ذخيرة القرآن..

إذ أن المدافعة عن عقيدة تقرر أنها إلهية، والتوسل إلى تحصينها بغير منطق مصـــدرها الإلهي وبغير حجج سندها السماوي – يعد في الواقع – إقرارا بقصور جهازها الدفاعي وبكلل عدتها البرهانية.. وهو ما كان يقول به النورسي ويعتقده، فقد رأيناه يرد على من انتقص منه تخليه عن سلوك سبيل أولئك المفكرين الذين يدافعون عن الاسلام ويبارزون بسهام الفلسفة والحكمة الوضعية، فيقول:

"إن سعيدا القديم والمفكرين قد ارتضوا بقسم من دســـاتير الفلســـفة البشـــرية، أي (كانوا) يقبلون شيئا منها، ويبارزون(خصومهم) بأسلحتهم، ويعـــدون قســـما مـــن دساتيرها (أي الفلسفة البشرية) كأنها العلوم الحديثة، فيسلمون بها. ولهذا لا يتمكنون من إعطاء الصورة الحقيقية للإسلام على تلك الصورة من العمل، إذ يطعمون شـــجرة الاسلام بأغصان الحكمة التي يظنونها عميقة الجذور، وكأنهم بهذا يُقوّون الاسلام. ولكن لما كان الظهور على الأعداء بهذا النمط من العمل قليلا، ولأن فيه شيئا من التهوين لشأن الاسلام، فقد تركت ذلك المسلك، وأظهرت فعلا أن أسس الاسلام عريقة وغـــائرة إلى درجة لا تبلغها أبدا أعمق أسس الفلسفة، بل تظل سطحية تجاهها ". [٣٠٤]

والنورسي لا تفوته علة من ينهجون هذا النهج الإسنادي، التلفيقي، إذ أنهم يعتقدون أن الحجة الإسلامية لا تنهض ولا تفرض نفسها على الجاحدين إلا إذا ارتكزت علـــى السند الوضعي، أو ترجمت عبره ..

ومن الواضح أن موقفهم هذا ينم عن إحساسهم هم بالحاجة إلى استبانة وجه الحـــق الذي يعرب عنه القرآن، فالقصور كامن في ذواتهم وإن لم يشعروا، وما بحـــثهم عـــن الدعائم الإنسية لإقامة الدليل والمصداقية على الأمر الإلهي، إلا وجها من وجوه المفارقة التي تجسدها مواقف كثير من أهل الفكر، ممن لم يتلبسهم الإيمان بعمق، أو ممن وهنـــت هممهم وبصائرهم عن استجلاء البراهين الصارخة التي لا تفتأ تواجهنا أنى أرسلنا أبصارنا

٣٠٤ المكتوبات ص.٥٧٠

وأجَلْنا حواسنا..من هنا بيّن النورسي سبب تشبث هؤلاء المحاجين عن الدين بحجج الوضع قائلا :

" ففي المسلك السابق (أي مسلك المدافعين عن العقيدة بحجج الفلسفة) يُظَنّ أن الفلسفة عميقة، بينما الأحكام الاسلامية ظاهرية سطحية، لذا يتشبث بأغصان الفلسفة للحفاظ على الاسلام..[٣٠٥]

الفلسفة مصدر جبروت وطغيان

ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن النورسي قد تناول موضوع الفلسفة في مواطن مختلفة من أعماله، شأنه مع سائر المسائل والاشكالات التي كانت تلح عليه..

فقد جاء في كتابه "الكلمات" مثلا أن الفلسفة مصدر الجبروت، حيث يؤكد النورسي أن الفلسفة المادية كانت وراء ظهور العقائد الطغيانية، لأنها زينت للعقل الانساني أن يجاري الأهواء وأن يتعلق بأحلام استبدادية شاء بها أن يظاهر الخالق، وأن يخرج عن عصمة التقوى والعبودية، مما أدى به إلى الانزلاق والتردى في هوة البغي، إذ أن استكباره – طال أول ما طال– أخاه الإنسان نفسه ..

من هنا كان الجبروت وكانت المهالك التي ظلت الانسانية ترزح تحتها، جراء جور بعضها على بعض وعدم الارعواء والانصياع إلى تعاليم السماء، تلك التعاليم – لاسيما القرآنية – منها التي طفقت توطد أسس الأُخُوَّة بين بني البشر . فانحراف البشرية إنما تَوَلَّدَ عن انزلاق أقطابها من الفلاسفة الذين هيأت لهم تصوراتهم افتراضات خاطئة عن واقع الإنسان وغاياته الوجودية، الأمر الذي زرع جرثوم الحيدة والخروج عن سبل الرشاد..

"..لقد اعتقد عظماء الفلسفة وروادها ودهاتها أمثال أفلاطون وأرسطو وابن سينا والفارابي – بناء على تلك الأسس الفاسدة – بأن الغاية القصوى لكمال الإنسانية هي (التشبه بالواجب) ، أي بالخالق جل وعلا، فأطلقوه حكما فرعونيا طاغيا ومهدوا الطريق لكثير من الطوائف الملتبسة بأنواع من الشرك أمثال عبدة الأسباب وعبدة الأصنام وعبدة الطبيعة وعبدة النجوم، وذلك بتهييجهم "الأنانية " لتجري طليقة في أودية الشرك والضلالة، فسدوا سبيل العبودية إلى الله، وغلقوا أبواب العجز في أوحال الطبيعة، فما نجوا من حمأة الشرك كليا، ولا اهتدوا إلى باب الشكر الواسع". [٣٠٦]

---

٣٠٥ م.ن. ص٥٧٠

٣٠٦ الكلمات ص. ٦٤٢

ولقد ظلت الرسالات السماوية تستهدف تقويم هذا الانحراف الذي سلك بالبشرية طريقا أبعدها عن الحكمة والفطرة السوية، فتواترت البعثات تسدد الخطـا وتصـوب الرؤية، وكان من نتائج ذلك أن تلبس الفكر الانساني الفلسفي في مستويات منه بالتعاليم السماوية وقبس منها ومضات جعلت تسديداته راجحة ومُرَشَدة، وذلك ما أشار إليـه النورسي حين تحدث عن هذه الطبقة من أهل الفكر الذين انتحوا في سيرهم طريق النبوة وتعاليم السماء، فهؤلاء الذين هم في مسار النبوة، فقد حكموا حكما ملـؤه العبوديـة الخالصة لله وحده، وقضوا أن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هـي التحلي بالأخلاق الإلهيـة ". [٣٠٧]

من هنا نتبين أن الـ "أنا " كما رسخته تعاليم الفلسفة المارقة، هو عنوان الأنانيـة والغرور ، وهو – بالتالي – علة وروح هذا – الإيغوسانتريزم – الغربي الذي لا يـرى غير ذاته، ولا يعتد بغير مقوماته.. وبما أن الإيغوسـونتريزم هـو مشـروط ثقـافي وإيديولوجي، بل وكتابي أيضا– إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مقررات التوراة – فلا جرم أن تتلبس الأنا الغربي حالا مرضية، استبدادية، تعرض للأفراد كما تعـرض للأقـوام والحضارة على حد سـواء .. بسبب تعاطي المجتمعات الغربية –الواقعة تحت وطـأة الاعتداد بالأنا – لتعاليم جبروتية تكرس منطق القوة والتغالب والاستكبار الشنيع.. من هنا كان التنابز والتطاحن بين الشعوب كما عاشته البشرية خلا حربين كـونيتين مـن جرائر الغرب ومن آثامه، وكما تعيشه المجتمعات اليوم في ظل الانسحاق الاقتصـادي والصراع العرقي والطغيان الاحتكاري الذي شمل التجارة والعلم والأخلاق، وكان مرد ذلك – في كثير من مظاهره – ضلال الفلسفة وما تلقنته الإنسانية عنها من فكر زائغ ..

" وهكذا فلأن الفلسفة العاصية للدين قد ضلت ضلالا بعيدا، صار " أنا " ماسـكا بزمام نفسه، مسارعا إلى كل نوع من أنواع الضلالة. وهكذا نبتت شجرة زقوم علـى قمة هذا الوجه من " أنا " غطت بضلالها نصف البشرية وحادت بهم عن سواء السبيل. أما الثمرات التي قدمتها تلك الشجرة الخبيثة، شجرة زقوم، إلى أنظار البشـرية، فهـي الأصنام والآلهة في غصن القوة البهيمية الشهوية . إذ الفلسفة تحبذ أصلا القوة وتتخذها أساسا وقاعدة مقررة لنهجها، حتى أن مبدأ "الحكم للغائب " دستور مـن دسـاتيرها، وتأخذ بمبدإ " الحق في القوة"، فأُعْجِبَتْ ضمنا بالظلم والعدوان، وحثت الطغاة والظلمة والجبابرة العتاة حتى ساقتهم إلى دعوى الألوهية. ثم إنها ملّكت الجمال في المخلوقـات

٣٠٧ الكلمات ص.٦٤٢.

..متناسية نسبة ذلك الجمال إلى تجلي الجمال المقدس للخالق الجميل.. ثم إنها استحسنت مظاهر الشهرة والحسن الظاهر للرياء والسمعة، لذا حبذت المرائين ودفعتهم إلى التمادي في غيهم .. وربّت في غصن القوة الغضبية على رؤوس البشـر المسـاكين، الفراعنـة والنماريد والطغاة صغارا وكبارا..أما في غصن القوة العقلية، فقد وضـعت الـدهريين والماديين والطبيعيين وأمثالهم من الثمرات الخبيثة في عقل الإنسانية، فشتتت عقل الإنسان أي تشتت ". [٣٠٨]

النورسي لم يُلغ دور الفلسفة الحديثة في مضمار البناء المعرفي والحضاري

على أن النورسي، وإن طعن في الفلسفة القديمة ونسب إليها إحداث الكثـير مـن المضار والنتائج والآثار السلبية التي انحرفت بالعقل عن الصواب، إلا أنه لم يسـقط دور الفلسفة الحديثة كلية، ولكنه أثبت لها قيمة جعلتها تغدو حقلا يناصـر – إلى حـد – الفطرة ويعزز التطور والحس السليم..

".. إن الفلسفة القديمة خيرها قليل، خرافاتها كثيرة، حتى نهى السلف – إلى حد ما – عنها، حيث الأذهان كانت غير مستعدة، والأفكار مقيدة بالتقليد، والجهل مستوليا على العوام، بينما الفلسفة الحاضرة خيرها كثير – من جهة المادة – بالنسبة للقديمة، وكـذبها وباطلها قليل، والأفكار حرة في الوقت الحاضر، والمعرفة مسيطرة علـى الجميـع، وفي الحقيقة لا بد أن يكون لكل زمان حكمه.." وهو ما يجعل من أذى الفلسـفة بهـذه المواصفات محدودا، لأنها تشتمل على حقائق تخدم الإنسان، وذلك هدف من أهـداف الاسلام ..[٣٠٩]

لقد ر أينا النورسي في موضع آخر يحدد نوع الفلسفة التي تناهضها رسـائل النـور فيقول:

" إن الفلسفة التي تهاجمها رسائل النور وتصفعها بصفعاتها القوية، هي الفلسفة المضرة وحدها، وليست الفلسفة على إطلاقها، ذلك لأن قسم الحكمة من الفلسفة التي تخـدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الانسانية، وتمهد السبل للرقي الصناعي،

---

٣٠٨ الكلمات ص.٦٤٣.

٣٠٩ صيقل الإسلام ص ٤٠ .

هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن، ولا تعارضها، ولا يسعها ذلك، لذا لا تتصدى رسائل النور لهذا القسم من الفلسفة".[310]

وواضح أن إدراك النورسي لوظيفة الفلسفة هو إدراك نفعي بنـــاء، إذ أن مفهـــوم الفلسفة عنده لم يعد يطابق ذلك الفهم الترفي والفكري المحض الذي ميـــز النظـــر إلى الفلسفة عند المسلمين ..

بل لقد أضحى للفلسفة في وعي النورسي مقصد تجهيزي، ارتفاقي، يخرج بالانسان من دائرة الميتافيزيقا والجدل المفرغ، إلى رحاب العلم التطبيقي والتصنيعي الذي يكفـــل للأمة الإسلامية القوة والظهور وريادة العالمين في مجالات التعمير وإرساء مبادئ السماء على ربوع هذا الكون..

أما العدو الذي ظل النورسي يناضله و لا يني يشن أشرس الهجمات عليـــه، فهـــو الفلسفة الضالة المضلة، تلك التي أصبحت وسيلة للتردي والإيقاع في مهـــاوي الإلحـــاد والسقوط في المستنقع الآسن للفكر الوضعي الطبيعي، تلك الفلسفة التي تسوق الانسان إلى الحتف بما تورثه إياه من دواعي الغفلة والضلالة، حيث أنها تعارض بخوارقها – التي هي كالسحر– الحقائق المعجزة للقرآن الكريم .. من هنا تحدد عدائها لرسائل النور، ومن هنا كذلك انبرت الرسائل تتصدى لضلالها ".[311]

بل لقد كرر النورسي ترحيبه بالفلسفة الجديدة في أكثر من موطن لأنه رآها – كما يقرر – فلسفة متحررة من وطأة الفكر اليوناني :

" فمرحى للفلسفة الجديدة المتحررة التي قضت على تلك الفلسفة اليونانية قضـــاءا مبرما".[312] تلك الفلسفة المحشوة بقيم الوثنية والميتافيزيقا الخيالية المشركة.. فبحسب النورسي إن فهم القرآن والنفاذ إلى أسراره الباهرة لا يكون عن طريق الاقتراب الفلسفي الموجه مسبقا، والذي تعتقله فذلكة النتائج والمقدمات كما تواطأ عليها المناطقة اليونانيون والتي استجلبتها لنا منهم فلسفتهم .. وإنما ينبغي لنا أن نسلك إلى هذا الفهم سنن المنطق الإعجازي المرتكز على روح البلاغة العربية والسليقة القولية كما تمرس العرب الأوائـــل بها .. فـــ"مفتاح دلائل إعجاز الآيات وكشاف أسرار البلاغة، هو في معدن البلاغـــة العربية، وليس في مصنع الفلسفة اليونانية" [313]

---

٣١٠ الملاحق ص ٢٨٦.
٣١١ أنظر الملاحق ص ٢٨٦.
٣١٢ صيقل الإسلام ص ٩٤.
٣١٣ صيقل الإسلام ص ٩٤..

فلسفة السببية والكسب

حقيقة الأسباب بمنظار المعرفة الربانية

لا يلغي النورسي فعل العلل والأسباب باعتبارها عوامل ذات تأثير مباشر وواضح تلمسه الملاحظة من خلال نماء الأشياء و زوالها، و في تجدد تلك الأشياء وتبددها..

.. بل لقد رأينا أن عقلية النورسي عقلية ديالكتيكية بطبعها، لاترى تفاعل الظواهر إلا من خلال مبدأ الحركة والسكون، أو من خلال تفاعل الشروط سلبيها وإيجابيها.. لكن النورسي يقرر أن هذه الجدلية لم تنشأ اعتباطا، ولا سارت وفق هذا الإطراد القانوني الراسخ المجسد في منظومة الأسباب والعلل التي تقوم عليها دورة الحياة وقابلية نشوء وتطور الكائنات الحية والظواهر الحيوية، إلا لأنها تجسيد مؤكد لإرادة الله..

تلك الإرادة التي هي الإطار الناموسي الذي ضبط به الله الكون وأكسبه هذه الوتائر المنتظمة والمنضبطة التي يسير وفقها نظام الأشياء، والتي يعتقد الضُّلاَّل أنها ضوابط آلية من غير ما مرجع..

من هنا انحرفوا بتعليلهم لنشاط الظواهر إلى القول بأن العلل والأسباب هي مناط حركة ووجود تلك الظواهر.. ناسين أو متناسين الإرادة الإلهية التي سنت النظم وأوكلت فعلها بنظام الأسباب ..

ولاشك أن النورسي بتعرضه لتسفيه رؤية هؤلاء القائلين بالعلية والسببية، إنما يتصدى لفكر الزناديق الماديين الذين انبروا في تلك المرحلة، ومازالوا إلى اليوم، يطعنون في المعاني التي ترسخ الإيمان وتكرس الوحدانية ..

ولقد وسعه أن يستدعي في هذا الصدد، ردود السلف الصالح، لاسيما الأشاعرة، أولئك الذين ناوشهم أعداء الدين في العصور الإسلامية الأولى، وادعوا أن الأحداث إنما توجد أو تقع باجتماع أسبابها.. لقد رد الأشاعرة هذه الدعوى الجحودية، مقررين بأن الموجد هو الله، وأن النار لا تحرق بكونها نارا، ولكنها تحرق بكون الله سبحانه وتعالى أودع فيها تلك الخاصية.

يؤمن النورسي بقدرية هذا الوجود وبتبعية ظواهره ومحتوياته للصانع الجليل، وبأن مرافقه الظاهرة والخفية تسير وفق تدبير إلهي محكم، وصارم، لا يعزب عنه شيء فيه مهما صغر.. وأن ما يتبدى للعقل البشري من علل وأسباب تحكم الظواهر والوجود إن هي إلا مجرد تلازمات سطحية لا شأن لها في نفسها لأنها مناطة بعلة أولى، هي القدرة الإلهية ذاتها.

".. وما الأسباب إلا (بمانات أي حجج واهية)، وما الوسائط إلا حجابات ظاهرية، وما الخاصيات والخواص إلا أسماء وعنوانات وزجيجات جامدة للمعات تجليات القدرة الإلهية الأزلية النورانية الغير المتناهية، المستندة، بل المتضمنة للعلم والإرادة الأزليين الغير المتناهيين ..وما القانون إلا أمر ممدود أو أوامر مُسردة، وما الناموس إلا إرادة مطولة أو تعلقات منضدة".[٣١٤]

لقد طوت قدرة الله شرط السببية في مشيئته الأمرية التي ارتهن بها مطلق قضائه وقدره، وأناطه بقوله للشيء : كن .. فيكون . ولا تأتي الكينونة إلا على وفق ما تشاء الإرادة الإلهيه وتقدر، من كيفيات وصفات..

"..أيها المبتلى بالأسباب، إن خلق السبب وتقدير سببيته وتجهيزه بلوازم إنشاء المسبَّب، ليس بأسهل وأولى وأكمل وأعلى من خلق المسبب عند السبب بأمر (كن) ممن يتساوى إليه الذرات والشموس". [٣١٥]

من هنا كان التعويل على حساب العقل وحده في إثبات الظواهر مدعاة للشرك، ومزلقا لا يسلم معه الانسان من الوقوع في الخطإ وفي الإثم .. إذ لا بد من الإيمان سنَداً لما يستكشفه العقل..

"كل من نظر بحسابه تعالى إلى الكائنات صار كل ما شاهده علما، وإذا نظر بالغفلة وبحساب الأسباب صار كل ما يظنه علما، جهلا محضا". [٣١٦]

لقد طغى الإلحاد على مجالات الإشتغال الفلسفي بنزعاته المادية الإلحادية، وتحولت تلك المجالات إلى صعيد فكري مريض، يعمل بمكر وعناد على إبعاد فئات من البشر عن رحاب الإيمان، وما ذلك إلا لطغيان الفلسفة اللادينية، وبثها لمبادئ الشذوذ الفكري ولكل ما من شأنه أن ينكر في الإيمان بالله وبعقيدة التوحيد، وذلك ما عبر عنه النورسي، حين ربط تفاقم الأمراض الإجتماعية بتفاقم الفلسفة، ولازم بين الشذوذ العلمي والعقول المريضة :

قد شاهدت ازدياد العلم الفلسفي في ازدياد المرض، كما رأيت ازدياد المرض في ازدياد العلم العقلي، فالأمراض المعنوية توصل إلى علوم عقلية، كما أن العلوم العقلية تولد أمراضا قلبية.." [٣١٧]

---

٣١٤ المثنوي العربي النوري ص ١١٥.
٣١٥ المثنوي العربي النوري ص ٢١٢.
٣١٦ المثنوي العربي النوري ص ٣٢٦.
٣١٧ المثنوي العربي النوري ص ١٥٨.

ولقد ظلت الحكمة الدينية في كامل العصور الاسلامية تحذر من مغبة الاستنامة للفلسفة، لأن أسسها منذ الإغريق والرومان، غرقت في طين الشك والحيرة، أو في تهيؤات نفسية وخيالية ما أنزل الله بها من سلطان، وبتلك الأسس الآسنة راوحت الفلسفة- وعلى مدار العصور - على الخوض في مسائل بَتَّ الدين فيها.. لكن الفلسفة أبت إلا أن تُلَبِسَ على الإنسان بفرضيات تُشَكِّكُهُ في حقيقته المبجلة، وتتيه به في تشعبات تفضي إلى الكفر، وتحكم على هذا الوجود بالعدم وباللاغاية، وتنظر إلى أوضاع الإنسان والكون بمنظار السببية التي لا تجيب عن جذور حيرة الإنسان، بل تتلافاها للاشتغال بمستويات حسية وربما ماورائية بروح هي — حقا — من السذاجة بمكان..

من هنا طفق النورسي يلح على وجوب أن نأخذ في أحكامنا ومسلماتنا بحساب الله، وليس بحساب الأسباب:

فـ"النظر بحساب الله أحكم تسديدا من النظر بحساب الأسباب.".

ومن هنا أيضا أدان العقل كلما كان هذا العقل متبجحا، أو متوحشا، أو متفحشا، أو كان مرسل القيد، لا يعرف أين يضع قدمه، ولا في أي مسلك ينخرط..

بل إن التعلق بالسببية ليحمل في طياته قابلية الخنوع إلى قوى الحس، وإلى الطبيعة البكماء، وإلى الشيئية وحدها، وفي ذلك تحجيم سافر لطاقات الروح التي لا تتسلح في حركتها وسعيها من المعين المادي أو الحسي فحسب، ولكنها تستمد من أكوان اللامرئي ومن المغيب كذلك ما يسهم في بلورة رؤاها وبناء قناعتها ويقينها .

فالروح بطبيعتها المستغلقة التي عجز الإنسان عن استكناهها، قوة موصولة بالغيب .. بل أنها في مراساتها الفطرية، وفي ما يتراوحها من أحوال وتقلبات، لا تفتأ تلابس الغيبي وتساكن وطأته وإشاراته مهما كانت هذه الإشارات مبهمة، فكيف لا تعتد بما تستشعره يأتيها من هذا الصدد الماورائي حتى قبل أن يباشرها به الدين، بل كيف يسوغ لها أن تلغيه من اعتبارها، وأن تضيق من نطاق استلهاماتها باعتماد عالم المحسوس وحده..

"..اعلم أن التعلق بالأسباب سبب الذلة والإهانة، ألا ترى أن الكلب قد اشتهر بعشر صفات حسنة، حتى صارت صداقته ووفاؤه تضرب بهما الأمثال ..ولكنه بسبب مرض الحرص الذي ميزه، لأنه اهتم بالسبب الظاهري بدرجة أغفلته عن جهة المنعم الحقيقي، فتوهم الواسطة مؤثرة، فذاق جزاء التنجيس، فتطهر وأكل ضرب الإهانة كفارة للغفلة،

فانتبه. أما سائر الحيوانات المباركة فلا يعرفون الوسائط ولا يقيمون لها وزنا، أو يقيمون لها وزنا خفيفا .. فالسنور مثلا، يتضرع حتى يأخذ الإحسان، فإذا أخذ فكأنه لا يعرفك ولا تعرفه ولا يحس في نفسه شكرانا لك، بل إنما يشكر المنعم الحقيقي بـــ "يا رحيم ..يا رحيم ..يا رحيم.." فقط. إذ الفطرة تعرف صانعها وتعبده شعوريا وغير شـــعوري ". [318]

[تأدب النورسي حتى مع العجماوات، فقد اعتذر وهو يتحدث عن الكلب بقوله: بشرط ألا ينكسر قلب الكلب ولا يصير غيبة]

لقد نال من الانسان اعتداده بعقله المجافي للإيمان، وجر عليه اغتراره بمعارف ماديـــة اطردت له، فزاغ عن الهداية، ولم يتمسك بالحبل المتين .. وكان حريا به أن يعزو القدرة والفعل للخالق الفرد، وأن لا يتوهم أنه بات في وسعه أن ينادد خالقه..

فلو تدبر الإنسان نفسه لرأى أنه سجين ما أودع الله فيه من قابليات ومدارك، ومنها العقل .. إذ أن نظرة الانسان إلى ذاته وإلى الحياة من حوله في ضوء رشيد للعقل، لـــن شأنها أن تجعله يوقن أن وجوده على هذا الكوكب لا يعدو أن يكون حبـــة خـــردل بالقياس إلى الآفاق والآماد المترامية واللامحدودة التي تطوقه، بشهادة العلم والكشـــوف المتواترة، وهو من جهة أخرى، إذا ما استبطن عقله وما بات في مقدوره أن يفعله بهـــذا العقل، فسيستشعر قوته لا محالة .. ومن حقه أن يستشعر ذلك، لكن في حدود الإقـــرار للقدرة الإلهية بالفضل .. أما أن تتحرك سواكنُ غروره على هدي ما أتيح له من نفاذ، فذلك هو دليل عقوقه، وفي ذلك يكمن خطر ضلاله وضياعه عن الرشاد..

".. ومن صغر الانسان أنه يجول في خردلة حافظته، وتصير تلـــك الخردلـــة عليـــه كصحراء عظيمة يسري دائما ولا يقطعها.. ومع أن الخردلة الحافظة تصير كصـــحراء عظيمة على عقل الانسان، كذلك يصير ذلك العقل كبحر يبتلع الدنيا، فسبحان مـــن جعل الخردلة لعقل الانسان كالدنيا، وجعل الدنيا كخردلة". [319]

فما زالت الشواهد والحقائق تثبت أن العقل عاجز عن اجتياز حدود وقفها الله على علمه، وأناطها بذاته العلية، وأن ما منحه للانسان من عقل لا يكون مُرَشَّداً، ولا تُجْتَنَى له ثماره اليانعة إلا إذا استمسك بالهداية .. فالعقل الإنساني عنوان للطيش والغرور ما لم يتخلق بخَلاق الإيمان.

---

٣١٨ المثنوي العربي النوري ص ١٦١ .

٣١٩ المثنوي العربي النوري ص ١٧٨.

"ومن الغرائب أن العقل الذي يتطاول إلى الإحاطة بـالعلم والنفـوذ إلى الخـارج والخروج من دائرة الإمكان يغرق في قطرة، ويفنى في ذرة، ويغيب في شعرة، وينحصـر الوجود عنده فيما فنى فيه .. ويريد أن يدخل معه كل ما أحاط بـه في النقطـة الـتي بلعته..".[٣٢٠]

فلذلك ما برح النورسي يذكر الإنسان بطبيعته الموصولة جبلة بالغيب، على أحكم ما تكون الأسباب:

" أيها الإنسان، لقد خرج شيء من ماضيك ومستقبلك من الغيب، بحكم ما تحمله من عقل، فأنت محروم كليا مما تتنعم به الحيوانات من راحة واطمئنان بانسـدال سـتار الغيب أمامها، فالحسرات والآهات الناشئة مما مضى، وأنواع الفراق الأليم والمخـاوف الناجمة من المستقبل تزيل لذتك الجزئية وتبيدها وتهوي بك في درجة أدنى بكثـير مـن الحيوان من حيث اللذة، فما دامت الحقيقة هكذا فما عليك إذاً إلا أن تتبرأ من عقلـك وترميه خارجا، وتَعَدُّ نفسَك حيوانا فتنجو، أو تُنَوِّرُ عقلك بنور الإيمـان وتنصـت إلى الصوت العذب للقرآن الكريم، فتكون أرقى من الحيوان وأرفع، مغتنما لذائـذ نقيـة، صافية، طاهرة، وأنت ما زلت في هذه الدنيا الفانية..".[٣٢١]

من هنا كان لزاما على المعرفة الإنسانية أن تدمج مبدأ الإيمـان بـالله وبالغيـب في تعاليمها، وتجعل منها منطلقاتها في كل ما تتوجه إليه من فتح أو كشوف، فبذلك تترشد خطاها، ويطرد لها الفلاح الذي تعم نتائجه الانسانية قاطبة:

"ليست الأسباب إلا مجرد ستائر، وليس للملائكة – وهم ذوو شعور – غير جزء من الاختيار الجزئي الذي له **الكسب دون الإيجاد**، وهو نوع من الخدمة الفطرية ونمط من العبودية العملية لا غير".[٣٢٢]

ومن خير الإنسانية أن تعي صلتها بأفعالها وبمنجزاتها، وأن تدرك أن الله هيأهـا لأن تفعل الحسنى، وأن أفضالها ورهاناتها هي مجرد كسب تحقق على يدها، وأن اقترافاتها هي زيغ عن الحق وتعدٍ عن الحدود واجتراح للعدمية..

فالشر من كسب العبد، لأنه ناشئ من العدم، والخير فضل من الله يتحقق على يـد الخيريين

٣٢٠ المثنوي العربي النوري ص ٢٢٥.
٣٢١ الشعاعات ص٢٥٠.
٣٢٢ الشعاعات.٣٢٤.

"..ولما كانت الشرور ناشئة من العدم، فإن أولئك الأشرار يعدون هـم الفـاعلين الحقيقيين لها، فإن كانوا من ذوي الشعور استحقوا أن يدفعوا وبال أمرهم، وهذا يعني أن أولئك الأشرار الفاسدين هم فاعلون للسيئات . أما في الحسـنات والخـير والأعمـال الصالحة، فلأنها وجودية، فإن الأخيار ليسوا هم الفاعلين الحقيقيين لها، وإنما هـم أهـلٌ لكي تجري الحسنات على أيديهم فيقبلوا الكرم الإلهي، وما إثابتهم على أعمالهم إلا كرم وفيض إلهي محض، والقرآن الكريم يوضح هذا بأمره . (**ما أصابك من حسنة فمـن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك**) (النساء ٧٩).[٣٢٣].

من هنا كان حتما على البشرية – التي حققت من المكاسب ما يشجعها على المضي في طريق تصعيد وتثمير القابليات التي حباها بها الله، ليكون الإنسان خليفته في الأرض – أن تُثَبِّتَ إيمانها لدى كل فتح تحققه، لأن ذلك سيجعل الخطا أكثر رسوخا، وأكثـر باعثية للإطمئنان، والحمد، والاستزادة :

"..إن النظر إلى ما سوى الله تعالى لابد أن يكون بالمعنى الحرفي وبحسابه تعالى، وأن النظر إلى الكائنات بالمعنى الاسمي أي بحساب الأسباب خطأ . ففي كل شيء وجهان : وجه إلى الحق ووجه إلى الكون، فالتوجه إلى الوجه الكوني لابد أن يكون حرفيا وعنوانا للمعنى الاسمي الذي هو جهة نسبته إليه تعالى" . [٣٢٤]

وفي هذا النطاق لا مجال لإعطاء الطبيعة دورا أكبر من كونها المسرح الرباني الـذي هيأه لمخلوقاته كي تتملى عظمة الخالق، وكي تسعى مسبحة بحمده، رضية بما تكرم به عليها من نعم ..

من هنا لا وجاهة لادعاءات الطبيعيين، ولا لمن يؤلهون المادة، ويسندون إليها انجـاز هذا الإبداع الخارق، والمترامي، والذي شمل كل مرافق الكون، وما ذلك إلا لأنه ابداع إلهي جليل.. "فالطبيعة مطبعة مثالية وليست طابعة..قابلة للانفعال وليست فاعلة" . [٣٢٥]

وإذا كان الإيمان يتغلغل في رحاب النفس ليفشي في الانسان نشوة اليقين فلا يزايله بعدها ظل الله الهادي، فلا جرم أن الإعتداد بالنفس الخاوية من دفء الإيمان لا يورث إلا مزيدا من الإحباط والقهر والغبن الناشئ عن الصدمات وعن شعور الخيبة والعجز..

ذلك لأن الإحساس بالعزة الباطنية والاعتداد بالذات لا يكفل للنفس مكسبا إلا إذا كان اعتدادا بالخالق.. فالنـية التي يستبطنها العبد في ضميره، من شأنها أن تنيط أعماله

٣٢٣ الشعاعات ص٣٢٥

٣٢٤ المثنوي العربي النوري ص ١٠٥

٣٢٥ المثنوي العربي النوري ص ٤٢٥.

بالصدفة وبالمجهول وباللا وثوق، إن هي استندت إلى مجرد قدرات النفس، الآنية، والمحدودة، والمعرضة للنفاد في كل وقت .. ومن شأنها – على العكس من ذلك – أن تنيط تلك الأعمال والمقاصد باليقين، وبالأمل، وبالإثمار الباهر، متى ما خلصت واستلهمت العون والتوفيق من الله..

فمن شأن خلوص نية الإنسان ومصداقية مراميه أن يضفيا على الأشياء والمسائل قيما تتحول بها إلى الأسمى والأرفع.." إن النظر والنية يغيران ماهيات الأشياء، فيقلبان السيئات حسنات . كما يقلب الإكسير التراب ذهبا، كذلك تقلب النية الحركات العادية عبادات، والنظر يقلب علوم الأكوان معارف إلهية، فإن نُظِرَ بحساب الأسباب والوسائط فجهالات، وإن نُظِرَ بحساب الله فمعارف إلهية ".[326]

من هنا كان التوسل بالله، ودعاؤه، والضراعة إليه، أحوالا تترجم عند الإنسان صلة العبودية، ومتانتها، وصدق بواطنها . فالدعاء– في حقيقته الروحية – هو أخذ بكلية الأسباب، وليس فقط بظاهر القرائن التي دأب النظر يرصدها ويستلزمها لتحصيل النتائج..

إن رجوع الإنسانية بمشاعرها ومعتقداتها إلى الله، ينضد الطريق أمامها، ويظاهر بين جهودها، ويقرب منها غاياتها، لأن كدحها في كنف اليقين والوثوق بأن الله هو المسير والمدبر للوجود، يخفف من الأعباء، ويجنب المخاطر، إذ أن إحضار محبة الله وخشيته، يقيد يد الإنسان وعقله عن أن يمتدا إلى غير ما يخدم رعايا الله، من بشر وعجماوات وجماد..

فمن شأن الإعتقاد بالله أن يجعل المؤمن يقر في طمأنينة وإخلاص، بأن "..أمر العباد في يد الراعي ". وأن السعي الموكل إليهم لابد وأن يثمر ويزجي العطاء في كنف من الإقرار للخالق بالقدرة المتصرفة في الفعل والفاعل على حد سواء..[327]

من هنا كان التوكل فضيلة بناءة، لأنها تنفي عن المرء شبهة الإعتقاد في غير بارئه، والتعويل على غير ربه .. فالتوكل – على خلاف ما فهمته به العوام ومن لا دراية معرفية لهم – هو التعويل على الله مع الأخذ بالأسباب التي هيأها الله سبيلا يفضي بالعبد إلى تحصيل نتائجه، فلا جني من غير استزراع، ولكن التعويل على الاستزراع لا يجدي إذا غابت العناية الإلهية وخاب الموسم .. وإن حديث الرسول ﷺ للأعرابي :" أعقلها

---

٣٢٦ المثنوي العربي النوري ص ١٠٥

٣٢٧ انظر المثنوي العربي النوري ص ٢٢٣.

وتوكل".. قد أحاط بمعنى التوكل الإيجابي كما كرسته العقيدة الإسلامية، إذ شـــرطت السعي، ولم تُــقِـــرَّ القعود قط ..

ومن خير الشواهد على رسوخ مبدإ حظوظية العيش والرزق المكتوب، المقدر للعبد سلفا، ما يورده النورسي حول ما " روي أن الانسان إذا تحرك سكن رزقه، وإذا سكن تحرك رزقه، ويضرب مثلا بالشجرة الساكنة تتحرك إليها أرزاقها وهي ثابتة في مكانها لا تريم، فيما الحيونات المتحركة تسعى هي لنيل أرزاقها وتكد من أجل تحصيلها ..[٣٢٨]

فحظوظ العباد قد تقررت لهم سلفا، ولكن الله أودع في نفوسهم الحافزية التي تيسر عليهم بلوغ أنصبتهم وآجالهم من هذه الحياة :

"..وأما رزقك وإدامة حياتك وما يتعلق بك من الأموال والأولاد، فهي من وظيفـــة فاطرك، لكنه قد يستخدمك في وسائل قرع أبواب خزائن رحمته بالســـؤال الفعلـــي أو الحالي أو القالي، وقد يستعملك في الذهاب في المسالك التي توصلك إلى مطابخ نعمتـــه، فتطلب بلسان الاستعداد أو الاحتياج أو الفعل أو الحال أو القال، ما عين وقـــدر لـــك ".[٣٢٩]

ومما يُبيِّنُ أن همة الإنسان مشدودة إلى آمال وجدانية أبعد وأبقى مما تجنيه مســـاعيه الدنيوية من زائل النتائج وظرفيها، تعلقه بالأبدية، ورهاناته على المنجزات التي لا تنم إلا على نشدان فطري للدوام والخلود "..اعلم أن من الدليل على أن القلـــب مـــا خلـــق للاشتغال بأمور الدنيا قصدا، أنه إذا تعلق بشيء تعلق بشدة، واهتم به اهتماما عظيمـــا، ويتطلب فيه أبدية ودواما .. ويفنى فيه فناءا تاما . وإذا مد يده يمد يدا تطيق أن تفـــيض على الصخور العظيمة وترفعها، مع أن ما يأخذه بتلك اليد من الدنيا، إنما هو تينـــة أو تبنة، أو ريشة، أو شعرة، أو هباء، أو هواء..".[٣٣٠]

ونخلص من هذا كله إلى أن النورسي – حين قال بوجـــوب الأخـــذ بتعـــاليم الله وأحكامه، بدل الأخذ بالسببية وقانون العقل (هذا القانون الذي يحرص بآلية علـــى أن يربط في تدليلاته السبب بالنتيجة، حتى إذا عدم هذه النتيجة تأفف وعزا ذلك إلى غياب عنصر تركيبي تستوي به المعادلة ..)، قلت إن النورسي لم يَدْعُ إلى القعـــود ولا زيَّـــنَ للمسلمين طلاق الدنيا والزهد فيها، وهو وإن صدرت عنه دعوات متكررة تلح علـــى وجوب الانقطاع والتوجه إلى الآخرة، إلا أنه في تلك الدعوات، وتلك التقريرات، إنما

٣٢٨ المثنوي العربي النوري ص ٢٥٦.
٣٢٩ المثنوي العربي النوري ص ٣٧٢
٣٣٠ المثنوي العربي النوري ص٢٢٣

كان يسدد للأمة الوجهة الأكثر نجاعة للتمكن من الدنيا، والسيطرة عليها، وتثمير تجربة الوجود في إطار رباني لا تزداد به الحياة إلا سموا وشرفا وانخراطا في طريق الإيمان الذي تزكو به زمنية الناس وتجل أعمالهم .. لأنهم بذلك الإيمان لا يأخذون في حسابهم بمنطق التمييز والفصل بين ما هو لله وما هو للعباد، أو بين الدنيوي والأخروي ..

ذلك لأن خطابا من قبيل هذا النداء التسفيهي الذي وجدنا النورسي يتوجه به إلى الغافلين عن الإيمان، والذي يقول فيه " اعلم يا من يدعو المسلمين إلى الدنيا، أخطأت .. أتحسب أيها الغافل أن المطلوب بالذات من الانسان عمارة الدنيا واختراع الصنائع وتحصيل الرزق وغير ذلك مما يعود إلى الدنيا ؟. والحال أن صاحب الملك الذي أمرُهُ بين الكاف والنون يقول بقول يصدقه الوجود والكون والواقع وتجهيزات الفطرة الانسانية (**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**) (الذاريات ٥٦). (**وكأيِّنْ من دابة لا تحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم**) (العنكبوت٦٠)، أم تزعم أن مَنْ صَنَعَكَ ويصنعك دائما بتجديد وجودك في كل زمان يحتاج لما تصنع في نظام ملكه وإلى توسيطك في تصرفاته ؟. أترى كل مصنوعات البشر تساوي خلقة نخلة أو نحلة أو صنعة عين انسان؟..".[٣٣١]

إن خطابا كهذا لا يحمل بحال من الأحوال أي نزعة تزهيدية، لأن مساقه جاء مساقا توحيديا، يحيي في النفس وازع الإرعواء جراء ما يتخبطها من مس الجحود والتربب والإلحاد..

فتصعيد القول في مضمار التوحيد، والصدع في وجه الإنسان بحقيقة خضوعه في كل شأن من شؤون حياته لله، إنما كان يستجيب لرعونة الإلحاد والجحود التي كانت – ولا زالت – تعمل جاهدة على بث ثقافة الكفر، وإقصاء الإيمان بالله وتوحيده من عقول المسلمين، ذلك لأن المرحلة كانت يومئذ – بل لا تزال وبشراسة أكبر وسفور أظهر – تَعُجُّ بقيم الكفر، ضمن مخطط يهودي عالمي انساق له العاقون والمستلبون من بني الملة الخونة، وتوسل إلى ترسيخ عقيدته العنصرية من خلال تشويه العقائد والأعراف ومنابذة الأخلاق ودوس المقدسات..

فالتوحد- بهذا الوجه - كان مستوى تحسيسيا يتصدى لمساعي تأليه الإنسان وإقصاء الخالق .. فلا بدع - والحال هذه- أن يباشر خطاب النورسي الجهادي هذه المستويات التي تنيط الحركة والسكون بالخالق، وأن يجادل الملاحيد من حيث أداروا خططهم وخطبهم .. فقد كانت شعاراتهم تتبجح بمطامح رعناء من قبيل خلق الحياة

٣٣١ المثنوي العربي النوري ص ٢٧٦

الجديدة، وتصنيع الإنسان الجديد، وإرساء مبادئ المعتقد الوضعي الذي لا يؤمن بالمقرر من القيم والمقدسات ..

فالعقيدة التمردية التي كانت أساس إيديولوجية الملاحيد واليهود، كانت تقتضي أن يرد عليها بهذا الخطاب الذي لم يشتط في بناء قيمه، وإنما ذكّر بالحقيقة التي تشهد على مصداقيتها الظواهر والوقائع اليومية، وهي أن يد الخالق وراء كل فعل يأتيه الإنسان، فإرادته عز وجل هي التي تسدد تصويباتنا أو تنحرف بها .. وتلك حقيقة – كما نلاحظ – لا تقر للمسلم بالقعود، ولكنها، على العكس من ذلك، تحرضه على ضرورة عقد النية والشروع في انجاز المهام التعميرية، متسلحا بضمانة الله وحمايته التي لا تخذل مؤمنا حتى عندما لا يحالفه التوفيق . ذلك لأن إحساس الوهن لن يتسرب إليه مادام موقنا بأن نتائج أعماله منوطة بالخالق سبحانه عز وجل ..

"..أيها السعيد المسكين، أتحسب أن وظيفة حياتك حسن محافظة النفس والتربية المدنية وخدمة البطن والهوسات ؟ أو تحسب أن غاية ادراج هذه الحواس والحسيات والجوارح والجهازات والأعضاء والآلات واللطائف والمعنويات في ماكنة حياتك، هو استعمالها في هوسات النفس الدنية في هذه الحياة الفانية ؟. كلا، بل ما حكمة ادراجها في فطرتك إلا احساسك جميع أنواع نعمه تعالى، واذاقة معظم أقسام تجليات أسمائه".[٣٣٢]

هكذا يتبدى لنا كتاب المثنوي بستانا من الروحيات والفكريات، تمرح فيه النفس مليا، لأنها تجد فيه أيكة قرآنية وارفة، حيث لا يفتأ النورسي يلقي إليها بثمار ما ألهمته إياه المرابطة الجهادية على عتبة الحضرة في تواصله مع عالم الشهود.

* * *

٣٣٢ المثنوي العربي النوري ص٣٨٣

الفصل الثامن

قراءة في جوانب من فكر النورسي

ومنهجه الاقترابي في مضمار المعرفة والسياسة والاجتماع

كما عرضها كتاب : صيقل الاسلام

"إن معاصريي – مع الأسف – وإن كانوا أبناء القرن الثالث عشر الهجري، إلا أهم تذكار القرون الوسطى من حيث الفكر والرقي، وكأهم فهرس ونموذج وأخلاط ممتزجة لعصور خلت – من القرن الثالث إلى الثالث عشر الهجري– حتى غدا كثير من بديهيات هذا الزمن مبهمة لديهم.." [٣٣٣]

النورسي لا يخاف احتراف السياسة إلا لأنها تسلك بالمرء سبيلا يبعده عن طريق الحق

مما لا شك فيه أن النورسي الذي تمرس بتجربة سياسية عملية في فترة من حياته، قد تحول –ما أن بدت له سوءات السياسة – إلى مدارسة القرآن والتفرغ إليه.

ولقد ظل منذ ذلك الوقت يبدي رفضه للسياسة ونفوره منها، لما عرفه عنها وعن متعاطيها من زيغ وزيف وانقياد للانحراف..

لقد ظل النورسي يصرح بأنه وجد في رحاب القرآن وفي خدمته ما أنساه ماضيه السياسي، بل وما جعله ينبذ ذلك الماضي، ويستنكر آثاره في نفسه..

ومن المؤكد كذلك أن تجرد النورسي من الأهواء ومن المسؤوليات الاجتماعية المقيدة لحرية اللانسان، زيادة على ما طفح به قلبه من إيمان خالص وتوجه حميم نحو العبادة والاحتساب ..قد كفل له أن يكون على حظ ضاف من العزة ومن الاعتداد بالكرامة إزاء المجتمع ومؤسساته ..

لقد وطدت تجربة التجرد التام مكانة النورسي كمفكر حر لا يعنيه - كثيرا –ما يجري خارج ساحة تفكيره..

ولقد كانت تلك المطلقية – إن شئنا – إزاء الاعتبارات الاجتماعية والسياسية عاملا مهما جعله يمارس السياسة من حيث يشعر ولا يشعر.. على نحو – دون شك – لا يتجانس مع ما اعتادته الدوائر الاحترافية من انغماس، إذ أنها ممارسة خرجت عن نطاق البروتوكولية والمساومة، وخلصت لله والأمة، وذاك ما كان يعطي للهجة النورسي كل تلك النبرة القوية، الجسور، التي طفق يرد بها عن نفسه التحرشات..

يقول النورسي :

"إن خدمة القرآن الكريم هي التي منعتني بشدة عن عالم السياسة، بل أنستني حتى التفكير فيها، وإلا فإن تاريخ حياتي كلها تشهد بأن الخوف لم يكبلني ولا يمنعني في

---

٣٣٣ صيقل الإسلام ٢٤.

مواصلة سيري فيما أراه حقا، ثم مم يكون خوفي ؟ فليس لي مع الدنيا علاقة غير الأجل، إذ ليس لي أهل وأولاد أفكر فيهم، ولا أموال أفكر فيها، ولا أفكر في شرف الأصـــالة والحسب والنسب، ورحم الله من أعان على القضاء على السمعة الاجتماعية التي هـــي الرياء والشهرة الكاذبة، فضلا عن الحفاظ عليها. فلم يبق إلا أجلي، وذلك بيد الخـــالق الجليل وحده، ومن يجرأ أن يتعرض له قبل أوانه، فنحن نفضل أصلا موتا عزيـــزا علـــى حياة ذليلة ". [٣٣٤]

السياسة مثابة المفاسد جميعا

لقد نظر النورسي إلى السياسة بواقعية، وعَلِمَ ما تقوم عليه من دهاء بحيث لا يتورع متعاطيها عن التضحية بكل القيم ، بل وحتى بالمقدسات، من أجـــل بلـــوغ الغايـــات المستهدفة..

من هنا كان تَـــأَبِّيه عن الاستمرار في مباشرتها و الخوض فيها بعد ما جرب منها وما اكتشف .. لقد رأى الساسة لا يرعوون أمام تحقيق مطامحهم الحزبية العاجلة عن اقتراف كل ما يوصل إلى الهدف، ورأى ما يشبع أجواء السياسة من نفاق ودجل ومحســـوبية، وشاهد عن كثب أن يد السياسي مفتوحة لمصافحة واحتضان الشيطان نفسه لقاء نيل المقصد الاستنفاعي الشخصي أوالفيئوي..

لقد وقف النورسي على مشاهد رأى فيها السياسي المسلم (أو المتلبس بالإســـلام) يتوادُّ مع نظيره السياسي الفاسق الذي لا يني يجاهر بمحادَّاة الله ورسوله، لا لشـــيء إلا لتلاقيهما في المصلحة.. الأمر الذي جعل النورسي يدرك أن السياسة هي لعبة قمـــار لا مجال فيها لما يعرف بالفضيلة، إنما شعارها المركزي هو ذالك الشعار الذي حمله أحـــد فقهائها الغربيين، نقصد به ميكيافيلي القائل بأن الغاية --في مضمار السياسة – تـــبرر الوسيلة ..

لقد جعل هذا المُنَظِّرُ الغربي من المصلحة – ولو تلطخت بالدم والخيانـــة – الغايـــة الوحيدة التي ينشدها السياسي، فهو قد أناط الأعمال بثمارها، وجعل من الظفر– ولـــو كان غير شريف– عين الفضيلة والمأثرة التي يطلبها السياسي، بغض النظر عن طبيعتها أو معيار خُلُقِيتها..

---

٣٣٤ المكتوبات ص.٥٨.

من هذا المنطلق أضرب النورسي عن تعاطي السياسية، هو الذي باشرها بضع سنين، وفكّ شفرتها، وأدرك منطقها اللامبدئي، فكان انسحابه منها انسحابا مبدئيا، سعى إلى أن يعطيه معناه المنهجي الذي يغدو معه ذلك المنهج الكفي، الإنقطاعي، الذي اعتمــده إثر خروجه من الحلبة السياسية، ثقافة أو لنقل فلسفة فعالة تســاهم في خدمــة الحيــاة والمضي بها في الأتجاه البناء، وهذا بالانخراط في طريق لا يتوازى مع طريق السياسة فقط ولكنه يتعارض معها.. إنه طريق القرآن ..

لقد تحول النورسي من حلبة السياسة المؤطرة بسياج من الأعراف الــتي تحكمهــا نزوات النخب المتصارعة على السلطة، إلى أرض الواقع اللامحدود، الواقع الذي لا تحركه تعليمات القيادات وما يعرو أمزجتها من تلون، وما تمليه نوازعها البشرية من توجيهات لا تصب إلا ضمن دائرة التنفذ، وتعزيز الدور، وتكريس روح عبادة الشخص والزعامة، والتعصب للأهواء المتلاطمة .. لقد لاذ النورسي بعيدا – ونتيجة نفور عميق – عما رآه يعصف بسفينة السياسة من أمواج موبوءة – واختار أن يعتصم بالروحانية القرآنيــة ، يستمد من كنوزها الترياق السماوي، يداوي به تفسخات واقع أمته قاطبة ..

منهجه العمل بعيد المدى..أو سياسة الإلتفاف الحكيمة

لم يهجر النورسي الحياة، و لم يُخْلِ الموقع، و لم ينهزم، ولكنه قام بعملية التفاف على الحطة الروحية والمفاسد الخلقية والهوان الحضاري والاستيلاب المقيت واللافاعلية البنائية.

لقد فتح جبهة لاتَحْشدُ الأتباعَ بالديماغوجية والترضيات العينية والتحفيزات الحسية والتغريرات المفضوحة .. لَقد هاجر إلى الله وشَــرَّع بابه في وجه سائر الأطهــار ذوي الإستعداد الروحي الخالص، وفتح حيالهم كتاب الله، وجعل يقرؤه على الأسماع بما هيأ الله في نفسه من رشد، وجعل ينادى في الناس بما أيقن أنه الحق، ومضى يكشف لهم عن الأدواء ويدلهم على العلاج مستخلصا من كتاب الله ومن تعاليمه التي شاءها لعباده أن تكون ناموسا يهديهم ويصلح بالهم ويشملهم بالسعادة .. لقد استمر النورسي وعلــى مدار العقود المتوالية يهتف بالناس ألا إن صعيد الله رحيــب، لا تتــرافس في حلبتــه النفوس، ولا تتراكل، ولا ينهش بعضها بعضا لقاء المغنم السافل..

ومن حزمه وجلاء بصيرته جعل النورسي منذ المنطلق خطا فاصــلا بــين منهاجــه القرآني ومنهاج السياسيين، لقد رفض أن يسلك معهم أرضا واحــدة، أو أن يتواصــل معهم بسبب .. لقد توجه بروحه إلى القرآن يقرؤه ويتأول آياته، ويستلهم العلاجــات

منه، ويذيعها في الناس، من غير أن يبيت نية التصادم أو الاشتباك مع الساسة والخصوم، لأنه أدرك أنهم أهل ضلالة، وأن لا خلاق لهم، وأن من اليسير عليهم أن يعترضوا على جهده التربوي، الإصلاحي، في أي وقت، وأن يئدوه في المهد، إذ أن باع السلطة طويل كلما تعلق الأمر بإسكات صوت الحق أو إطفاء شمعة الفضيلة ..

من هنا تجنب أن يسلك طريقهم أو أن يأتي ما من شأنه أن يثيرهم ضده.. لذا رأينا وصاياه تتكرر للأتباع تحذرهم من مغبة تثمير القرآن في طريق السياسة أو للأغراض الحزبية..

ومما لا شك فيه أن خطة النورسي المُحْجِمَة عن الخوض في الغمار السياسي الإعتراكي تحت لواء الدين لم تكن خطة تحايلية، اتقائية، غايتها التحرك تحت الريح، بقدر ما كانت اعتقادا راسخا بأن سمو القرآن وقداسة روحه ونورانيته لابد وأن تتعالى عن أن يُدَلَّلَ بها على برنامج سياسي دنيوي، منوط ببضع سنوات من السيادة الوهمية، وبجدول من الانجازات التي مهما كانت قيمتها المنفعية، إلا أنها تظل الشاهد الإعتزازي لأصحابها، بغض النظر عن نجاحهم أو فشلهم، إذ أن السياسي له قدرة على التدليس وادعاء المحامد حتى في التجارب التي يكون فيها سقوطه ذريعا..

فمن شأن برامج الساسة أن تغدو مرتكزا انتخابيا تتجدد به -دوريا -حمية المغالبة السياسية قصيرة الحبل، لا غير، لأنها حمية تصدر عن حسابات لا تستحضر حكم الله ولا تقيم معاييرها على وفق مقررات الكتاب والسنة..

من هنا ربأ النورسي بألماسية القرآن عن أن تطرح في المضمار السياسي الترابي، تدوسها الحوافر والأرجل، وتغطي عليها المشاغبات والتهيجات التروانية، وتصرفها عن دورها كدستور هيأه الله ليستوعب أعباء الحياة ويذلل من رعونتها ويمنح الأرواح والنفوس طمأنينة سماوية تسلسل معها الأيام والعهود..

" ينبغي ألا تحجم عن القرآن جهة، ولا يكون موضع شبهة فئة مهما كانت، لذا علينا أن نلقي دروسه من موضع طاهر زكي، مبرئ من موحيات أفكار التيارات السياسية والانحيازات المغرضة".[٣٣٥].

---

٣٣٥ المكتوبات ص ٦١

كيف ننهض بالدين، بدل أن نتبناه ونحتكره

لقد قدر النورسي أن موقف الحركات الدينية – إذا ما صدر عن روح تتبنى الـــدين على تلك الصورة الإحتكارية، شبه الكهنوتية – فإنما سيكون موقفا ضـــارا بالـــدين، وحائلا دون انتشاره، ومحجما لوظيفته، بوصفه (الدين) نطاقا روحيا وجاذبية روحانية مهيأًة لأن تستوعب الناس جميعا، وتكفل لهم من الأجواء والعواطف ما يقـــرب بيـــنهم ويؤاخيهم ويجعلهم جسدا واحدا في توادهم وتراحمهم..

لذا طفق النورسي يرفض نزعة الاحتكار ووضع اليد على الدين من منطلق احتيازي، ذلك لأن القصد من الدعوة ليس هو الوقوف بالعقيدة عند صعيد جمـــاعي أو فيئـــوي محدود، ولكن القصد منها أن تتوسع لتستشرف بظلالها الناس جميعا ..

لذا لا يجوز أن تسير الدعوة وفق سياسة لا تتحوط من الوقوع في مزلق الصد وسدِّ الباب في وجه العباد الذين يشرح الله صدورهم للاسلام ..

بل لقد رأى النورسي أن مجرد التظاهر غير السوي بالشعار والنحلة الاســـلاميين في مجتمع يضم أوساطا تبعدها ثقافتها وتربيتها عن روح الدين، هو إثارة لا محالة ســـترتدٌّ بالأثر السلبي على الدين، إذ ستجعل تلك الأوساط تُبَـــيِّـــتُ لمناهضته ،من حيث كونها ترى فيه شأنا لا يهمها .. شأن بعيد عن أهوائها، بل ومتعارض مع رؤيتها ومطامحهـــا الدنيوية ..

من هنا حرص النورسي على تبصير المسلمين بما ينبغي أن تكون عليه سلوكاتهم إزاء الطوائف غير المتدينة من بني الجلدة، ودعا إلى ضرورة أن يرفع الـــدينُ عـــن أنـــواع المزايدات والانتماءات سواء المسلكية منها أو السياسية أو غيرها :

" إن إظهار الدين الذي هو ملك مقدس للناس كافة – بالتحيز والتحزب – على أنه أخص بمن يتمثله في مسلكه دون غيره، يثير الأكثرية الغالبة ضد الدين، فيكون ذلك سببا في التهوين من شأن الدين ..

فمن يشاء أن يخدم الدين، لا يسعه إلا أن يسعى لإيجاد السبل الكفيلة بتقريب العقيدة من النفوس البعيدة عنها، وبالتالي عليه ألا يأتي في مظهره ومسلكه ما قد يكون سببا في تعميق الهوة بين الدين وبين من هم خارج حظيرته..بل لقد رأيناه ينعى على المرشـــدين والمتعصبين للدين أساليب توجيههم وفظاظتهم التي لا تترك من أثر إلا تنفير الناس مـــن الإسلام.

" إن خدمة الدين وسوق الناس إليه إنما تكون بالحث على الالتزام وتذكير أصـــحابه بوظائفهم الدينية، وبخلاف ذلك فإن مخاطبتهم بأنكم ملحدون يسوقهم إلى التعدي" [٣٣٦]

لقد كان يرى في مجتمعه من الوقائع ما كان يزيده قناعة بأن استخدام الدين في غير مقاصده كان أمرا جاريا ولا يتورع عنه أصحاب الأغراض .. فلقد كان المندســـون – وسيظلون – يستدرجون الجماهير المسلمة إلى أغراضهم الشخصية أو الفيئوية، بتحريك الوازع الروحي في نفوسهم، ذلك لأنهم أيقنوا أن تلك الجماهير المسلمة إنما هي ســـريعة الانقياد لمن يأخذ بمخزمها، باسم الدين..

معاينة لواقع الاندحار الحضاري الاسلامي وطغيان الأعداء

وكان يحز في قلب النورسي أن يرى ألوانا من التناحر واقعة بين المسلمين دونما وعي منهم بنتائجها.. تناحر كان يأخذ أشكالا ومستويات ويشـــمل علاقـــاتهم ومجـــالات أفكارهم وعواطفهم .. وإذا كان التعارض والاختلاف من مظاهر الطبيعة البشرية اعتبارا لحال الاختلاف النظري والمنطقي التي تجعل العقول والمنـــاهج والسياســـات تتعـــاكس وتتصادم أحيانا وتتغالب، فلا شك أن هناك من أسباب الفرقة ما كان طارئـــا علـــى الوجود الاسلامي، خصوصا بعد أن نَفَذَ الاستعمار إلى أوطانهم وجعلهم مزقا ودويلات وشعوبا أناط مصيرها بإرادته..

لقد سخر المستعمر الشعوب التي وقعت تحت قبضته، وسلك بها سبلا كانت تجـــد فيها نفسها تعمل –بلا غاية – وباستماتة على تهديم كيانها وتهشيم ذاتيتها..

ذلك لأن المستعمر في اطار توسعه وتوطيد هيمنته العالمية، كان يســـخر الشـــعوب المغلوبة والتابعة لنفوذه في تحقيق مصالحه ،ولما كانت الحروب بعضا من تلك المصالح فقد كان يزج بأبناء المستعمرات في صراعاته مع القوى المتنافسة، أو يدفع بها ضد الـــبلاد والشعوب التي تظهر مقاومته وتتصدى لأطماعه..

لقد كان المستعمر يجد نفسه في تلك الأحوال متأهبا لاســـتخدام القـــوة وإشـــهار السلاح، إذ أن المخزون من أبناء المستعمرات، لا سيما البلاد الاسلامية، كان وافرا لديه، وهكذا ظلت الحروب والاجتياحات الاستعمارية تستهلك من الضحايا المسلمين الآلاف والآلاف..

---

٣٣٦ صيقل الإسلام ص ٣٦٢.

ولقد كانت المفارقة تبلغ ذروتها حين كان المستعمر يسلط أبناء المسلمين ضد بعضهم بعضا، فلقد كانت الأساطيل تبحر بالفيالق من هذا البلد المسلم إلى هذا البلد المسلم، ليُزَجَّ بها في جبهات القتال، فتتساقط الضحايا من الجانبين، ويتحقق النصر وينعم المستعمر بالغنائم، دون أن يتفطن المسلم إلى أنه إنما كان يقاتل أخاه المسلم، ويشتبك معه بكل ضراوة، ويبادله أشرس العواطف والضربات، نشدانا لنصر لا يعود على أي منهما بفائدة، كل ذلك ولا أحد منهما يدري أنه إنما يقاتل أخاه في الملة ويسدد لشقيقه في الدين، ويغالب ابن عقيدته.. وكل ذلك كان نتيجة للمصير التمزيقي الذي اقترفه المستعمر في حق الأمة إذ فرق بينها واستغلها في تحقيق مشاريعه الاستعمارية البغيضة..

لقد كان الغرب يجند الجيوش من البلاد الإسلامية ويفتح بها بلادا إسلامية أخرى.. وكان الضحايا من الجانبين مسلمين، وكانت الحمية في القتال تأخذ الطرفين فتتفاقم خسائر الإسلام وتعم انتصارت الكفر..

لقد أرجع النورسي ذلك الواقع – وكان ذلك العهد عهد تقاطع وتباعد بسبب انعدام وسائط الاتصال– إلى سوء استخدام المسلمين لشعائرهم، أو إلى عدم استثمارها في الوجه الذي سنت له، لا سيما شعيرة الحج، حيث كان المسلمون من كل أقطار الأرض يتداعون إلى تلك البقاع القدسية كل عام، بل كل موسم، للحج والاعتمار، فلا يجدون موجها ولا مرشدا يعرفهم بما يقع لهم ويكشف لهم أسباب شقائهم واندحارهم..

لقد كان النورسي ينحو باللائمة على الخلافة العثمانية خاصة، فهي التي كان أمر المسلمين منوطا بها، وهي التي لم تسع لرسم سياسة إسلامية تؤطر بها شعيرة مثل شعيرة الحج قائمة أساسا على مبدإ التواصل والتعارف وتجسيد روح التواشج والأخوة، فمن شأن تأطير تلك الشعيرة الاسلامية الجامعة أن يضمن الجو لاسداء التوجيه، وتتحقق التوعية والتنوير:

"إن اهمال السياسة الاسلامية الرفيعة في الحج والمتضمنة توحيد الأفكار بالتعارف وتشريك المساعي بالتعاون هو الذي أدى إلى تهيئة الوسط الملائم للأعداء ليستخدموا ملايين المسلمين في العداء للإسلام.

فها هو الهندي جالس يبكي على رأس أبيه الذي قتله ،ظنا منه أنه عدوه، وها هما التتار والقفقاس واقفان عند قدمي جثة ساعدا على قتلها .. وبعد فوات الأوان يدركان أنها والدهما. وهاهم العرب قتلوا شقيقهم البطل خطأً ومن حيرتهم لا يعرفون كيف

يبكون وينتحبون . وها هي افريقيا قتلت أخاها دون علم به، والآن تصرخ وتولول. وها هو العالم الاسلامي ساعد على قتل ولده المقدام غافلا دون علم به، فهو يلطم ويـــنفش شعره كالوالدة الحنونة. فالملايين من المسلمين دفعوا إلى سياحات طويلة في العالم تحـــت لواء العدو الذي هو الشر المحض، بدلا من شد الرحال إلى الحج وهو الخـــير المحـــض ". [٣٣٧]

وتتسع رؤية النورسي أكثر فيرى حال الزراية التي عليها الإنسان المسلم أينما كـــان، مقابل وضع النصراني المطرد على صعيد النماء والرخاء والمدنية..

لقد كان النورسي يهتم لذلك الواقع التعيس لأنه يعلم أن هناك من يربط الحالين ليس بأسباهما الموضوعية، ولكن بإحالة كل وضع على اِحدى الديانتين وإناطته بها وجعلهـــا مسؤولا عنه..

ومن غير ما شك أن أعداء الملة من يهود ونصارى متعصبين هم أول من يعقد هذه الصلة من أجل التشنيع على الإسلام والتنفير منه..

وكان لذوي القابليات الاستلابية من أبناء الملة مندوحة في هذا الوضع للمضي بعيدا على طريق التنكر للعقيدة.. وذلك ما كان النورسي يسعى لمواجهته والعمل على دحضه وكشف مراميه.. ولذلك كان لا يتوانى عن إرسال المحاذير تجاه الانسان المسلم كـــي يظل متماسكا وكي يعرف حقيقة وضعه فيعمل على تجاوزها:

" أيها المسلم لا ترخ يدك عن الاسلام الذي هو حامي وجودنا وكياننا تجاه الـــدمار الذي تولده النتيجة المخيفة لتقدم أوروبا، بل عض عليه بالنواجذ واستعصم به بقوة وإلا فمصيرك الهلاك".[٣٣٨]

ويقر النورسي – بعد هذا – بواقع التدني الذي لبث يلازمنا ويتمادى في التسفل بنا نحو الدركات قرونا، لكن النورسي يعلل ذلك بسببين:

١-السبب الأول : الوضع القطري لأوروبا التي هي كنيسة النصرانية عامة .. فهـــي (أوروبا) ضيقة وجميلة وتمتلك الحديد، ومترامية السواحل، وكثيرة الأنهار والبحار، كثيرة السكان، وفي تلك الكثرة من أسباب التعاون وتبادل المصالح ومن توسيع الانتاج وتطوير التصنيع ما يخلق مناخ النهضة، وما يجعل من الأنظار تتطلع دائمـــا إلى الكشـــف وإلى استحداث الجديد في مجالات الزراعة والصناعة والمواصلات، وهو ما يهيأ الرقي في كافة

---

٣٣٧ صيقل الإسلام ص ٣٦٥

٣٣٨ صيقل الإسلام ص ٣٦٧

الميادين.. لقد كفل لهم توفر الحديد أن يبنوا القوة الصناعية والعسكرية وأن ينتشروا من ثمة عبر القارات، ويستغلوا خيراتها، ما زاد من غناهم وبطرهم..

٢-السبب الثاني كما يحدده النورسي :

ويتمثل في شروط الدعم والتكامل التي تتوفر للفرد في المجتمعات الغربية، فما يسميه النورسي نقطة الإسناد هو الذي يعزز من مبادرة العاملين في تلك البيئات، إذ النصـــراني بفضل التأثيل المتزايد في الاختراعات وفي تطوير محيطه الحاجي والتجهيزي ظل يجد مـــا يسنده في أي مبادرة اقتصادية أو صناعية أو زراعية يباشرها.

فقد كان " إذا ما رفع رأسه ومد يده إلى أي مقصد من المقاصد المتسلسلة المتداخلة، إذا به يجد وراءه نقطة استناد قوية تعزز قوته المعنوية وتبعث فيها الحياة، حتى إذا به يجد في نفسه من القوة ما يمكنه أن يقتحم كل صعب وعظيم من الأعمال. فتلك النقطـــة، نقطة الاسناد هي مدنية أوروبا التي هي معسكر كتلة مسلحة وكنيستها العظيمة، وهي مستعدة في كل آن أن تنفخ الحياة في عروق رفقاء دينها الذين يمدون إليها أيديهم مـــن كل صوب، ومتهيأة أيضا لقطع الشريان النابض للمسلمين ".[٣٣٩]

ثم يسجل النورسي بعد هذا حقيقة، ما كان يلاحظه من مظاهر الحدب الاستعماري على النصارى تعصبا وتغليبا لهم على غيرهم من أتباع الديانة الاسلامية تخصيصا.." ألا يشاهد الانكليز الذي تَـــقَـــنَّعَ بقناع الحرية يمد يده إلى كل جهة ويتحرى عـــن كـــل نصراني، فأينما وجده بعث فيه الحياة، فها هي الحبشة والســـودان .. وهـــاهي لبنـــان وحوران، وهاهي ماسور وألبانيا، وها هم الكرد والأرمن، والترك والروم.." [٣٤٠]

ومما يستدركه النورسي في هذا المجال تميز النصارى بالتفاؤل والأمل، فيما يطغـــى علينا معشر المسلمين التشاؤم واليأس.. وفي ذلـــك كثـــير مـــن أســـباب ارتقـــائهم وانتكاسنا..فـــ"أينما كان المسلم فهو البدوي بالنسبة للنصارى، مستنكف عن المدنية لا يكترث بها، ويتحرج في قبولها، فإذا ما بدلت الصورة فالوضع يتبدل ". [٣٤١]

لقد وجدنا النورسي يجيب عن سؤال يتعلق بالأسباب التي أدت إلى انتكاس حـــال المسلمين وافتقارهم بعد أن كانوا هم الأغنياء ؟. فيلاحظ أن علة ذلك سببان :

---

٣٣٩ صيقل الإسلام ص ٣٦٨-٣٦٩

٣٤٠ صيقل الإسلام ص ٣٦٩

٣٤١ صيقل الإسلام ص ٣٧٣.

الأول نفسي، عملي .. وهو يُرجعُه إلى الفتور في السعي ومخالفـة الأمـر الربـاني القاضي بـ(**وأن ليس للانسان إلا ما سعى**) النجم٣٩. وإلى انطفـاء جـذوة شـوق الكسب المستفاد من الأمر النبوي [الكاسب حبيب الله] ..

ويعترف النورسي أن هذه الحال اللاسوية إنما انغرست في النفسية المسـلمة بفعـل التلقين ونتيجة ممارسة نوع من التعاليم الضالة البعيدة عن جوهر الدين، والتي انحرفـت بالطبيعة الانسانية نحو وجهة الخمول والتواكل وملابسة البطالة والرضى بالخصاصة ..

فما طرأ على النفسية المسلمة في مجال السعي الاجتماعي يعود إلى هذا التوجيه السلبي المحطم، ذلك أن " ايحاءات بعض الرجال وتلقينات قسم من الوعاظ الجاهلين، أولئـك الذين لم يدركوا إن اعلاء كلمة الله في الوقت الحاضر يتوقف على الرقي المـادي، و لم يتفهموا قيمة الدنيا من حيث هي مزرعة الآخرة، و لم يميزوا بـين متطلبـات القـرون الوسطى والقرون الأخرى، و لم يفرقوا بين قناعتين بعيدتين عن بعضهما : القناعـة في التحصيل والكسب، وهي المذمومة. والقناعة في المحصول والأجرة وهي الممدوحة، و لم يتبينوا البون الشاسع بين (التواكل) الذي هو عنوان الكسل و(التوكل) الذي هو صدفة الإخلاص الحقيقي".[٣٤٢]

لقد كان ترويج هذا الضرب من التعليم الضار والقاصر عن التمييز بـين المقاصـد والغايات التي هدفت إليها منظومة القيم والضوابط الشرعية، والذي لم يتبين المدار الفعال والمُسْتَـحَبَّ الذي ينبغي أن تتحرك عليه تلك القيم في توجيه حياة الأفراد والجماعات، وفي جعلهم إرادات نافذةً تَمْتَثِل لأوامر الله من خلال مداومة السعي المثمـر الـذي لا يجانف العبادة الشرعية..

وفي هذا الصدد يشرح النورسي مفهوم التواكل، وهو مفهوم اختلطت دلالته ومراميه الأخلاقية في أذهان القُـصَّرِ من الفقهاء والدخلاء على حقل التربية والتوجيه، فرأى أن التواكل " تكاسل في ترتيب المقدمات، أي إنه أهمال للعلل الحسية التي يقتضيها تحصيل قصد مادي ما.. " فالتواكل عنده هو سلوك شاذ عن القصد، فهو – من ثمة – في حكم التمرد على النظام القائم بين الأسباب التي هي مقتضى مشيئة الله تعالى .. من هنا كان التواكل استلابا، وكان التوكل تسلحا واستعدادا..

لقد امتدح النورسي خلق التوكل إذ هو عزم إيماني يقوم علـى تهيـيء المقـدمات ووضعها في موضع الفعل، وإناطة النتائج بعد التسديد اللازم بإرادة الله..فالتوكل بهـذا

٣٤٢ صيقل الإسلام ص ٤٠٣

الوجه هو من صميم مقتضيات الإسلام، يقود صاحبه إلى التوفيق شريطة عدم التدخل في التقديرات الإلهية..

لقد التبس على أولئك الملقنين للباطل، الجهلاء بهذه الحقائق، فانـدفعوا يسـمون إرادة الأمة ويدسون في روحيتها ما يعطل العزائم ويعرقل الإرادات، فهؤلاء هم الـذين حطموا ذلك الميل وأطفأوا ذلك الشوق..[٣٤٣]

أما السبب الثاني الذي أحال واقع المسلمين إلى وضع الفقر والإدقاع، فهو – بحسب النورسي – التوجه العام الذي جعل الفرد المسلم لا يقبل إلا على الوظيفة الحكوميـة، فهو انسان نَفَّارٌ من العمل اليدوي، ومن تلويث يديه أو هندامه بغبار الكدح ومسـاكنة التراب، فهو نزاع إلى التأمر والسلطنة المجّانية .. "والحال – كما يقول النورسي – أن الطريق المشروع للمعيشة والسبيل الطبيعي والحيوي إليها هو الصناعة والزراعة والتجارة، أما الطريق غير الطبيعي فهو الوظيفة الحكومية والأمارة بأنواعها..وعنـدي أن الـذين جعلوا مدار معيشتهم الأمارة – وإن تسمت بأي اسم كان – فهم في زمرة الشـحاذين العاجزين المتسولين، ومن زمرة المخادعين الحيالين ..".[٣٤٤]

عقدة الاختلاف .. عقدة الزعامة

إذا كان الأعداء قد تمكنوا من الأخذ بزمام أمورهم وتحكموا في مصيرهم بفضل جو الترابط والتعاضد، ونتيجة لما يلابسهم من أحوال نفسية تعاكس مناخ قارتهم الصقيعية، الملبدة في أغلب مواسم العام، ولما يميزهم من أمزجة تواجه الصعوبات بالتحدي وعدم الفزع، فإن المسلمين هدموا أبرز حصون اجتماعهم وكينونتهم، وهو الاتحـاد وعـدم التفرق..

ومما لا شك فيه أن أسبابا تعود إلى التاريخ جعلت حال الفرقة ماضـية معهـم وإن خففت من ثائرتها عهودٌ من المدنية قبل أن ترتكس تلك المدنية نفسها وترتد إلى فوضى وفتن دائمة أعادت الأوضاع إلى سابق عهدها من التبدي والتوحش العمراني الآفـل في أغلب الأوطان الاسلامية ..

لقد تغلب منطق الهدم والتنازع على منطق الحكمة والتعاون، وأحال الواقع الإسلامي إلى عصب وتشرذمات تصطنع الأسباب المذهبية والعرقية والطبقية من أجل أن يتغلـب بعضها على بعض ويتمكن من انتزاع اللقمة ..

---

٣٤٣ صيقل الإسلام ص ٤٠٣. .
٣٤٤ صيقل الإسلام ص ٤٠٣.

لقد ظل الاحتدام دائرا ومسترسلا على مدى أعصُرٍ، ليس من أجل الارتقاء بالفعـــل الحضاري، ولكن من أجل سَدِّ الأود والإستئثار بما يغلّه الموسم وتجنيه حمـــلات الغـــزو القبلي أو الطائفي أو السلطاني.. وهو ما أورث الأمة عُقَدًا مســتفحلة حالــت دون تسريع ميقات اليقظة وتصعيد وتيرة النهضة وتجاوز واقع الانحطاط.. وذلك ما ســجله النورسي حين راح يرسم حدود الخلل وما ينوء به كاهل هذا العالم الإسلامي – وعلى مختلف الأصعدة – من عُقَد وتمزقات تخنق قابلية الحياة فيه.. يقول :

" فانظر بدءا من العالم الاسلامي، تلك الدائرة الواسعة، وانتهاء إلى طالب علـــم في المدرسة الشرعية كأصغر دائرة، تجد أن لكل منها عقدة حياتية، وتلك العقـــد مرتبطـــة ببعضها، متسلسلة ومستندة إلى تلك النقطة العظمى، كأفراد المجتمع وروابطه، بمعنى أنه يمكن أن يصحو المسلمون ويبدأوا بالرقي متى ما نَبَهوا وبُثَّ فيهم روحُ النمـــاء، فـــلا صحوة بغير خنق تلك العقد الحياتية.." [٣٤٥]

المسلم يرسف في قيد العقد

لقد شخص النورسي العلة التي تعيق المسلم، فردا وجماعة ومجتمعا، عن اعتناق الحياة الفاعلة، البناءة، المنسجمة مع مقاصد الوجود كما قضى بها الله على عباده . لقد رسف الفرد المسلم، بسبب تَرَاوُحِ ليلِ الانحطاط عليه، إذ جعل العُقَدَ والتمزقات تراثا مشتركا، يتوارثه الخلف عن السلف، وتفاقم من أدوائه الأجيال بما تضـيف إليـه مـن مخـاز وتصدعات.. الأمر الذي يستتبع استشراء السلبية، واستفحال بواعث العجز والقصور، وهو ما يعطل حركة الحياة ويجعلها رديفا للمأساة، إذ يعدم الفرد فيهـا أدنى أسـباب الأمل والتفاؤل والوثوق ..

من هنا كان وجه المقارنة منعدما بين حال الغرب وحالنا نحن المسلمين، بين تلاحق ثمار الأفكار لديهم وانقطاعات سعى المجتهد الفرد المعزول المخذول المرذول عندنا..

وفي هذا السياق يلتفت النورسي إلى تسجيل ملاحظة على درجة من الأهمية، حـين يستدرك على كثير ممن تطيب أنفسهم أن يعقدوا مثل هذه المقارنة بين حـال أوروبـا وحال المسلمين، خصوصا حين تكون نفوس هؤلاء المقارنين موجهة بمشاعر الاستيلاب، إذ يغدو موقفهم ذلك محض محاكمةٍ وتَـشَـفٍّ وتخـذيلٍ لأي بـادرة تـوق إلى الوقوف.

---

٣٤٥ صيقل الإسلام ص ٣٦٩.

لقد كان هذا شأن من أسماهم النورسي لقطاء أوروبا، فأولئك كانوا يوازنون بين الحالين الحضاريتين لإظهار افتتانهم بالغرب ونفورهم من أمتهم .. كما أن ذلك الموقف الاستعلائي الأحمق كان يصطبغ عندهم بالهجاء الموجه إلى الملة.. هجاء نابع من الانخداع، متغذ على ترهات الفكر الثوري المتصهين، ذلك الفكر الذي ظل يوقظ في الانسان نزوعاتٍ الهدم والتوق إلى التخريب، ويشحنه بعواطف العصيان والافتراء والتفريط في الشرف ..

وزيادة على التحريك الإستيلابي الذي كان يوجههم ضد ذاتيتهم فإن تلك الفلول من البيادق تجد في ذلك الموقف الانفصامي الذي يجسدونه من خلال تعاليهم عن أمتهم، المجال لإظهار فرعونيتهم والثناء على أنفسهم وتملق مشاعر غرورهم، مُبْدين على ذلك الوجه عداءهم السافر والمَرَضي للإسلام. [346]

ومما لا شك فيه أن النورسي كان يتصدى – بهذا التجريح لقوى الاستيلاب– إلى حكام تركيا أنفسهم، من هنا وجدناه يُقرِّعُهم على ما كانوا يبدونه من عواطف نقمة وكراهة واحتقار لأمتهم، فقد كان المتوقع منهم أن يظهروا ما ينبغي إظهاره من المشاركة وإبداء الشفقة على تلك الأمة باعتبارهم حكامها وساستها والقيمين على خدمتها وإصلاح ما بها..

بل لقد كان النورسي يتوجه إلى كل حاكم طابقت روحه روح تلك الزمرة التي تقهقرت ببلاده عبر هاوية الارتداد، إذ أن الحاكم الطاغية ".. وبحكم الفرعونية والأنانية والغرور، يضع الشعور بالتحقير بدلا من الشعور بالشفقة، والميل إلى النفور من الأمة بدلا من ميل الانجذاب إليها، وإرادة الاستخفاف بها بدلا من محبتها ،ويوصمها بالجهل بدلا من احترامها، ويرغب في التكبر عليها بدلا من الرحمة بها، ويقيم روح الانفرادية بدلا من روح التضحية والفداء لها، فيثبت بهذا كله أنه لا يملك حمية للأمة، وأنه مبتوت الأصالة، فيكون جانيا منفورا في نظر الحقيقة، بحيث يتصرف تصرف الأحمق الأبله، كمن يحاول إلباس ملابس أعجبته لراقصة ساقطة في باريس عالما فاضلا في المسجد " [347]

فإظهار الحمية نحو الجماعة والملة هو وازع انساني يُعبِّرُ عن أصالة الفرد وعن نبل طينته ،لا سيما إذا كان هذا الفرد ولي أمر ومسؤولا .. وبغير ذلك لا يكون الحاكم يحمل بين جوانحه إلا نفسا سافلة، لا تحوز على أي شأن.." ذلك لأن الحمية هي نتيجة

---

٣٤٦ انظرصيقل الإسلام ص ٣٧٠.
٣٤٧ صيقل الإسلام ص.٣٧٠.

ضرورية للمحبة والاحترام والرحمة، فلا حمية بدون هذه الأمور، وإلا فهي حمية كاذبة وخادعة، والنفور من الأمة خلاف الحمية أيضا .." [٣٤٨]

لقد كان النورسي يرى أن من واجب أولئك الساسة المستلبين أن يظهروا مستوى من التعاطف يبرر انتماءهم، ويسوغ تقدمهم لقيادة الأمة والتحدث باسمها، بل لقد كان يريد منهم أن يعربوا عن شيء من التعصب، على نحو ما كان يفعل الغربيون مع رموزهم ورجالاتهم .. لقد كان النورسي يرى في تعلق قساوسة الكنيسة بأسماء أمتهم مثلا، وجها كان حريا بالمستلبين من أبناء الأمة ان يحتذوه حيال تراثهم ورموزه..

لقد كان قساوسة أوروبا يشنعون على تراثنا وبممثليه، على قدر ما يظهرون من تعصب لتراثهم وأقطابه ".. فقساوسة أوروبا الذين يشنون هجومهم على المتعصبين عندنا، كل منهم أكثر تعصبا وتزمتا في مسلكهم السقيم، فلو مدح عالم ديني الشيخ الكيلاني بإفراط كمدح أولئك لشكسبير، لكفر". [٣٤٩]

عقد أخرى تسبب اعتلال الأمة واختلالها

لقد مضى النورسي يحصي أنواع الأمراض والعقد التي استحكمت في نفسية الأمة ومضت تكرس فيها أسباب الضعف والاختلال، ولعل من أَهم هذه الأمراض عقدة حب الذات المشروطة بنزعة ثلب الآخرين .. فهذه العقدة – بحسب النورسي – هي التي تعمق في المجتمع روح القمع، إذ لا سيد إلا من امتلك السيف .. وهي التي ترسخ فيه روح السلبية، إذ لا فاعل ولا مدبر ولا مقرر ولا متصرف ولا مشير، إلا الحاكم.. من هنا تعيش الأمة عالة على الفرد، والزمرة، لا لأنها اختارت ذلك الأسلوب من العيش، ولكن لأنها حُمِلَتْ على أن تكون سائمة يهش عليها الراعي بعصاه ويسيج من حولها بالأسلاك الشائكة..

كما لاحظ النورسي ما كان لوطأة النباهة العَقُوق، أو ما أسماه : **الذكاء العاصي"** من أثر خطير على ترسيخ سلبية الأمة، إذ كان هناك من حكامها من امتلك الذكاء والألمعية ولكن من غير أن يكون له وازع إيماني يصقل تلك النعمة العقلية التي أوتيها أولئك الحكام، والتي صرفوها في ما يضر ويشقي، لقد استحالت تلك الألمعية والنجابة

---

٣٤٨ صيقل الإسلام ص ٣٧٠.
٣٤٩ صيقل الإسلام ص ٣٧٠.

الذهنية لدى حكام السوء إلى علة لشقاء الأمة وامتحالها بأفاعيلهم ومنكراتهم .. لأنها نجابة غير محصفة بمشكاة الإيمان..[350]

وواضح أن حديث النورسي هنا يحيل على مسميات ووقائع بعينها..

النورسي يداوم على تصحيح مواقفه عبر مراحل مسيرته

وينبغي أن نسجل هنا واقع التصحيح الذي لازم به النورسي نفسه، إذ داوم على قراءة أحداث سيرته وتكييف مواقفه في ضوء الوقائع ومع تقدم العمر به .. وهو ما يسجله في "المناظرت"..

فقد لمسنا طيفا من ندامة يُظِلُّ كلماته حين مضى يُبين كيف أنه أخطأ في تقرير بعض ما قرر في مستهل دعوته، فقد اعترف أنه يومها أبدى من الحماس ما لم يسعه معه إلا أن يعرب عن تفاؤل إزاء بعض البشائر والتوقعات التي لاحت له في الأفق والتي أمِلَ من خلالها أن تدشن للأمة عهدا من الاستنارة والرشاد ما يجعل النهضة في متناول يمينها..

لقد ألفيناه يعترف أن بعض آماله الإصلاحية والتي عبر عنها حينذاك كتابة، إنما كتبها تحت تأثير الانقلاب السياسي الذي شهد ميلاد المشروطية، حيث كان المتنورون من أبناء الأمة يرجون أن يكون ذلك الحدث بداية للإقلاع الحضاري، ونهاية لعصور الاستبداد والتسلط وهجران قاعدة الشورى..

فلقد تكشفت الوقائع لأولئك المتفائلين، ومنهم النورسي، أن ما كانوا يظنونه استبدادا تمارسه الخلافة في عهد السلطان عبد الحميد، لم يكن إلا ظلا، قياسا بالاستبداد الغليظ الذي تردت فيه الأمة حين تولى الانقلابيون أمرها ..

لقد تلاحقت الأحداث في عهد المشروطية بحيث تبيَّن للمخلصين أنهم أخطأوا حين راحوا يسايرون الانقلابيين ويظاهرونهم على صعيد واحد، فلقد انطوت عليهم الخدعة بموقفهم ذلك، إذ ساهموا في إحداث الثورة ضد عبد الحميد، ومهدوا السبيل عريضا في وجه تنفُّذ العصاة والاستيلابيين..

من هنا كان لزاما على الداعية أن يراجع ما أقرَّهُ وما دعا إليه في خضم تلك الوقائع، تصحيحا للمواقف واتعاظا بالمجريات، فلا غرو بعد هذا أن نجد النورسي يمارس سلخا ذاتيا وإراديا يتحلل فيه من مسؤولية ما أتاه في مراحل من عمره، بسبب تقديرات سياسية كانت تسير بالأحداث في غير الاتجاه الذي أمِله لها..

---

٣٥٠ صيقل الإسلام ص٣٧٠ .

من هنا ظهرت شخصية سعيد القديم، ذلك الإنسان الذي كَانَــهُ النورسي و لم يَعُدْهُ الآن .. إنها سيرة إصلاحية لا تتردد في اعدام ماضيها كفارة وتوبة.. [٣٥١]

لقد رأيناه يتحدث عن الحَمِيَّة فيقر أن صورتها الكاملة إنما تتوفر في القلب المــزدان بالفضائل الاسلامية، فالقلب الذي لا تزينه الأخلاق الإسلامية لا ترجى منه الحمية الحق، والوفاء الصدق، والعدالة الخالصة ..[٣٥٢]

لقد كان عليه في غمار تلك التحولات أن يجد التسويق لمظاهر كان يعتقد أن عهد الحرية والمشروطية يقتضيها..

من ذلك حديثه عن الحمية والنجاعة، وضرورة اِسناد المهام لغير أهل الملــة.. مــن منطلق الكفاءة والضرورة العامة..

فالحمية الروحية والالتزام الديني والإخلاقي – بحسب النورسي – هما مناط النفــاذ والتفاني وتحدي العوائق .. فمن لا روحية أخلاقية وقلبية له لا يمكــن أن يتمــادى في التحدي والاستمرار في البذل ..

لكن النورسي لا يلبث أن يتدارك حكمه هذا، ويعلن أنه ينبغي علينا أن نميــز بــين الكفاءة وبين السلوك، فصاحب الكفاءة مقدم على صاحب السلوك بالنظر إلى النفــع العام الذي يتحقق للمجتمع الاسلامي جراء توليته.. " فقد يقوم الفاسق برعي الأغنــام رعيا جيدا، وقد يصلح شارب الخمر ساعة بإتقان حين لا يكون سكران.. فــإذاً إمــا الصلاح، وإما المهارة.. وإذا تعارضا فالمهارة مرجحة في الصنعة " [٣٥٣]

ولا شك أن رؤية النورسي هنا هي على مستوى من الاستنارة وطيد، فهــو بهــذا الحكم يذكرنا بما كان لعمر (رضي الله عنه) مع شعبة يوم أن أَمَّرَهُ (رضي الله عنه) على البصرة، فقد لاحظ شعبة ذات فجر أن الخليفة يستقرئ وجوه المصلين في المســجد، فتقرب منه وسأله .. وحين أعلمه (رضي الله عنه) بأنه كان يبحث عن أحــد يــؤمره، أجابه شعبة جوابا يطابق نظرة النورسي في وجوب تقديم الكفء على المتخلق..إذ قال له شعبة : أن الكفء يعود نفعه على الجماعة والمجتمع، فيما يعود صلاح الفــرد إليــه في نفسه وحده .. أو كما قال..

ولا شك أن نظرة النورسي هذه إنما كانت تستجيب لتساؤلات كانت ترتفــع إزاء مظاهر سلطوية تعطي التقدمة لمن لا حماس ديني له، بل ولمن لا دين له أو لمن كان على

٣٥١ صيقل الإسلام ص ٣٨٢.
٣٥٢ صيقل الإسلام ص.٣٩٣.
٣٥٣ صيقل الإسلام ص ٣٩٣.

غير الدين الإسلامي.. فكان النورسي يكيف ذلك الواقع مع الشرع، ويجد له التبريرات، اعتقادا منه أن ضرورة التغيير تملي ذلك النوع من الغض والتغاضي عمن تقدمهم السلطة الجديدة لأداء مهام ومأموريات..

لقد كانت طوايا القيادة بَعْدُ مجهولة، وكان الصالحون من أمثال النورسي يحسنون الظن بها وبكل حامل لشعار الإصلاح.. لكن الحقائق الصارخة لم تلبث أن تكشفت لهم، إذ أظهرت التطورات ما كانت نفوس (عصبة تركيا الفتاة) تنطوي عليه من حقد على الاسلام وتهُّيئٍ لوأده نهائيا.. وذلك ما جعل النورسي ومن سلك مسلكه، يدرك الفاجعة ويعلن عن القطيعة مع السياسة والنظم الدنيوية الفاجرة.. ويعرب عن ندمه عما أتاه من عمل ظاهَرَ به تلك الزمرة الفاسقة .

الرؤية السياسية المستقبلية عند سعيد القديم

لقد كانت رؤية النورسي السياسية — في عهده الأول - تضع المعطى المستقبلي في حسابها ..

ففي الخطبة الشامية التي رصد فيها أمراضا ستة أعاقت المسلمين عن النهضة، نجده يستبصر بأمل جلي، آفاقا مستقبلية تعيد للاسلام عزته وريادته:

".. إن المستقبل سيكون للاسلام وللاسلام وحده، وأن الحكم لن يكون إلا لحقائق القرآن والإيمان، لذا فعلينا بالرضى بالقدر الإلهي، وبما قسمه الله لنا، إذ لنا مستقبل زاهر، وللأجانب ماض مشوش مختلط".[٣٥٤]

وكانت تلك الرؤية تستهدف التجنيد والاستنفار، من هنا ركز النورسي على أهمية التجمع والعمل الجماعي والتضامن. فالزمن المعاصر — كما يرى - زمن الجماعة والتعاضد، فلا مجال لنهضة تناط بأفراد أو بزعامات أو بقطبيات .." إن هذا الزمان لأهل الحقيقة، زمن الجماعة وليس زمان الشخصية الفردية وإظهار الفردية والأنانية".[٣٥٥]

والقرآن هو خزان الفتوة والتجدد الذي تتزود منه الأمة في كل عصر ومنعطف بالقوة والطاقة التي تستعيد بها شبابها وتسترجع قوتها من أجل مواصلة الرسالة .. " فكلما شاب الزمان شب القرآن وتوضحت رموزه".[٣٥٦]

---

٣٥٤ صيقل الإسلام ص٤٩٢.
٣٥٥ الملاحق ص ١٦٣
٣٥٦ المكتوبات ص ٦٠٩

لقد ظل موقفه النقدي والانتقادي ينبع من روح استقبالية ترى أن قيم الماضي لم تعد تجدي، و لم تعد تستجيب لحاجات الراهن ومتطلبات المستقبل..من هنـــا استرســـل في الدعوة وفي تقويم الأوضاع، في ضوء القرآن والسنة.

دافع النورسي عن الحكومة والنظام الجديد ،مراهنة منه على ما اعتقد فيه من نتائج اصلاحية تخدم الاسلام

بل لقد وجدنا النورسي – وبنفس النية الحسنة – يدافع عن أخطاء الحكومة في تلك المرحلة الحماسية، ويبين للناس استحالة أن تسلم الهيئات – من الأخطاء والضعف – فما دامت الهيئات هي في حقيقتها شخصيات معنوية، فإنه يستحيل أن ترسو الإدانة عنـــد طرف بعينه، إذ لاتكاد عيوب المؤسسات والهيئات أن تنطلي على جهة معينة ..

لقد تصدى النورسي إلى إجابة أولئك الذين أبدوا اعتراضا على طبيعة تلك الحكومة الانقلابية، إذ استبعدوا أن يصدر الخير عن الشر ،وأن يتحقق الصلاح والإصلاح على يد حكومة تضم عناصر غير صالحة أو غير ملتزمة بالشرع..

لقد أجاب النورسي قائلا : " طلب المحال حمق على صاحبه لأن من كانت بغيتـــه حكومة بريئة معصومة، فطلبه محال اعتيادي، إذ لما لم يكـــن الشـــخص الواحـــد الآن معصوما فكيف بالشخص المعنوي – أي الحكومة– الذي كل ذرة من ذراتـــه مذنبـــة، فمدار النظر إذاً هو في ترجح حسنات الحكومة على سيئاتها كمًّا ونوعا ..[٣٥٧]

لقد كان النورسي على حماس شديد في مدافعته عن الحكومة، إذ كان يعتقد جازما بأن مآلها أن تفيد بخدماتها الاسلام، وأن تكون قاطرته إلى السير والنهوض.. لقد كـــان يخشى – في ذلك المنطلق – أن تحمل نزعة أولئك المثاليين علـــى رفـــض الحكومـــات الدنيوية، فيقع التحلل من النظام، وتسود الفوضى، ويتحول المعترضون إلى فوضـــويين ومخربين، تطلعا منهم إلى الحكومة المترهة.. من هنا وجدناه يتصدى للدفاع عن النظـــام وعن الحكومة..

لقد كان رهانه على المآل السعيد الذي ينتظر الاسلام في ظل تلك الحكومة، يقـــوم على حقيقة أن الدستور الذي كانت تأخذ به تلك الحكومة يقيم قاعدته القانونية علـــى إسلامية الدولة، وهو ما يجعل من أمر الحفاظ على الدين من مسؤوليتها، وذاك هو مـــا

٣٥٧ صيقل الإسلام ص٣٩١.

كان يحدو المؤمنين أمثال النورسي إلى تأييدها والمنافحة عنها رجاء ما يستتبع ذلك من ثمار الاصلاح..

النورسي يوظف فاعلية الاجتهاد والفتوى في خدمة الأمة

و يندرج ضمن موقف التكييف الذي كان النورسي يتعهد به أوضاع التحول التي أعقبت الانقلاب، ما أفتى به في مسألة موادّة اليهود والنصارى .. فقد سئل عن الحكم بقوله تعالى : (**لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء**) (المائدة :٥١)

فوجدناه يرى تخريجا يسوغ به استخدامهم وتقريبهم ما دامت الضرورة العامة تقتضي ذلك ..

لقد صدر النورسي في الرد عن هذه المسألة، عن طبيعة الأحكام القرآنية لاسيما المتعلق منها بالأوامر والنواهي .. المنوطة بما يعرف في الأحكام بحال التقييد والإطلاق ..ذلك " لأن النهي القرآني ليس بعام بل مطلق، والمطلق قد يقيد، والزمان مفسر عظيم، فإذا ما أظهر قيده، فلا اعتراض عليه.. وأيضا إن كان الحكم قائما على المشتق، لأنه يفيد علّية مأخذ الإشتقاق للحكم، فإذن المنهي عنه في هذه الآية الكريمة هو محبتهم من حيث ديانتهم اليهودية والنصرانية، وأيضا لا يكون المرء محبوبا لذاته، بل لصفاته وصنعته، لذا فكما لا يلزم أن تكون كل صفة من صفات المسلم مسلمة، كذلك لا يلزم أن تكون جميع صفات الكافر وصنعته كافرة أيضا.. فعلى هذا لم لا يجوز اقتباس ما استحسناه من صفة مسلمة أو صنعة مسلمة فيه .. فإن كانت لك زوجة كتابية لا شك أنك تحبها. [٣٥٨]

لقد رابط النورسي بمثل هذه المواقف في خندق متقدم من المعركة ومضى ينافح من موقف شرعي عن النظام الجديد ويناصر التحول، وهذا باستقراء الحجج الشرعية للمجريات، كل ذلك من أجل أن يستمر المسار، وتتحقق العافية للأمة ويحيى دينها..

لقد كان النورسي يُلِمُّ بأبعاد الإشكال العلائقي الذي كان التحول السياسي يطرحه على المسلمين في تركيا وفي غيرها من البلاد المسلمة، إذ أنه تحول يفرض مسطرة من التعامل لا مندوحة للمسلمين عنها..

من هنا راح النورسي يعالج قضية التعاون مع الأجنبي الملي، ناظرا إلى الأمر بمنظار إجتهادي يعي متطلبات التطور.. فكان من ثمة تأويله لتلك الآية:(**لا تتخذوا اليهود و**

---

٣٥٨ صيقل الإسلام ص٤٠٠.

النصارى أولياء) يضع مصلحة الأمة في مركز اهتمامه، وهو ما جعله يُرَخِّصُ التعامل مع غير المليين، مراعاة لمقتضى الحاجة..

ومن الجلي أن يأتي هذا الترخيص متساوقا مع فتاوى سعت منذ القرنين الماضيين، أي منذ أن أظلت الظاهرة الاحتلالية أطرافا من البلاد الإسلامية، إلى إلغاء الحواجز النفسية والروحية بين الأمة وبين أعدائها، ممن أملت الظروف والضرورات الحيوية عليها أن تتعامل معهم بيعا وشراء واستفادة من مدنيتهم وحضارتهم ..من هنا كان التوسع التأويلي يتيح للمتنورين من أهل الإجتهاد، أمثال النورسي أن ييسروا سبل النفع أمام الأمة ..

إذ أن الاعتبارات التي تكون هذه الآية، أو غيرها، قد قرئت بها في العصر الإسلامي الأول، لابد وأن تكون قد انفتحت على مستجدات جعلتها تتسع لتأويلات تتلاءم مع روح الدين وتراعي المصلحة العامة للأمة، وذلك ما يراعيه الإسلام ويتقبَّلُه ويحدو الآراء السديدة أن تأخذ بها ..

يقول النورسي منطلقا من التاريخ الإسلامي الفجري، في تجلية الوجه الشرعي للمسألة : "لقد حدث انقلاب ديني عظيم في العصر النبوي السعيد، وجَّه كل الأفكار والأذهان نحو الدين، فارتبطت بالدين جميع الحسيات والمشاعر، فكانت العداوة والمحبة تدوران حول ذلك المحور (الدين)، لهذا كانت تشم رائحة النفاق من المحبة مع غير المسلم، ولكن الانقلاب الحاضر العجيب في العالم هو انقلاب مدني ودنيوي.

فالمدنية والرقي الدنيوي يجذبان العقول كلها ويشغلانها ويشدان بهما جميع الأذهان، فضلا عن أن معظم غير المسلمين ليسوا ملتزمين التزاما جادا بدينهم أساسا.. فعلى هذا فإن محبتنا لهم ما هي إلا لاقتباس ما استحسناه من مدنيتهم وتقدمهم ، ولأجل المحافظة على نظام البلاد وأمنها الذي يعد أساس سعادة الدنيا، فهذه الصداقة إذاً لا تدخل قطعا ضمن النهي القرآني.." .[٣٥٩]

لقد كان هذا التوجه الخلقي والتعاملي الرشيد الذي أبداه النورسي في تلك المرحلة، منطلق سياسة سلوكية وتدبيرية سيتمخض عنها ما يمكن أن يسمى فقه التمثُّل .. وهو فقه يدور حول مشروعية الوارد من القيم ومن المصالح الاستنفاعية التي يقتضي تنفيذها اشتراك الأجنبي أو مباشرته الإشراف عليها ..

---

٣٥٩ صيقل الإسلام ص ٤٠٠

ولابد أن نقدر المرحلة والظروف التي كان النورسي يعبر فيها عن آرائه الشرعية هذه .. إذ كانت البيئة الاسلامية منغلقة انغلاق نفور ينقصه الوعي الحقيقي بالمصلحة.. وذلك الانغلاق كان العدو يعمل على استبقائه، ولا يجعل له بديلا سوى الذوبان والتفسخ..

فقد كانت نظرة التقويم الفقهي التي تناول بها النورسي هذه المسألة نظرة إيجابية في جملتها، ذلك لأنه ربطها بالفائدة المادية والمدنية التي يجنيها المسلم من وراء ذلك التعامل، لا سيما على صعيد تقوية الذات وتوفير شروط نهضتها..

ومن غير ما شك أن المرونة المدنية الرشيدة التي ظل النورسي يعرب عنها في فتاواه، لاسيما حيال منجزات الغرب المادية التي كانت تنتهي إلى حظيرة المجتمعات الاسلامية، إنما كان الهدف منها تربويا، إذ كان يتوقع أن يكون لتلك المستجلبات الارتفاقية أثر على إيقاظ الأمة وتيسير أسباب الوعي وسبله أمامها، والدفع بها إلى الأخذ بما كانت الأمم الحية تأخذه به، فمن شأن التمرس بتلك المكاسب أن يذلل الطريق في وجه الإبداع أمامها..

النورسي وفلسفة التسامح

على أننا لاننسى أن النورسي كان صاحب فلسفة إغضائية، سمحاء، متفتحة على الأخذ بكل ما كان يقدر فيه مصلحة للاسلام والمسلمين.. وربما بدت جوانب من فلسفته تلك في سياسته إزاء خصومه، فقد كانت لا ينادده عيانا، إذ أن انشغاله بما هو أهم من الغايات، كان يجعله كالغائب عنهم، فتفكيره كان مركزا على واقع ملي انبعاثي يستغرقه كلية، ولا يترك له السانحة في تقويم علاقته مع الأعداء إلا إذا فرض عليه ذلك فرضا..

بل لقد وجدناه يلزم تلاميذه باتباع قواعد تلك الفلسفة، وتجسيد مبدإ التسامح والإغضاء في سلوكهم وحياتهم، كلفهم ذلك ما كلفهم، حتى لا يتحول بهم الاشتغال بالعوارض عن الهدف الروحي الأسمى..

بل لقد وجدناه يعلن أنه مع مبدإ التنازل للباغي وإنصافه لقاء إماتة الفتنة.. وأنه مع سياسة دعم المبطل اتقاء الفتنة .[٣٦٠]

---

٣٦٠ الشعاعات.٣٧٩.

لقد نمّى النورسي روحا تعاملية لم يحصرها في نطاق داخلي يربط المسلم بجماعته وأمته فقط، ولكنه جعل تلك الروح التعاملية تمتد إلى نطاق يشمل الآخر، أي الأجنبي .. من هنا يمكننا التحدث عن إسهام إيجابي قام به النورسي في مضمار بلورة الخُلُقية الإسلامية والمضي بها نحو صعيد تتجاوز به إعاقة الانطواء التي لحقتها بفعل الانحطاط وطول الانغلاق..

إذ لا ننسى أن منظومة المعايير الأخلاقية كما تأصلت في مدونات الأخلاقيين والمشرعين والفقهاء المسلمين الأعلام، إنما كانت لها ظرفيتها الخاصة، إذ كانت تلك المنظومة المعيارية وليدة مرحلة الظهور والتفوق واحتياز السيادة على العالمين..بخلاف ما أضحى عليه الواقع الإسلامي المنحط في العصور الحديثة، الأمر الذي كان يدفع بأهل الحصافة الدينية والمدنية إلى أن يباشروا عملية تكييف تُحَوِّرُ من النظرة التعاملية التي ظلت تحكم المسلمين في علاقتهم مع الآخر (العدو)، وأن يسوغوا روح التنازل التي ينطوي عليها فعل الاستعانة بالأجنبي لغاية انبعاثية..

حقّاً لقد كان أمر الإنبعاث الحضاري يتطلب تطويرا في مستوى الوعي يجعل الموقف الأخلاقي النظري الذي كان ينحو بالمسلمين منحى استعلائيا ينفرهم من عقد أي نوع من أنواع المعاملة مع العدو إلا تحت الشرط التخضيعي، إن حالا كهذه كانت تحمل النورسي وغيره من النيرين على مباشرة جهد تكييفي، يعطي للعلاقة مع الأجنبي غير الملي، دورا في انجاز المهام القومية وفي الحضور على حلبة الأحداث التي كانت البيئة الإسلامية تعرفها، بحكم واقع الغلبة الذي لم يعد من نصيب المسلمين، وإنما غدا من نصيب أعدائهم..

النورسي يمارس الاجتهاد التجديدي رغم تقييده للفعل الاجتهادي بضوابط

وكان على النورسي أن يمارس الإجتهاد التجديدي من خلال تقمص روح التحديث العلمي والعملي، شأنه في ذلك شأن القلة من رواد النهضة المسلمين من أمثال الأمير عبد القادر والكواكبي والأفغاني وعبده وطائفة أخرى صالحة من الأفذاذ..

وفي هذا الصدد نجد النورسي يتنبه إلى جوانب سلوكية كان يرى أن مراعاتها شرط ضروري لتحقيق الاستقطاب وتوسيع دائرة الإيمان في المجتمع الإسلامي.. من ذلك مثلا نصحه بعدم هتك الأستار دون الخطايا أوالنبش عنها في الضمائر، مخافة تثويرها وإتاحة

الفرصة لتعميم شرها: إذ لا ينبغي أن يهاجم ما في ضمائر البعض من سوء، لأن هنـــاك كثيرا من السيئات كلما بقيت مستورة تحت ستار الحسنة و لم يمزق عنها حجابها وتغوفل عنها، انحصرت في نطاق ضيق وربما يسعى صاحبها لإصلاحها تحت حجاب الحيـــاء، ولكن ما أن يمزق الحجاب ويرفع حتى يرمى بالحياء فيزال، وإذا ما أُظهر معه الهجـــوم، فالسيئة تتوسع توسعا هائلا.." [361]

ومن الواضح أن النورسي بهذا التوجيه، إنما كان ينسجم مع فلسفة السماحة الـــتي اعتقدها والتي أشرنا إليها سابقا.. فلسفة الغض عن الأذى لأنها تـــراهن علـــى الأدوم والأبقى والأنقى..

على أنه لا يفوتنا أن ندرك أن النورسي بإشاعته مثل هذه الروح التطمينية، المهادنة، إنما كان يرسي لسياسة لبقة تشد ولا تدفع، تستميل ولا تَنَكِّرُ، لقد كان في تلك المرحلة الفجرية يَحْذَرُ أيما حذر من أن ينقلب الماسونيون – ممن كانت جمعية الاتحاد والترقي وجون تورك تضمهم – فيتنكروا للاسلام، ولذلك عمل ما في وسعه على أن يحول بينهم وبين الجماهير لئلا يقع التصادم ، دافعا من خلال توجيهاته تلك الجماهير إلى أن تحسن سياسة تلك الزمرة، وأن تتحاشى التصادم معهم ،وأن تعاملهم بأسلوب يتفق ومصلحة الاسلام :

" .. لأن كثيرا منهم – مثلكم – لم يمحصوا الإسلام وما عرفوا إلا ظواهره بالتقليد، والتقليد يتشتت ويتمزق بإلقاء الشبهات والشكوك، فانظروا مثلا : إذا خاطبتم بعضهم بأنكم لا دين لكم، وبخاصة من كان منهم سطحيا في الدين ومتوغلا في الفلسفة المادية – فلربما يتردد ويشك في أمره بوساوس من أن مسلكه خارج عن الاسلام فيشرع بالقيام بأعمال وحركات منافية للاسلام، ناشئة من اليأس والعناد ولسانه يردد : ليكن ما يكون فلا أبالي.." [362]

بل إننا نجده يذهب في هذا الأمر إلى حد سن خلقية تعاملية تراعي العلاقة المستجدة بين المسلمين والكتابيين..وذلك مواجهة لما كان النظام الجديد يبادر إليه من إجـــراءات تُـــبَـــيِّـــتُ لِـــــوَأْد الإسلام في تلك الديار التركية. فقد كان النظام الانقلابي ينهى مثلا عن وسمِ غير المسلم بــــنعت (الكافر) .. الأمر الذي أثار تساؤلات الناس، وكان

---

361 صيقل الإسلام ص.406.
362 صيقل الإسلام ص 405.

على النورسي أن يبين رأيه الشرعي في المسالة.. وكان عليه أن يصدع بالحق وبما يتلاءم مع المصلحة التي كان يعتقد أن الإسلام يقتضي مراعاتها..

لقد رأى أن وسْم غير المسلم بالكافر أمر لا يسوغ ولا يجوز، إذ هو من قبيل الوصم بالمعايب والنقائص.. فكما لا يجوز أن نقول للأعور يا أعور كذلك لا يجوز أن ننادي غير المسلم بالكافر ..

وفي ذات السياق نجده يَشْرَعُ في تبيِين معنى الكافر، ليقرر في ضوء ذلك، حكم الشرع بقوله :

- فأول معنى يأحذه الكافر، ويتبادر إلى الأذهان، هو الجحود وإنكار الخالق، ومن هنا فلا يصح أن يطلق وصف الكافر على الكتابيين، لأنهم مؤمنون بوجود الخالق..

والمعنى الثاني هو إنكار نبوة الرسول محمد ﷺ، فبهذا المعنى يحق لنا أن نطلقه عليهم، وهم أنفسهم راضون به كذلك، ولكن لما كان المعنى الأول هو الذي يتبادر إلى الذهن مباشرة، صارت تلك الكلمة، كلمة تحقير وإهانة وأذى، زد على ذلك أنه لا اضطرار لخلط دائرة الاعتقاد بدائرة المعاملات، وربما هذا هو ما يقصده أولئك الناهون عن إطلاق هذا النعت.. [٣٦٣]

ومما لا شك فيه أن مقاصد النورسي من خلال مثل هذه الاجتهادات هو حماية التجربة الإصلاحية التي كان يعلق عليها آمالا كبارا لفائدة المسلمين، لذا رأيناه يبدي مرجوحية عقلية متسمة بكياسة لا تتنازل عن إيمانها قطعا، ولكنها تسعى إلى نشر ثقافة التسامح التي هي من صميم الدين، والتي قدر النورسي أنها -في المحصلة النهائية- ستخدم الإسلام وأمته..

و ربما يكون النورسي قد أبان عن هذا التوجه بصورة أجلى في حديثه عن تولية المواطن غير المسلم، فقد تساءل الناس في تلك المرحلة عن مدى جواز ذلك، وقالوا كيف يمكن أن يصير الأرمني واليا أو قائمقاما كما يحدث الآن ؟ فرد النورسي بالإيجاب و بما يفيد أنه لايرى ضرورة لخلط شرط العقيدة مع مسألة الوظيفة الإجتماعية أو الإدارية والسياسية التي يشغلها الفرد في المجتمع، لقد قال النورسي:" إن ذلك ممكن وفق المنطق نفسه الذي هيأه لأن يكون ساعاتيا وميكانيكيا وكناسا.. فالأرمني صار قائمقاما لأن المشروطية (الدستور) هي حاكمية الأمة والحكومة ليست إلا خادمة..

---

٣٦٣ صيقل الإسلام ص ٤٠١.

ثم يستطرد النورسي بعد هذا فيضيف : "ولئن صدقت المشروطية فالقائمقام والوالي ليسوا رؤساء بل خدام مأجورون، فغير المسلم لا يكون رئيسا مطلقا، بل يكون خادما، فلو أن الوظيفة والأمارة ضرب من الرئاسة والسيادة، فإن اشتراك ثلاثة آلاف غير مسلم في سيادة رئاستنا يفتح طريقا إلى الرئاسة أمام ثلاثمائة ألف من إخواننا المسلمين في أقطار العالم، فالذي يخسر واحد ويربح الألف لا يتضرر".[٣٦٤]

وهنا يسألونه عن صلة بعض أحكام الشريعة بولاية الوالي، فيجيبهم قائلا:

"إن الذي يمثل الخلافة بعد الآن هو بالضرورة المشيخة الاسلامية ورئاسة الأمور الدينية، وستكون ممتازة ومقدسة سامية، منفصلة عن الكل .. فالمستولي الآن ليس شخصا فردا ،بل الأفكار العامة، لذا هناك حاجة إلى شخصية معنوية مثلها تكون أمينة على الفتوى..".[٣٦٥]

إن التأطير الديني العام الذي كانت تنهض به الخلافة، كان قمينا بأن يصون المجتمع من وطأة الفيئات التي تدير أنشطة ومسؤوليات داخل مرافقه ومؤسساته ، وهي ليست على عقيدة المسلمين .. وهو ما كان يسوغ للنورسي الفتوى بجواز ادماجهم في هيكلة الدولة ما داموا سيجدون أنفسهم حتما ينشطون ضمن أخلاق الأمة وروحيتها، أي ضمن روح وثقافة الإسلام..

أجل إن هناك ميادين كبرى تحتاج من المسلمين اليوم إلى أن يحسموا فيها الرأي الشرعي، على ضوء المصلحة العليا للأمة وحفاظا على أسس دينهم ..

وإن النورسي الذي تجاوز – بفتواه هذه – إشكال العلاقة مع الذمي ومن هو خارج نطاق الأخوة الدينية، قد فتح كوة في وجه الاجتهاد الحصيف، وقرب المصلحة العليا من القراءة الفقهية الواعية.. وخطا خطوة حاسمة ما زالت تحتاج التعميق من قبل المسلمين، كي يتحولوا إلى فاعلية وحضور يرضاه الله ورسوله لهم..

ومن الواضح كذلك أن حرصه على دفع العملية السياسية في اتجاه يخدم الإسلام كان يدفع به إلى ابداء تلك التكييفات التي كانت تعزز من مكانة الدولة وتوضح دورها ومجال مسؤوليتها على الصعيدين المدني والديني..

وقد أبدى النورسي – فعلا – مرونة تكيفية كفلت جو العمل للدوائر الحكومية بصورة تحد من تضارب الاختصاصات، إذ لا ننسى أن المرحلة كانت انتقالية، وأن

---

٣٦٤ صيقل الإسلام ص ٤٠٤.
٣٦٥ صيقل الإسلام ص ٤٠٤

تقسيم المهام والسلطات كان أمرا جديدا، لا بالقياس إلى النظام فحسب، ولكن بالقياس إلى الجماهير على وجه الخصوص، تلك الجماهير التي كانت ترى في ما يطرح من أفكار تدعو إلى تحديد السلطة الروحية أو تحجيمها، ما يهيج المشاعر ويتنافى مع مطامح الأمة، لا سيما وأن تلك الجماهير كانت ترى تصعيدا متزايدا لوتيرة التوسع الذي أخذته السلطة المدنية وتنظيماتها في دولة لا تني تنادي بتصميمها على أن تكون عصرية، وأنها لن تدخر جهدا من أجل إلغاء كثير من نظم الماضي وقيمه، وهو ما كان يبعث في الجماهير الفزع، إذ كانت تتأذى بما كان يتهدد معتقداتها ومقدساتها.

كما لا ينبغي أن ننسى في هذا الصدد، أن النورسي- في نشاطه الفكري التنويري، وخاصة من خلال ما يصدره من فتاوى تُوَسِّعُ على ألوان من النشاط المدني الذي جاء به الانقلاب - كان لا يخالجه ريب من أن الخلافة ستستمر في أداء وظيفتها الروحية، إذ لم يكن يستريب قط في أن ما كان يحدث داخل الأجهزة والدواوين الحكومية من تجديد وانفتاح على الحياة الاجتماعية والمدنية إنما كان تجديدا للروحية العامة للأمة والدولة، تجديد ستحيى معه القيم الدينية، وسيكون الانطلاق نحو المستقبل متوازنا ومحققا..

كما أن النورسي بوجوده داخل النظام أو قريبا من دوائره، بوصفه أحد الوجهاء الروحيين الذين كانت السلطة الجديدة تقربهم، كان واثقا من أن الانحراف لن يقع، وأن عين المسلمين لن تسمح للنظام الجديد بالتفريط في مقومات الأمة الروحية والسياسية، لكن الذي حدث خالف آمال النورسي، الأمر الذي جعله يسارع إلى الانسحاب وإلى غسل يديه من عفن السياسة، لينطلق في وجهة أخرى، وجهة جعل قاعدتها الضرب صفحا عما أتاه في ظل نظام فجعه بتنفيذ برامج تكرس الزندقة والمروق، ولعل أشنعها كان حادث إسقاط الخلافة، تلك المؤسسة المقدسة بما ترمز إليه من معاني التاريخ والحضارة والدين..

وإنه لثابت أن النورسي كان من أسبق المتنبهين إلى انحراف النظام الانقلابي، بل لقد تكررت منه التنبيهات التي طفق يوجهها إلى أطراف ذلك النظام ووجوهه، من أجل أن يثبتوا على الجادة الشرعية .. وإن خطبته مثلا في البرلمان لشاهد على اليقظة التي كان يترصد بها الوضع من حوله، بل إن كل مواقفه التي أعقبت الحرب الكونية الأولى وانخراطه في السياسة، لَتفيد أن الرجل كان يستشعر فعلا نوعا من القلق الروحي نتيجة افتقاده الإطار الجماعي الذي يتيح له أن ينشط وينفذ البرنامج الانبعاثي الذي كان يثوي في ضميره ..

ومن غير شك أن انتسابه إلى الاتحاد المحمدي إنما يُعَدُّ لفتة أخرى كان يتحسس بها طريقه في إطار بحثه الدائم عن الوسط الحي المنسجم مع رؤاه الإسلامية والإصلاحية الشاملة ..

لقد مضى النورسي يصعد من دفاعه عن المشروطية ،وكان يعتقد أن أولئك القلة من المتغربين الذين كانوا ضمن صفوف تنظيم (جون تورك)، لا يؤثرون في توجيه الأحداث والتاريخ، ما دام الرأي لا ينعقد إلا بإجماع الأكثرية..

من هنا رأيناه ينخرط في مهمة تطوعية يتولى خلالها شرح أبعاد الانقلاب الدستوري للقبائل والعشائر الشرقية، الكردية، بل لقد رأيناه يبادر إلى مراسلة تلك الأقاليم منذ الأيام الأولى بالبرقيات المُطَمْئنة، ليؤكد لهم :" إن المسألة التي سمعتموها وهي المشروطية والقانون الأساسي ماهي إلا العدالة الحقة والشورى الشرعية تلقوها بقبول حسن، اسعوا للحفاظ عليها، لأن سعادتنا الدنيوية في المشروطية، فلقد قاسينا الأمرين من الاستبداد أكثر من الآخرين.." [366]

لقد أوردنا هذا النص التحريضي الذي أبرق به النورسي إلى أهاليه، لنقف على مدى حدبه على الدستور، ولنتبين رغبته المتأججة في جعل ذلك الدستور ينال القبول الجماهيري.. ولنتأكد من صدق العزيمة التي تجنَّدَ بها في الدعوة إلى الدستور ..

لقد كان في تلك البرقية يخاطب بني قوميته، فكان طبيعيا أن يصطنع ضمير المشاركة (نا) .. لكنه من جهة أخرى لم يقع في وحل الشوفينية أو العشائرية المقيته، لأنه أسند دعوته بالشرط الروحي والاجتماعي الذي كان يرى الدستور يتوفر عليه ويضمنه .. وهو ما أكده في قوله: " .. فماهي إلا العدالة الحقة والشورى الشرعية ".[367]

من هنا كان انخراطه في الدعوة وفي شرح غايات الدستور انخراطا عمليا خالصا وجارفا جعله يطرق سائر الأبواب، فقد سار في الحارات وتنقل عبر المقاهي، وجال خلال الأقاليم، وحاور العلماء المترددين.. وكل ذلك يبين الطموح التغييري والإصلاحي الذي كان يحدوه ويهون عليه أن يتحمل ما تحمل تطوُّعا، ومن غير ما تكليف من أحد أو تجنيد ..

---

٣٦٦ صيقل الإسلام ص ٤٤١.
٣٦٧ صيقل الإسلام ص ٤٤١

ذلك لأن النورسي كان جازما من أن الإنجاز الذي تحقق للأمة من خلال صـــدور الدستور، هو ثمرة من ثمار الحركة الإصلاحية التي باشرها نفر من معاصريه منهم الأفغاني وخيرالدين التونسي وعبده وآخرون في بلاد اسلامية أخرى ..

بل لقد كان تأجج مقاصده الإصلاحية هو الذي دفع به إلى الانضمام إلى الاتحـــاد المحمدي كما أسلفنا .. إذ كان ذلك الاتحاد – كما تصوره النورسي– مجمعا مفتوحـــا في وجه كافة المسلمين الذين كان تعدادهم يقدر يومئذ بمائات الملايين، مجمـــع كـــان دستوره القرآن، ونواديه المساجد والتكايا والمدارس، ومركزه الحَرَمان الشريفان .. لقد كان انتساب النورسي إلى ذلك التنظيم حدثا لا يغفل واقع الخلافة التي كانت يومئـــذ تمثل النطاق الشرعي والإجماعي الذي شاء له النورسي أن يستعيد دوره وأن يستوعب في كنفه المسلمين كافة، ويسعى بهم إلى تحقيق الغايات المشتركة ..

ومن غير ما شك أن نظرته إلى الدستور إنما كانت نظرة إجماعية، إذ أنه توقع للأمـــة أن تتساند وتجني من ثمار تلاحمها – تحت مظلة الخلافة – أينع الثمار..

لقد رضي بالدستور لأنه رأى فيه لباب الشريعة كما كان يتمثلها..وهو ما يؤكـــده في هذا النص " لقد قمت بإلقاء خطب عدو على العلماء عامة وعلى كثير من طـــلاب الشريعة ..وأوضحت أن الاستبداد المتعسف لا صلة له بالشريعة الغراء، وأن الشريعة قد أتت لهداية العالم أجمع كي تزيل التحكم الظالم والاســـتبداد .. إن المســـلك الحقيقـــي للشريعة إنما هو حقيقة المشروطية (الدستور) المشروعة".[٣٦٨]

ومن الطبيعي أن يبدي النورسي كل هذا الإلتزام بالدستور والتجند وراءه .. فقـــد كان عقله يحفل بالمشاريع التي رأى أن الأمة في مسيس الحاجة إليها.. وكانت ديباجـــة الدستور تَعِدُ وتفتح الآفاق في وجه العمل والحرية وإرساء الحقوق، وذلك مـــا جعلـــه يبادر بالدعوة إلى إقامة جامعة الزهراء التي اختار لها حتى الاسم الدال، لتكون لبنة ضمن رؤية ملية متكاملة ومتجانسة، لا سيما في مجال التعليم والترشيد الروحي ..

فاسم الزهراء صنو للأزهر الشريف، وقد كان قاراً في وعيه أن على الأمة أن تقـــيم أسسها على مبدإ روحي تجانسي تتوطد به الأواصر بين ناشئتها وأوســـاطها العريضـــة ليتيسر عليها النهوض .. لقد رسخ في ذهنه، هو الذي تنقل بين المراكـــز والحواضـــر المختلفة طلبا للتعليم، أن يهيأ لتركيا، بما هي مقر الخلافة، المؤسسة الكفيلة بنشر العلـــم

٣٦٨ صيقل الإسلام ص٤٤٢.

وتكوين الإطارات القادرة على تحريك الأمة وتثمير قابلياتها في طريق الخير والبناء والتوحد، والسير نحو الفلاح والظهور..

وسنجد أن من أهم مشاريعه التي عبَّر عنها في تلك الفترة الواعدة، توسيع نطاق التعليم ومد شبكاته إلى النواحي القصية التي تعاني العزلة، توفيرا للشرط التمديني الحق الذي تتطلبه رعاية الناشئة، وهو التعليم .. لقد جعل من أهدافه " اقحام المعرفة عن طريق المدرسة إلى كردستان، وإظهار محاسن المشروطية والحرية والاستفادة منها.. وتأمين مستقبل العلماء الأكراد والاتراك.." [٣٦٩]

برنامج الإصلاح في عهد المشروطية

لم ينجذب النورسي نحو تلك الحركة التغييرية- التي عرفتها تركيا بظهور الدستور – عن اعتباطية أو تلقائية بريئة من البواعث والمحفزات النفسية والروحية والثورية الصميمة، بل لقد هيأته الحياة لأن يكون طليعة روحية إصلاحية منذ نشأته الأولى وتَبَرْعُمِ روحه في تلك الأقاليم الشرقية المفعمة بالصفاء والبراءة..

لقد كان على وعي تام بأدواء الأمة، فلذلك لم يتردد في تشخيص العلة وتحديد الدواء والسعي من أجل مباشرة العلاج بإرادة وإصرار مكينين .. لقد كان الجهل بالدين وبالعلوم الدنيوية معا هو مصدر شقاء الأمة، من هنا كان التوجه إلى إسعاف الفئات والأوساط الإسلامية بالعلم ونشر المعرفة من أوكد الواجبات..

النورسي يشخص أمراض الأمة واعتلالاتها المزمنة

لقد شخص النورسي حال الأمة وأحصى أسباب قعودها وعجزها الحضاري وأعاد تلك المظاهر إلى نوازع عديدة شبت ودرجت عليها الأجيال نتيجة التربية المتجمدة وبفعل تعاطي ثقافة كسيحة انعكست بقيمها السلبية على واقعها فشَلَّتْهُ، وعلى عقليتها وروحيتها فدمرتها..

من الإعتلالات النفسية : اليأس

فمن عوامل ضياع المسلمين – كما يلاحظ النورسي – وقوعهم في شرك اليأس، إذ اليأس يورث المهانة ويُوَطِّنُ النفس على أن ترضى بالدون وبالاستعباد والسُّخْرَة ..

---

٣٦٩ صيقل الإسلام ص.٤٣٠.

حب الظهور ونقائص أخرى

وينضاف إلى ذلك الاعتلال، اعتلال آخر يحدده النورسي في حب الظهور، إذ ينغرز هذا التروع المرضي في النفسية الإسلامية ويتجلى لديها في نزعة الميل إلى التفوق المجاني الذي لا ينبني على أساس متين من الجهد ولا من التحضير النفسي والمادي الذي يكفل النتيجة ..

وبالإضافة إلى ذلك فهناك صفة الاستعجال التي تتملكنا وتجعلنا نتوق إلى قطف الثمار قبل إبانها ومن غير ما انضاج .. كما أن **الرأي الفردي** المستبد يُعَدُّ من الإعاقات المزمنة التي كرست جمودنا إذ استغرقتنا الأزمنة والأطوار ونحن نعيش على اجتهادات سلطانية نزوانية مهوسة بتسقط مظان اللذة الخسيسة، متخلية عن مسؤولياتها العليا، مصروفة عن الواقع المتفاقم من حولها وما يعتلج فيه من أسباب التصدع والانزلاق ..

كما أن استفحال **عادة التقليد** واتباع خطا الأسبق جعل الركود يكون مآل حركتنا، وهو ما خنق الحياة فينا، ثم إن **التسويف** كان أيضا صفة ملازمة لمبادراتنا، لأن حب الدعة والراحة والتهرب من أداء الواحب وبذل الجهد، قد جعلنا نستنيم للفراغ والبطالة ونقنع بما في اليد، ولا نطمح إلى تزكيته وتطويره..

على أنه ينضاف إلى كل هذه العوائق تَدَخُّلُنَا في الأمور والقضايا الموكولة بطبيعتها الغيبية إلى الله، وهذا ما تقوم به الفئة الملحدة، إذ تريد أن تكف في الناس القابليات وتعطل ما فطروا عليه من اعتقاد وإيمان وتفتح على الروحيات..

هذه هي أهم الاسباب التي أناط النورسي بها أسباب حطتنا ومواتنا، وهي -ولا شك- أسباب قد استوعبت وجودنا في شتى أبعاده النفسية والروحية والمادية ..ذلك لأن النورسي كان يدرك أن الأمة زايلتها - بالفعل - هِمَّتُها، وهو ما جعله يقرر أن حالها بات من حال بعض شعرائها المحبطين، ممن طفق يعلن ويعيد :

" إذا متُّ ظمآنا فلا هطل القطر "..

وهو مصير اندحاري، انتحاري، عدمي.. ترفضه سنن الحياة، لخروجه عن قاعدة الاستمرار والتواصل وتجاوز الهزات..

ولا شك أن الإحساس بوطأة الواقع المتجزئ والمفكك الذي كانت مساعي التتريك تسعى إلى تكريسه قد أظلت بسحبها الدكناء، هذا التشخيص الذي أعرب عنه النورسي حيال وضع الأمة، من هنا ألفينا رؤية النورسي تضع في حسابها الحاجة إلى ترسيخ روحية

ملِّيَة يستشعر فيها كل مسلم حقيقة انتسابه إلى أمة لا يتميز مصيره الفردي في كنفهـا عن مصير الجماعات مهما أحاط هذا الفرد نفسه بالمزايا والامتيازات..

وطبيعي أن يكون حال الجماعات والأوطان في هذه الشأن حال الأفراد، من حيث تبعيتهم للأمة وتأثرهم – سلبا وإيجابا – بما يجري عليها من ظروف وتقلبات..

لقد كانت المشروطية تمثل – في نظر النورسي – الإطار المناسب والممكن الذي تطبق فيه الشريعة على صعيد تحديث المجتمع وتطويره والخروج بـه مـن حـال الابتئـاس الحضاري المفجع.. لقد كانت مواد الدستور وروحه مرتبطة في كليتها تقريبـا بـروح العقيدة، ولذلك وجدنا النورسي يؤكد للأتباع " أن نسبة الأخلاق والعبـادة وأمـور الآخرة والفضيلة في الشريعة هي تسع وتسعون بالمائة، بينما نسبة السياسة لا تتجـاوز الواحدة بالمائة". [٣٧٠]

وكان من شأن هذه الرجاحة الشرعية الدستورية حسب اعتقاده أن تعمل على تهييئ الأمة لشق طريقها نحو الرقي والأخذ بأسباب القوة التي يمتلكها الأعداء.. " إذ الرقـي المادي سبب عظيم لإعلاء كلمة الله في هذا الزمان". [٣٧١]

فالنورسي كان واثقا من أن الدستور سيعزز من شأن الخلافة وسيقوي من دورهـا ويقوِّمُ من حال الأمة بإزالة الظلم ومحاربة مظاهرالاستبداد .." إن الاستبداد ظلم وتحكم في الآخرين، أما المشروطية فهي العدالة والشريعة "..

على أن النورسي كان من جهة أخرى يركز على مبدإ حسن السيرة .. سيرة أولياء الأمر خاصة .. من هنا وجدناه يشترط السلوك القويم لشخص الخليفة ووجوب اتِّباعه للنهج الإسلامي، موثقا قدسيا بينه وبين الأمة " .. فالسلطان إذا ما أطاع أوامر سـيدنا الرسول ﷺ وسار في نهجه المبارك، فهو الخليفة ونحن نطيعه، وإلا فالذين يعصون الرسول ﷺ ويظلمون الناس هم قطاع طرق ولو كانوا سلاطين". [٣٧٢]

وبديهي أن القوامة الروحية والاعتداد بالاسلام، والاطمئنان على سـلامة التوجـه الاصلاحي كانت وراء هذه الصراحة التي لا تخشى أن تصدع برأيها حـتى في شـؤون الحكام..

وبالإضافة إلى هذا كان يُقَدِّرُ أن التحدي الحقيقي الذي على الأمة أن تتصدى له – بعد الاطمئنان على سلامة توجهها في ضوء الدستور– إنما هو الأوضـاع الاجتماعيـة

٣٧٠ صيقل الإسلام ص ٤٤٦.
٣٧١ صيقل الإسلام ص.٤٤٦.
٣٧٢ صيقل الإسلام ص.٤٤٣.

القاتمة والتعيسة التي كانت تحياها الفئات والجماهير المسلمة " .. إن عدونا هو الجهـــل والضرورة والاختلاف ". [٣٧٣]

وكان يرسم في ذهنه الخطة التي ستداهم بها الأمة قلاع التخلف وحصون الجهل:

".. سنجاهد هؤلاء الأعداء الثلاثة بسلاح **الصناعة والمعرفة والاتفاق**، وســـنتعاون ونتصادق يداً بيد مع الأتراك وهم إخواننا الحقيقيون الذي كانوا السبب – من جهة – لإيقاظنا من غفلتنا ودفعنا إلى سبيل الرقي".[٣٧٤]

وواضح أن حديثه هنا حميمي، وكان يتوجه به إلى قبيله الكردي ويســـتحثه علـــى تقدير طبيعة الأواصر التي تربطه بملته وبخلطائه من الأتراك الذين كانت الجيرة والقوامـــة الروحية التي بأيديهم، بوصفهم حملة راية الخلافة، تجعل منهم حقا أشقاء خلصا ..

بل إن حديثه بهذه الصيغة يسع الشعوب الإسلامية قاطبة، لاسيما تلك التي كانـــت تنتسب برباط السياسة والعقيدة إلى الخلافة العثمانية، إذ أن بوادر التفكك كانت تتفاقم داخل كيان الأمة، بسبب ما غرس العدو والأذناب في الأفكار من توجهـــات قوميـــة تفككية..

فالنورسي من خلال هذا الحدب الذي طفق يقرب به بـــين القـــوميتين الكرديـــة والتركية، بل والقوميات الإسلامية كلها، يكون من غير شك قد أبدى قدرا طليعيا من الوعي والإدراك لعوامل الشقاق التي كانت تتفشّى بين أجزاء العالم الاسلامي وتهز أسس الخلافة، مستغلة ما يعرو الحياة السياسية من مظاهر التأخر والاستبداد وعـــدم الـــوعي بمخاطر الفرقة والانقسام..

وكان على النورسي– من جهة أخرى – أن يتصدى إلى الأحكام المسبقة والمغرضة التي كانت أوروبا وأتباعها يرمون بها الشريعة، ويصـــورونها بهـــا في أشـــنع الصـــور، مستثمرين من أجل تكريس اتجاههم التحقيري، جهل الطبقة الحاكمة ومعاداتها لدينها

من هنا دأب النورسي ينافح على الشريعة، لأنه كان يحس بأن الطعنات التي شـــرع الاستيلابيون يوجهونها إلى الإسلام والشريعة، إنما تَـــنِـــمُّ عن مقاصد مصيرية لا تبعث على الطمأنينة ..

لقد كان يُقَدِّرُ أن الحكم الدستوري، إذا ما ألقى بالشريعة عرضا وظهريا، فإنه حتما سينقلب إلى استبداد أرعن لا يدانيه ما عرفت الأمة من استبداد في ظل الخلافة.. فهـــو

---

٣٧٣ صيقل الإسلام ص ٤٤٣..

٣٧٤ صيقل الإسلام ص.٤٤٣

يدرك أن دماثة الدين تفلح إلى حد ما في تفتير غائلة الغشم والرعونة حتى بالنسبة للطغاة متى ما ظلوا على أدنى صلة بالدين.

إذ أن طبيعة الحكم الديني – وإن كانت صورية – تهيء أثرا من خُلُقيـــة الإغضـــاء والرأفة واصطناع المحاسن، لأنها تجد نفسها مجبرة على إظهار بعض ما تتميز به العقيدة من سماحة ومرحمة، الأمر الذي يجعل الحكام يتحلون ولو شكليا بالخلق الودي .. علـــى عكس الصلة الحاكمية حين تتجرد من الوازع الروحي وتتحلل من الضوابط الجماعيـــة التي تقوم أساسا على العقيدة المشتركة..

إن تلك الصلة العارية من قيم التقوى والارعواء ستكون غاية في الاستبداد، لأنهـــا ستقوم على الأهواء والمزاجية وعلى تقلب المواقف ..

لقد كان النورسي يتخوف من أن يؤول وضع الأمة تحت لواء الدســـتور إلى واقـــع استبدادي لا رحمة فيه، ذلك لأنه رأى أن تلك الزمرة المتلصصة لا تفتأ تسدد طلقاتهـــا ضد الاسلام مرددة ما كانت أوروبا تشيعه زورا وتحاملا عن الاسلام والديانات عموما، مستغلة في ذلك التشنيع، مظاهر الضعف التي كانت تسود المجتمع الاسلامي، وهو مـــا كان يقلق النورسي ويؤلمه، لأنه كان يرى وجه المغالطة فيه سافرا. يقول :

" إن أوروبا تظن الشريعة هي التي تمد الاستبداد بالقوة وتعينه، حاشا وكـــلا.. إن الجهل والتعصب المتفشيان فينا قد ساعدا أوروبا لتحْمِل ظَنًّا خاطئا من أن الشريعة تعين الاستبداد، لذا تألمتُ كثيرا من أعماق قلبي على ظنهم السيء هذا بالشريعة، فكما أنـــني أكذِّبُ ظنهم فقد رحَّبْتُ بالمشروطية باسم الشريعة قبل أي شخص، ولكني خشيت من أن يقوم استبداد آخر لتصديق هذا الظن، لذا صرخت من أعماقي وبكل ما أوتيت مـــن قوة ، وقلت : افهموا المشروطية في ضوء المشروعية وتلقوها على أساســـها، ولقنوهـــا الآخرين على هذه الصورة كي لا تلوثها اليد القذرة لاستبداد جديد متســـتر وملحـــد باتخاذ ذلك الشيء الطيب المبـــارك ترســـا لأغراضه الشخصية ".[٣٧٥]

لقد كان النورسي يرى أن الممارسة السياسية الفعالة لا تقـــوم في مجتمـــع يـــدين بالإسلام إلا إذا احترمت قواعد الشريعة ..

من هنا يتبدى التوازن والسماحة اللذان ميزا مواقف النورسي، خاصة منها تلك التي سبق وأن ألح فيها على عدم الأخذ بالسمة الدينية شرطا للتكليف بالخدمة العمومية، إذا ما كانت كفاءة المترشح تؤهله لأداء الواجب الموكول إليه..

---

٣٧٥ صيقل الإسلام ص ٤٤٣.

فهو من جهة شرط السير العام للدولة باتباع النهج الاسلامي الصريح والذي لا مراء فيه.. وهو من جهة أخرى رخص – للضرورة – أن تسند المأموريات في الدولة الاسلامية إلى غير أهل الملة أو من كانت عقيدتهم الدينية غير معلنة ..

وواضح أن حاديه في ذلك الموقف إنما كان مراعاة الحاجة الاجتماعية والضرورة التسييرية والبنائية التي كان يحرص عليها، إذ أن طموحه لم يكن استكانيا، تسليميا، وإنما كان طموحا انبعاثيا مدنيا، يراهن على استعادة مكانة العز للمسلمين حتى يكونوا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. ولما كانت شرط الخيرية وحيازة الحق في الأمر والنهي وإملاء النصيحية لا يتأتّى إلا للأمة القوية، كان على النورسي أن يعمل على حشد كل طاقات الأمة في هذا الاتجاه..

الحرية ..بين التقييد الشرعي والإطلاق الطبيعي

وكان حتما أن يدور الجدل حول تحديد تلك المبادئ الدستورية التي صفق لها الطرفان المؤمن والملحد على السواء .. وكان طبيعيا أن يجيء فهم الطرفين لمعنى الحرية – كما قررها الدستور – متباينا، بل ومتعاكسا تماما ..

لقد ناهض الدستور الاستبداد ونوه بالحرية، فجاء تنويهه بردا وسلاما على النفوس جميعا، لكن الخلاف ما برح أن نجم إزاء عملية تَمَثُّل الحرية وممارستها كما أعرب عنها كل من الجانبين.. ففي ما رأى المصلحون أن الحرية اتزان والتزام بالفضيلة وانصياع لروح الشرع، رأى الملاحدة وأتباع أوروبا أن الحرية تحلل من الأحكام المسبقة وخروج عما لا تتكيف معه النفس، وجنوح بالشخصية نحو مواطن هواها .. وكل ذلك كان عند دعاة هذا الفهم المتوحش يمثل الترجمة الحق لمعنى الحرية ..

ومن الواضح أن هؤلاء قد فهموا الحرية فهما فوضويا، لا يقيم حسابا لغير الذات والأهواء الفردية، وهو ما وقعت فيه المدنية الرأسمالية حينما شجعت الفرد ووضعت خلقيته معيارا أساسيا لاجتماعيتها، الأمر الذي هدَّ قاعدة الأخلاق وارتقى بقيم الانحراف والشذوذ إلى صعيد اجتماعي معترف به ولا غضاضة فيه..

لذا كان النورسي يُحذِّر من مغبة إطلاق الزمام للنوازع باسم الحرية، وكان يدعو إلى ضبط الدوافع بضوابط الشريعة "..قيدوا الحرية بآداب الشرع لأن عوام الناس والجاهلين

يصبحون سفهاء وعصاة وقطاع طرق، فلا يطيعون بعد أن ظلوا أحرارا سائبين بلا قيد ". [٣٧٦]

ولقد كان على وعي يومذاك بما تشيعه الصحافة وكتابها من رعونة خلقية وتخطٍّ للفضيلة والذوق، لذا راح يخاطب المتحللين بما يقيد من جموحهم:

" يا أرباب الصحف .. على الأدباء أن يلتزموا بالآداب، وعليهم أن يتأدبوا بالآداب اللائقة بالاسلام، فينبغي أن تكون أقوالهم صادرة من صدور لا تحيد لجهةً، ومن قلوب عموم الناس، فيشترك معهم عموم الأمة."[٣٧٧]

وظل يهيب بأبناء وطنه أن يرتفعوا في فهمهم وتفسيرهم للحرية إلى مرتبة بناءة ونيرة وجديرة بأن تجعل منها شرطا انسانيا يدفع بالأمة في وجهة التعمير والتنوير والطهارة، وذلك بالأخذ بتلك الفضائل التي كان الاسلام قد سلح بها جموع الأسلاف في مطلع انتشاره حين سار بهم على طريق الفتح وسيادة العالم بالحق :

" يا أبناء الوطن لا تفسروا الحرية تفسيرا سيئا كي لا تفلت من أيديكم ولا تخنقوها بسقي الاستعباد السابق الفاسد في أناء آخر، ذلك لأن الحرية إنما تزدهر بمراعاة الأحكام الشرعية وآدابها والتخلق بالأخلاق الفاضلة.. والبرهان الباهر على هذا الادعاء هو ما كان يرفل به عهد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين من الحرية والعدالة والمساواة، على الرغم من الوحشية السائدة والتحكم المقيت."[٣٧٨].

لقد كان يرى جهات الاستيلاب دائبة على مقارنة أحوال الامة ومقايستها بأحوال أوروبا، متمادية في عقد الموازنة بين الوضعين، وفي استزراع صنف سطحي من قيم الغرب في البيئة التركية، والاستماتة في تمرير عوامل التغريب إلى قلب المجتمع وروحه من أجل إردائها " ..لقد أوقعتم الرأي العام والأفكار السائدة في مستنقع آسن بقياسكم الريف بمدينة استنبول، وقياسكم استنبول بأوروبا .. فنبهتم عروق الأغراض الشخصية والمنافع الذاتية وأخذ الثأر، حيث يلقن الطفل الصغير- الذي لم يدرج بعد- في المدرسة الفلسفة الطبيعية المادية، فكما لا تليق بالرجل فساتين الراقصات، فلا تطبق مشاعر أوروبا في استنبول، إذ اختلاف الأقوام وتخالف الأماكن والأقطار شبيهة بتباين الأزمنة

---

٣٧٦ صيقل الإسلام ص ٤٤٠.
٣٧٧ صيقل الإسلام ص.٤٤٠ .
٣٧٨ صيقل الإسلام ص ٤٦٧

والعصور، بمعنى أن الثورة الفرنسية لا تكون دستورا لنا، فالخطأ ينجم من تطبيق النظريات وعدم التفكر بمتطلبات الوقت الحاضر" .[٣٧٩]

بل لقد وجدناه يخص الحرية بمواقف مفعمة بالتواجد والعاطفة .. لكن هذه الحرية التي كان النورسي يتغزل بها ويتواجد، هي ما كان يسميه الحرية الشرعية.. لقد كان ينيط وظيفة الحرية بمهمة بناء الإنسان، وخدمته، وإخراجه من ظلمات الوحشة والاستبداد.. فالحرية التي ناجاها واستهام بها النورسي هي رديف للانبعاث الذي يفضي بالأرواح إلى الشهادة في الدنيا والخلد في الآخرة :

أيتها الحرية الشرعية . إنك تنادين بصوت هادر ولكنه رخيم يحمل بشارة سارة توقظين بها كرديا بدويا مثلي نائما تحت طبقات الغفلة، ولولاك لظللت أنا والأمة جميعا في سجن الأسر والقيد. إنني أبشرك بعمر خالد، فإذا ما اتخذت الشريعة التي هي عين الحياة منبعا للحياة وترعرعت في تلك الجنة الوارفة البهيجة، فإني أزف بشرى سارة أيضا بأن هذه الأمة المظلومة ستترقى ألف درجة عما كانت عليه في سابق عهدها. واذا ما اتخذتك الأمة مرشدة لها، ولم تُلَوِّنْكِ بالمآرب الشخصية وحب الثأر والانتقام، فقد أخرجنا إذن من له العظمة والمنة من قبر الوحشة والاستبداد، ودعانا إلى جنة الاتحاد والمحبة". [٣٨٠]

وواضح أن الحرية التي كان يريدها النورسي مناخا تتنفس فيه الأمة، هي حرية القيَّم التي تتسامى بالروح وتكفل لها النهج الذي يعطي لحياة المسلم معنى وبرنامجا ناهضا يعيد للفرد حيويته وللأمة مجدها، فهي –من ثمة –حرية تلتزم بالدين لأنه وسيلة رشادها، وتلتزم به أيضا لأنه الطاقة المفجرة للقدرات والضابطة لاندفاعها والحافظة للإنسان من مغبة السقوط في الميوعة والخور والوقوع بين براثن الرذيلة.

فالحرية تلتزم بالدين لأنه العاصم الأمثل لها من الفوضى والفرقة ومن تضارب المصالح والانحراف الأخلاقي البشع..

لقد كانت سيرة السلف تقع من خلده في الوجدان وهو يتحدث عن الحرية.. فهؤلاء السلف سادوا حين رادف الاسلام في ضمائرهم معنى البرنامج الحضاري الحياتي، وحين حل من نفوسهم محل العقيدة التي لا تربطهم بها تحفيزات الساسة والقادة، ولا تقوي من أثرها في قلوبهم النتائج المصلحية المحسوبة سلفا، بل لقد كانت محبة الاسلام مكينة في

---

٣٧٩ صيقل الإسلام ص.٤٤٤.
٣٨٠ صيقل الإسلام ص .٤٦٥.

نفوسهم، فارتقت بهم إلى ذلك المستوى من الملابسة الالتزامية الإرادية، بحيث أضحى الصحابي ركنا اجتهاديا يتصرف بروحه ومواجده الفانية في محبة الله بما يروق لتلك الروح أن ترى عليه الموقف البشري يزداد ألقا، بفضل سماحة الاسلام ورحابة مبادئه المنافية لكل ما يخدش الكرامة والمجد الانسانيين..

وطبيعي – والحال هاته – أن يقرب النورسي – وهو الانسان الواقعي – الصورة التي يريد من الأمة أن تكونها في مضمار السعي والحركة المدنيتين، فقد استفظع وبقوة، ما كانت أصوات التغريب تنادي به من ضرورة الأخذ بمنهاج الغرب وبمفاهيمه وقيمه (وهذه الدعوة تتضمن بطبيعة الحال، خيار ترك ما ينبغي تركه من المقومات ومنها الدين..)، من هنا راح النورسي يطرح مثال الأمة اليابانية التي كان يدرك أنها تسير على خطا تحافظ فيها – وبصرامة ومهارة – على نقطتي الاستناد والاستمداد التي تؤطر بها حركتها وتؤصل تجربتها وتعزز أصالتها الحضارية العتيدة..

من هنا راح النورسي يحرض الأمة، ويوعز خاصة للزمر المستلبة، بأن تأخذ بنهج الشعب الياباني الذي عرف كيف يتجنب الوقوع في مطب الاستنساخ المدني الأخرق، وعرف كيف يأخذ من مدنية الغرب جوانب البناء فقط، لا جوانب الهدم والتحلل " .. ينبغي لنا الإقتداء باليابانيين في المدنية لأنهم حافظوا على تقاليدهم القومية التي هي قوام بقائهم، وأخذوا بمحاسن المدنية من أوروبا، وحيث إن عاداتنا القومية ناشئة من الاسلام، وتزدهر به، فالضرورة تقتضي الاعتصام بالاسلام." [٣٨١]

لقد شاء النورسي لأولئك الأذيال المستلبة أن يجعلوا القطيعة الحاسمة والنهائية مع الماضي الانحطاطي المبتعد عن الدين الحق، وهذا بتوظيف فاعلية الحرية التي يضمنها الدستور في طريق يجنبها أن تتحول إلى استبداد، إذ أن التعصب للرأي والرغبة في فرض الخيار الإستيلابي كان من شأنه أن يدفع بالمتعصبين إلى استخدام أقصى الأساليب القهرية، حملا للامة على اتباع فلسفتهم، وذلك هو الاستبداد بعينه، وهو ما كان يحرص النورسي على تلافيه:

"..إن أصحاب الأفكار الفاسدة يريدون الاستبداد والمظالم تحت ستار الحرية، فلأجل ألا نشاهد مرة أخرى تلك الاستبدادات التي دفنت في حفر الماضي، ولا تلك المظالم التي جرت في سيل الزمان، أريد أن أقيم سدا حديديا بين الماضي والحاضر، وذلك بإيضاح تاريخ حياة الحرية، وهو كالآتي: إن هذا الانقلاب لو أعطى الحرية التي أولدها إلى

---

٣٨١ صيقل الإسلام ص٤٦٨.

أحضان الشورى الشرعية لتربيتها، فستبعث أمجاد الماضي لهذه الأمة قوية حاكمة، بينما لو صادفت تلك الحرية الأغراض الشخصية، فستنقلب إلى استبداد مطلق، فتموت تلك المولودة في مهدها، لقد ولدت الحرية في الوقت المناسب، فتحتاج تنشئتها إلى ظـــروف وأحوال فطرية وليس إلى افتعال ظروف تحتاج إلى مشاق ." [٣٨٢]

ويمضي النورسي في هذا السياق يتحدث عما يلزم الحرية الشـــرعية مـــن شـــروط يتصلب بها عودها ويستوي قوامها لتكون أقدر على أداء وظيفتها التنويريـــة والبنائيـــة لصالح الانسان وسعادته..

"..إن الحمية الاسلامية التي عانت في السابق كثيرا من الضوائق والبؤس، وهي ليست أهلا لها، قد فارت فورانا عظيما بحيث اكتملت الحرية في ذلك الرحم، فحالما يحين وقت الولادة وتظهر إلى الوجود، ستعلن هيمنتها، فلا يتمكن أن يتصدى لها ويزلزلها أي شيء حيث أنها ستتأسس على أسس رصينة – كعرش بلقيس – على حقائق خمس. [٣٨٣]

لقد أجمل النورسي هذه الحقائق في خمس نقاط هي :

القوة التي تستمدها الأمة من اجماعها ووحدتها، والتي لا تظل عرضة للهدر والتفكك نتيجة المرامي الذاتية أو الأغراض الشخصية والآراء الفردية .. إذ أن اقتـــراف ذاك الإثم يعد جناية في حق الأمة.

–إن زمن المدنية والدستور يحتم على النظام والأمة أن تُحَكِّمَ منطق العلم والمعرفة في شؤونها، فالسلطة التي يخضع لها العالم المتمدن في الغرب هي سلطة المعرفة والاســـتنارة، فبالعلم تتجاوز الدول المتمدنة الوقوع في مهالك العجز و الشيخوخة والانقراض، إذ أنها بالعلم والمعرفة تمارس التجدد الذاتي اليومي والدائم ..فهي في هذا على خلاف الـــدول التي تستند في وجودها على القوة التسلطية وعلى البغي والاستبداد، فتلك سياسة عمرها قصير، ومحفوف بالمخاطر والترديات، ومصير مشاريع المستبدين إلى الزوال لا محالة..

إن من شأن الحرية الشرعية أن توسع من نطاق فكر الانسان ومن حـــدود دائـــرة نشاطه وخبرته.. فالشروط المعيشية الضنك التي يحياها الإنسان في عهـــود الاســـتبداد ستتبدل وتستحيل إلى واقع من الرخاء والسعة تتجدد فيه همة الفرد والجماعة وتنبعـــث إرادة الحياة

٣٨٢ صيقل الإسلام ص٤٦٩.
٣٨٣ صيقل الإسلام ص ٤٦٩.

" فإذا ما عاشت الآن هذه الحرية الشرعية العادلة و لم تفسد، فستكسر أغلال فكر الانسان، وتحطم الموانع الموضوعية أمام استعداده للرقي، فتوسع ميدان حركته سعة الدنيا كلها " [٣٨٤]

لقد كان النورسي يؤمل أن يروي غيث الحرية تلك الربوع الظمأى للانعتاق والرقي، لا في البلاد التركية وحدها، ولكن أيضا في سائر " الممالك العثمانية محل ظهور الأنبياء ومهد الدول الحضارية ومشرق شمس الاسلام، فإذا ما نمت هذه الاستعدادات المغروزة في الانسانية بغيث الحرية، فإنها تتحول إلى شجرة طوبى من الأفكار النيرة، وتمتد أغصانها إلى كل جهة، وسيجعل الشرق مشرقا للغرب، إن لم تفسد وتنخر بالكسل والأغراض الشخصية ".[٣٨٥]

لقد كان إيمان النورسي راسخا بقدرة الدين الاسلامي وقابليته التامة على شق طريق الرقي والتمدن والمضي بالانسانية نحو آفاق الابتداع والاستخلاف الموعودة..

إن قابلية الشريعة للمضي بالإنسان المؤمن على طريق التطور والرقي نابع من طبيعتها القدسية القائمة على شرط التناغم والانسجام مع طبيعة المخلوق البشري ذي الجبلة المفتوحة على التطور والآخذة بقانون الحركة والثبات ..

فالشريعة تتوسع وتنمو بنمو الكائن الحي المعتنق لها، أي بنسبة نمو استعدادات الانسان وتشربه لنتائج تلاحق الأفكار التي يتغذى عليها.. فالحرية والعدالة والمساواة التي يتبجح بها المستلبون قد عرفت ذروة كمالها في عهود العُمَرَيْن وفي كنف سياسات الأفذاذ من أمراء الإسلام أمثال صلاح الدين الأيوبي ومن شاكله.. من هنا كان من الضروري التأكيد على أن سبب تأخرنا وتدنينا وسوء أحوالنا إلى الآن، إنما هو ناتج عما يلي:

عدم مراعاة أحكام الشريعة الغراء في تأسيساتنا وفي إدارة شؤوننا .. تلك الشريعة التي تلبي منازع الحياة والكرامة في نفوسنا، ولا غرابة إن يربط النورسي سعادتنا بالالتزام بالدين، فلقد كان له في تفاعل الغربيين مع الفلسة شاهدا على أن للأمم منازع روحية وفكرية ملائمة لتكوينها وقابلياتها تتفاعل معها ويكون إثمارها في مناخها أجدى وأوفر، وهو ما يجسده الدين بالقياس لأمم الشرق، إذ هي أمم مطبوعة على الاستجابة الفاعلة مع الدين.. والتمرس في بناء مدنياتها مع الروحي ومع أحكام مقدساتها السماوية..

---

٣٨٤ صيقل الإسلام ص.٤٧٠.
٣٨٥ صيقل الإسلام ص ٤٧٠

لقد كان النورسي ينعى على الطبقات المتنفذة تقليدها لمساوئ المدنيـة الأوروبيـة تقليدا ببغائيا، عن وعي أو غير وعي، " بسوء حظنا أو سوء اختيارنا، ممـا تسـبب في تَرْكِنا لمحاسن المدنية التي تستحصل بمشكلات ومصاعب".[٣٨٦]

لقد مضى يهيب بالمجتمع والفيئات والسلطات أن تتدارك واقع التأزم الاجتمـاعي والسياسي، للقضاء على أسباب التمزق والاستبداد ..

"..إن تزايد الروابط الاجتماعية وتعقدها في ظل الدولة المعاصرة يقتضـي تضـافر جهود وأفكار الأمة قاطبة حلا لمشاكلها، وإسهاما لكل العناصر في مهمة البناء وتحمـل أعباء الرقي، ومعنى ذلك أن على المجتمع أن يأخذ بشروط تنظيمية وتمثيلية تمكنه من أن يحقق كلية المشاركة في التسيير وفي الإعراب عن الرأي، وهو ما يبرر قيـام المجـالس النيابية والشوروية التي ستكون بمثابة فكر الأمة وعقلها.. وتشجيع حرية الافكار الـتي هي بمنزلة سيف الدولة وقوتها الحاسمة ..

لقد كان النورسي يدرك أن مكمن اعتلال الأمة هو اعتلال أدبي في الأساس، وليس عائدا إلى العوامل المادية فقط ..

لقد أيقن أن انحطاط الأمة يعود في كثير من أسبابه إلى حال الجهل الذي كان يطبق ، وإلى الفرقة التي يحدثها التعليم بشعبه الرثة الأهلية أو تلك الدخيلة المزاولة في المـدارس وفي غيرها من مؤسسات التلقين:

".. إن من أهم أسباب تأخرنا في مضمار المدنية بعد الاستبداد، هو تباين الأفكـار واختلاف المشارب لدى منتسبي ثلاث شعب كبيرة يعد خريجوها مرشدين عمـوميين للجميع، وهؤلاء الخريجون منتسبو المدارس الحديثة والمدارس الدينية والتكايا .." ذلـك لأن اختلاف الأفكار وتباينها الذي يفترض فيه أن يكون مؤشر صحة ودينامية كـان يشكل عندنا مظهر هدم وتخريب فـ"قد هز أساس الأخلاق الاسلامية وفرق اتحاد الأمة وأخرنا عن ركب الحضارة، لأن أحدهم يكفر الآخر ويضلله، بينما الآخر يعـد الأول جاهلا لا يوثق به، وهكذا ساد الإفراط والتفريط، وعلاج هذا هو الصلح النـابع مـن توحيد الأفكار وربط العلاقات ووصلها حتى تتون وتنتهـي إلى مسـتوى الإعتـدال، فيتصافح الجميع ويرقىالنظام..[٣٨٧].

---

٣٨٦ صيقل الإسلام ص ٤٧١
٣٨٧ صيقل الإسلام ص ٤٧٣

وفي هذا الصدد وجدنا النورسي يتساءل حول الوضع الترشيدي الذي كان يمثل جزءا مُهمًّا من نشاط التكوين والضبط الإجتماعي، ذلك الترشيد الذي كان يمثل شعبة معتبرة من شعب التعليم والتكوين العمومي والذي لم يكن على مستوى من النجاعة بحيث يحقق مردودية تنويرية مطلوبة.. فبيداغوجية الوعظ كما قوَّمَها النورسي في عهده كانت تعدم شروط نفاذها ونجاعتها بسبب :

- عجزها عن تحقيق الإقناع، إذ أن عقلية الزمن الحاضر تختلف من حيث المدارك والملابسات والتطلعات عن العقلية القديمة، فهي تبحث عن بيانات إقناع جديدة.. فالزمن الحاضر أكثر حاجة إلى إيراد الأدلة..

-إنها بيداغوجية تغفل التمييز بين الأهم والمهم، فليس لها أولويات، ولا تراعي مقتضيات الحال.

إن لغة الوعظ لغة تقهقرية، من حيث إنها تخاطب الناس بأساليب وأفكار بالية، فالوعاظ " لا يتكلمون بما يناسب تشخيص علة هذا العصر، وكأنهم يسحبون الناس إلى الزمن الغابر، فيحدثونهم بلسان ذلك الزمان".[٣٨٨]

ولما كان الوعظ هو تشخيص الأدواء وتحديد العلاج لها، كان لابد على الواعظ أن يكون على اطلاع واسع كي يحوز على الكفاءة ويستوعب شروط بعد النظر التي تساعده على تنويع الوصفات واختيار الميسر منها والذي يعجل من عملية البرء، كي تنطلق الأمة وتغادر محطة المهانة.. من هنا كان على الواعظ أن يتحلى بكفاءة التحقيق والتدقيق، ما يؤهله لأداء وظيفة الترشيد..

التفطن إلى مخاطر الحركة الانقلابية

ومن الواضح أن سير الأحداث قد جعل النورسي يتفطن إلى ما كانت تحمله الحركة الانقلابية من مخاطر تهدد الآمال التي علقتها الأمة على ميلاد الدستور، لذلك رأينا خطابه سرعان ما تحول من الدعوة لاحتضان الدستور، إلى الدعوة إلى منهاضة الاستبداد.. وكان حتما أن يجرَّ عليه وَعْيُهُ الحاد بما كان يتغلغل في النفوس من كيد للعقيدة وتبييت لضربها، نقمة الحكام الانقلابيين..يزيدهم حقدا عليه وتوجسا منه ما أبداه من نشاط عَمَّ الحياة المدنية وحتى العسكرية، سواء في حملات الشرح التي كان يرادفها لفائدة الدستور ،أو من خلال اهتمامه بالأوضاع المستجدة ..

---

٣٨٨ صيقل الإسلام ص.٤٧٣.

وربما كانت حوادث ٣١ مارس التي تظاهر فيها العسكر –مطالبين من جملة مطالب كثيرة – بتطبيق الشريعة، وما رافق ذلك من صدامات وسفك دماء، والدور البارز الذي قام به النورسي بتلقائية المصلح، المدرك لمغبة الشقاق الذي يتهدد الأمة، ربما كان تلك الحوادث من أهم السباب التي عجلت بانعطاف حياته في اتجاهها الروحي الصرف..

لقد أسعفته إرادته الحرة، وروحه الطليقة المتحررة من عقال الأغراض الشخصية، أن يتجند وينهض بأعباءٍ تنوء بها كواهل الرجال الذين لم يتهيأوا على نحو ما تهيأ هو له روحيا واجتماعيا ونفسيا.. وذلك ما عبَّر عنه في بعض مواقفه، إذ قال :

إن عناصر الأغراض الشخصية ومصالحها المخلة بإخلاص النية – من نسب ونسل وطمع وخوف – لا تعرفني ولا أعرفهن، بل لا أريد أن أتعرف إليهن، ذلك لأني لست صاحب نسب شهير كي أجدَّ في صون ماضيه، ولست صاحب أولاد كي أسعى لضمان مستقبلهم، ولكن لي جنون أي جنون حتى أَعْجَزَ المحكمةَ العسكريةَ بهيبته ورهبته في علاجه، ، ولي جهل مطبق – وأي جهل – حتى جعلني أميا لا أستطيع قراءة المكتوب على الدينار والدرهم . أما التجارة الأخروية ..

فقد آليت على نفسي ألا أتراجع عن طريقي التي أسلكها ولو ضيعت فيها رأس مالي، وإني على خسارتها منذ الآن، إذ أسقط في آثام كثيرة .. فلم يبق إلا الشهرة الكاذبة .. ولقد مللت منها وأهرب منها، لأنها تحمِّلني ما لا يمكن أن أتحمله من وظائف.." [٣٨٩]

لقد أشهر بهذا التصريح انخراطه الحاسم في الحركة الجهادية التي هيأه لها الحق، وأبان للناس مقومات بسالته وحميته في اختياره ذلك السبيل الصعب الذي ينكص عنه الرجال .. لقد كان صلاته بالحياة الاجتماعية مقطوعة، أو لقد قطعها هو حين أضرب عن أن يعيشها على الوتيرة التي يعيشها بها سائر الناس، فيصهرون إلى الأنساب وينسلون الخلفة، ويديرون أسباب المعاش بالتدبير المحكم لكنهم يسلكون رغم ذلك سبيل عامة الناس الخالين من المآثر الباقية ..

لقد وهب روحه للحق، ووقفها في سبيل الله، وبذلك جنبها عناء الحسابات المادية والتقديرات المصلحية المحدودة، ولم يراع في ذلك كله إلا ما كان يربطه بخالقه، إذ كان دائم المراجعة لمواقفه والتقيد بتعليمات العقيدة في السر والعلن.. من هنا بدأ حملته الثورية ضد المؤسسات والتنظيمات التي كانت تدعي الحرية والتحرر:

---

٣٨٩ صيقل الإسلام ص ٤٣٢.

"..أنني عارضت شعبة الاتحاد والترقي المستبدة تلك التي أذهبت شوق الجميع وأطارت نشوتهم وأيقظت عروق النفاق والتحيز وسببت الفرقة بين الناس وأوجدت الفرق والأحزاب القومية، وتسمت بالمشروطية بينما مثلت الاستبداد في الحقيقة، بل حتى لطخت اسم الاتحاد والترقي..." [٣٩٠]

وسيستطرد في نفس السياق ليتحدث عن حسن نوايا المسلمين الذين يواجهون – عادة –القضايا بنوايا طيبة ومن غير ما سابق تَهيئ، مثلما فعلوا مع المشروطية ظنًّا منهم أنها جاءت لاقتلاع جذور الاستبداد:

" أقول بفخر نحن المسلمين الحقيقيين ننخدع ولكن لا نخدع ولا نتنزل للخداع لأجل حياة دنيوية، لأننا نعلم (إنما الحيلة في ترك الحيل) ولكن لأنني قد عاهدت المشروطية الحقيقية ،المشروعة، سأصفع الاستبداد إن قابلته في أي لباس كان، حتى لو كان لابسا ملابس المشروطية أو تقلد اسمها، وفي اعتقادي إن أعداء المشروطية هم أولئك الذين يشوهون صورتها بإظهارها مخالفة للشريعة وأنها ظالمة، فيكثرون بهذا أعداء الشورى أيضا، علما أن القاعدة هي لا تتبدل الحقائق بتبدل الأسماء.." [٣٩١]

لقد كان هذا صوته أيام كان مندفعا في غمار السياسة يصول في المضمار، تهيجه المخادعات والالتواءات الرعديدة، والمخادعة، والمتظاهرة بغير ما تبطن..

لكن النورسي لم يخلف بقسمه، إذ راح يكمن للماكرين، ويجيش لهم جحافل من النورانيين، سلاحهم كتاب الله، ودعوتهم الحق، وشعارهم : الاسلام سلام..

لقد أنجز النورسي الإطار الروحي الذي سيكيل الصفع فعلا لكل ما يعيق الحق الأبلج عن الاستتباب ..

ولابد من التأكيد أن الروح التكيفية التي باشرها دعم الاصلاح الذي أمله في عهد المشروطية، ظلت تميزه في نظرته إلى فهم الواقع وبناء النظرة والخطة التي تمكن من تجاوزه..

فبقدر ما اندمج في روح القرآن والأخذ بالشريعة، بقدر ما كان مرنا من حيث مراعاة الكيفيات والأساليب والضرورات التي تمكن من النهضة الحق .. لذا كانت نظرته إلى الاجتهاد إيجابية رغم ما أحاطه بذلك المشغل الشرعي الحيوي كما سنرى في حينه..

---

٣٩٠ صيقل الإسلام ص ٤٥٣.
٣٩١ صيقل الإسلام ص ٤٥٣.

بيداغوجية الدعوة إلى الحق

لقد استفاد النورسي من إدراج الكشوفات والمعدات الحديثة في خطابه التنويري ابرازا لأفكاره وبلورة لها، فالسينما والتلفون والقطار والكهرباء .. وغيرها، كانت وسائط يستدعيها المقام في مناسبات تحليلية كثيرة، بقصد إقامة أحوال من التماثل ومن التصورات الفكرية التي يجَلِّي بها مقاصده ..

بل لقد انخرط في بعض المواقف إلى استثمار أواقتباس الحقائق العلمية المخبرية في توصيل رسالته الترشيدية، وكان لذلك المنهج مقاصد أشرنا إليها في غير هذا المكان، لعل أهمها تقريب الشقة النفسية بين العلم والاختراع، وبين الروح المسلمة

ومما عرض به للحقل العلمي – مثلا – حديثه عن نظريته في إنعكاس الماديات والنورانيات، إذ عنده أن من طبيعة الأشياء والنحسات المادية أن تنعكس على غيرها بصورها دون كنهها، في حين أن طبيعة النورانيات والروحيات لا تنعكس بصورها، بل بمعناها دون شكلها.. يقول:

"..إن مرايا التجليات متنوعة منها : الزجاج والماء والهواء – لا سيما الكلمات– وعالم المثال، والروح، والعقل، والخيال، والزمان، وغيرها مما لا نعلم أو لا تعلم.. وتماثل الماديات الكثيفة في المرايا منفصلة حكما، وأموات حقيقة.. وليس لها خاصية الأصل، وغيرٌ للأصل أيضا، بدليل انتقالها إلى الفوطوغراف دون النورانية الخالصة، وفي غير الخالصة تنتقل هوية صورها المادية فقط..

وأما تماثيل النورانيات فمتصلة حكما، ومرتبطة حقيقة، ومالكة لخواص الأصل، وليست غيرا له، فلو جعل الفاطر جل جلاله حرارة الشمس حياتها، وضياءها شعورها، وألوان الضياء حواسها، لتكلمت الشمس معك في قلب مرآتك التي في يدك، كتلفونك ومرآة قلبك، إذ مثالها الذي في يدك له أيضا بمقدار استعداده حرارة حياة، وضياء شعور، وألوان حواس . ومن هذا السر يطلع النبي ﷺ الذي هو النور النوراني على صلوات كل من صلى عليه في آن واحد، ومن هذا السر ينفتح مغلقات أسرار.." [٣٩٢]

---

٣٩٢ المثنوي العربي النوري ص ٢٢٧.

منهجه الالتزام بالأولويات وعدم اهدار الوقت في استثارة ما لا يفيد في دعم المعركة المصيرية

لقد كانت له أولويات ونظرة ثابتة إزاء ما يجب عليه فعله نحو الواقع المحتدم أمامه بكل ما يفاقم من النكبة ويزيد من هدم الكيان الاسلامي، لذا فإنه في تثميره لصحائف التراث الاسلامي يتبع منهجاً إشفائيا يراعي متطلبات الوضع الراهن، وحالة المسلمين التي تحتم أن تتركز كل الجهود عليها ..إذ " لا يليق قطعا بالمؤمن الحصيف ولا بوظيفته المقدسة في هذا الوقت أن يهمل الذين يترلون ضرباقم القاضية بالاسلام فعلا عمن يستحقون اللعنة والذم بألوف المرات، ويذهب إلى أزمان غابرة ليتحرى في الأحوال التي لم يأمر الشرع بالتحري فيها، والتي لا جدوى منها، بل فيها ضرر". [٣٩٣]

وجلي أن نظرة النورسي هنا تتفادى الاشتغال بغير ما يجدي في المدافعة الحاسمة عن الكيان، ومباشرة النضال ضد أعداء الملة بصورة فاعلة ومباشرة، وبمتابعة ميدانية لا تغفل عما يحاك من المناورات والمخططات الإفنائية ضد الأمة..

لقد كان النورسي يدرك أن استدعاء الوقائع التراثية، لا سيما تلك الصفحات التي ارتبطت بمسائل وإشكالات خلافية محيرة، يتطلب وعيا تسديديا لا يتوفر لكل منقب، بل إن مستوى الفهم السائد لتلك الوقائع والأزمات ظل –عبر العصور – يتسم بالضعف الذي كان من نتائجه أن فاقم باطراد من تشويه الحقيقة الإسلامية أكثر مما عمل على صونها ولا نقول تحسينها ..

من هنا تحفظ النورسي إزاء هذا النوع من التثميرالفكري غير الواعي..

لكن النورسي – على الصعيد العملي – ظل يغترف من التراث ويستحضر منه كل ما كان يشعر أنه يخدم الدعوة.. بل لقد رأيناه على حظ ضاف من الجراءة الأدبية التي هيأته لأن يتتبع مواطن الإشكال الفكري والعقدي سواء من حيث تفسيره لآيات دار حولها الجدال، أو من خلال تطرقه لقضايا الغيب والكرامات، أو بإبراز رأيه في عدد من القضايا الخلافية التي يتحاشاها في العادة غيره، كل ذلك لأنه كان متشبعا باستنارة قرآنية أطرت اجتهاداقما، فبات معها لا يخشى زيغا في أي اتجاه يختار السير فيه ..

٣٩٣ الملاحق ص.٢٩٨.

مقارعة الجاحدين ودعوتهم إلى الاعتبار بما يلوّح به أمامهم مظاهر الكون من دلائل التوحيد

لقد ظل النورسي يقارع الجاحدين ويعلل تماديهم في الكفر بكونهم عجزوا عن استبانة مظاهر العظمة من حولهم وتقديرها حق قدرها، وربط تلك المظاهر بأبعادها المحيلة على الخالق الباري.. من هنا تعنتت تلك العقول العاجزة وغالت في الإنكار بقصورها عن تبيان وجه الحق، وجهدت لتسند جحودها بما تضفي عليه من تماسيح المنطق الوضعي الذي لا سمك له ولا أصالة ..

إن العقول التي ضاقت بصيرتها أمام العظمة والكبرياء والمطلق غير المتناهي، وقصرت عن إدراكها نتيجة الغفلة أو الجحود أو الانغماس في الماديات والانسياق وراءها قد أخذت – هذه العقول – تزل وتزيغ إلى حد الإنكار، إذ راحت تنفي – بغرور معرفي مدخول – المسائل الهائلة العظمى، لعجزها عن الإحاطة بها..

فملاذ القُصَّرِ ومن خانتهم بصائرهم الكليلة عن إدراك دلائل الإيمان فيما يحيط بهم من علامات ربانية جلية ،هو الجحود والتشبث بالأضاليل، إذ أن رؤسهم الفارغة تأبى أن تنحني إلى الأرض وترعوي إلى سلطان الحق، فهي في شموخها الأرعن أشبه بسنبلة خاوية تتطاول برأسها إلى السماء، تتراقص مع كل هبة ريح، غافلة عن أن حتفها سيكون بفعل الريح.." إن الذين عجزوا عن استيعاب المسائل الإيمانية المحيطة الواسعة جدا، والعميقة جدا، في عقولهم الصلدة، الضيقة – معنويا– ويقروها في قلوبهم الفاسدة الميتة – تجاه المعنويات – يقذفون بأنفسهم إلى أحضان الكفر والضلال، فيغرقون.[٣٩٤]

النورسي يسعى إلى تسييج العقيدة والإيمان في القلوب من خلال الحديث عن مسائل الغيب وما فوق العقل

لم يفتأ النورسي يسيج حِمى العقيدة مخافة أن تخترقها عاديات الوهم، وهذا من خلال تصديه للأفكار المغرضة التي كان ترويجها يستهدف ضرب القيم..

من ذلك تناوله لظاهرة الوحي.. فقد عقد حديثه عن موضوع الوحي من أجل أن يبين الحدود والفوارق المميزة بين (الوحي) والإلهام..

ولا شكَّ أن الواقع التصوفي والطرقي الذي كان يومئذ ضاربا أطنابه في المجتمعات الاسلامية والمجتمع التركي بخاصة، دفع الداعية إلى وضع هذا البيان التوضيحي الذي

---

٣٩٤ الشعاعات ص١٣٩.

قصد من ورائه إلى أن يعيد للوحي قيمته الروحية الحق .. تلك القيمة التي كانت كثير من الاجتهادات المتداخلة – بعضها ناتج عن جهل أو اعتقاد خاطئ، وبعضها الآخر متولد عن حقد وتبييت ودسٍّ – ماضية في الاستخفاف بها، وربما أتت تلك التلبيسات في أحيان كثيرة، بطرق ملتوية مخافة إحداث الصدمة ..

من هنا كان ديدن المفسدين – للوصول إلى أغراضهم التشكيكية – الرفع المتواصل من شأن الإلهام، تكريسا لمكانة الدنيوي، ولو عن طريق تلك الصورة الروحية والاجتماعية التي كان التصوف يجسدها في الوعي الجماهيري المسلم..

الماكرون ينوهون بالإلهام، حطًّا من منـزلة الوحي

فعلى ايقاع التنويه بالإلهام، وما كان يجد أهل الحال من استشرافات ومواجد يثمنونها ويطلبونها بشتى السبل، كان الاهتمام الجماهيري العام يفرِّطُ في المنزول، وفي ما تواتر به الوحي.. لكأن الاشتغال المتواصل الذي كانت تشجعه المناهج الطرقية قد أرخى الحبال الممتدة بين روحية الأمة وبين كتابها، ورجح من شأن الإلهام النفسي من خلال التعاطي الدائم والتعظيم المستمر للمشغل الصوفي، الوجداني، ، مقللا على ذلك النحو من مكانة وقدسية الوحي..

وستستثمر القوى المدمرة هذه الحال، وسينتهي بها الأمر إلى حد الإدعاء بأن الوحي لم ينقطع، أو أن هناك من كان الغيب يلهمه التعاليم التي على الأمة أن تأخذ بها.. وهو ما سعت إليه حالات التنبؤ التي ظهرت في البلاد الاسلامية لاسيما حين احتكت هذه البلاد بالاستعمار الغربي ..

إنها آفاق خاسرة فتحتها قوى الشر في وجه الأمة حين وطنتها على تبجيل مصادر تلقين روحي بشرية، شخصية، وأحلتها محل القداسة والتعظيم.

ولقد كان من نتائج هذا التغليط الماكر أن تنبأ أفراد، وأعلنوا عن رسوليتهم، وشرعوا في بث تلفيقاتهم، زاعمين أنها من المنـزول الموحى به إليهم ..

لقد بدأ الانحراف يستهين ويُهَوِّنُ أول الأمر من شأن الوحي وذلك بالرفع من قيمة المواجد والإلهامات، ثم لما تهيأت النفوس، وأدارت ظهرها للكتاب، مأسورة بما كان الدجاجلة يهيئونها له، ألقوا إليها بترهات قالوا إنها وحي يوحى .. فأخذت به تلك الأوساط الجاهلة أو هَمَّتْ أن تأخذ به، وفاتها أن تزهيدها بالوحي أول الأمر من قِبَل أولئك الماكرين كان ينبغي أن لا يورطها في الأخذ بما زعموا لها أنه وحي في الآخر..

لكنها مكائد الأفاقين ومن ورائهم المستعمرون يُـلَـوِّنون لفرائسهم من الأمم المغلوبة، الحق بلون الباطل، والباطل بلون الحق، كيدا وتضليلا، إدامة للرَّتْعَـةِ القـذرة ولَعْقِ دَمِ الانسانية..

النورسي يحسم المسألة.. ويقوّم حقيقة كل من الإلهام والوحي

على أن النورسي من جهة أخرى قد أقرَّ أن هناك من أوجه الإلهام الطاهر ومن دواعيه وتجلياته الربانية ما ينبغي أن يكون عاملا من عوامل الإيمان وتثبيت العقيدة

.. لذا وسع النورسي من نظرته إلى الإلهام لأنه رأى فيه مستوى من التواجد والمحاورة الشعورية المفتوحة على الروحي والغيبي.. بخلاف التوهمات الإستلهامية، الخادعة، التي هي في جوهرها اصطناعية، من قبيل ما يخطر لبعض أهل السلوك ممن ينشدون السكر والسوانح القطعية .. أولئك لا يهديهم إلهامهم إلا إلى ما يخامر بواطن النفس الخفية، أو ما تتوق إليه الرغائب الكبيتة، وذلك ما يحيد بهم عن الصفاء المحض الذي ترقرق به الوحي المتنزل على سيدنا محمد ﷺ..[395]

النورسي يستقرئ السيرة النبوية ويستخلص من إشاراتها وإفاداتها ما يخرس به ألسنة الجاحدين

ومن ناحية أخرى رأينا النورسي يَعْمَدُ إلى قراءة السيرة النبوية بالمنظور البياني التحسيسي ذاته.. فقد رأينا يتابع سيرة الرسول ﷺ، ويقف عند كثير مما تحفل به تلك السيرة الطاهرة من آيات العظمة والسمو، باسطا القول فيها بما كان من غاياته أن يفحم دعاوى الطاعنين والمشككين في حقيقة الإسلام وفي سماويته..

بل لقد وجد النورسي في سيرة الرسول ﷺ مجالا تواجديا، ظل يكترع منه مزيدا من الفيوض التي زكت بها نفسه المؤمنة وشفت لطائفها ..

بل لقد كانت تلك الاستدعاءات الخبرية والتأملية من سيرة النبي المعظم ﷺ مواقف وأحوالا تعرف فيها تواجدية النورسي ذروتها، إذ أنه كان يتصفح كتابا من البيِّنات النفسية والخلقية المسددة بتوفيق الله ، ما أعطى للسجايا النبوية كل ذلك الوهج النوراني الذي كانت نفس النورسي لا تملك وهي تستجليه، إلا أن تبدي ما تبدي من الوجد، ومن التعلق، ما كان يغيبها عن منغصات الوجود، وما أكثرها ..

من هنا نتبين المنهج النورسوي في تثمير الرصيد الروحي والتراثي لمقاصد الدعوة،

---

٣٩٥ أنظر الشعاعات.١٦٧

فقد شكلت السيرة النبوية مرجع مدافعة وإمداد لترميم تلك التصدعات التي كانت معاول الإعداء المليين تحدثها في جدار الاسلام بغية تقويض أركانه، الأمر الذي جعل الداعية يقيم منهاج الدعوة الإفحامية على أسس تستثمر المادة الروحية العضوية- من كتاب وسنة – للمنافحة عن الدين..

من هنا كان له في تشغيل مادة التفسير وقراءة الآي الكريمة في ضوء وعي حداثي يضع نصب عينيه ما يجري على جبهة الصراع من عراك ودراك، وكان له في تأويل الأخبار والأحاديث النبوية، ما يطوق به الاختراقات الملية المسعورة..

استدعاء موضوعات الغيب منهج قصدي تترجح به كفة أهل الإيمان على الجاحدين الماديين

إن منهج ترجيح الكفة من خلال استدعاء موضوعات الغيب الذي اتبعته الرسائل، كان اختيارا فكريا وتربويا يعزز الروح الجهادية التي هدف النورسي إلى غرسها في النفوس من جديد :" إن رسائل النور قد سعت في هذا الزمان لإثبات وجود الجن والروحانيين بحجج قاطعة لتبطل مفهوم المادية الساري سريان الطاعون في البشرية، فنظرت إلى هذه المسائل بالدرجة الثالثة تاركة أمر تفاصيلها للآخرين". [٣٩٦]

الإيمان بالغيب من الإيمان بالله

أكد النورسي الأسس الستة المكرسة للإيمان والتي تعتَدُّ في كليتها بشرط الإستيثاق من حتمية سفور وجه الغيب بكل وعود الخالق الدائم، هذا الغيب الذي طفقت تبلغ عنه رسالات الله، لا سيما الرسالة الإسلامية الأشمل والأوطد..

إن تلك الأسس المنوطة باليقين الروحي الحق هي الإيمان بالله، وباليوم الآخر، وبملائكته وكتبه، ورسله، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى.[٣٩٧] وهي – كما نلاحظ – – أركان روحية تتضمن في جملتها البعد الغيبي التمحيصي..

فركن الإيمان بالله يقتضي التصديق بما لا يحس أو بما لا يعاين – و بالتالي – بما لا يشخص .. وكذلك الحال فيما يخص ركن الإيمان بالملائكة، إذ أمر الملائكة مغيب، شأنه شأن اليوم الآخر، وشأن القدر ،وشأن الكتب، وشأن الرسل، إذ أن ما طفق يقرره الرسل عبر تاريخ بعثاتهم السماوية، ظل موضع طعن وإنكار من قبل الجاحدين في كل

---

٣٩٦ الشعاعات.٣٩٣
٣٩٧ م.ن. ص٣٠٠

بعثة، رغم الدلائل والبينات التي كان الله يمد بها رسله تبليغا لتعاليمه، إذ لم يكن الإيمان بالرسالات ليتهيأ إلا لمن هيأ الله قلبه لعناق اليقين ..

"إن دلائل الوجود الحسي من حولنا تثبت وجود عالم الآخرة" [٣٩٨]

فلا يسعنا أن ننكر ما أفادنا به القرآن العظيم الذي جعل من العقل والبيان التأملي المستنير حجته وأُسَّ برهانه ومصداقية أنبائه وتقريراته، إذ أن انكار تلك الآيات البينات المؤكدة بقاطع الحجة الكونية الظاهرة، انتحار مجاني، وإقرار – لا ينسجم مع المنطق والجبِلَّة – بعبثية الوجود وصُدْفيته واعتباطية ما يكتنفه من نظم متداخلة، متراكبة، معجزة في الدقة والإطراد ..

إن القول بعدمية الكائن وبآنيته، وفنائه، هو قول لا يرتكز على روح.. وإننا إذا ما قيدنا الوجود الإنساني بتجربة حياتية، بيولوجية، محضة، أنتجتها – افتراضا – السببية الوجودية، والصدفة المتوحشة، فكيف لا يحق لنا – وبالنظر إلى هذا الارتقاء الباهر الذي انتهت إليه حياتنا الفردية والكونية ضمن إطار الوحشية والصدفة الذي يزعم الزاعمون أنه أساسها – أن نتساءل عن سر عجز هذه الإعتباطية النمائية التي حققت مرافق هذا الكون وجهزته وعمرته بالمخلوقات التي لا تنحصر أجناسها وأصنافها ومستويات حياتها في لون أو شكل أو نظام، في أن تنشئ له الامتداد الذي يعطي للوجود معنى ومعقولية، ويبعده عن المصير الانسدادي المتوج بالموت كما يتوهم الدهريون ؟.

فإذا ما كفرنا بوجود الجنة مثلا أو جهنم أو بغير ذلك مما أنبأ عنه القرآن من أمور الغيب، فإننا نكون أغلقنا الأفق الرحيب الذي فتحه الدين وأعطى به معنى أبديا لكينونتنا.

إن الكفر بجهنم – وهي مثابة القصاص الذي أناطت به العقيدة سلوكنا غير القويم – هو انحياز للعدم المحض.[٣٩٩]. وهو بالتالي إقرار بهمجية الإنسان الذي لا قامع يكفه عن الخيانة والتعدي على حقوق الغير، إلا إذا أقر بما قرره الله مصيرا للمخلوقات ..

إذ أن الضوابط الموضوعية، الخارجية، لا تصمد طويلا أمام جنوحات الانسان، لو لم يكن لهذا الانسان قوامع أخرى ذاتية، يستمدها من أواصره بعالم الغيب..

---

٣٩٨ الشعاعات ص.٢٨٦

٣٩٩ الشعاعات ص.٢٨٧

الحكمة من وراء تناظر الخير والشر

" إن تقابل الخير والشر في هذا الكون واللذة والألم، والنـــور والظـــلام، والحـــرارة والبرودة، والجمال والقبح، والهداية والضلالة، وتداخل بعضها في بعض، إنما هو لحكمة كبرى، لأنه ما لم يكن هناك الشر فلا يدرك الخير، وما لم يكن هناك الألم فلا تعـــرف اللذة...فقياسا على هذا يمكن أن يعرف كل شيء من جهة بضده، وبوجود الضد يمكن أن تثـــمر حقيقةٌ واحدةٌ حقائقَ عدةً "..[400]

من هنا "كانت جهنم هي السجن الأبدي ". [401]

إن جهنم هي السجن الذي يمضي فيه الأشرار نصاب عقوباتهم .. وكانت الجنة دار الجزاءات الفردوسية..

العبادة تكفل السعادة،لأنها تحول القابليات الفطرية في الانسان إلى أحوال وسجايا

إن الالتزام بالشعائر والمواظبة على الفرائض، وبالتالي على العبـــادة، هـــو المســـطرة السلوكية التي تثبت في الانسان محبة الخير والتمسك بالفضيلة ..فـــ" ـــالعبادة هي التي ترسخ العقائد وتصيرها حالا وملكة ..(وهي) سبب لسعادة الدارين..ولتوجيه الأفكـــار إلى الصانع الحكيم، إذ بالتواصل الفكري والروحي مع الخالق، تتحقق حكمة الوجـــود الإنساني .. [402]

النصر في النهاية هو من نصيب أهل الخير

لقد ثبت أن صراع الخير والشر يحسم دائما لصالح الخير ولو استمر ألوف السنين.. لأن غلبة الشر على الخير تستلزم عبثية القابليات والميول المودعة في استعدادات البشـــر، ليسود العالم وينال السعادة الأبدية في الآخرة..[403]

---

٤٠٠ الشعاعات ص٢٩٠.
٤٠١ الشعاعات ص٢٩٠
٤٠٢ أنظر إشارات الإعجاز ص. ١٤٨.
٤٠٣ صيقل الإسلام ص.٥٤.

الاسلام سينتصر على الماديات ويسود العالمين بسماحته وقابلياته الانسانية الراسخة

وفي هذا السياق لابد من إدراج صراع الاسلام مع الماديات المفسدة في كل عصر ومصر .. بما في ذلك تحامل المادية الغربية في العصر الراهن.. فالعلاقة بين الوجودين الحضاريين علاقة تناف، لأن الغرب المتغطرس يريد ذلك..

ومما يرجح كفة المستقبل لصالح الاسلام - كما يرى النورسي – معطيات، في مقدمتها :

- كون جوهر الانسان جليلا وماهيته رفيعة وجنايته كذلك عظيمة وطاعته وانقياده مهمة..لذا لا يمكن أن لا ينتظم مع الكائنات ولا ينقاد للأوامر..[٤٠٤]

- طبيعة الاسلام وقوته الذاتية المدعمة بالمعرفة والمدنية سواء التي استحصلها في مبتدإ انطلاقته أو التي سيؤسسها في انبعاثه الحتمي الذي بدأه منذ قرنين..(ما بعد القرن الثاني عشر) . [٤٠٥]

- الصدمات والانتكاسات التي تتوالى على المسلمين ستبعث فيهم حمية النهوض ،وستنتهي بإقتلاعهم من مستنقعهم الآسن الذي انحدروا إليه حين ابتعدوا عن جوهر دينهم الحق..

- استعدادهم الفطري الذي صقله التوحيد وأنار الطريق من أمامه، وجعل قابليتهم للتفكير مهيأة، بتهييئ فطرهم المستمدة من بداوتهم.. وما يتعمل في نفوسهم من ميل إلى الإقلاع والإقدام..

- الرغبة في التحضر والتمدن والتروع إلى التجدد والتقدم المادي الذي يتوقف عليه إعلاء كلمة الله التي يأمر بها الإسلام ويدفع إليها الزمان، ويلجئ إليها الفقر الشديد والأمل الباعث للحياة بموت اليأس القاتل لكل رغبة..

-" إن أكرم الخلق بنو آدم، تشهد له استعدادته ومهاراته بذلك[٤٠٦]،، وإن اشرف بني آدم هم المسلمون الصادقون، وهم أهل الحق والحقيقة، تشهد لهم حقائق الاسلام كما ستصدقهم وقائع المستقبل .. وإن أكمل الكل هو محمد ﷺ تشهد له معجزاته وأخلاقه السامية.[٤٠٧]

---

٤٠٤ صيقل الإسلام ص ٥٥.
٤٠٥ انظر صيقل الإسلام ص ٤٩.
٤٠٦ صيقل الإسلام ص ٥٦
٤٠٧ صيقل الإسلام ص ٥٤.

لهذه الاعتبارات .. لا يفتأ النورسي يجزم بأن حقيقة الإسلام هي التي ستسود قارات العالم وتستولي عليها، لما يميز هذه الحقيقة من وجاهة لا يشيح عنها العقل، ولا يصـــد، متى ما انتهت إليه صافية على حقيقتها..[٤٠٨]

فمما غشى نصاعة الإسلام وجلاوته ما ظلت الثقافـــات الأســـطورية والـــذهنيات الخرافية تُراكـــمُـــهُ على مبادئ الدين الحنيف من زيف حملته الأمم والأقوام من وثنياتها ومن نِحَلها التي كانت عليها وأدمجتها بتلقائية في الاسلام، ومارستها على أنها منـــه، ثم أضافَ التَطور الحضاري والتاريخي إليها ما جَدَّ من اعتقـــادات أفرزتهـــا المجتمعـــات الإسلامية المفتوحة على الثقافات الكونية، والمتقلبة عبر أطوار من التبـــدي والانحطـــاط أضاف منسوبا آخر من التشويهات الثقافية والاعتقادية التي كانت تتوغل في العقليـــة المسلمة على حساب نصاعة الاسلام، الأمر الذي أذهب بجوهر الدين بحيث لم تعد معه العقيدة الاسلامية على صعيد الممارسة والاعتقاد إلا جملة من التقاليد الـــتي تتوارثهـــا الأجيال بما يلحق التقاليد عادة من تحوير شكلي سلبي متفاقم..

الافرازات المدنية المادية الضارة ستعمل على تحويل الانسانية إلى الاسلام

لقد طفقت المسيرة الحضارية تفرز مزيدا من فوضاها ومن الإرهاقات التي تخلخلـــت بها كثير من المسلمات المدنية والأخلاقية والروحية في نفوس البشر، الامر الذي أفســـح المجال أمام شيوع السفاهة قيما وروابط، وهو ما سيستمر في زحزحة الإنسانية بعيـــدا عن الدين والفضيلة، لينتهي بها إلى ضرب الأسس ومعاكسة السنن الفطري والإجتماعي كلية، وفي ذلك دفع للإنسانية - بتجرع الغصص ومزيد من التقهقرات - كي تفكر في إيجاد البديل الروحي الذي يعصمها من الغرق، ولن تجد مثل القرآن دستورا يأخذ بيدها ويروِّمُها على مبادئ إلهية كريمة ..

فمن شأن التباينات الاجتماعية القائمة داخل المجتعات المتحضرة من جهة، وتلـــك التي تعمق الهوة باطراد بين البشر في بقاع العالم العريضة، أن تسبب مزيدا من الشـــقاء والكفر بالمثل التي يتبجح بها الإنسان الغربي، الأمر الذي سينعكس في جنوحات لا دينية، لكن ذلك لن يستمر إلى ما لا نهاية، لأن منـــزع الانسان وفطرته يبحثان عن العاصـــم الروحي أبدا، وهو ما يجعل من الإسلام العقيدة المرشحة لاستيعاب العالمين قابلا..

---

٤٠٨ صيقل الإسلام ص ٢٣ .

عوامل سبق أوروبا في العصر الراهن

وإذا ظن بعضهم أن ما ترسخ للغرب من قوة ستوطد غلبتهم وتؤبدها، فإن النورسي يجيبه برؤية مغايرة، يبين فيها عوامل سبق أوروبا إلى المدنية، والشروط الــتي تــوفرت للإنسانية اليوم من أجل أن تتدارك ما فاتها، ويؤكد أن سبب تفوق أوروبا ورقيها هــو العقلنه التي أخذت بها في برمجة أولوياتها، والتصميم الراسخ الذي صاحب تنفيذ نهضتها، والظروف المناخية القارية نفسها الداعية إلى التماسك والنهوض وإلى مد عرى الــروابط وتبادل الخبرات، فضلا عن اطراد النماء الفكري والمعرفي الذي وجهوه وجهــة عمليــة تطبيقية، واستثمروه بحرص وفورية في مجال الصناعة، استجابة لكثرة السكان واشــتداد الحاجة إلى الأرض وإلى استثمارها هي كذلك..

كما أن واقعهم القاسي وما عرفه من مآس وانسدادات كان يحملهم على تكــريس روح التنافس وتنازع أسباب الغلبة، وما لابس ذلك من شروط ظل فيها التعاون وتبادل الفوائد والمكاسب مستمرا بين الفئات والجهات استجابة لدواعي الاتصال بين البلــدان والشعوب ..

وقد نتج عن تطور الغرب استعداد كبير لحصول تطور الأمم كافة، إذ غــدا العــالم بمثابة القرية الواحدة، وصارت منجزاته عامة النفع، تتداولها الأمم في ذات الآن .. زيادة عن شيوع المعرفة واتساع مجالاتها ودنوها من العقول كافة، الأمر الذي سيتيح لنا – لا محالة – معشر المسلمين أن ننهض ونلحق بهم، بل وأن نسبقهم إن حالفنا التوفيق الإلهي، لأن حملهم ثقيل وحملنا خفيف" [٤٠٩]

في فلسفة الجبر والاختيار أو الكسب والإرادة

الشرير فاعل لأفعاله مسؤول عنها .. والخيِّر تجري الأعمال الصالحة على يــده، وهو مجازى عنها

تجري الأعمال والحوادث في هذا الوجود وفق إرادة الله، فلا حركة ولا ســكون إلا بأمره، فالله سخر العباد وهيأهم لفعل الخير والشر ..

---

٤٠٩ صيقل الإسلام ص٥١ .

لقد أقر النورسي أن طبيعة هذا الوجود تتأهل للخير، والتعمير، والنماء، وان الشر هو العدم والفناء .. من هنا كانت أعمال الشر مفضية إلى العدمية، إذ العدم أساس الشرور ، ومن هنا كان الشر طارئا على الكون غير منسجم مع مراميه.. [410]

إن الأعمال الشريرة والعدمية والتخريبية – كما يقرر النورسي – لا تتطلب – أصلا – القوة والقدرة، فالفعل القليل أو القوة الجزئية، بل إهمال واجب ما، يؤدي أحيانا إلى نوع من العدم والفساد . لذا يظن الناس أن القائم بتلك الأفعال الشريرة هو ذو قدرة، بينما الأمر في الحقيقة أنه لا تأثير له إلا من خلال روح العدم التي يجسدها المخرب بسلوكه التدميري، ومع ذلك فليس له من القوة التي يدمر بها ويفسد إلا شرط الكسب الجزئي..

وواضح هنا أن النورسي – حتى وهو يرسي أساس هذا المبدإ – فإنه يسدد سهامه نحو طاقم البغي والطغيان، من حكام تلك المرحلة الذين كان جبروتهم الإرهابي، والمقوض لأركان الدين، يصورهم للناس عظماء وأصحاب قوة..

إن العامة تفسر مثل هذا الأحوال بسذاجة لا تمت إلى الحقيقة بصلة.. الأمر الذي يزيد من عتو الجبارين، وذلك ما يجعلهم يسقطون في وهدة حب الشخصية وما يستتبعها من عبادة للأشخاص عن هوس وانعدام وعي..

فالشرور هي رديف للعدم ".. ولما كانت تلك الشرور ناشئة من العدم، فإن أولئك الأشرار – الذين اقترفوها – يعدون هم الفاعلون الحقيقيون لها..وهذا يعني أن أولئك الأشرار الفاسدين هم فاعلون للسيئات، أما في الحسنات والخير والأعمال الصالحة، ولأنها وجودية، فإن الأخيار ليسوا هم الفاعلين الحقيقيين لها، وإنما هم أهل لكي تجرى الحسنات على أيديهم، فيقبلون الكرم الإلهي.. والقرآن الكريم يوضح هذا بأمره : (**ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك**) النساء:٧٩

الإسرائيليات والفلسفة وروح القرآن العظيم

يقرر النورسي أن المسلمين انخدعوا حين تحولوا بنظرهم إلى الجانب الشكلي من عقيدتهم، وقصروا الجهد على تعهد القشور وتناسوا اللباب والجوهر، الأمر الذي حد من الفائدة التي يفترض أن يجنوها لو أنهم لابسوا عقيدتهم بعمق وحصافة : لقد انخدعنا فتركنا جوهر الاسلام ولبابه، وحصرنا النظر في قشره ظاهره ".[411]

٤١٠ الشعاعات ص٣٢٠.
٤١١ صيقل الإسلام ص ٢٢.

فلقد توهمنا المجازات حقائق، وإدخلنا الخرافات وثقافة الاســرائيليات في الــدين، فحدنا عن العقيدة الصحيحة..

ذلك لإن واقع الجهل الذي ربَطَنا بديننا، جعلنا نتمادى في الابتعاد عن مراميه البناءة حتى بات الدين غريبا بيننا، ومما زاد الوضع تفاقما انحرافنا المعرفي عن أصول هذا الــدين القويم ، إذ أن جهلنا بحقائقه جعلنا نُدْخِلُ فيه من التعاليم والفهوم ما ليس منه، لا سيما ما يسمى بالإسرائيليات، إذ أنزلنا تأويلات الحدس التوهمي وثقافة الاسرائيليات مترلــة الأصول المعرفية المقطوع بصحتها، وأدخلنا الحكايات المتخيلة في فحواه ومزجنا مجازاته بحقائقه، فبخسنا حقه، فجازانا بالإذلال والسفالة في الدنيا ". [٤١٢]

فالمظاهر الشكلية التي يمارس المسلمون بها دينهم جهلا وحيدة عن الحــق، نفــرت الأجانب في الدين الاسلامي وحالت دون اعتناقهم له..

على أنه مما حال ويحول بين الأجانب وبين اعتناقهم الإسلام كما يرى النورسي :

"..التقليد والجهل وتعصبهم وسيطرة القسس عليهم .. فهذه العوائق لم تترك أعــين الأجانب تتفتح لتنعم بنور العقيدة الإلهية الموجهة للعالمين..

أما الموانع التي قامت حيال الإسلام من قِبَلنا فتتمثل – بحســبه – في : الاســتبداد المتنوع، وسوء الخلق، والأحوال المضطربة، واليأس الذي تنجم منه العطالة.[٤١٣].

ومما يكون زاد من توسيع الهوة بين الدين الاسلامي وبين الأجانب، الاعتقــاد بــأن مبادئه تتناقض مع حقائق العلم .. لكن هذا الاعتقاد وهمي، لأن انتشار المفاهيم العلمية والكشوفية بين الأوساط والمجتمعات البشرية لا يفتأ يؤكــد اســتقامة روح الاســلام وانسجام رؤيته للكون والظواهر مع قوانين العلم ومنطق الأشياء والفطرة ..

فمنهج القرآن التوصيلي راعى منطق البداهات وصدر عنها، التماسا لإشاعة الحجــة من غير تكلف ولا اعنات..

لقد راعى القرآن حال المتلقي العادي ومنطقه الحسي، وخاطبه من خلال مقاربــة إعلامية وتنويرية لا تخرج به عن منطق البداهات .. فطريق الاستدلال التي سلكها القرآن قامت على مراعاة " حسيات العوام لأجل إفهامهم وإرشادهم، أي بذكر الدليل وهــو انتظام الكون بوجه يكون معروفا لديهم، وتأنس به عقولهم ..وبخلافه يكــون الــدليل أخفى من المُدَّعَى، مما ينافي طريق الإرشاد ومنهج البلاغة ومذهب الإعجاز".[٤١٤]

---

٤١٢ صيقل الإسلام ص ٢٢.
٤١٣ ص.٢٣
٤١٤ صيقل الإسلام ص.٣٠.

كيف شوه دخول الإسرائيليات وقسم من الفلسفة اليونانية الأفكار والحقائق التي جاء بها الإسلام

مما لا ريب فيه أن النورسي قد تجاوز الأخذ بالمعرفة الفلسفية، لا سيما الوضعية منها، ذلك لأنه ينطلق من ضرورة تأصيل المعرفة النيرة التي منبعها الفحوى القرآني، ذلك المقرر المصون والراسخ العلوية والمترولية..

من هنا كان لزاما على الأمة أن تضع في صدارة منطلقاتها المعرفية : (الوحي) ..

وإذا كان هناك من مضامين هذا الوحي ما يستحق التأويل، فلا ضير من أن يتصدى أهل الذكر إلى النص، يتأولونه ويستنبطون منه أحكامهم ويستنيرون بأنواره..

الرؤية النورسية وتأصيل المعرفة وأسلمتها

إن الرؤية النورسوية بهذا الاشتراط التأصيلي هي رؤية تنادي على نحو أو آخر بالصفاء المعرفي، أو بأصالة الروح والأسس التي ينبغي أن تتوفر للمعرفة الإسلامية..

وإذا تساءلنا عن مدى صواب هذه الرؤية، فستجابهنا – حتما – حقيقة الواقع المعرفي الذي ظل الغرب اليهودي- المسيحي يعمل على ترسيخه، انطلاقا من مبدإ أَنْجَلَةِ المعرفة وطبع المعارف مهما شذت بطابع الكتاب المقدس..

لقد ظلت الانتفاضات المعرفية في الغرب تنطلق من مبدء ارتدادي يسعى دائما إلى التخلص من الانسدادات المعرفية من خلال استدعاء الأصول التي أسست لثقافته ومنجزاته الفكرية، فكانت الثقافة اليونانية و اللاتينية والمقرارات الانجيلية أهم القواعد الخلفية التي ما فتئ الغرب، عبر أجياله وطفراته المعرفية، يتنجز بها كشوفه ووثباته في مضمار الفكر والمعرفة..

ولا عجب أن تحجب هذه الروح المعتدة بتراثها عن الغرب رؤية منجزات الأمم والحضارات الأخرى ..

بل إنه لعجب أن يفتأ الغرب يستلهم المعرفة من حظائر مدنية خارجة عن نطاق الكتاب المقدس والثقافة اللاتينية، ولكنه طفق يصطبغها بألوان تينك المصدرين ويضفي عليها خصوصيتهما، متماديا في الادعاء بامتياز المنطق والزخم التراثي الذي تأثله من مخزون حضارته القديمة وكتابه المقدس..

لقد نشأ ما يسمى "اللوغوسانتريزم " المعرفي، أو المركزية المعرفية من هذا الاعتداد الغربي الذي أعماه عن قول الحقيقة، وجعله يمضي نَهِمًا يسترق الفوائد من تراثات العالمين، دون الاعتراف بذلك، زاعما أن معرفته ومنطقه هما الإطار الذي على كل ثقافة تريد أن تنطلق إلى العقلنة والوثوب الفكري أن تأخذ به..

من هنا توجب علينا أن ندرك الرؤية التي كان النورسي يريد أن يرسيها حين نادى بالخلوص المعرفي الإسلامي ..

لقد كان واثقا من أن القرآن العظيم يتوفر على المنطلقات الكافية، والمنتجة لبناء معرفة اسلامية، تتجنب الوقوع في ميثولوجيا اللاتين، وفي تصورات الكتاب المقدس الملآى بالترهات والأساطير، ومن حتمية المنطق الصوري الإغريقي الذي أسس لما يعرف بالسببية وظاهرها وجعل مفهوم الحتمية يزحزح ذاالإيمان بالخالق عن الحلبة..

إن النورسي بمناهضته المعرفة الفلسفية المادية والوضعية الغربية، لا سيما القديمة منها، إنما يدعو صراحة إلى بناء نوع من اللوغوسانتريزم الإسلامي القائم على تزاوج عقلي روحي، بريء من تفسخات الطرح الغربي المتورط في الدناسة بتأثير مقررات كتابه الذي لم يوار السوءة، و لم يحرص على الاحتفاظ بوقار الوسائط الروحية كما يجب أن تكون مطهرة مبرأة من الشوائب..

النورسي لا يسد باب التلاقح الفكري والتفاعل المعرفي

إن الخلوص المعرفي الذي ينادي به النورسي لا يسد باب التلاقح الفكري البناء، فالحكمة ضالة المؤمن، يأخذها أنى وجدها، لذا رأينا النورسي يستثني الجوانب البناءة التي تمكنت الفلسفة الحديثة من أن تدشنها، لاسيما تلك التي تتماس مع الحقيقة العلمية والعقلية، وهو ما يجعلها تتلاقى مع تحفيزات القرآن العظيم التي تنوه بالعقل، وتدعو إلى توخي الموضوعية، ونشدان الحقيقة..

ولا غرو أن ينادي النورسي بتأصيل معرفة اسلامية خالصة ،مقتنعا بأنها هي المعرفة التي تلائم التطور الانساني وتستجيب لمتطلباته، ذلك لأن النورسي ظل – في كثير من طروحه – يتنبأ بالتلاقي الحتمي بين النصرانية والمسيحية على مبدإ الانتصار لدين الله .

فقد رأى النورسي أن الإحباط الذي يتفاقم من حول الانسانية باطراد داهم سوف يضيق من الشقة بين الروحانيين، وسيوحد بينهم، وسيكون ذلك تمهيدا لعودة السيد

المسيح عليه السلام، هذه العودة التي تجعل الصلة بين الأمة المحمدية وبين رسل الله تتصل وتكتمل ..

فالقيمة الرمزية التي يتضمنها إيمان السيد المسيح المرتقب عليه السلام بالمهدي المحمدي، وصلاته خلفه، هو إيمان بالنبي محمدﷺ ، أي هو الوجه العملي الناقص الذي ينتظر الاسلام من الأمم الكتابية – لا سيما المسيحية– أن تستكمله ..

فقد آمن النبي محمد ﷺ بالأنبياء والرسل السالفين، وجعل ذلك من أسس إيمان أمته، إذ أمة الاسلام هي الأمة الوحيدة التي لا تتعقد إزاء مسألة التوحيد، فكل من دعا إلى الوحدانية على بينة ومن خلال كتاب إلهي من الرسل آمنت به وبجلته وأنزلته منزلة التقديس (**لا نفرق بين أحد من رسله**).. فلا غرابة والحال هذه، أن يكون المآل للإسلام ، وأن تكون المعرفة القرآنية هي الحاسمة والسائدة..

من هنا كان سعي النورسي إلى الدعوة إلى تصفية روح الثقافة الإسلامية مما شابها من تلويثات الفلسفة والثقافة الكتابية غير المطهرة .. ذلك أن أي انجاز معرفي متأصل، ونابع من كتاب ترشحه الدلائل الروحية والعلمية إلى تتويج عالمي قابل، هو من أوكد المهام التي على المسلمين أن ينهضوا بها، دون أن يصدهم ذلك الهدف عن ممارسة واقتناص النير من المكاسب المعرفية الانسانية، أينما وجدوها، فالحكمة نور الله يؤتيها من يشاء، ونور الله لا ينبغي أن يحتكر، أو أن يستغل في ما لا يخدم الانسانية..علما بأن باب العلوم الاستراتيجية، بل وحتى التطبيقية موصد في وجه المسلمين اليوم.. كما ظل دائما..فالغرب يحذر من نهضتهم ويعمل ما في وسعه من أجل حرمانهم من نقل العلم والتكنولوجيا إلى ديارهم .. ولا زالت الوقائع الظاهرة والخفية تفضح مكر الماكرين.. لكن المؤكد أن الأمة باتت اليوم تضع خطاها الأولى على سكة الانطلاقة التي لن تكون هذه المرة –بإذن الله – إلا موفقة.. فقد طال قعود الأمة، وتجرعها للمرارات.. لقد تعلمت، لا سيما وهي تجد نفسها حيال واقع محزن من الخذلان والعراء..

التوجيه الأصيل للمعرفة الاسلامية

لقد تركزت قابليات العرب واستعدادهم الروحي على " معرفة الدين وحده، ولم يك نظرهم المتوجه إلى الكون من نوع التفصيل الفلسفي، بل كان نظر استطراد ليس إلا." [٤١٥]

---

٤١٥ صيقل الإسلام ص ٣٤.

لقد ألهمهم المحيط والبيئة التي استنبتتهم ذلك الذوق المرهف، وربى القرآن العظيم فطرهم النقية، فساروا على فهمٍ للدين والقرآن سوي، وهو ما يَسَّرَ عليهم النهوض بجسيم المأموريات في خاطف من الوقت مكنهم من أن يسودوا أمما ورقاعا من الأرض، وأن ينشروا بينها معرفة نيرة قوَّضت أسس الوثانة وزعزعت أركان المعارف القديمة ..

لكن انفتاح العرب المطرد على الأمم جعلهم يحتكون بثقافات ومعارف نابعة من عقليات ليس لها حظ من إدراك الاسلام ومن وعيه الكوني وحكمته، الأمر الذي سرَّبَ الشوائب المعرفية إلى جوهر الدين – أصل المعرفة الاسلامية ومعينها الأم – إذ لم يعد تحركه مدارك العرب الصافية والتي مكنتها تربية القرآن من أن تتمثله في عهده الأول وتستفيد من أنواره على نحو عملي، إطرادي، بل لقد أضحى التفعيل العقلي للقرآن وللعقيدة مشوبا بمحمولات ثقافية وقيمية جلبتها إلى الحظيرة الإسلامية الأمم والأقوام الأخرى التي تداعت إلى الإسلام، و لم تمكنها الظروف من أن تتطهر مما كان يعلق بعقلياتها من آثار بيئاتها ومجتمعاتها، فكانت النتيجة أن تأثرت حكمة الإسلام وتعاليمه الناصعة الطهر، وفقدت جوهرها الروحي السامي على المدى..

المعرفة الاسلامية ومغبة التفتح على الثقافات الأممية والكتابية بالخصوص

فالأمة العربية التي أخذت بعد البعثة تحتضن الأقوام الوافدة إلى حظيرة الدين الاسلامي مكنت للثقافات الأخرى من أن تندمج في البوتقة المعرفية الإسلامية ،إذ " دخلت معلومات سائر الملل وعلومها أيضا حظيرة الاسلام، ثم وجدت الاسرائيليات المحرفة منفذا إلى خزائن خيال العرب، فأسالت مجرى إلى تلك الخزائن، بإسلام عدد من علماء أهل الكتاب كـ" وهب" و"كعب"، فامتزجت الإسرائيليات بالأفكار الصافية ،وفضلا عن ذلك وجدت الاحترام والتقدير، لأن الذين اهتدوا من علماء أهل الكتاب قد تكاملوا بشرف الاسلام ونالوا به مكانة فائقة، لذا غدت معلوماتهم الملفقة كأنها مقبولة ومسلَّم بها فلم تُرَدَّ، بل وجدت آذانا صاغية لها من دون تنقيد، وذاك لعدم مصادمتها بأصول الإسلام، ولأنها كانت تروى كحكايات لا أهمية لها

.. لكن ياللأسف، قبلت تلك الحكايات بعد فترة من الزمن كأنها حقائق وأصبحت سببا لكثير من الشبهات والشكوك". [416]

---

٤١٦ صيقل الإسلام ص ٣٤.

لقد تلاقت تلك القصص والأخبار الكتابية مع بعض إيماءات الكتاب والسنة، فتقبلها المسلمون على ظاهرها، وعلى ما جاءت عليه، وفسروا الأيات والأحاديث بها، وذلك ما أدخل الزيف في مرصودنا الروحي.. لقد فسر " المفتونون بالظاهر الذين لم يجدوا بسوء اختيارهم مصدرا غيرها، ولم يتحروا عنه، فسروا قسما من الآيات والأحاديث بتطبيق الاسرائيليات عليهما، والحال أن الذي يفسر القرآن ليس إلا القرآن والحديث الصحيح، وإلا فلا يفسر القرآن بالإنجيل والتوراة المنسوخة أحكامهما والمحرفة قصصهما. " [٤١٧]

الظاهريون أدمجوا الشوائب وطبقوا معارف مهجنة على روح القرآن، فأساؤوا للقرآن العظيم

لقد سعى علماء مسلمون - بعد أن تبينوا مدى الأذى الذي ألحقته الفلسفة والاسرائيليات بالفطرة وبالاستيعاب السليمين للمنزول السماوي - إلى أن يفرزوا الفلسفة وأن يميزوا الاسرائيليات عن دائرة الإسلام. لكنهم لو يوفقوا كليا، ذلك لأن الأمر كان من الاتساع بحيث شمل نطاقا مهما من الحقول المرتبطة بالتراث الروحي، وتكرس على أصعدة تأويلية كثيرة وأضحى تعاليم متواترة، بعد أن اعتمد العلماءُ والنقلةُ تلك التعاليمَ، وتوارثتها الإجيال وبنت عليها معرفة ظنت أنها ملِّيَّة خالصة ..

ذلك أنه " لما صرفت الهمة إلى تفسير القرآن الكريم .. طَبَّق عدد من الظاهريين منقولَهُ على بعض الاسرائيليات، ووفَّقوا بين قسم من معقوله والفلسفة المذكورة لمَا رأوا من شموله على المنقول والمعقول، وكذا الحديث النبوي، فبدلا من أن يستخرج المقاصد من عين الكتاب والسنة، استنبط طائفة مطابقة و(أوجد) علاقة بين بعض نقلياتها الصادقة وبعض الاسرائيليات المحرفة وبين عقلياتهما الحقيقية وهذه الفلسفة الموهومة المموهة، ظنا منهم أن هذه المطابقة والمشابهة تفسير لمعاني الكتاب والسنة وبيان لمقاصدهما.. [٤١٨]

إن الابتعاد في فهم القرآن عن منهج الفلسفة شرط للنجاة من براثن الوهم واللاهدى المعرفية..

البلاغة العربية مفتاح فهم الخطاب القرآني

تظل مقومات البلاغة العربية هي الأسس والمفاتيح الأصيلة لقراءة وفهم القرآن.

---

٤١٧ صيقل الإسلام ص.٣٤.
٤١٨ صيقل الإسلام ص٣٥.

من هنا قرر النورسي أن فهم الكتاب المبين إنما يقوم على الواسطة اللفظية التي شكلت جينات(مُوَرِّثَاتٍ إذا صح القول) مادته البلاغية المنزلة، ومغارس زرعه المكرم ..

فالتوسل باللغة وبالبيان القويم الصافي هو الجسر الوطيد الذي ينبغي أن نمر عليه لفهم محمولات كتابنا، وليس عن طريق الفلسفة وما يثقل كاهلها من فذلكات واحتمالات، ومن صناعة منطقية إن دلت على شيء فإنما تدل على استرابة العقل في ذاته وفي مقدراته وعدم الجزم بأهليته لاستبانة الحقائق الكونية الجلية..

يقول النورسي : " من المقرر أن المعنى هو ما صبته الألفاظ في الصماخ نافذا في الذهن، منتشرا منه في الوجدان، مفتحا منه أزاهير الأفكار، وإلا فليس هو ما تسرب في خيالك من احتمالات لكثرة توغل أمور أخرى، أو ما سرقته وملأت به جيبك من أباطيل الفلسفة وأساطير الحكايات، ثم أخفيته في معاطف الآيات والأحاديث، ثم أظهرته ممسكا به في يدك تبرزه وتنادي : هذا هو المعنى، هلموا لأخذه ..فيأتيك الجواب : ياهذا، إن المعنى الذي استخرجته مزيف، عليه علامة التقليد ،يرده نقاد الحقيقة، وسلطان الإعجاز يطرده من ضرب سكته.. [٤١٩]

لقد رأى النورسي أن التفسير حقل مفتوح على الثقافات والبيئات، إذ هي تفسره وفق ناجز معداتها العقلية والفكرية، حيث أن الزمن واحد من الفواعل المفسرة للقرآن، لكن الأفكار العلمية الراجحة تظل من أهم ما يتطابق مع فحوى الكتاب المبين. فالأفكار العلمية تهذب الثقاتفات التي تروج في البيئات والمجتمعات، وبالتالي تهيئ تلك الثقافات لأن ترتقي إلى العلمية، وهناك تتلاقى مع القرآن الذي لا ينطق عن الهوى.. [٤٢٠]

في البحث البلاغي

حدٌّ فقه الخطاب القرآني أن يسلك الطريق اللساني البلاغي.. وليس الطريق الفلسفي

لقد قاد منهج الاقتراب التأويلي الذي سلكه النورسي في بحوثه وتأملاته الفكرية إلى الخوض في موضوع البلاغة واللسان ،و إلى معالجة قضايا فلسفة البيان .. ليقرر -بعد تمرس عميق - أن السبيل إلى استكناه حقيقة الفحوى القرآني إنما طريقها استيعاب أسس

٤١٩ صيقل الإسلام ص ٣٦.
٤٢٠ صيقل الإسلام ص ٣٧.

بلاغة العرب وأعراف منطوقها وليس السعي إلى تحقيق ذلك القصد بواسطة تحكيم الفرضيات الفلسفية ومسلماتها..

لقد تحدث النورسي في المقالة الثانية من كتابه " صيقل الاسلام " عما أسماه عنصر البلاغة، فتناول ظاهرة تَكَوُّنِ الكلام وصلة اللفظ بالمعنى، وظاهرة الترادف وتعدد الدلالة، وطبيعة الصورة ومسار تشكلها في عملية بناء الخطاب .. [٤٢١]

ومن الواضح أن النورسي كان متأثرا بالمدرسة الجرجانية القائلة بنظرية النظم.. لقد عزا للعجمة واستفحال أدوائها، سبب تفاقم الظاهرة الشكلية في اللغة العربية، وذلك حين تركزت الجهود على الجوانب اللفظية، وتناست أن البلاغة هي نظم المعاني .. لقد نوه النورسي بعبد القادر الجرجاني، ووصفه بالعملاق . [٤٢٢]

ومما قرره النورسي في هذا السياق أن تعاطى الأعاجم والدخلاء لصنعة البلاغة العربية قد حول الذوق البلاغي عن مجراه السليقي العربي المطَّرِد في بناء الفكر والإعراب عن المقاصد من خلال فاعلية نظم المعاني، ليضحى ذلك الذوق مأخوذا بعملية صناعة اللفظ والاهتمام بالشكل والقشرة.

فالأساس في الأفكار – كما يقرر النورسي – أنها تجري من خلال انتظام المعاني، أي بواسطة منطق يستوعب الأشياء والمدلولات ويسوقها إلى الذهن على هيئة مرتبة تمكنه من أن يباشر مهمة التوصيل والتبليغ القويمة ..

فالمبتدئون من الأقوام المنتمية إلى الحضارة العربية، وإلى اللسان العربي أعاروا العناية للفظ، متأثرين بالوازع التعليمي الذي كان يستجيب للحاجة اللفظية وتحصيل المرصود المعجمي الذي يوظفونه كلاما وكتابة.. من هنا غدا حب اللفظ والحرص على تقديمه والصدور عنه في المخاطبات، مرضا أصاب الثقافة العربية الإسلامية بالترهل وهوى به في حضيض الصنعة الشكلية..

إن الكلام الحي يشيع الحياة في المدلولات، ويجعلها ماثلة أو ناطقة حيال الذهن، وهذا نتيجة لما يضفيه عليها النطق الخطابي من حيوية وحضور تتشخص به المجردات، وتتماهى من خلاله المعقولات..

فالأسلوب هو القالب المقدود الذي يتمظهر فيه الكلام، لذا كان دور الخيال في بناء المعطى الكلامي شرطا حيويا، إذ أن الإعراب عن الموقف يتخطى الخطية والتماثل العيني

٤٢١ صيقل الإسلام ص ١٠٨.
٤٢٢ صيقل الإسلام ص ٩٨.

الذي تأخذه الأشياء والمدلولات في ساحة الواقع، لينتظمها سلك معنوي يــؤدي فيــه الخيال وظيفة إلحامية وتمثُّلية تمكن ذهن المتلقي من أن يلمس ما يوعز به القائــل، مــن خلال المعطى القولي، دونما استغلاق..

من هنا كانت مراتب الأسلوب تتفاوت بحجم تفاوت مُقَدَّرات الخيال التي يتــوفر عليها كل متكلم، وهو ما تعكسه – من خلال ما تبدعه القرائح – مستويات الجمالية المتباينة التي تتوفر لمنتوج كل مخاطب على حدة ..

فــبنية الخطاب تنتهي إلى سقف بيانيتها حين تتوافق عناصر الخطاب ومواده اللغوية و تتلاحم ثم تتظافر باقتدار وأصالة على أداء المعنى القصدي، فلا يكون بينها حشو ولا نبو ولا تخرج لبنة لفظية منها عن مساقها المعنوي الذي هيأت له ، فعندئذ تستوي البنية الخطابية وتحوز الكمال، وذلك هو ما تأهلت له بتفَوُّق لا مردَّ له الآياتُ القرآنيةُ، إذ " أن جميع الآيات القرآنية يتلألأ عليها هذا الانتظام والتناسب والحسن ". [٤٢٣]

إن البلاغة لا تقتضي الاستواء التصويري والتواتر الحسي والخطي فحسب، بل إنهــا ببساطة تفجُّرٌ بيانيٌ متموجٌ، إذ المعاني تتوالد في تشكيل صُوَرِيٍّ، وتتساوق في طبقــات أدائية متلائمة.. ذلك لأن الموقف الكلامي هو جماع متكامل من الأهتــزازات النغميــة والأحاسيس الوجدانية والتسديدات الفكرية والمؤثرات الخارجية الــتي تتخــذ شــكل استجابات فيزيقية (صوتية) في ضوء قابلية إدراكية تتصفى بها خامية الموقف الكلامي في رسالة يوجهها باثٌّ لمُتَلَقٍّ، وتَتَخرَّجُ المقول في قامتها المكينة ..

فمن هذه البوثقة المعقدة التي ينصهر فيها الكلام وينبثق جملا وسياقات تتأدى بهــا الرسائل والصِّلاتُ القولية، تتولد جزئيات الكلام وتفاريق الخطاب، لتبني شبكة معنوية وحسية (صوتيه) لها فحوى، ومنطق، وصورة أدائية نافذة..

" فمن ذلك النبع ينفجر مسمى الاسم، ومعنى الفعل، ومدلول الحرف، ومظــروف النظم، ومفهوم الهيئة، ومرموز الكيفية، ومشار المستتبعات، ومحرك الأطــوار المشــايعة للخطاب، ومقصود الدال بالعبارة، ومدلول الدال بالإشارة، والمفهوم القياســي للــدال بالفحوى، والمعنى الضروري للدال بالاقتضاء، وأمثالها من المفاهيم، كل منها ينعقــد في طبقة من طبقات هذه السلسلة". [٤٢٤]

---

٤٢٣ صيقل الإسلام ص ١٠٢

٤٢٤ صيقل الإسلام ص ١٠٥.

على أن الأهم في تأدية الموقف الكلامي -بحسب النورسي - أن تراعى العناية بالمقاصد وأن يجري توزيع الاهتمام بالإشارات توزيعا عادلا، بحيث يأخذ كل معنى من المعاني المتزاحمة في مثل هذه المراتب المتفاوتة نصيبه وحظه بنسبة قربه من مركز العرض الكلي الذي سيق له الكلام، وبنسبة خدمته للمقصود الأساس، وذلك ليحصل بتلك المعادلة : الانتظام، ومن الانتظام، التناسب، ومن التناسب حسن الوفاق، ومن حسن الوفاق، حسن المعاشرة، ومن حسن المعاشرة ميزان التعديل لكمال الكلام ".[٤٢٥]

للكلام سفارة وبروتوكولية أدائية مرعية

من الثابت أن **للكلام سفارة**.. ومكونات الخطاب هي الوفد الذي لا يمكن أن تغيب عنا أدوار عناصره ضمن نطاق المهمة المتوخاة.. فوظيفة كل عنصر لا تشترط بروز مكانة ذلك العنصر بالضرورة، إذ أن مترلة ما، قد تبدو ثانوية في سلك الخطاب، تعد مركزية بالنظر إلى قيمة الارتكاز المسند إليها ضمن السياق..

ويدل على هذا الاقتضاء، رتب الكلام ودواعي التقديم والتأخير والحذف والإماء التي تشرطها البلاغة..إذ أن في تقديم هذا العنصر الكلامي أو ذاك أحيانا قصدا تركيزيا يقتضيه شرط الإفصاحُ المبينُ..

فالمقام يقتضي تواشج المكونات الخطابية في ما بينها تحقيقا للإبانة وللاِشراق الجمالي الراسخ..

إن للبيان فلسفة افصاحية متعددة المناحي والمستويات، وهذه الفلسفة تتبدى على صعيد القول الشعري في صورة فنية مخصوصة، وتتبدى على نطاق النص النثري في صورة أخرى.. وهو ما يعكس الرؤية التي تأخذها الحقائق الموضوعية في ذهن ووجدان الباث.. فإذا كان الشعر هو لغة الإيعاز، فيجب أن تغدو صورة الحقائق التي تعرب عنها الشعرية، صورة إيماضية، إشارية، لا تعبأ بتحقيق العلائق والترابطات الموضوعية (الواقعية) التي يظهر بها المشهد الحسي من خلال خطوطه وتجسيماته الشاخصة والمسترسلة في التفاصيل التي تتعين بها أشكال الأشياء وجسومها في عين الحقيقة ..

على عكس النثر الذي يدقق في ماهية الأشياء ويواصفها في كلية أعيانها وقوالبها وجزئياتها وخطيتها وشيئيتها الخارجية أو الحسية..

---

٤٢٥ صيقل الإسلام ص ١٠٧

من هنا كانت بلاغة الكلام الشعري تحتوي على ظلال الحقيقة أو على ما يشبه الحقيقة كما يقول النورسي، لأن رسالة الشعر مناطة بالوجدان، فيما كانت بلاغة النثر تحتفي بالحقيقة العينية، إذ هي تتوجه في مقام أول إلى العقل..

فكما أن للنحو فلسفته التي تظهر في معيار التناسب والتواصل بين مقومات الكلام، فكذلك للبيان فلسفته ومحورها " التمثل بنواميس الحقائق الخارجية ومقاييسها.. أي تمكين قوانين الحقائق الخارجية في المعنويات والأحوال الشاعرة من حيث القياس التمثيلي، وبطريق الدوران وبتصرف الوهم ". وهو ما يجعل " البليغ يتمثل أشعة الحقائق المنعكسة من الخارج كالمرآة، وكأنه يقلد الخلقة، ويحاكي الطبيعة بصنعته الخيالية، وبنقش كلامه..". [٤٢٦]

ولما كانت عملية صوغ الكلام موصولة بالكيفية الدقيقة التي تتراصف بها المعاني وتترابط، بحيث يتولد من ترابطها مدد إدلائي معنوي تتعزز به القابلية الأدائية للخطاب وتتسع طاقة الإعراب، كان على الباث أن يعي باقتدار وبحساسية إفصاحية متناهية، ذلك التحول الدلالي الذي تأخذه الالفاظ حين تمارس عليها القريحة ضربا من التفريغ لتشحنها بدلالات مستجدة، تكتسب بها معطى أدائيا فيه إيحاءات هي جُماع لأصداء المعنى المتجاوز وروح المعنى المودع، وظلالا من هذا وذاك تكتسب بها الخطابية نكهة الجدة والتناسب التي يقتضيها المقام..

فتلقيح المعاني وتشريب بعضها ببعض، وجعلها تتجاذب فيما بينها وتستمد من ذاتها ومن مستتبعاتها قِوامَ إفصاحيتها، هو ما يضفي عليها هالة جمالية ترفل بها طبقات المعنى، ويخرج الكلام من عتبة التسطح، إذ بدون ذلك التلاقح يكون الكلام " عريانا، عاطلا من حلة البيان". [٤٢٧]

فجمالية الكلام تقوم أساسا على سماكة معناه، وعلى قابلية الإيعاز التي يحققها ترادف ألوان الدلالة فيه ..

فالمعنى العاري معرَّض للابتذال والبِلى، لأنه وليد التعاطي الإجتماعي العمومي، ومجاله بطبيعة الحال النثر الحياتي الذي تتداول به الطبقات الإجتماعية شؤون حياتها وتعيينات مشاغلها ..

---

٤٢٦ صيقل الإسلام ص ١٠٨ .
٤٢٧ صيقل الإسلام ص ١٠٩.

أما مظاهر الجدة الأدائية والصون المعنوي، فهي التي تنبثق من قلب اللغة، وتشف عنها هالة القناع المجازي البكر، فتظل في ستر المصونية، لا تسأم العقول من تمليها وهي على تلك الهيئة غير المنتهكة، وإنما تنشط الحاسة في تشرب مكوناتها الدلالية، ويستقرئ العقل في مقومات عذريتها مزيدا من الإفادة ..

فـ"الذي يعطي الكلام عظمة وسعة هو أن المقاصد القادمة من أبعد هدف وأعلاه – وهو مقصد المقاصد– يرتبط بعضها ببعض، ويكمل أحدها نقصان الآخر، ويؤدي الواحد منها حق جاره، حتى كأن وضع هذا في موضعه يُمَكِّنُ الآخر في مكانه، ويقر الآخر في مستقره .." [٤٢٨]

فالتعالق المعنوي من أهم وسائل بناء المقاصد، وجعلها تتكشف على نحو استعاري، وذلك هو ما قصد إليه الجرجاني بعبارته " معنى المعنى.." [٤٢٩]. وذاك هو أيضا ما نوّه به النورسي وصدر عنه في ما كتب بالعربية على الأقل..

ذلك أن الفحوى الذي يهدف إلى بنائه خطاب ما، يقتضي – ضرورة – أن تتواطأ معطيات السياق جمله في التدليل عليه والإدلاء به..

ولا يمكن في هذا الصدد أن نعتبر تواتر إشارات بعينها أو بمضمونها، يعني حتما التكرار، ذلك " لأن لكل أصل من الأصول وإن لم يكن له ارتباط بالذات، وقَصْدٌ بالنتيجة الرفيعة، فهو في الأقل يهزها ويكشفها إلى حد ما، فكأن الكلام يشير بتباين الأصول – التي هي مظهر ومرايا – وبوحدة النتيجة والمتجلّى، إلى تجرد المقصد وسُمُوِّه، واتصال قوته الحياتية بحقيقة الحياة الكلية، حياة العالم المسماة بالدوران العمومي." [٤٣٠]

من هنا كان لابد أن يرى النورسي في ما ظل يحسبه الظاهريون تكرارا لبعض مواضيع القصص القرآني، أنه ظاهرة اطرادية وليس بتكرار .. إذ أن لكل سياق معطى إعلامي جديد .. ولابد أن تلون سياقات القصة القرآنية إنما هو توسيع في المرامي وإضفاء للمساحة الإعلامية التي يريد القرآن أن يدلي بها للمتلقي..

وإذا ما وقفنا عند قصة موسى مثلا، فإننا سنجدها قد سيقت متفرعة، وأنيط كل سياق منها بغرض ترشيدي معين.. " لقد جاءت أشبه ما تكون بتفاريق العصا التي وضعها القرآن بيده البيضاء، فَخَرَّ سحرة البيان ساجدين لبلاغته." [٤٣١]

---

٤٢٨ صيقل الإسلام ص ١١٠.
٤٢٩ أنظر كتابه دلائل الإعجاز
٤٣٠ صيقل الإسلام ص.١١١.
٤٣١ صيقل الإسلام ص ١١١.

البلاغة توصيل رشيد.. والموقف الكلامي يقتضي مراعاة أطراف التواصل جملة

على أن سلاسة الكلام إذا ما تجاوزت حال الهمود ورتابة الحركة والخطية التي لا تتقدم إلا على مواطئ التوقع والانتظار البديهي، هي سلاسة راكدة، آسنة، لا حياة فيها، إنما السلاسة الحية، هي المتدفقة، الوثابة، المشرئبة نحو أكثر من أفق في ذات الموقف..شريطة أن لا تخل بالأداء وتُعَمِّيَ عن المقاصد من خلال بترها المعاني وتكسير وحداتها.." إذ يلزم لسلامة السلاسة تميُّز مستقر القصد، وتعين ملتقى الغرض".[٤٣٢]

كما أن الخطاب بما هو افصاح حميم ومستوعب لرسالة ما، لابد وأن يُتحوط له الباثُّ بما لا يعيق رسالته عن أن تنتهي إلى قصدها ..

من هنا وجب توفر لوازم الإبانة والتبليغ حتى يضمن الخطاب شروط الصحة والبيان..وذلك بمراعاة أطراف الموقف الكلامي، لاسيما المرسل والمرسل إليه.

كما لا ينبغي تجاهل طبيعة الرسالة والقصد الخطابي والمقام الذي يحف بالمتخاطبين والمطلب الذي يستهدفه الخطاب ".. فإن كان الكلام حكاية، فيجب على المتكلم فرض نفسه في موضع المحكي عنه، إذ لابد من الحلول في المحكي عنه، والنزول ضيفا إلى قلبه، والتكلم بلسانه لدى تصوير أفكاره وحسياته..

" لقد قيل أنظر إلى القول دون القائل، ولكني أقول : أنظر إلى من قال ؟ ولمن قال ؟ وفيم قال ؟ و لم قال ؟ إذ يلزم مراعاة هذه الأمور كمراعاة القول نفسه في نظر البلاغة، بل هذا هو الألزم."[٤٣٣].

لقد ظل النورسي يلح على استيفاء جملة الشروط التي تتجلى من خلالها العملية التوصيلية، وطفق يؤكد ذلك في مواطن أخرى، حيث يقول :

إن منابع علو الكلام وقوته وحسنه وجماله أربعة : المتكلم والمخاطب والمقصد والمقام، لا المقام فقط، كما ضل فيه الأدباء.

ويتحدث عن أهمية معرفة قصد المتكلم فيقول :

إن الكلام لفظه ليس جسدا بل لباس له، ومعناه ليس روحا بل بدن له . وما حياته إلا من نية المتكلم وحسه، وما روحه إلا معنى منفوخ من طرف المتكلم، فالكلام إن

---

٤٣٢ صيقل الإسلام ص ١١٢.

٤٣٣ صيقل الإسلام ص ١١٥

كان أمرا أو نهيا فقد يتضمن الإرادة والقدرة بحسب درجة المتكلم، فتتضاعف علوية الكلام وقوته.."[434]

وواضح أن النورسي يصدر في تحديداته التوصيلية هذه عن تقريرات أسلافه من البلاغيين، لا سيما الجرجاني .. بل لقد جاءت نظرته البلاغية متوسعة، شملت أطراف العملية التوصيلية، من باث ومتلق، وموقف وموضوع، وهو ما جعله يتقاطع، أو يستدعي النظرية البلاغية عند بياني ومفكر مرموق هو حازم االقرطاجني، فقد استجمع القرطاجني أيضا للعملية التوصيلية عناصر الموقف الكلامي بما فيها موضوع الرسالة، وشرط العناية بها في جملتها من أجل تحقيق الموقف التبليغي الفني يقول القرطاجني :

الكلام إنما يهيأ للقبول من جهة ما يرجع إليه، وما يرجع إلى القائل، وما يرجع إلى المقول فيه، والمقول له.. [435]

وينهي النورسي مقالته نهاية تعليمية واضحة، وذلك بالإرشاد إلى مستويات من البيان والبلاغة أساسية في تحقيق العملية الأدائية، فقد قدر أن هناك مستويات أسلوبية ،بيانية ،عرفتها البلاغة العربية من خلال كتابة أبرز رجالات البيان الذين اشتهروا في التراث ..

وقد ميز النورسي مستوى أولا سماه الأسلوب البياني المجرد، وجعل ممثله من الكتاب، أو النمدوذج الذي يحيل عليه في هذا الشأن هو السيد الشريف الجرجاني، وهناك الأسلوب المزين وممثله كما يرى النورسي عبد القاهر الجرجاني، وهناك الأسلوب العالي، ورواده من أمثال السكاكي والزمخشري وابن سينا.. ويشفع النورسي هذه التوجيهات بنصائح تحض على وجوب استخدام الأساليب في مجالاتها المناسبة ووفق أعراضها المنشودة..

ومن غير ما شك أن النورسي هنا يتوجه بنصائحه التعليمية إلى الأمة قاطبة، وإلى شعوبها المستعجمة خاصة، مقربا منها الوسائط التثقيفية وأسماء الأعلام التي تفيدها في استيعاب لسان قرآنها العربي المبين..

لقد نظر النورسي إلى البلاغة على أنها جهد له ارتكاز عقلي يعتمد على المهارة ودقة الصنعة، وسداد التخريج، وله ارتكاز شعوري آخر مناطه القابلية والقريحة والدفق والذائقة..وهو ما تجسده على مستوى الخطاب مسحة البديع والمحسنات اللفظية التي تندّ – غالبا– عن تلقائية، وعدم قصد، وعن عفوية، أو ما يشبه العفوية..[436]

---

٤٣٤ المثنوي العربي النوري ص.١٥٦

٤٣٥– حازم القرطاجني ،منهاج البلغاء تحقيق بلخوجة . طبعة تونس.

٤٣٦ انظر صيقل الإسلام ص.١١٥.

والواضح أن النورسي خاض بدوره في الحديث عن مسائل البلاغة واللسان، جريا على عرف السلف، أؤلئك الأبرار الذين باشروا خدمة اللغة العربية ومعياريتها منذ أن شع الاسلام بين جوانحهم وأدمجهم في حظيرته، وجعلهم يستشعرون قوامة انتسابية أصيلة، كان من نتائجها هذا الميراث الباهر من المنجزات التي قدموها لدينهم الحنيف..

فلا غرو أن يتحدث النورسي عن هذه المشاغل أو العلوم الآلية التي كانت صلتها بالقرآن عضوية .. ثم إن النورسي – شأن كل مسلم – كان يرى في تفعيل اللغة العربية من هذا المنظور الارتقائي، والإحيائي، واجبا من صميم الدين.. وهكذا تتجلى الرابطة الحميمة بين الاسلام والعروبة كما أرسى أسسها القرآن..

النورسي يتمزق ألما من انحطاط ورثاثة مستوى المعرفة الذي تلازمه الأمة في قرن الخوارق العلمية

ولقد كان النورسي – شأن شيخه الغزالي – يعي، بأسىً وتَـأَذٍّ، ما للتحجر العقلي من ضرر على الدين، فقد كانت الذهنيات القاصرة تعيش في عهده – القرن العشرين – على ترديد معارف وهمية تجاوزها الزمن، بحيث بات التمسك بها أو التوقف عندها معرة جهل ووصمةعجز وإعاقة مُرْدِيَة، لأنها معرفة محنطة تتجاوز بآثارها السيئة نطاق الأفراد لتطال الأمة وتسيء حتى للعقيدة..

من هنا كان النورسي يستنكر ويضيق بموقف الزماتة التعسة الذي كان يقفه علماء مسلمون كثيرون حيال مسائل معرفية بت فيها العلم وحسم أمرها

لقد جاء استنكاره ذلك حَميةً للدين ونعرةً عنه، ولم يكن – قط – تظاهرا بالمعرفة لذات التظاهر، إذ أنه كان يريد للناطقين باسم الاسلام والمتشحين لردائه أن يكونوا على مستوى من الاستنارة التي من شأنها ليس فقط تنوير الأمة، ولكن شد الناس من الملل والنحل الأخرى إليها، تأثرا بمستوى الرشاد المعرفي الذي ينبغي أن يتجمل به المسلمون، لا سيما العلماء .. إذ أن طبيعة عقيدتهم طبيعة نيرة، آخذة بمبادئ العقل.. لها قابلية الاستقطاب من غير ما ختل أو استدراج..

لقد كان رائده في هذا المجال شيخه العزالي في تصويب الأفكار والقناعات، فقد تصدى مثلا لتسديد مسائل علمية كانت عقول المسلمين تحرفها، وذلك حين راح يبث فتواه بين الناس والتي مفادها أنه من أنكر أمرا ثابتا بالبرهان القطعي ككروية الأرض

بحجة الحفاظ على الدين، فقد جنى على الدين جناية عظمى، إذ هذا ليس وفاء للإسلام، بل خيانة له.. [٤٣٧]

لقد عاش النورسي ما عاش العزالي حيال علماء عصره، إذ أن الاستنارة لم تكن تسعف كثرة من أولئك العلماء، وتهيئهم للعمل على الترقية والتطوير، الأمر الذي أضر بالعقل الجماهيري، وحد من حركته، بسبب جمود أولئك العلماء الذين ظلوا عبر العصور مناط قدوة سيئة للجماهير.. لقد ثبتوا بأفكارهم عند مسلمات – أصل أكثريتها ينتمي للإسرائيليات – وطفقوا يعتقدون أنها من الشرع، وما هي في حقيقتها إلا مسلمات ظنية أو مؤولة تأويلا فاسدا لا غير..

التقاعس عن تأدية الشعائر سبب انتكاسنا الحضاري

يسجل النورسي في مضمار حديثه عن واقع انتكاسنا وتَعَفُّرِنا الحضاري المقيت، أسبابا في مقدمتها اهمالنا لثلاثة أركان من أركان الإسلام هي : الصلاة والصوم والزكاة..

إن تقاعسنا عن أداء الواجبات الروحية قد باعدنا عن الله، و – من ثمة– حال بيننا وبين العز النفسي والروحي الذي يستمده المؤمن من تمسكه بمبادئه، الأمر الذي تولد عنه هذا الأمتهان الفظيع والمنكر لذواتنا، وما لابسه من واقع رسوفنا في طين الخصاصة والجهل والتوحش الروحي والرزوح تحت العدوان..

عفونة المناخ السياسي .. وتأثيرات الغرب هما مصدر إحباطاتنا

ومن جهة أخرى يعترف النورسي أن المناخ السياسي الذي كان يسود بلاده – ومن ثمة بلاد المسلمين كافة – في مطلع هذا القرن، إنما كان مشروطا بتنفذ إرادة الغرب في الحياة العامة وفي إدارة شؤون البلاد وتحريك أحجار السياسة القومية وبيادقها.

." إن السياسة الحاضرة لاستنبول شبيهة بالانفلونزا يسبب الهذيان، فنحن لسنا متحركين ذاتيا، بل نتحرك بالواسطة، فأوروبا تنفخ ونحن نرقص هنا، فهي تلقن بالتنويم المغناطيسي، ونحن نتصورها نابعة من أنفسنا ونجري إثر تلقينه بتخريب أعمى أصم، فما دام المنبع في أوروبا، فالتيار القادم إما سيكون تيارا سلبيا أو ايجابيا.." [٤٣٨]

---

٤٣٧ صيقل الإسلام ص ٧٠.
٤٣٨ صيقل الإسلام ص٣٦١.

لقد كان النورسي على وعي بما يتوزع الأمة من أهواء تتجاذب مقادها ، وتريد أن تسري بها في دياجر الليل البهيم.. فقد كان يسوؤه أن يكون كلا التيارين المتزاحمين على قيادة الأمة، وإن تباينا في المشرب، إلا أنهما معا موصولان على نحو أو آخر بـــالغرب، وهو ما يجعل من عملية تحرير الأمة وضمان انطلاقتها أمرا ميئوسا منه..

لقد صور النورسي حال الفريقين من الساسة المتنازعين لمقادة الأمة تصويرا تشبيهيا، فبين مدى ارتباط كل منهما بدلالته :

" ..فالذين يتبعون التيار السلبي هم كالحرف الذي يدل على معنى في نفس غيره، ولا يدل على معنى في نفسه.. بمعنى أن جميع أفعاله ستكون لصالح الخـــارج مباشـــرة، لأن إرادته لا حكم لها، فلا تنفعه النية الخالصة .. أما التيار الآخر الإيجابي فيلبس لبوس التأييد والموافقة من الداخل، فهو كالإسم الذي يعرف بأنه ما دل على معنى في نفسه، فأفعالـــه لنفسه ولكن ما يترتب عليها للخارج، إلا أنه لا يؤاخذ عليه لان لازم المـــذهب لـــيس مذهبا.." [٤٣٩]

وواضح أن النورسي يقدر هنا النتائج البئيسة التي تتحقق للأمة على يد انظمة تغلب عليها الروح الوطنية، فتلك الأنظمة تكون أفضل من تنفذ السلط المتغربة عديمة الحـــس الوطني.. أو المدخولة.. فالنظام الوطني وإن باين حكمه حكم الاسلام في أصعدة كثيرة، إلا أنه يظل مفيدا للشعب والأمة بما ينجزه من مكاسب .. إلا أن العدالـــة القصـــوى والتطهر التام لا يتحقق إلا إذا كانت الحكم على وفق تعاليم رب العالمين..

فمن خلال هذه مثل الإلتفاتات، لا نفتأ نرى إشارات النورسي تقوِّمُ المناهج الدنيوية وتتابعها، ذلك لأنها كانت تصدر عن رؤية موضوعية لا يفوتهـــا أن تقـــدر الأشـــياء بأقدارها.. وكل ذلك تحسسا للطريق أمام الإسلام..

* * *

---

٤٣٩ صيقل الإسلام ص ٣٦١.

الفصل التاسع

المرأة.. على طريق الخير والشر

يقرر النورسي أن الحجاب حكم قرآني تقتضيه فطرة المرأة.

فالحجاب بالقياس إلى المرأة له من الدواعي ما يبرره ليس شرعيا فحسب، ولكن حتى بمنظور رغبة المرأة نفسها .. فانحصار الجمال -مثلا- في نسبة قليلة من النساء يزين للمرأة وضع الحجاب، تلافيا للغيرة، وسترا للدمامة أو لآثار السن والجفاف البدني ..

بل إنه حتى المرأة الحسناء – إذا لم يفسد طبعها وتضعف أخلاقها – تنفر من نظرات الجوع والشبق التي تصوب إليها متلصصة نابشة في جسدها عن مواطن الشهوة والنزوة..

فرفع المدنية المعاصرة السفيهة للحجاب وإفساح المجال للتبرج يناقض فطرة المرأة .. بخلاف حكم القرآن الذي يصون المرأة من المهانة والسقوط، ومن أن تنتهكها العيون وتمارس تدنيسها وامتهانها، وبالتالي ابتذالها واسترخاصها من خلال وضع الاستعراض الإرادي الذي تتخذه المرأة بعريها..

كما إن رابطة الزواج لا تجمع الذكر والأنثى في الحياة الدنيا فقط، ولكنها ستستمر هناك أيضا في عالم الآخرة .. من هنا توجب على المرأة أن تخص زوجها وحده بجمالها ومفاتنها، وتقصر محبتها عليه كما هو مقتضى الانسانية .. فـ"الويل والثبور لذينك الزوجين الشقيين اللذين يقلدان بعضهما البعض الآخر في الفسوق والفحشاء، فيتسابقان في دفع أحدهما الآخر في النار".[٤٤٠]

---

٤٤٠ اللمعات ص.٣٠٢.

ثم يتحدث النورسي عن مغبة السفور في مجتمع مختلط، وما يسببه من زيـــغ، إذ أن النفس التي قبلت بوضع العري بين الناس، لا ترعوي و لا تصمد طويلا أمام دواعـــي الاحتكاك، خاصة وأن الشهوة ستجد في فسحة الانتقاء ما يلبي توقانها ..

"..إن التبرج والتكشف يخل بما ينبغي أن يكون بين الزوجين مـــن احتـــرام ومحبـــة متبادلة، حيث تلاقي تسعة من عشرة متبرجات أمامهن رجالا يفوقون أزواجهن جمالا، بينما لا ترى غير واحدة منهن من هو أقل جمالا من زوجها، ولا تحبب نفســـها إليـــه. والأمر كذلك في الرجال، فلا يرى إلا واحداً من كل عشرين منهم من هي أقل جمـــالا من زوجته، بينما الباقون يرون أمامهم من يفقن زوجاتهن حسنا وجمالا، فهذه الحالة قد تؤدي إلى انبعاث إحساس دنيء وشعور سافل في النفس، فضلا عما تســـببه مـــن زوال ذلك الحب الخالص وفقدان ذلك الاحترام .."[441]

لقد يسر واقع التعري على ذوي النفوس المَرَضية السقوط في مأثم هتـــك المحـــارم، فالتبرج والسفور الجسدي من دواعي تهييج النفس الحيوانية حتى لدى بعـــض المحـــارم السافلين، فمثل هذه النظرة سقوط مريع للانسانية تقشعر من بشاعته الجلود".[442]

وينبه النورسي إلى الفرق بين واقعنا وواقع أوروبا من حيث النظـــرة إلى الشـــرف وضوابطه .. بالإضافة إلى ما هنالك من عوامل أخرى لها تأثيرها على نفسية وأخـــلاق وأمزجة الناس .. فـــ"طبائع الأوروبيين باردة جامدة كمناخهم، أما هنا في بلاد العـــالم الاسلامي خاصة، فهي من البلدان الحارة قياسا إلى أوروبا، ومعلوم مدى تأثير البيئـــة في أخلاق الانسان . ففي تلك الأصقاع الباردة ولدى أناس باردين قد لا يـــؤدي التـــبرج الذي يثير الهوى الحيواني ويهيج الرغبات الشهوانية إلى تجاوز الحدود، مثلما يـــؤدي إلى الإفراط والإسراف في أناس حساسين يثارون بسرعة في المناطق الحارة" .[443]

ومما لاشك فيه أن طبيعة المجتمع المعاصر، حيث عمت دواعي الاختلاط بين الجنسين وفي مختلف الأصعدة، قد يسرت من عملية مَدِّ العلائـــق اللاشـــرعية بـــين الطـــرفين، فالزمالات في العمل والدراسة وفي الجيرة وفي النقل ومجال المعاملات الأخـــرى .. قـــد كفلت لذوي النزوع الانحرافي أن يتعاطوا الآثام بيسر، إذ أن مباشرة المرأة لرفيقها يوميا بعيدا عن جو الحرمة البيتي، وفي مناخ اجتماعي وثقافي أضفى على معنى الفعل الجنسي

---

٤٤١ اللمعات ص.٣٠٢.

٤٤٢ اللمعات ص.٣٠٣

٤٤٣ اللمعات ص .٣٠٤.

طابعا ترفيهيا لا صلة للإخلاق به، جعل من الخيانة الزوجية سلوكا شائعا ومطروقا في أحاديث أوساط الرجال والإناث ..

بل لقد مضى المجتمع بعيدا في طريق الغواية والفحشاء، إلى حد مقارفة الشذوذ الجنسي بالمجاهرة .. كل ذلك تأسيا بأوروبا..

في هذا الوضع تجد المرأة السافرة نفسها قد أحلت جسدها وشرفها منذ المنطلق في محل العرض، إذ لا يتورع المتعامل معها، ولو في خرجتها السوق، عن أن يطلب حاجته منها دون أن يجد في ذلك حرجا ما دامت ثقافة العري قد تمادت في تشييء المرأة وجعلها طعاما عموميا يناله الجائع على الطريق..

وفي مقابل ذلك فإن المرأة المحجبة تجد في حجابها ما يكسر نظرة التطلع إليها، إذ أن الحجاب علامة صَدٍّ وتدليل على النهج التصوني الذي اختارت المرأة أن تسير فيه، لا يُتَصَوَّرُ أن يجرأ معه أحد على تجاوز عتبة اللياقة، اللهم إلا إذا ندَّتْ عن المرأة المتحجبة نفسها بوادر تطمع الآخر فيها.. إذ لا ننسى أن الحجاب قد استخدم أيضا للتمويه والتستر على الغواية.. لكنه يبقى مع ذلك، دليلا عرفيا وأخلاقيا على الاستقامة وعلى التمسك بالطهر، وعلى التصون..

ثم يلتفت النورسي بعد هذا إلى تسجيل حقيقة أخرى تتعلق بالنتائج والآثار السيكولوجية المترتبة على وضع الاختلاط والعري المبذول .. فالرغبة الشهوية أو الفحولة الرجالية تنكسر على إيقاع تَوَطُّدِ ظاهرة التعري الأنثوي، الأمر الذي ينعكس بالسلب على عملية الإنجاب والإنسال..

وما دام جمال جسد المرأة هو بمثابة موسم الربيع قياسا بفصول السنة، توجَّب على المرأة أن تصونه وأن لا تبتذله أو تتعجل تجفيفه بإتاحة حماه للطراق وللأرجل تدوسه.. " ينبغي للمرأة الحسناء استعمال جمالها على الوجه المشروع ليظل ذلك الجمال الفاني خالدا، دائما، بدلا من جمال لا يدوم سوى بضع سنين، فتكون عندئذ قد أدت شكر تلك النعمة، وإلا ستتجرع الآلام والعذاب في وقت شيخوختها، وستبكي وتندب على نفسها يائسة، نادمة، لشدة ما ترى من استثقال الآخرين لها وإعراضهم عنها."..[٤٤٤]

ويشخص النورسي لون الزينة والرعاية التي توائم جمال الحسناء وتديمه، وذلك بتحليها بأداب القرآن.. فـ"إذا زين ذلك الجمال بزينة القرآن الكريم، وروعي الرعاية

---

٤٤٤ اللمعات ص.٣٠٦.

اللائقة ضمن نطاق التربية الاسلامية، فسيظل ذلك الجمال الفاني باقيا- معنويا- وستمنح المرأة جمالا هو أجمل وأبهى وأحلى من جمال الحور العين في الجنة الخالدة، كما هو ثابت في الحديث الشريف"..[٤٤٥]

لقد أقر النورسي أن المرأة تمارس على شخصية الفرد تأثيرا كبيرا ومستمرا مدى حياته، من هنا وجب تَصَوّنها إدامةً لعلاقة المحبة والاحترام والتوقير، إذ أن التهتك مدعاة لتخطي كل ذلك، والانتهاء إلى منطقة الاستخفاف واللا تقدير، كنتيجة يفضي إليها حتما الارتواء غير الشرعي.. أما تأثير المرأة على البيت وعلى النشء فإن النورسي يقرّ أنه أعمق الأسطر التي ترتسم على صفحة الوجدان، في حياة كل مخلوق بشري..

لقد كان له في تجربته مع والدته وصلتها العاطفية به ما كشف عنه بقوله:

"..إن أرسخ درس أخذته، وكأنه يتجدد علي، إنما هو تلقينات والدتي رحمها الله ودروسها المعنوية، حتى استقرت في أعماق فطرتي وأصبحت كالبذور في جسدي، في غضون عمري الذي يناهز الثمانين رغم أني قد أخذت دروسا من ثمانين ألف شخص، بل أرى يقينا أن سائر الدروس إنما تبنى على تلك البذور.." [٤٤٦]

إن حنان المرأة وشفقتها التي تغدقها على ولدها، إنما هي في الواقع أظهر دليل على بطولتها وتضحيتها العظيمة دون انتظار لأجر ولا عوض..

ويظل الإخلاص الروحي والديني من أزكى شمائل المرأة التي تضمن سعادتها الشخصية والأسروية والمحيطية قاطبة..

إن سلامة الحياة الأسرية وبُعْدَها عن الهزات والتوترات التي تنتج عن انعدام العاصم الروحي موكول بالمرأة وبوظيفتها داخل بيتها .. من هنا كانت الأم هي حجر الزاوية في كل نهضة..

"إن حياة الأسرة التي تتربى في أحضان المدنية الحديثة، معرضة — غالبا —للانهيار والفساد، حيث تبنى العلاقة فيها على صحبة مؤقتة يعقبها فراق أبدي.".[٤٤٧] ومما يسجله النورسي في هذا المجال، قيام منظمات سرية بدور هدمي داخل المجتمع التركي، تعمل على ارساء دعائم التحلل الخلقي والغواية الجنسية، وهو ما توقع النورسي معه إلحاق ضربة قاصمة بأخلاق الأمة ودينها..

٤٤٥ اللمعات ص.٣٠٦.
٤٤٦ اللمعات ص .٣٠٩
٤٤٧ اللمعات ص.٣١١.

المرأة مخلوق مبارك يعدم بالفطرة قابلية الفسق والفجور

من هنا راح النورسي يحذر من عواقب ذلك التخريب، ليخلص إلى تأكيد براءة المرأة وطبيعتها الطاهرة بالفطرة، إذ إن روحها لا تقتحم الفساد إلا إذا دفعتها إليه عوامل الإفساد بمختلف أنواعها ومصادرها، لا سيما تلك التي لبث الغرب المتهتك يصعد منها ويستهدف بها شرف المرأة، تحت دعاوى الدفاع عن حقوقها، والنضال من أجل تحريرها، وكل ذلك غايته الزج بها في دوامة العراك الذي لا عزة ولا مجد لها فيه..

" إن النساء مخلوقات مباركة خلقن ليكن منشأ للأخلاق الفاضلة، إذ تكاد تنعدم فيهن قابلية الفسق والفجور للتمتع بأذواق الدنيا، بمعنى أن النساء نوع من مخلوقات طيبة مباركة، خلقن لأجل قضاء حياة أسرية سعيدة ضمن نطاق التربية الاسلامية..[٤٤٨]

لقد تسفه معنى الاخلاق والشرف في أوساط الانحلال، بل لقد بات معنى الانسانية نفسه مدخولا لا سيما في مجتمعات الغرب، موئل الثقافة اليهو- مسيحية.. بحيث أضحى يتضمن مبدأ الحق في الغواية المعلنة .. فاقتراف الفاحشة حق من حقوق الانسان لأن القانون في المجتمعات الغربية يتدرج متسارعا لكفالة مشروعيته..الأمر الذي يجعل العقل يتبلبل، ويتساءل في مرارة عن حقوق الجماعة التي هي الجانب الأكثر تمسكا بالفضيلة في المجتمعات..

أما الإسلام فقد أمر بالاستتار إذا ما وهن وازع الاستقامة في روح المخلوق.. وبذلك قمع الاسلام الفاحشة ومنعها من أن تنجم بقرنها، وإلا أتت على الأخضر واليابس، لأنها أخطر وباء يسري بين الأوساط..

جمال المرأة نعمة قابلة لأن تتحول إلى نقمة إذا لم يصنها وازع الإيمان

ولما كانت المرأة هي المخلوق الذي جسد الله فيه قابلية الجذب ،وجَعَلَ رقة القلب وجمال الخلقة هي وسيلة القرب منه والسبيل إليه، فلا شك كانت مسؤولية المرأة كبيرة حيال صون تلك النعمة التي حباها الله بها عن الإهدار وحفظها عن الابتذال ..

فالجسد عنوان للروح، وتحصينه بما يضمن حرمته وشرفه هو صون للروح وللكرامة الانسانية التي ترتبط – في قوة – بمكانة المرأة وبكرامتها، اعتبارا لما تلعبه المرأة في حياة الأمم والشعوب من دور مناط بتخريج الأجيال وصَكِّ القيم ..

٤٤٨ اللمعات ص.٣١٢.

من هنا أهاب النورسي بالمرأة الجميلة أن تقابل مِنَحَ الله بالشكران العرفان، لا سيما إذا تجسدت تلك المنح في حسن المطلع وفي الاهاب الحسِّي الجاذب..إذ " ما دام الجمال نعمة مهداة، والنعمة إن حمدت عليها زادت، وإن قوبلت بالنكران تغيرت، فلا شك أن المرأة المالكة لرشدها ستهرب بشدة وبكل ما لديها من قوة من أن تجعل جمالها وسيلة لكسب الخطايا والذنوب وسوق الآخرين إليها.. وسيتحول ذلك العطاء إلى قبح دميم وجمال منحوس مسموم، وستهزم بلا شك إذ تجعله – بنكران تلك النعمة المهداة –مدار عذاب وعقاب..".[٤٤٩]

بل لقد رأينا النورسي يدأب على حض المرأة على التصون والمحافظة على شرفها، والضن بملاحتها من الإهدار أو أن تكون تلك الملاحة وسيطا للإغواء .. من ذلك تسجيله لحادثة كان سببها تعري إمرأة بعض الكبراء، أغوت فتنتها بعض السابلة فتعرَّض لها وهي تمر به في الشارع..لقد اتخذ النورسي من تلك الحادثة شاهدا يجدد فيه المناداة بقيم التصون، ويشدد على دعوة الستر التي كانت شعاره، والدعوة إلى التزام الحشمة وآداب الاسلام التي صانت المرأة عبر الدهور وجعلتها نفاسة ومصدر إلهام ورحمة وعفاف، لقد استثار النورسي تلك الحادثة في بعض أحاديثه وما اشتجر حولها من جدل عام، فأعاد سببها إلى سلوك التبرج والإثارة الذي سلكته المرأة التركية في ظل توجيهات المتغربين الذين شاؤوا أن يلحقوا بأروبا، فأخذوا بسوآت آدابها واجتماعها ..

النورسي عاش حياة آخذة بخلقية غض البصر

ومن جهة أخرى تروي لنا سيرة النورسي حال التحفظ والغض التي كان عليها في حياته الخاصة حيال المرأة، فقد روى أنه ظل يسكن عند بعض مضيفيه، و لم يكن يميز كبرى بناته من صغراهن، رغم جو المكاشفة والاندماج الذي كان له مع تلك الأسرة ومع أفرادها، وأنه ظل لا يعلم شيئا مما يخص حرمة ذلك المضيف إلا بعد أن نزل عالم آخر نفس البيت معه، وهنالك راح الضيف النزيل يحدثه عن خصائص تلك الأسرة وعن بناتها، الأمر الذي جعله يستنكر سلوك هذا النزيل، إذ اكتشف فيه فضولا ليس من شيم المتعففين..

وكانت له مواقف أخرى عديدة طفق يلوذ فيها بالإغضاء إذا ما جمعه المشهد بالمرأة ، من ذلك ما يحكيه عن سياحة قادته ذات يوم على ظهر زورق مع رفقة له من العلماء،

---

٤٤٩ اللمعات ص.٣٠٦

فكان أن صادفوا تجمعا من النسوة العاريات الكاسيات على حاف الشاطئ، فلم يسـع النورسي إلا أن يمضي المسافة كلها، إلى الشاطئ الآخر، ممسك الطرف، لا يرفعـه إلى شيء، تجنبا أن تلتقي عيناه بالحرام.. وكان منظره موضع استطراف وتنكيت من قبـل أولئك الرفقاء..

ولا يعني هذا أن النورسي يمتهن المرأة أو يزري بها أو يجعل من الاحتكاك بها أمـرا منكرا يتجنبه الانسان، كلا، وإنما سلك منها هذا السلوك لما تميز به من إعلاء روحـي يتحصن عن مواطن الريبة، ويقمع في ذاته دواعي التوق، مهما كان له مـن وثـوق في نفسه التي كانت ملجمة بزمام الإيمان، ومكفوفة بحمية العبادة، وعلـى درجـة مـن الانضباط التعففي لا يخاف معها ضعفا ولا وقوعا في وهن..

ومن جهة أخرى لابد أن نستحضر التروع التصوفي الطاغي على سيرته عامـة، إذ كان رجلا محدود الصلات، حتى مع الأتباع والقرابة، وذلـك كلـه يثبـت المـترع الإختلائي، الاعتكافي، الذي سلكه..

لقد كان موقفه من المرأة ومن جمالها موقف الاسلام، إذ أن الاسـلام وضـع مـن الضوابط ما حد من أسباب الاختراق، وهو ما جعل المرأة في مدنية الاسلام – قبـل أن تشوب تلك المدنية لوثات الانحراف التي وردت إليها من أعراف الحضارات الأخـرى- فردا فاعلا، لا يقعده عن ملابسة نشاطات الحياة كلها مانع، فقد سارت مع الجيـوش مجاهدة، وقعدت في الحلقات مدرسة، وجلست بين الخصوم تقاضيهم وتفصل بيـنهم، وزاولت إلى ذلك وظيفتها الحياتية كأم لها أسرة والتزامات نحو بيتها، وكل ذلك تأتّى لها بسبب رسوخ ضوابط الصون التي فرضها الاسلام..

تلك الضوابط التي عنت ليس فقط المرأة ولكن عنت الرجل أيضا، حين ألزمه القرآن بغض البصر، وبعدم تغذية نوازع الشهوة حيال المرأة الملابسة له في المسعى والنشـاط، وذلك ما أرسى إطارا تعامليا شرفت به مكانة الأنثى المسلمة، ولم تبتذل، ولم تتحـول جسديتها إلى مجال للإشهار والإغواء، ما جعل المرأة سلعة مبخوسة في سـوق نخاسـة الجنس، وعرضة لفقدان جاذبيتها يوما بعد يوم، لأن ما كان منها مصونا وعزيزا ظهـر وفشا وابتذل، وبذلك لم تعد المرأة إلا كما باردا، لا حرارة فيه ولا نسغ.. وكل ذلك جرته عليها المدنية الغربية التي ورطتها في مطب العري وتسليع جمال البدن، وتثمـيره في غير حدود شرع الله.. هذه المدنية المتوحشة التي أكلت قلبها، وباتت لا ترى إلا المنفعة

المادية وحدها وتعمى عن الجمال، كما أشاعه الله، لا سيما جمال المرأة ليكـــون باعثـــا حميما على الدفء في الحياة وعلى الطهر، وعلى الخير..

لقد كانت دعوة النورسي إلى تصون المرأة وصيانتها من الابتذال دعوة جمالية عاليـــة وبعيدة المرمى .. تدخل ضمن رؤية لمدنية قرآنية تعلو بمعاييرهـــا الســـلوكية عـــن درك الحيوانية..

حقا لقد جسد الخالق جمالا فائقا في المرأة، وأضفى عليها نعمة الحسن – بطبيعتها – قالبا وقلبا، وأناط بها مسؤولية إرساء الأسرة على صعيد من الخير والفضـــيلة، وجعـــل كمال خصالها في سترها، وبارك جمالها الروحي إذ جعله مرهما يداوي القروح، وريًّـــا يزيل الظمأ، وسما بها عن أن تكون شركا شيطانيا يشيع الفتنة ويزرع الميوعة..

لقد حرص النورسي على تذكير المفتتنين بذواهم وبأعمارهم – لا سيما النساء – أن ربيع العمر قصير، وأن صون الجسد عن الابتذال والاستتراف من شأنه أن يطيل من زمن هذا الربيع .. كما حرص على التحذير من وطأة الندامة والغبن التي سيرثها المستهتر أو المستهترة بكمال وجمال بدنه كلما عراه خريف العمر وتناثرت أوراقه وتعرت أوصاله .. فيومئذ تكون غصته بالغة وندامته خانقة، إذ سيرى وراءه ماضيا عارما بالخطايا الـــتي أورثت ذلك الحطام..

الفصل العاشر

المدنية

مثلما أقر النورسي للفلسفة الحديثة بتوفرها على جانب من الخير والنفع الذي يخـــدم الإنسانية، كذلك أقر للمدنية الغربية بقدر من الخصائص التي وسعت علـــى الإنســـان ويسرت له أن يحيا حياة زال عنها كثير من العنت والعناء الذي عرفته البشرية في أطوار تاريخية أسبق.. لقد ساعده تطور العلوم وتحول التقنيـــة إلى طاقـــة تنصـــاع لإرادتـــه وتستجيب كثيرا لتوقه إلى أن يحقق مزيدا من الرقي والتحكم في الطبيعة ..

لكن المدنية المعاصرة أفرزت – من جهة أخرى – أوضاعا خرجت بالإنســـان – في مستويات عدة من حياته – عن طوره الفطري، بحيث أورثه واقعه المتمـــدن صـــفات وأخلاقيات ونوازع تمادت على طريق أبعدته عن الاعتدال، وبالتالي عـــن الفضـــيلة، إذ تهالك في الاستهلاك، وتبلدت مشاعر المرحمة فيه، وتحجرت عواطفه تحت تأثير العنـــاء اليومي الذي سببته المدنية الصناعية، والذي انعكس على الإنسان الغربي – وتبعه في ذلك الانسان الشرقي – في صورة قلق وتوتر مزمن، وفقدان لشهية الحياة، ونزوع متزايد نحو البهيمية والهروب نحو المجهول من المجهول ..

وفي هذا الإطار يقوِّمُ النورسي أوصاغ الإنسانية المعاصرة في ضوء الحضارة الحديثة، فيرى أن الانسان المعاصر قد غادر محطة القناعة والسكينة والرضى بالحظ المتاح من الحياة ..تلك المحطة التي ظل يستمد منها بهجته القلبية يوم أن كانت أوضـــاعه الاجتماعيـــة لاتزال تتماس مع عهد البداوة..

لقد كان الناس في عهد البداوة – كما يقول النورسي – على قوامة مـــن عفـــاف وتماسك وقناعة ..

فقد كانت ".. تعوزهم ثلاثة أو أربعة أشياء، وكان اثنان من كل عشرة أشـــخاص يعجزان عن تدارك تلك الأشياء الثلاثة أو الأربعة، بينما في الوقت الحاضر تحت ســـطوة المدنية الغربية المستبدة، المتميزة بإثارة سوء الاستعمال والـــدفع إلى الاســـراف وتهيـــيج الشهوات وإدخال الحاجات والمطالب غير الضرورية في حكـــم المطالـــب والحاجـــات الضرورية، فقد أصبح الانسان العصري، من حيث حب التقليد والإدمان، مفتقـــرا إلى عشرين حاجة بدلا من أربع منها ضرورية، وقد لا يستطيع إلا شخصان من كل عشرين شخصا أن يلبّوا تلك الحاجات العشرين من مصدر حلال بشكل متاح، ويبقى الآخرون الثمانية عشر محتاجين وفقراء . فهذه المدنية الحاضرة إذاً تجعل الإنسان فقيرا جدا ومعوزا دائما .."[٤٥٠]

ويتحدث النورسي عن آفات المدنية المعاصرة، من حيث اختلال ســـبل التحصـــيل والكسب المعاشي فيقول :

"..لقد ساقت البشرية – من جهة تلك الحاجة – إلى مزيد من الكسب الحرام، وإلى ارتكاب أنواع من الظلم والغبن، وشجعت طبقة العوام المساكين على الصراع والتخاصم المستمر مع الخواص، وذلك بهجرها القانون الأساس الذي سنه القرآن الكريم القاضـــي بوجوب الزكاة وتحريم الربا والذي يحقق بواسطتهما توقير العامة للخاصة، ويوفر بهمـــا شفقة الخاصة على العامة.. فبهجرها ذلك القانون الأساس أرغمت البرجوازيين علـــى ظلم الفقراء وهضم حقوقهم، وأجبرت الفقراء على العصيان والتمـــرد في معـــاملاتهم معهم، فدمرت سعادة البشرية، وراحتها، وأمنها واطمئنانها وجعلتها أثرا بعد عين..".[٤٥١]

ثم يسجل النورسي بعد هذا، مدى التحول السلبي الذي عرفته طبقات من الناس، لا سيما النخب والأرستقراطيات، ممن توفرت لها نعم ومنجزات مدنية علمية .. فهولاء فقدت طوائف منهم همة الحياة بمعناها الفعال، واستناموا للاستهلاك وإشباع النزوات ..
" إن ما أنجزته هذه المدنية الحاضرة من خوارق – في ساحة العلم – نعم ربانية تستدعي شكرا خالصا من الإنسان على ما أنعم عليه، وتقتضي منه كذلك استخداما ملائما لهـــا لفائدة البشرية ومنفعتهم، بيد أننا نرى الآن خلاف ذلك، إذ تقود تلك الخوارق قســـما من الناس – الذين لهم أهمية بالغة في الحياة – وتوردهم موارد الكسل والســـفاهة .. إذ أنها تذكي نار الأهواء النفسانية، وتثير كوامن النزعات الشهوانية، فتقعد الانسان عـــن

٤٥٠ الملاحق ص ٣٧٨
٤٥١ الملاحق ص ٣٧٩

الكد والسعي وتثنيه عن الشوق إلى العمل وتسوقه – بعدم القناعة وعدم الاقتصاد – إلى السفاهة والإسراف والظلم وارتكاب المحرمات" .[٤٥٢]

وفي هذا السياق يضرب النورسي مثلا بنعمة الراديو التي استخدمها الإنسان المستهتر في إثارة الأهواء والإشغال عن الأداءات البناءة والواجبات النافعة، وفي إشاعة العواطف الجارحة والأخلاق الفجة.." الراديو نعمة الهية عظيمة على البشرية، فبينما تقتضي شكرا معنويا منا عليها، وذلك باستخدامها لمصلحة البشرية كافـــة، نـــرى أربعـــة أخمـــاس استعمالاتها تصرف في إثارة الأهواء النفسانية، وإلى أمور تافهة لا تعني الانسان في شيء، فتجتث جذور شوق الانسان إلى السعي وتوقعه في الكســـل والإخـــلاد إلى الراحـــة والاستمتاع بالاستماع إليها، حتى يدع الإنسان وظيفة حياته الحقيقية، وفي الوقت الذي يلزم توجيه قسم من الوسائط والوسائل الخارقة، النافعة، وصرفها في تيســـير مصـــالح البشرية الحقيقية واستخدامها في سبيل السعي والعمل لأجل خير البشرية وتوفير حاجاتها الحقيقية وتذليل مشاقها، فقد رأيت بنفسي أنها لا تصرف إلا إلى واحد أو اثنـــين مـــن عشرة في تلبية تلك الحاجات الضرورية، وتساق الثمانية الباقية من العشـــرة إلى اللهـــو والاسترسال في إثارة الهوى والاسترخاء والدعة والكسل وقضاء الوقت.." [٤٥٣]

ولا شك أن حكم النورسي على هذا الوسيط الاجتماعي الخطير – الراديو – كـــان طليعيا، لا شائبة من تزمت فيه، بالنظر إلى مواقف النفور والرفض التي رأينا أوساطا من رجال الدين تقفها من كثير من المستحدثات التي كانت تمثل في نظرهم عتبة خطيرة من التحلل والخروج عن الإيمان .

.. فالانسان في نظرهم كان بتلك المستحدثات يباشر مرحلة الكفرالصـــراح، مـــن خلال اقترافه بائقة التَّـــربُّب . إذ أن مستحدثاته تلك كانت ضربا من الشرك والتجسيد ومناددة الخالق، ومن ثمة لم يسع تلك الأوساط حيال بعض ما كانت الحضارة الغربية تحرزه من تقنية صناعية تسخيرية وارتقائية، إلا الإفتاء بحرمتها أو باستنكارها..

لكن نظرة النورسي التي قدرت أهمية تلك المستحدثات والخير العميم الذي يمكن لها أن تؤديه للانسان ولصالح ترقيته وتزكيته، راحت تسدد استخدامها نحو النفع الحقيقـــي ونشر الفضيلة.. من هنا وجدناه ينوه بها ويريدها أن تكون وسائل تخدم الإنسان وتوفر له من أسباب السمو الروحي والجمام النفسي والعقلي ما يساعده على تحمـــل أعبـــاء

---

٤٥٢ م.ن. ص٣٧٩.
٤٥٣ م.ن. ص٣٧٩.

التعمير، محذرا من مغبة انسياقها – تحت مسوغات خسيسة – في طريق تثمير الضعف البشري وتصوير مباذله لمقاصد لاهية، بل داعرة..

لقد كان النورسي يريد أن تكون وسائط الإعلام ملتزمة بمنهج بنائي، يفيد الأمة في تطوير نفسها، لكن هذه الوسائط وجدت نفسها تسير في اتجاه لا أخلاقي، اتجاه يشيع الفاحشة، ويغوي النفوس، ويهيؤها لتقبُّل الحطة الاجتماعية والنفسية باسم الواقعية ..

لقد خدمت الوسائط الإعلامية بما فيها الفنون، الإيديولوجية اليهودية الفتاكة، إذ كيفت مواد بثها مع تعاليم العهد القديم التي قامت على تدنيس الأنبياء وتعهيرهم وهتك الحرمات وتلقين الشذوذ الجنسي على نحو أو آخر .. وهو ما اسْتُثْمِرَتْ فيه تلك الوسائط على نطاق واسع انتهى بها إلى ما هي عليه اليوم من انحلال وتَهتك، الأمر الذي جعل الوسائط الإعلامية من أخطر ما يتهدد القيم والروحيات الطاهرة في الوقت الراهن..

إنها – حقا– باتت تشكل مصدرا أهوج للفتك بالأخلاق الطاهرة وتوطيد الرذيلة في الحياة ..

لقد بنت المدنية الغربية المعاصرة فلسفتها الاجتماعية والفكرية على قيم مادية ونفعية ملموسة، من هنا غيبت في تعاملاتها البعد الغيبي الإلهي، وهو ما قوى من روح الابتزاز فيها .. وإذا كانت نظمهم قد طفقت تراعي نوعا من الخدمة العمومية ،أو الإحسانية المقننة، فإن لهفتهم على خيرات الغير وافتراسهم لثروات ومقدَّرات الشعوب التي غلبوها قد أعطت الدليل على جفاء روحي وعاطفي لا مكان معه لما يسمى بالإنسانية ..

لقد كرست آداب وقوانين المدنية المعاصرة نزعة العنصرية في أمم الغرب، وإن تقنعت سياساتهم بشعارات تنادي بحقوق الانسان .. شعارات موظفة – غالبا – لمقاصد تدخلية، ولتغطية شيء من شراسة الانسان الغربي..

" إن المدنية الغربية الحاضرة لا تلقي السمع كليا إلى الأديان السماوية، لذا أوقعت البشرية في فقر مدقع وضاعفت من حاجاتها ومتطلباتها، وهي تتمادى في تهييج نار الاسراف والحرص والطمع عندها، بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والقناعة، وفتحت أمامها سبل الظلم وارتكاب المحرمات، زد على ذلك فقد ألقت – بذلك – الانسان المحتاج المسكين في أحضان الكسل والتعطيل المدمر، بعد أن شجعته على وسائل

السفاهة، وهكذا بددت الشوق لديه إلى السعي والعمل ،فأضاع الانسان عمره الثمين سدى، باتّباعه هوى المدنية الحاضرة، وبسيره وراء سفاهتها ولهوها.."[454]

لقد تفاقمت ترديات هذه الحضارة واستشرت بطالتها الروحية، وظهر ذلك – مثلا – على صعيد الواقع الصحي للإنسانية، إذ البهيمية التي باتت تمارس بها الفواحش، قد أغلت أدواء شيطانية فتاكة، وجعلت الانسان المُكرَّمَ يتحول بسوء سيرته إلى بوتقة شريرة لنشر أعضل الأدواء.." لقد ولدت المدنية في الانسان المعوز العاطل أمراضا وأسقاما وعللا، إذ أصبحت وسيلة إلى انتشار مئات من الأوبئة والأمراض في أرجاء المعمورة، بثتها في الأوساط، بسوء الاستعمال والاسراف." [455]

ومن غير شك أن هذه النظرة الإدانية من النورسي قد استشرفت ما يتهدد الانسان من الأمراض والشراسات الناتجة عن انغماسه المنحرف.. وليست آفة السيدا التي تحصد البشر اليوم بالجملة إلا بعضا مما استشرفه النورسي وهو يحصي خطايا هذا العصر وإغواءات مدنيته ..

وزيادة على ذلك فقد دمرت هذه الحضارة قابلية التوازن الداخلي للانسان المعاصر، بعد أن أشاعت في البيئات والمجتمعات عقيدة الإلحاد التي أوشكت أن تجر البشرية إلى الطريق المسدود، إذ أفقرها، وسفهت أحلامها، وتردت بها في واقع مدني موبوء، وصوّرت لها الحياة مسرحا للعبث واللامعقول .." ففضلا عن هذه العلل الثلاثة التي ولدها المدنية وهي: الحاجة الماسة، والميل إلى السفاهة، وكثرة الأمراض المذكرة بالموت، فإنه بتفشي الإلحاد وتوغله فيها، استيقظت البشرية من غفوها، وإذا بالمدنية تهددها باستمرار، باظهار الموت تجاهها، اعداما أبديا، فجرعتها نوعا من عذاب جهنم في الدنيا.." [456]

وإزاء كل هذه الترديات والتشوهات التي أصابت فطرة الإنسان وتدنَّت به، يضع النورسي المنهج الرباني القرآني دواء لعلل ومعضلات الحضارة .

---

٤٥٤ الملاحق ص٣٨٠.
٤٥٥ م.ن. ص
٤٥٦ م.ن. ص

الفرق بين الاسلام والنصرانية

لا كهنوتية في الاسلام.. والاسلام ملاذ الجماهير المغبونة

يؤكد النورسي أن الإسلام، بخصوصياته الفطرية الجلية، وبسماحته، وجوهرية مبادئه، واجتماعيته، قد تجاوز مبدأ الترتيب الكهنوتي والوسيطية التشفعية، وهو ما أعطاه طابعا شعبيا أو جماهيريا، فلا مجال لمقامية الامتياز الروحي في الإسلام إلا ما كان من منزلة النبي ﷺ وصحبه، باعتبارهم كانوا الألصق بالنزول وبالدعوة ..

من هنا كان التفاضل المعنوي الذي حازته تلك الأجيال من السلف لا يشهر عن نفسه إلا لمقاصد الأسوة والاقتداء، ذلك لأن مناط العبرة فيه هو تثبيت الإيمان وكفالة المزيد من الإخلاص للدين والمداومة على أداء العمل الصالح..

على عكس الحال في النصرانية، إذ الترتيبية الكهنوتية، والسيادة الإعتبارية مرعية في نظامها القداسي، بحيث لا يتحقق الفعل الديني، أو الشعائري إلا في حضرة الكاهن، ووفق طقوسية بروتوكولية محورها القس ولوازم القداس.. فبدعواته وتبريكاته تستمد الجماعة الشفاعة والمغفرة من الرب..

من هنا ظلت الجماهير العريضة عندهم لا تتورع عن الانتفاض على الدين والتصدي لممثليه، لدى كل ثورة أو احتجاج يعمهم، لأن رجال الدين مثلوا في بيئة الغرب مجمعا من السلطة عتيد، ومارسوا ألوانا من التنفذ باسم وظيفة التشفع التي أناطتها بهم الكنيسة ..

أما الفيئات الإسلامية العريضة، وعلى مدار تاريخها الطويل، فإنها ظلت تهبُّ إلى الدين كلما ابتليت بمحنة أو ألحت عليها وطأة الظلم والطغيان من قبل حكام السوء ..

لقد طفقت الأمة الاسلامية تحتمي بالدين، وتعتصم به، وتستند إليه في تقويض صروح الاستبداد..

يقول النورسي : " إنه بقطع النظر عن مشرب الصوفية، فإن الإسلام يرفض الواسطة ويقبل الدليل، وينفي الوسيلة ويثبت الإمام . بينما غيره من الأديان يقبل الواسطة، فبناءً على هذا السر الدقيق يستطيع النصراني أن يصبح متدينا إذا اشتغل مقامات من حيث الثروة والمنصب، بينما في الاسلام العوام هم المتمسكون بالدين أكثر من ذوي الثروات والمناصب، وذلك لأن النصراني ذي المقام يحافظ على نصرانيته وأنانيته بقدر تعصبه في دينه، فلا ينقص ذلك من تكبره وغروره، بينما المسلم يبتعد عن التكبر والغرور بقدر

تمسكه بالدين، بل ينبغي له أن يتنازل من عزة المنصب. ومن هنا فالنصرانية ربما تتمزق بهجوم العوام المظلومين على الظالمين الذين يعدون أنفسهم خواص النصارى، حيث النصرانية تعين تحكمهم، بينما الإسلام لا ينبغي أن يتزعزع لأنه ملك العوام أكثر من الخواص الدنيويين." [457]

ومن غير شك أن نظرة النورسي هذه تتحقق اليوم أيضا في المجتمعات الغربية ولكن على نطاق مختلف، فعلى الرغم مما ألحقته الثورات الاجتماعية والديمقراطية والثقافية من ضرر بمكانة الدين ورجاله في البيئات الغربية ،إلا أن الدوائر المحافظة والدوائر السياسية على الخصوص بقيت على صله بالدين، وإن كانت صلة مشبوهة أحيانا فهي تظل تحيله محل القداسة، وإن حادت عنه في مسارها الحياتي، بتكييف أوضاعها، ضمانا لتطورها الذي قمعه الدين المسيحي طويلا باعتباره عقيدة لا تقوم على شمولية وعلى روح انعتاق عقلي كما هو حال الاسلام ..

ومن جهة أخرى لا ينبغي أن تغيب عنا مخططات اليهودية إزاء الديانات الأخرى، فهي لا تعترف بالمسيحية إلا على اعتبارها سدا يحد من انتشار الاسلام .. من هنا كانت الإيديولوجية اللائكية التي تدعي المجتمعات الغربية أنها تعتنقها في سياساتها، مكسبا يخدم اليهودية أساسا، ولكن تجاوز الدين كان من جهة أخرى يوقع اليهودية في مقلب تفشي الإسلام وانتشاره بين أقوام الغرب، لذا فهي تستبقي الدين الكهنوتي وتستثمره على نطاق إستيعابي لتظل الأجيال الغربية مرتبطة به ارتباط عنصرية وتعصب دفعا لزحف الإسلام..

إن شعارات اللائكية خدعة حقيقية كلما تعلق الأمر بالمسائل الاستراتيجية للغرب، وإن من الاهتمامات الأساسية لوزارات الثقافة والخارجية لدى كثير من الدول الغربية، هو التكفل بحركة نشر المسيحية واعتراض طريق الاسلام على صعيد توسعه عبر القارات..

---

٤٥٧ صيقل الإسلام ص ٣٤٤ .

الأسس التي قامت عليها كل من المدنيتين الغربية والاسلامية

النورسي يرفض المدنية الحديثة لأنها تأسست على مبادئ تخالف مبادئ الاسلام

لقد رفض النورسي المدنية الحديثة لأهما تأسست – كما يرى – على خمسة أسس سلبية ..

١– فقد جعلت من القوة نقطة استنادها ،ومعلوم أن شأن القوة هو الإعتداء والاستبداد ما لم تترشَّدْ بالأخلاق ..

٢– أما هدف هذه المدنية وقصدها – بحسبه – فهو المنفعة، وشأن المنفعة التزاحم..

٣– ودستور المدنية في الحياة الجدال والصراع، وهذا شأنه التنازع .

٤–والرابطة التي تربط في كنفها المجموعات البشرية هي العنصرية والقومية السلبية التي تنمو على حساب الآخرين، وهذه شأنها التصادم كما نراه..

٥–وخدمة المدنية المادية للبشرية خدمة فاتنة جذابة هي تشجيع هوى المنفعة، وإثارة النفس الأمارة، وتهييج رغباتها وتسهيل مطاليبها، وشأن هذا الهوى: اسقاط الانسان من درجة الملائكية إلى درك الحيوانية الكلبية، وبهذا تكون سببا لمسخ الإنسان معنويا ..

من هنا اقترنت نظرة الغرب المادي إلى مفهوم الانسانية بمنطق حسابي لا هوادة فيه، إذ كلما غابت المصلحة انطفأت قداحات الانسانية التي تتبجح بها المدنية الغربية، فهي لا ترى الانسانية إلا حيث تثبت لديها المصلحة ويتأكد المكسب..

إنها روح الرأسمالية التي يعكس شعارها القائل : دعه يمر دعه يفعل.." عمى وصمما وتبلد عاطفة، وانخطافا رهيبا بتأثير شهوة الكسب والابتزاز.. وهو ما عبر عنه النورسي حين شخص ما تمور به بواطن دعاة المدنية والتمدن الغربي، عندما قال :

" فمعظم هؤلاء المدنيين لو انقلب باطنهم لوجد الخيال تجاهه صور الذئاب والدببة والقردة والخنازير.."[٤٥٨]

مدنية الاسلام تكافلية، جماعية، انصافية

فروح الإسلام الجماعية بما تقوم عليه من إخاء ومودة وترابط اجتماعي يكتنف الجماعة، تترجح وتتفوق على مُثُل المدنية المعاصرة، إذ هي أرحم وأكثر شمولية من قيم الليبرالية المتوحشة ذات الطابع الفردي والمترع الخاص.." إن السعادة تكون سعادة عندما

---

٤٥٨ صيقل الإسلام ص.٤٥٧

تصبح عامة للكل أو للأكثرية، بيد أن سعادة هذه المدنية هي لأقل القليل مـــن النـــاس. لأجل كل هذا لا يرضى القرآن الكريم بمدنية لا تضمن سعادة الجميع أو لا تعم الغالبية العظمى". [٤٥٩]

لقد طفق النورسي يعرب عن إدراك عميق للواقع الحضاري الذي تعيشه مدنية الغرب .. إذ سجل أن جفوها وجليديتها العاطفية إنما جاءتها من أصولها الفكرية والوجدانيـــة الإغريقو- لاتينية .. رغم انصهار هذه المدنية في بوتقة الانجيل .

".. إن دهاء الرومان واليونان - أي حضارتيهما - وهما التوأمان الناشئان من أصل واحد، قد حافظا على استقلالهما وخواصهما رغم مرور العصور وتبدل الأحوال، ورغم المحاولات الجادة لمزجهما بالنصرانية أو ادماجها بهما، فلقد ظل كل منهمـــا كالمـــاء والدهن لا يقبلان الامتزاج، بل إنهما يعيشان الآن بروحيهما بأنماط متنوعـــة وأشـــكال مختلفة". [٤٦٠]

إن واقع التضارب مع الدين ومع منطق التوحيد الذي تنم عنه وقائع الثقافة المدنيـــة الغربية اللائكية، تكفي وحدها للتدليل على استحالة توقع التساكن والانـــدماج بـــين الاسلام وبين هذه المدنية " فلئن كان التوأمان مع وجـــود عوامـــل المـــزج والـــدمج والأسباب الداعية له، لم يمتزجا طوال تلك الفترة، فكيف يمتزج نور الهداية الذي هـــو روح الشريعة مع ظلمات تلك المدنية التي أساسها دهاء روما، لا يمكن بحال من الأحوال أن يمتزجا أو يهضم بعضهما بعضا." [٤٦١]

وقد يظهر هذا التشاؤم على أنه تناقض يصدر عنه النورسي حيال توقعاته التي لبـــث يؤكدها بشأن المصير الاندماجي للمسيحية الغربية والاســـلام .. والواقـــع أن حكـــم النورسي هذا لا يعدو أن يكون معاينة واقعية ثبتها دلائل، إذ أن الغلظـــة والتـــوحش اللذين يسمان المدنية الغربية، إنما هما بسبب هذا التأثر البالغ بتراث الحضارة الأغريقـــو- لاتينية، وإن قيم تلك الثقافة هي التي تطبع وتحكم نظم الدول الغربية اليوم، وهي الـــتي تمضي بتلك الدول نحو طريق الانسداد، وربما سيحملها تلاحق الصدمات والكـــوارث على أن تلتفت إلى الاسلام، فتجده ينتظرها فاتحا ذراعيه لاحتضانها ومسح دموعهـــا.. وذلك هو ما تنبأ به النورسي انطلاقا من إيمانه بمقررات الوحي القرآني الـــذي لا يأتيـــه الباطل من بين يده ولا من خلفه..

---

٤٥٩ صيقل الإسلام ص ٣٥٧.
٤٦٠ صيقل الإسلام ص٣٥٨.
٤٦١ صيقل الإسلام ص ٣٥٨.

مدنية الشريعة. مدنية المستقبل البشري

يتوقع النورسي، انطلاقا من روح مشبعة بنبوءة العقيدة، أن مدنية المستقبل هي مدنية الاسلام، فقد تُوِّجَ الله منظومة الرسالات بشريعة الإسلام، وهيأها أن تكـــون العقيـــدة الملاذ التي ستحضن في كنفها الأمم بعد أن تستبد بها الطرق والضلالات ..

لقد أيقن النورسي أن الاستيفاقة الحتمية للأمم المجروفة في العصر الراهن بمنجـــزات المدنية المادية سيدفع بها إلى اعتناق الاسلام والأخذ به والاعتصام...

ومن شأن ذلك أن يمهد للتحول الإيجابي الذي سيكفل للانسانية أن تعـــيش وفـــق شريعة الله وبحسب مشيئته التي تجعل من الانسان خليفته في الكـــون.. إنهـــا مرحلـــة سيتجسد بها ذلك التحول الإنقلابي الجديد الذي سيسفر عنه طـــي صـــفحة المدنيـــة المعاصرة، وما يعقبه من حتمية قيام صرح مدني اسلامي شامخ وكريم على أنقاضها.. ويومئذ سيكون ثقل إسناد تلك المدنية – المنصاعة عن اختيار ورضى لتعاليم السماء – هو الحق بدلا من القوة ..

ومن شأن الحق أن يضمن العدالة ويكفل التوازن بين الفئات .. وسيكون هـــدف تلك المدنية الطاهرة تحكيم الأخلاق وسيادة الفضيلة بدلا من مراعاة جانـــب المنفعـــة العمياء، ذلك لأن من شأن الفضيلة أن تشيع دفء المحبة والتواد والتجاذب ..

وسيكون مُقَوِّمُ الوحدة في هذه المدنية والرابط الذي يلحم بين المجموعات البشـــرية هو المقوم الديني والوطني والمهني بدلا من العنصرية، ذلك لأن من شأن هذه الروابط أن تكفل الأخوة والسلام والوئام والذود عن البلاد عند اعتـــداء الأجانـــب. وســـيكون دستورها في الحياة التعاون بدل الصراع والجدال . والتعاون من شأنه التساند والاتحـــاد. وستضع الهدى بدل الهوى حاكما على الخدمات التي تقدم للبشر، ومن شأن الهدى أن يرتفع بالإنسانية إلى مراقي الكمالات، فهي إذ تحدد الهوى وتحد من النزعات النفسانية، تُطَمْئِنُ الروحَ وتُشَوِّقُها إلى المعالي.

إن الوبال الذي لحق ويلحق الإسلام من جهة الغرب ومدنيته المفسدة للفطرة ومكائد الصهيونية تجعل المسلمين يتطلعون إلى دوام خصومات هذا الغرب وما يستترفه من فتن، ذلك لأن دوام تلك الخصومات ســـبب مهـــم في تنـــامي الأُخُـــوَّة بـــين الإســـلامية ووحدها..[٤٦٢]

---

٤٦٢ صيقل الإسلام ص.٣٥٩.

الفصل الحادي عشر

القوميـــة

مما لاشك فيه أن العقيدة الإسلامية قد أعطت لمفهوم القومية معنى مِلّيًّا تجاوز بها إطار النعرة والانغلاق الذي ظل يتحجرها آمادا، سواء من خلال أوضاع الاجتماع البـــدائي الذي كان يلحم الجماعات برباط الدم والرحم، أو بواسطة الروحيات التي اســـتحدثتها الثقافات والفلسفات، بل وحتى بعض الديانات.. إذ أن ديانة مثل اليهودية قد كرســـت العرقية وجعلت الامتياز والعناية القدسية من نصيبها وحدها لا غير..

وإذا كان الميل العرقي شيئا من طبيعة الإنسان، أو من نوازع الألفة المغروسة فيه، فلا ريب أن نفسية الإنسان قد فطرت على التكيف والامتزاج مع نفوس نظرائها من البشر في كل الظروف، لأن جوهر البشرية يجعل من الكائن أخًا للكائن وإن تباعدا في الأوطان واختلفا في الألوان، وتلك خاصية امتازت بها سائر الأجناس والمخلوقات، بما أودع الله فيها من حكمة وقابلية اندماجية تجعل العنصر يتواصل وينخرط في جماعته بحكم الجنسية ووحدة الجوهر..

على أن هناك من الدوافع الحيوية والتغالبية ما جعلت الانسان منذ القديم يجـــنح إلى الانغلاق وإلى أن يعيش حياة القطيع والانقطاع، ومعاداة الآخرين ممن لا تجمعـــه بهـــم رابطة المكان والموطن ..

لقد وَلَّدَتْ تلك الصلات القبلية ثقافة (الآخر) الأجنبي، ورسخت مـــع الأطـــوار نفسية العدوان والاجتياح، وتكرست على ذلك الوجه روح الحمية والنعرة، وأضـــحت العلائق بين الجماعات والممالك والأمصار محكومة بقيم المصلحة، وهو ما نمـــا معـــه الاجتماع القومي، خصوصا وأن هناك من الديانات ما استجاب لهذا الوازع التعصـــبي، شأن الديانة اليهودية التي أناطت – كما أسلفنا – فلسفتها بالعرق، وأرست علاقاتهـــا

بالأجناس الأخرى على أسس استعلائية لا تمازجية، وذلك ما جعل تاريخ اليهود حافلا بالكوارث والنكبات.

ومع فجر النهضة الأوروبية انتعشت الفكرة القومية على نطاق واسع، وأججت بين دول الغرب شحناء التباغض والاصطراع، واستنـــزفت شعوبها وأممها في التقاتل طاقات وفداحات لا تحصى، لكن ذلك الواقع التعصبي مضى بها على طريق البنـــاء القـــومي أو الوطني الذي – وإن لم يضمن لتلك الشعوب والأمم الاستقرار – إلا أنه هيأ لها مجـــالا للتنافس والتباري في التعمير والتصنيع، وذلك ما برر لرواج الفلسفات والإيديولوجيات القومية عندهم...

الثقافة اليهو- مسيحية مصدر روحي كرس فكرة القومية

على أنه لا ينبغي أن يفوتنا الأثر الكتابي الحاسم في ظهور القوميات.. فالعهد القديم الذي هو مرتكز الثقافة اليهو- مسيحية يُقِرُّ مبدأ القومية، ولما كانت العُصَبُ اليهوديـــة هي صانعة تاريخ الغرب المعاصر، فإنها لبثت تُشَتِّتُ اللُّحَمَ، وتبث الأفكار والفلســـفات العرقية من خلال آداب وأفكار الكتاب والساسة اليهود..

وإذا ما التفتنا إلى ألمانيا مثلا، باعتبارها المحور الذي زلزل الكيانات الغربية مرات من خلال ما شَـــنَّ من حروب، فإننا سنجد الفكر الإيديولجي قد راج فيها في مراحل عدة من تاريخها، وما كتابات فيختة إلا بعضا مما أفرزته الروح الجرمانية التي كانت معتـــدة، بل ومسكونة بأصالتها..

البروتستانتية ومنـزعها القومي، الانفصالي

بل لقد رأينا البروتستانية تنشأ في رحاب الوطن الألماني، والبروتســـتانتية – كمـــا نعلم- قراءة للكتاب ثورية أو تمردية أعارت المسألة الوطنية أو الدولة – بمعناها الانجيلي التوسعي الحديث – اهتماما مركزيا، الأمر الذي يبين مدى تنوع الاختـــراق الروحـــي الذي كرس في الغرب نوعا من الشوفينية والقومية التفكيكية..

لقد كانت المسيحية في مرحلة الرسل، تتبع المنهج الأممي، ولكنها احتـــارت ذلـــك كإستراتيجية توسع لا غير ..

أما الاسلام فقد أخذ منذ المنطلق بمبدإ الانسانية، إذ جاءت أوائل السور تخاطـــب الإنسان .. **(إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علـــق)** العلـــق١-٢. و لم تتقوقع المخاطبات القرآنية قط عند حد تجنيدي تتعالى به أمة علـــى بقيـــة البشـــر، و لم

تستأثر فيه حمية قوميةٌ بامتياز أو اصطفاء تزعم به أن الله بات رهـــن إشـــارتها وقيـــد ملكيتها، ولكن القرآن نظر إلى الأقوام والشعوب على أنها مخلوقات إلهية مكرمة جميعا، مسددة بتعاليم الأنبياء والرسل وخاصة بالشريعة الغراء التي جاء بها خاتم النبيئـــين ﷺ، ليتمايزوا في الحساب الأخير على أساس التقوى .. إذ التقوى هي معيار إلهي مناط بمدى الخدمة التي يقدمها الانسان المؤمن لصالح الانسانية والكائنات قاطبة.. من هنا لم يتورط القرآن العظيم — وحاشاه - كما تورطت الكتب التي تدعي أنها سماوية - في ذهنيـــة العرق المقيتة، و لم يصنف الناس على أساس شعوبي استئثاري لا يقيم للإعتبـــار الإلهـــي وزنا..

لقد أضحى مقوِّمُ القومية في النظم الغربية فارزا أساسيا يفصل الشعوب عن بعضـــها بعضا، ويمايز بينها، ويدفع بها – من ثمة – إلى عتبة التباغض السافر والتقاتل الصريح ..

ولقد انتهت إلى الشعوب الاسلامية في مطلع هذا القرن مفاهيم الغـــرب وقيمـــه السياسية والإيديولوجية ،على يد دعاة الاستيلاب ممن استهوتهم تلك القـــيم وراحـــوا يتبنونها ويعملون على تسيير الأمة من خلالها، الأمر الذي كان يتعـــارض مـــع الـــروح الاسلامية التي لا تقول بالعرق، لأن مقوم الدين كان الشارة الملية التي تجمع تحت لوائها المسلمين أينما كانوا..

النورسي يحارب الفكرة القومية في صورتها التمزيقية المناهضة لروح الدين

من هنا وجدنا النورسي – ومعه قلة من المصلحين النيرين – يتصدى إلى الكشف عن حقيقة القومية، و كونها تقليدا مستجلبا لا يتلاءم مع عقيدتنا .

بل لقد رأيناه يضرب في أعماق التاريخ مستدعيا الشواهد الصارخة التي كانت فيها الروح القومية سببا لوقوع ما عرفت الملة من اختلالات ومحن..

لقد عاد إلى العصر الأموي، واستقرأ حروبه الداخلية بين المسلمين، واعتبرها عثرة من عثرات الفكر العرقي أو الشعوبي التي أضرت بالاسلام في تلك المرحلة، وخرجت به عن محجته القويمة.. لقد عَـــدَّ النورسي الصراع بين سيدنا الحسن والحســـين (رضـــي الله عنهما) وبين خصومه صراعا قوميا دينيا، كان من مطامحه تعديل المسار وتقويم النهج .." أما مقاومة الحسن والحسين (رضي الله عنهما) للأمويين، فهي في حقيقتها صراع بـــين الدين والقومية، إذ اعتمد الأمويون على جنس العرب في تقويـــة الدولـــة الاســـلامية

وقدموهم على غيرهم، أي فضلوا رابطة القومية على رابطة الاسلام، فأضروا بالدين من جهتين:

– الأولى أنهم آذوا الأقوام الأخرى بنظرتهم هذه، فولدوا فيهم الكراهية والنفور.

–الثانية أن الأسس المتبعة في القومية والعنصرية أسس لا تتبع العدالة ولا توافق الحق، إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة، لأن الحاكم العنصري يفضل من هم بنو جنسه إلى غيرهم، فأنّى له أن يبلغ العدالة ؟

بينما الاسلام يَجُبُّ ما قبله من عصبية جاهلية، لا فرق بين عبد حبشي وسيد قرشي إذا أسلما، فلا يمكن إقامة رابطة القومية بدلا من رابطة الدين في ضوء هذا الأمر الحازم، إذ لا تكون هناك عدالة قط، وإنما تهدر الحقوق ويضيع الإنصاف. " [٤٦٣]

" لقد خلط الأمويون شيئا من القومية في سياساتهم، فأسخطوا العالم الاسلامي، فضلا عما ابتلوا به من بلايا كثيرة، جراء الفتن الداخلية " [٤٦٤]

ومن الواضح إن مثل هذه الاستدعاءات التاريخية لا يقصد بها النورسي إثارة نعرة، ولكنه يريد أن يكوي به داء خبيثا رآه بدأ يستفحل ويأخذ في التفاقم، هو داء القومية التي كان شعارها المرفوع مِعْوَلاً آخر في يد المبيتين لضرب الملة وتفكيك الخلافة من دعاة التغريب ..

من هنا تعمد النورسي أن يستحضر الشواهد الصارخة، والأكثر صلة بوجدان الأمة قاطبة، كي يضع الأذهان في مواجهة الخطر الذي يتربص بها من خلال تلك الدعوات القومية..

لقد كان يدرك أن الأمة المتهالكة والتي طال سباتها، هي من الاستعداد للتحلل والتفكك ما أن يحرك فيها أي ناعق مغرض نزوع الفرقة والتشتت.. وكان يدرك أيضا أن حمل المندسين لشعار القومية كان يصطنع من المغريات والتسويغات ما يجعل مقصدهم يمر، وحيلتهم تنطوي على الأمة بسهولة .. من هنا راح يتوجه بأحاديثه إلى مواجد الأمة وعقلها ويقف بها عند تلك البقع الحمراء التي كان التاريخ السياسي الاسلامي يحتفظ بها كعوارض اختلالية بالغة الأثر على المسار الذي عرفه الاسلام ومدنيته جراءها..

---

٤٦٣ المكتوبات ص٦٨.

٤٦٤ المكتوبات ص.٤١٤.

لقد كان النورسي يخشى أن يعيد التاريخ نفس أخطائه، ولكن هذه المرة بكَرَّة ينقصم لها الظهر الاسلامي لأن جسد الأمة كان على حال من الخور لا توصف.. لذلك طفق يَصُدُّ المغرضين عن مقاصدهم، من خلال تبيان المخاطر والإبتلاءات التي جرها القومية لا على المسلمين وحدهم ولكن على أمم أخرى كذلك..

بل لقد راح يكشف عما أحدثته النعرة القومية بين الدول الغربية نفسها والتي كانت مصدر استلهام أولئك المستلبين.. من هنا راح يؤكد أن أبناء تلك الشعوب الأوروبية، حين تورطوا في وحل العرقية " ودعوا إلى العنصرية وأوغلوا فيها، في هذا العصر، نجم العداء التاريخي المليء بالحوادث المريعة بين الفرنسيين والألمان، كما أظهر الدمار الرهيب الذي أحدثته الحرب العالمية، مبلغ الضرر الذي يلحقه هذا الفكر السلبي للبشرية" .[٤٦٥]

وفي هذا السياق مضى النورسي يتحدث عن حال الأمة التركية وما عراها من تمزق نتيجة أخذ الطوائف بشعارات قومية في كنف السياسة التي جاء بها الدستور.. " ففي بداية عهد الحرية أي إعلان الدستور، تشكلت جمعيات مختلفة وفي المقدمة الروم والأرمن، تحت أسماء أندية كثيرة، وسببت تفرقة القلوب – كما تشتت الأقوام بانهدام برج بابل، وتفرقوا أيدي سبإ في التاريخ، حتى كان منهم من أصبح لقمة سائغة للأجانب، ومنهم من تردى وضل ضلالا بعيدا ".[٤٦٦]

لقد كان النورسي على وعي تام بالمطامع الاستعمارية التي يخفيها الغرب من خلال تشجيعه النزعة القومية والعرقية في البلاد الاسلامية، لذلك راح يفضح مواقف أوروبا من الوضع التفككي الذي كانت الدعوة القومية تهيئه للأعداء المتربصين، وذلك بإثارتها النعرات والحميات سواء داخل تركيا نفسها أو بين الأعراق التي كانت الخلافة تجمعها أو تلك التي آخى بينها الاسلام على مدى القرون: ..

" إن أطماع أوروبا التي لا تفتر ولا تشبع هي كالثعابين الضخمة الفاتحة أفواهها للابتلاع، لذا فإن عدم الاهتمام والتنبه لأهداف هؤلاء الأوروبيين، بل معاونتهم بالفكر العنصري السلبي، وإنماء روح العداء إزاء المواطنين القاطنين في الولايات الشرقية أو إخواننا في الدين في الجنوب، هلاك وأي هلاك وضرر وبيل." [٤٦٧]

---

٤٦٥ المكتوبات ص ٤١٤.
٤٦٦ المكتوبات ص.٤١٥.
٤٦٧ المكتوبات ص ٤١٥.

وفي هذا الإطار، يبدي النورسي حرصه على ضرورة الحفاظ على الصلات الوثيقة مع العرب، إذ كان يرى أن مناشير العرقية ماضية بتأثير الدس اليهودي الغربي، في حز اللحمة بين الأتراك والعرب، كمقدمة لهدم صرح الخلافة..من هنا كان على النورسي أن يبين طبيعة الأواصر الروحية التي تربط بين الأتراك في شمال الدولة الاسلامية والعرب في جنوبها

".. ليس بين أفراد الجنوب من يستحق أن يُعادَى حقا، بل ما أتى من الجنوب إلا نور القرآن وضياء الاسلام الذي شع فينا وفي كل مكان" [٤٦٨]

ثم يبين الحقيقة التي تضمرها نزعة معاداة العرب، والمقاصد التي تهدف إليها فيقول :

" فالعداء لأولئك الإخوان في الدين وبدوره العداء للإسلام، إنما يمس القرآن، وهو عداء لجميع أولئك المواطنين ولحياتهم الدنيوية والأخروية " [٤٦٩]

ويخلص بعد هذا إلى تسفيه نوايا وادعاءات من كانوا يزعمون أنهم من وراء الترويج للقومية يخدمون المجتمع قائلا " فادِّعاءُ الغيرة القومية بنية خدمة المجتمع يهدم حجر الزاوية للحياتين معا، فهي حماقة كبرى وليست حمية وغيرة قطعا.." [٤٧٠]

على أن النورسي في هذا كله لا ينفي شرط القومية بوصفها مظهرا شعوريا انسانيا لا ينفك عنه الكائن البشري .. بل يناهضها من حيث هي عقيدة تقصي الآخر على أسس العرق، وهي أسس باطلة، إذ العلم وواقع الحال يرفضان أن تكون هناك مزايا لعرق على آخر من المنظور البيولوجي أو الفيسيولوجي، إذ خصائص الإنسان فاشية ومنتشرة في الأعراق جميعا، والاختلاف المظهري والقيمي إنما يعود إلى الثقافة والمدنية لا غير..

القومية الإيجابية هي التي تراعي جانب الأخوة الإسلامية

من هنا يرى النورسي أن هناك قومية ايجابية تفيد في تحصيل الرقي الإجتماعي والكمال الإنساني، وهي القومية المبرأة من المرامي الاستعلائية والاستحواذية .. " فالقومية الإيجابية – بحسبه – تنبع من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية، وهي سبب

---

٤٦٨ المكتوبات ص ٤١٥.
٤٦٩ المكتوبات ص ،٤١٥.
٤٧٠ المكتوبات ص ٤١٥.

للتعاون والتساند، وتحقق قوة نافعة للمجتمع، وتكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الاسلامية.." [471]

إن الفكر القومي إذا ما أراد أن يكون إيجابيا عليه أن لا يحيد عن المقاصد البنائية التي تعزز من شأن الأمة وتقوي من بأسها في وجه المداهمات .. فـ "الفكر الإيجابي القومي ينبغي أن يكون خادما للاسلام، وأن يكون قلعة حصينة له، وسورا منيعا حوله، لا أن يحل محل الاسلام، ولا بديلا عنه، لأن الأخوة التي يمنحها الاسلام تتضمن ألوف أنواع الأخوة، وإنها تبقى خالدة في عالم البقاء وعالم البرزخ".[472]

لقد ظل النورسي متوجسا وغير مطمئن للمزالق التي كانت الدعاية القومية تهيؤها للإيقاع بالأمة، إذ أن فكرة القومية هي في أساسها عاطفة موجهة إلى تحقيق مرامي سياسية، وما أيسر تهييج العواطف على يد ساسة كان استعدادهم للانحراف كبيرا..

من هنا ظل النورسي يهيب بالأمة إلى أن تحذر مما يخطط ضدها، ولبث يبين للساسة ولمن يسمعه منهم أسس التوازن الضروري الذي تتحقق به القومية البناءة، إذ لا ينبغي أن تكون أواصر القومية – مهما كانت قوية — إلا ستارا من أستار الأخوة الاسلامية، وبخلافه، أي "إقامة القومية بديلا عن الاسلام، فإنه جناية خرقاء، أشبه ما يكون بوضع أحجار القلعة في خزينة بها ألماس وطرح الألماسات خارج القلعة" .[473]

الأمة التركية التي ظلت تحمل لواء الاسلام لا يحق لها أن تستجيب للفكر القومي

وفي هذا الصدد، يتوجه إلى الشعب التركي ويذكّره بماضيه الإسلامي المجيد ضمن الحظيرة الملية التي تَمَكَّنَ من أن يرفع لواءها على مدى قرون من المنافحة والريادة الجهادية ..فالأمة التركية ظلت متماسكة لم تنقسم على نفسها بسبب إسلامها ..لذا وجب الحذر من مغبة التفكك والتيه وراء وهْمِ القومية .. فلا ينبعي أن يحتذي الأتراك بغيرهم من الأقوام التي رجحت نزوعها القومي سواء في أوروبا أو في آسيا، فتلك أمم قد يناسبها تفعيل التاريخ من زاوية عصبية، لكن الأمة التركية حاملة لواء الإسلام، لا ينبعي أن تسلك ذلك السلوك إلا إذ أرادت الانتحار ..

---

471 المكتوبات ص٤١٥.
472 المكتوبات ص ٤١٦.
473 م.ن. ص٤١٦.

فالإسلام – إذا ما بعثت روحيته من جديد– قادر على أن يحقق النهضة الحضارية الأصيلة للأمة الاسلامية كما حققها لها في منطلق عهوده الأولى..من هنا لا يغيبن عن الأذهان أن الإسلام هو مصدر الإيقاظ والبعث لأمم المشرق، كما أن الفلسفة كانت مصدر نهضة أمم الغرب .." إن ظهور أكثر الأنبياء في آسيا وظهور أغلب الحكماء والفلاسفة في أوروبا رمز للقدر الإلهي، وإشارة منه إلى أن الذي يوقظ آسيا ويدفعهم إلى الرقي ويحقق إدامة إدارتهم هو الدين والقلب، أما الفلسفة والحكمة فينبغي أن تعاونا الدين والقلب لا أن تحلا محلهما.." [٤٧٤]

أوروبا تجاوزت حدود دينها الشكلي المقيد، فانتصرت في المدنية

لقد حققت أوروبا ذلك الشأن البعثي بواسطة الفلسفة لأن الأوروبيين عدموا الدين الحق بسبب ما عرا المسيحية من تحريف، الأمر الذي جعل التمحيص لقيمهم الدينية يتحقق على صعيد الفلسفة، إذ لا ننسى أن أسس فلسفتهم هي في أصلها قراءة للكتاب المقدس، وتثوير له أو تفعيل لقيمه في الاتجاهين السلبي والإيجابي، الأمر الذي أغل لديهم هذا الكم الكبير من الفلسفات المتضاربة، والنابعة جملة –تقريبا – من وفاض الكتاب المؤسطر..

من هنا كان تأخرهم وطيدا يوم كانوا متزمتين ومتشبثين بكتابهم، و لم يتحرروا إلا بعد أن ثاروا عليه، ومارسوا الاجتهادات المؤولة لمسلماته في اتجاهات تعاكس في كثير من الأحيان المرامي الحرفية للكتاب.

في حين ارتبط تقدم المسلمين بارتباطهم الحقيقي بكتابهم، كما أن تأخرهم وانحطاطهم لم يحدث إلا حين تخلوا عن هذا الكتاب المجيد .. من هنا يبدو الفرق واضحا بين المحفزات الروحية والنفسية التي أسندت كل جهة في صنع حضارتها.. الإسلام بالنسبة للمسلمين – لأنه دين الله الحق.. والفلسفة بالنسبة للغرب، لأن الغرب سدد من خلالها روحية كتابه المقدس التي غمرها التحريف والأباطيل حتى حولتها عن صورتها الأصل، الأمر الذي جعل أوروبا تتمرغ طويلا في وحل الانحطاط، حتى تأتّى لها أن تتجاوز معطيات الكتاب المقدس من خلال التوليد العقلي والفكري الذي هيأته الفلسفة كما أسلفنا..

---

٤٧٤ المكتوبات ص.٤١٧.

لقد استبعد النورسي بقاء الخلوص العرقي للجنس التركي، إذ أن هنــاك هجــرات متوالية طرقت المنطقة أو عبرتها – لا سيما بعد أن أضحت تركيا موئلا اسلاميا ومقــرا لخلافة المسلمين – وتركت تلك الهجرا نتائجها على السلالة بفعل الاندماج، الأمر الذي انتفت معه الصراحة الدموية للعرق التركي، وهو ما يدحض دعاوى المنادين بالقومية ..

وفي هذا الصدد يتوجه الداعية بالخطاب إلى هؤلاء الذين يبدون حماســة شــديدة للقومية السلبية بالنصح قائلا :

"إن كنتم حقا تحبون هذه الأمة حبا جادا خالصا، وتشفقون عليهــا، فعلــيكم إن تحملوا في قلوبكم غيرة تسع الإشفاق على غالبية هذه الأمة لا على قلة قليلة منها، إذ أن خدمة هؤلاء خدمة اجتماعية مؤقته، غافلة عن الله – وهم ليســوا بحاجــة إلى الرأفــة والشفقة – وعدم الرأفة بالغالبية العظمى منهم، ليس من الحمية والغيرة في شيء.." [٤٧٥]

ومما لا شك فيه أن ما خشيه النورسي على الملة قد تحقــق في حياتــه، واســتمرت مضاعفاته تتوالد إلى اليوم، وتعفر أنف البلاد التركية في الطين.. لقد تفتت الخلافة بأيدي المستلبين، وبقيت تركيا تتلفت ذات اليمين وذات الشمال كالعجوز العانس التي عاشت وهم الخطبة من عشيق وهمي انتظرته طويلا وناجته في خيالها، وتغزلت بــه في أشــعار يقظتها ومنامها، ولكنه لم يأت، وأدركها العمر وازداد هوسها ويأسها من البشر، فباتت تترامى على الأشباح تحسبها عرسانا..

فالمستقبل التركي الذي ظلت الجهات المخترقة تمسك به، مستقبل مكفهر، والوضع في الولايات الشرقية يحبل بجنين يحمل سكينا وأنيابا كالحراب، والغرب الذي كان يواقع تركيا في الخفاء نبذها على رؤوس الأشهاد وركلها على أعين الملأ، وأما إخوة الملة ممن يجاورونها، فأن الاستيلاب يبني السدود المنيعة بينها وبينهم، وبقي هناك أفق واحد مازال يوهمها بالمساندة والتعضيد، أنهم أعداء الملة ممن لقنوا الزمرة المرتدة في أول عهدها ثقافة العقوق والخسران، هاهم يمضون في تلقين خلفها ذات القيم، فيمــا الجســم فريســة لإنهاكات لا ريب ستتمخض عن واقع شائه لمن اختاروا وتمادوا في الشرود عن حمــى الاسلام..

لقد حارب النورسي ذلك الوجه السلبي من القومية المشؤوم الذي " يتــربى وينمــو بابتلاع الآخرين ويدوم بعداوة من سواه، ويتصرف بحذر، وهذا يولد المخاصمة والنزاع،

---

٤٧٥ المكتوبات ص.٤٢١.

وهو ما يرفضه القرآن العظيم بقوله : (**إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها، وكان الله بكل شيء عليما**). فهذه الآية الكريمة والحديث الشريف يرفضان رفضا قاطعا القومية السلبية وفكر العنصرية، لأن الغيرة الاسلامية الايجابية المقدسة لا تدع حاجة إليها.." [476]

مناهضة الفكر الشعوبي القومي، الشوفيني

وفي مجال السياسة والإيدولوجية، نجد النورسي لا يترك سانحة تَعْرِضُ له، أو يهيئها بنفسه، للتحذير من مغبة الوقوع في وحل الشعوبية أو القومية بمعناها الشوفيني، إلا راح يستغلها في ابراز أعراض التعصب العرقي الأعمى والتحذير من مخاطره، والكشف عن الأبعاد السلبية التي ينطوي عليها ذلك الفكر الشوفيني ذو المرامي الهدمية التفكيكية..

ولقد كان النورسي ينطلق في طرح رؤيته الى القومية من فضح الشعارات الانعزالية التي كان يرفعها الشعوبيون من ساسة بلاده في تلك المرحة، ويزينون بها للشعب نوعا من الكبرياء والإعتداد التعصبي القائم على إحياء النعرة القديمة وإظهار امتيازات عرقية وثقافية متوهمة، وكل ذلك كان يتم في إطار مناهضة المد الإسلامي الذي كان مرشحا في مطلع هذا القرن للإنبعاث..

لقد كانت الجهات الحاقدة من صهاينة واستعماريين يتحسسون بوادرَ قابليةَ يقظة مكينة وتماثُلاً للحياة والحركة يسريان في روح الأمة الإسلامية، بعد كل ما ران عليها من سباتٍ طيلة ليل الانحطاط، فأوعزت تلك الجهات المتربصة لأذيالها وصنائعها ودعاتها وأجهزتها أن تمجد الإيديولوجية القومية، وأن تلقن شعاراتها للشعوب، لا سيما تلك التي كانت مرشحعة لأن تلعب دور القاطرة الجرار في قيادة أمتها نحو الانبعاث..

وقد كانت الظروف المرحلية للعالم – يومذاك – تسوغ ترويج تلك الشعارات، ذلك لأن الواقع التاريخي للبلاد الغربية لم يكن مهيأ يومئذ للإئتلاف والوحدة بين شعوبها، بسبب ما يقوم بينها من فوارق العرق واللغة والعقيدة وغيرها، الأمر الذي جعل شعوب الغرب تشق طريقها بمأساوية اتسمت بتواصل الحروب في ما بينها، لكنها – مع ذلك – استطاعت أن تتحول بعداء بعضها بعض إلى قارات العالم، وأن تستغرقها لهفة ابتزاز وابتلاع خيرات الأمم واستغلال الشعوب، وأن يشغلها ذلك كثيرا أو قليلا عن

---

476 المكتوبات ص ٤١٤.

أن تتطاحن، وكان من نتيجة ذلك أن حصلت على تطور مدني وعسكري وصـــناعي نوعي مكين، جعلها تستطيب طعم العزة والنخوة القوميتين، وتتخذ منهما منطلقـــات ثقافية وعقدية تتمسك بها..

الغرب يعمل على تأجيج عاطفة القومية في اتجاه مغرض، هدام

على أن الغرب سلك إزاء الشعوب المستضعفة سياسة مزدوجة، فهو من جهة كـــان يعمل على وأد روح ومشاعر الوجود القومي واستئصالها من فكر ووجدان الشعوب التي كانت في قبضته، وهو من جهة أخرى أضحى يزين لتلك الأمم أن تعتنق النزعة القومية، وخاصة الأمم التي كان يدرك أن لها من الإشعاع والوجاهة ما يتجاوز بتـــأثيره نطـــاق جغرافيتها وموطنها، مثل الأمة التركية..

فقد كان يعرف أن أي انبعاث يحصل لهذه الأمة من شأنه أن يستدعي عودة الحيـــاة إلى كامل الكيان الاسلامي، اعتبارا للرابطة الروحية التي توطدت بين الأتراك والشعوب العربية والاسلامية في ظل الخلافة التي كان مقرها تركيا ..

لذا استمات الغرب وأدواته في بعث النزعة الشعوبية وتكريســـها بـــين الأوســـاط العثمانية، وقد أخذ ذلك المخطط صورا مختلفة، إذ أن الدوائر الاستعمارية قد أججـــت المنازع الشعوبية وأضرمت نيرانها على مستوى القوميات التي كانت تجمعهـــا رابطـــة الخلافة، وهكذا انخرطت تلك القوميات في تنفيذ المشروع التفكيكـــي الاســـتعماري، وكانت تتلقن من الغرب ما يسوغ عملها و(نضالها)، فكان – من ثمـــة – في التـــذرع بواقع التخلف الذي كانت عليه المجتمعات الاسلامية يومئذ ما يسر على دعاة القوميـــة أن يستقطبوا شعوبهم إلى أفكارهم الانعزالية ..

وهكذا انطلت المناورة الخطيرة على الأمة المسلمة، وكان للنخـــب المســـتغربة دور أساسي في المضي بالمشروع القومي إلى مداه.. وغدا من دأب الغرب أن يعمـــل علـــى استبقاء المسلمين في انحطاطهم ومواتهم، لا يأتي بعمل إلا وكان من مقاصـــده الحيلولـــة دون يقظتهم، والسعي إلى تفكيكهم، وتشتيت قواهم، والاعتـــراض علـــى أي أمـــل يستَـــحِـــثُّ عوامل وحدتهم أو يستثير همَّة التقارب بينهم ..

من هنا كان تركيز المستعمرين على تحطيم وإماتة مقومات التجمع والتوحيد الـــتي كانت تتوفر للأمة، لاسيما الحيز الجغرافي المتماسك والعقيدة واللغة والحضارة المشتركة .. ومن هنا أيضا كان جهاد النورسي الرائع والذي لا شائبة فيه، إذ ظلـــت القوميـــة

بالمنظور التغربي تمثل عنده الانتحار الأخرق الذي تقدم عليه أية أمة فقدت منطق التمييز وتقدير المخاطر ..

لقد ظل النورسي متشبثا بمبدأ الأمة الواحدة، المعتصمة بحمَى دينها الاسلامي، المتواشجة في ما بينها بوشائج الأخوة المحمدية.. يهتف بذلك المبدإ في الآفاق، ويدعو له، ويلهج به، ويلقنه، ويصاول من أجله .. كل ذلك ضمن عزة يستمدها من إيمان عميق بأن الغد للإسلام، وبهمة شماء ترى في كثافة التعداد السكاني الاسلامي احتياطا لا يقهر، وبيقين راسخ يُسَلِّمُ أن الأمة محفوظة ما وحدتها القبلة وما استمسكت بكتاب ربها الأبر..

النورسي إذ ينافح عن الوحدة، فإنه يختار المكاسب الشمولية الدائمة على الجزاءات الظرفية

وعلى الرغم مما هيأته له ظروف وطنه وشعبه من امكانات التنفذ والتَّزَعُّمِ لو أنه لوح مجرد التلويح بشعار القومية، لاسيما أثناء تلك المناسبة العارمة التي فتحت له فيها ثورة الديار الشرقية التركية ذراعيها، حين فَجَّرَ رجالُها حركة تمرد ضد النظام الطوراني اللاديني، لوجد نفسه في مقدمة الرعيل الانعزالي يبسط سيادة قد لا تدوم أمدا، على قطاع أرضي وفوق رعية مقتطعة من كيانها الأرحب، فهي أشبه بغصن قُصَّ من جذعه، لا يلبث أن يذبل ويجف..

لكن النورسي الذي ظل يعتد بقوة المسلمين القائمة على كمهم التعدادي، تلك الكثرة التي طفق يستعرضها ويدير الحديث من حولها كلما ابتأس من واقع الزراية الذي كانت عليه الأمة، أو كلما شدته آمال الانعتاق واستعرت في صدره لواعج التوق والحنين إلى الغد المشرق الذي لم يكن يشك في أنه سيكون من نصيب المسلمين ..

هنالك كان يجد في التعداد الكلي للمسلمين بارقة أمل وعزاء تلهمه السكينة وحسن الظن بالخالق وبالأمة التي اختارها الله وعاء لدينه، ومحاورا فذا بحجته ولسانه، باقي العالمين...

لقد كان النورسي ينحاز للكل، ويشيح في نفور من التبعض، والتشتت، والتفرق..فاعتزازه بالكمية كان إعلانا عن انتماء، وليس تباهيا ساذجا بالاحجام ..

من هنا كان اختياره استراتيجيا ن و لم يكن قط مغرضا أو محركا بالحسابات التافهة..

لم يخطر قط للنورسي أن الخلافة الاسلامية ستسقط

بل لقد دلت كتاباته أنه لم يكن قط يتوقع أن يقدم المسلمون على فك عرى الوحدة وتجاوز مبدأ الخلافة التي كانت تجمعهم .. لقد كان في تصوره أن الإقدام على تلك الخطوة لا يعني إلا الفناء المؤكد، غير أن ظروف المرحلة قد عجلت بإحداث ما لم يكن متوقعا، إذ حلت الخلافة على يد المتغربين، وشاهد النورسي كيف كان الطورانيون يتدرجون في تنفيذ مخطط تغريبي، وكيف كانوا يمكنون لسياستهم الخيانية أن تسدد ضاري الضربات للدين والملة .. وكيف أنهم توصلوا إلى تحقيق ذلك من خلال رفع شعار القومية.. فتيقن أن ما ظل يخشاه ويتوقعه من شرور تجرها سياسة القوميين المتغربين، قد تحقق وأضحى واقعا فادحا لا مراء فيه..

وكان على النورسي أن يتصدى لذلك الواقع، وكان له في الاستشفاء بالبلسم القرآني وبنصوص الحديث الشريف، خير ما يتذرع به لقول ما كان عليه أن يقوله وسط ذلك المآل المدمر الرهيب..

وهكذا رأيناه يقف عند العديد من الآيات والآثار الشريفة، يستنطقها، ويكشف من خلالها عن قيمة الوحدة والاختلاف التي هيأها الله للبشر حين جعلهم شعوبا وأمما، وما أناطه إياهم بذلك الاختلاف من أدوار ووظائف يتكاملون بها بينهم، مع ما يستتبع ذلك التكامل من مكاسب ومنافع تتبادلها الشعوب فيما بينها، وما كفل لهم بواسطة لحمة العقيدة من أسباب الوحدة والتآخي التي لا تُرَدُّ..

لقد مضى النورسي يتتبع النصوص الشرعية، معالجا إشكال القومية، متصديا بذلك الوجه الفكري، للانحراف الخطير الذي سجلته السياسة الانعزالية، وباشرت به تحقيق مشروعها القومي، التمزيقي..

لقد وقف عند قوله تعالى :

(**وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**).الحجرات.١٣

فوجدناه قد قرأه على النحو التالي :

أي: لتعارفوا، فتعاونوا، فتحابوا، لا لتناكروا، فتعاندوا، فتتعادوا.

ورأيناه يستطرد في التعقيب على هذه الآية، مبرزا جوانب الإيجاب والسلب في نزعة الشعور القومي كما تتجسد في عواطف الأفراد وسلوكهم، وشأن الأفراد في ذلك – كما يقول – شأن الشعوب :

"إذكل إنسان في المجتمع له روابط متسلسلة ووظائف مترابطة، فلو اختلطت هذه الروابط والوظائف و لم تُعَيَّن وتُحدَّدْ، لما كان هناك تعاون ولا تعارف. فنمو الشعور القومي في الشخص إما أن يكون إيجابيا أو سلبيا . فالإيجابي ينتعش بنمو الشفقة على بني الجنس التي تدفع إلى التعاون والتعارف، أما السلبي فهو الذي ينشأ من الحرص على العرق والجنس الذي يسبب التناكر والتعاند . والإسلام يرفض هذا الأخير". [٤٧٧]

ومن الواضح أن اختيار النورسي لهذه الآية، ومثيلاتها، إنما كان نشاطا نزاليا يواجه به المساعي التدميرية التي كانت تصور للأمة التركية قيم القومية بصورة خادعة ومغرية، إيقاعا لها في الشرك..

لقد كانت رؤية النورسي للقومية تنبع من فهمه الذي تمَّثلَ به معنى الآية السابقة.. لقد راح يدين الدعوة الشعوبية، ويوجه سهام الطعن لها باسم الاسلام..

* * *

٤٧٧ صيقل الإسلام ص ٣٣٥.

***

فهرس

الفصل الثالث

مسألة الزمن

تحسس لمفهوم السيرورة كما تمثلها النورسي

الفصل الرابع

الفصل الخامس

التصوف في فكر النورسي ١٣٦

الفصل السادس

تفسير القرآن للنورسي إطلالة على كتاب "إشارات الإعجاز" ١٦٠

الفصل السابع

المرأة.. على طريق الخير والشر٣٣٨

الفصل العاشر
المدنيــة ٣٤٦

الفصل الحادي عشر

القوميـــة٣٥٦

